جامعة الدول العربية
معهد الدراسات العربية العالية

الاتجاه القومي
في الشعر المعاصر

رسالة ترصد الاتجاه القومي وروافده في الشعر
بين الحربين العالميتين في مصر والعراق والشام والمهجر
قدمها لنيل درجة الماجستير في الآداب

عمر دقاق

القاهرة
١٩٦٠

مخطط البحث

المقدمة

الشعر من أعرق الموضوعات اتصالا بوجدان الأمة التي تبدعه ، ومن ألصق الأمور بملامح شخصيتها ومنازعها في حياتها .

ومنذ القدم امتاز العرب من سائر الأمم بشغف بالأدب لا حد له حتى كانت معجزة الاسلام فيهم أدبية . فقد خالط الشعر حياتهم وكان دور الشاعر فيها بالاجمال كبيرا وطليعيا . وقد روى عن الرسول أنه قال " لاتدع العرب الشعر حتى تدع الابل الحنين " وبحق ما قاله ابن خلدون من أن " الشعر ديوان العرب " .

لقد عاش العرب على أدبهم القديم أثناء عصور الظلام فكان خير زاد لهم في محنتهم ، وأثمن ذخر قومي لهم صان كيانهم وعصمهم من اليأس .

ثم ورث المحدثون عن أجدادهم شغفهم بالشعر وجنوحهم لأن يجعلوا منه عامل خير ورسالة تحرر في مجتمعهم الناهض . ولم يعد مفهوم الشعر لديهم في هذا العصر نزوعا الى تجميل الأسلوب والتأنق في التعبير والعناية بضروب البديع ، بل غدا ملاءمة بين الجمال الفني الخالد الذي لا يختلف جوهره بين الشعر القديم والحديث وبين ذوق العصر النابع من واقع حياة الأمة وتفكيرها ومزاجها .

وتعد الفترة التي عاشها العالم جميعه والعالم العربي بوجه خاص بين الحربين العالميتين من أحفل الحقب وأثقلها بالأحداث . ففي خلالها انهارت نظم ودالت دول وقامت انتفاضات ونشبت ثورات .

وكان اثر ذلك كبيرا في المجتمع العربي اهتزت له اعماقه اهتزازا سياسيا واجتماعيا وثقافيا كبيرا .

ولم يعد المجتمع الحديث بجيله الثائر يرضى للشعر أن يكون كالآنية المرصعة تسر الناظرين برونقها وتثير اعجابهم بحسن صنعها .

فالعربي اليوم بما اتسم به ذوقه وتفكيره من معالم الاصالة والوعي يطمح الى أن يجد فى الأدب صدى وجدانه وحياته وواقعه ويأمل أن يقع فى الفن على ما يغذى روحه ويتجاوب مع أفكاره ومنازعه ومع آلامه وآماله باعتباره انسانا قبل كل شئ ومواطنا ينتسب الى شعب هو منه كالخلية من الجسم • كما لم يعد بوسع الأدب العربي أن يستمر فى عزلته المديدة عن المجتمع وما يضطرب فيه دون أن يساير الحياة وأن يؤثر فيها ويتأثر بها •

ومن هنا كان الاتجاه القومي فى شعرنا العربي المعاصر غرضا أساسيا استأثر باهتمام الشعراء خلافا لما هو عليه الشعر فى العالم الغربي الذى لا يكاد يصدر عن هذا الاتجاه الا نادرا لأنه لم يشعر بوجود مثل هذه المعضلات الوطنية والقومية فى بلاده كما لم يبتل بالاستعمار ، ولذلك كانت أمام شعرائه ميادين أخرى يقتحمونها وينطلقون فى أجوائها ••

وهكذا استجاب الأدب العربي المعاصر على اختلاف فنونه لهذا التطور الخلاق فى النفس العربية النزاعة الى الواقع • فكان شعر اجتماعي وقومي يشكل أبرز ظاهرة فنية فى نتاجنا الأدبي الحديث •

وبذلك غدا لزاما على كل من يؤرخ الحقبة الحديثة من تاريخ العرب الحافل ويتصدى لرصد وجدانهم الجماعي أن يلجأ الى الأدب • فالفنون ، والشعر بوجه خاص ، مرآة صافية تنعكس على وجهها الصقيل صور نابضة من حياة الأمة وكفاحها وآلامها وآمالها • وان ما فاضت به قرائح الشعراء وما دبجته أقلام الكتاب ليس فى جوهره الا روح الأمة وسفر نضالها •

وبوحي من ذلك كله نشطت البحوث والدراسات الحديثة تولى المنازع الأدبية والفكرية والاجتماعية فى حياة العرب اهتمامها • وكان معهد الدراسات العربية العالية فى طليعة المؤسسات الثقافية التى نذرت نفسها لهذه الغاية ، وبعد انشاؤه من أجل ما قامت به جامعة الدول العربية •

وما فكرة هذه الرسالة فى الأصل الا من وحى رسالة هذا المعهد المتميز الذى يستمد نسغ الحياة من المنازع الحية المتطورة فى المجتمع العربى المعاصر ويشق طريقه قدما فى ارساء دعائم الدراسات القومية الحديثة على أساس من التجرد العلمى والبحث المنزه بعد أن خالطتها العاطفة وأفسدها الهوى . ونحن أحوج ما نكون فى دراساتنا القومية والفنية الى نور العقل نكشف به عن الحقيقة لنجعل من ذلك منطلقا ركينا لحياتنا الفكرية والاجتماعية .

وهذا بحث عرضت فيه لمعالجة غرض بارز من أغراض شعرنا الحديث وهو الشعر القومى . وقد حرصت خلاله على تتبع مضمون هذا اللون من الشعر ورصد اتجاهه وما علق به من أفكار وما اختلط به من مفاهيم وما رفده من روافد .

وقد رأيت أن يشمل بحثى هذا ظاهرة الاتجاه القومى فى الشعر الذى صدر عن شعراء الشرق العربى وبخاصة فى مصر والشام والعراق . فقد رأيت أن هذه الاقطار أرض النضال ومبعث الحركة الفكرية والأدبية وموئل الشعر القومى . ولم أشأ أن يمتد بحثى الى أنحاء الشرق العربى كالسودان وربوع الجزيرة العربية لأن مادة المصادر ما تزال غير متوافرة ، عدا أن النتاج الأدبى فى هذه البلاد لا يكاد يختلف فى جملته عما ذكرنا من أدب الأقطار الأخرى . كما أننى رأيت أن الشطر الآخر من العالم العربى المعروف بالشمال الافريقى أو المغرب العربى يحتاج الى دراسات جديدة كاملة تكشف عما كان لظروفه القاسية ومعضلاته من أثر فى منازعه الفكرية والأدبية التى بقيت أمدا طويلا معزولة عن سائر العالم العربى .

ولم أجد بدا من جهة أخرى من ربط ما قاله الشعراء العرب فى مهجرهم بما صدر عن اخوانهم فى الوطن بعد أن تبين لى أن شعرهم فى هذا المجال كان امتدادا لشعر المشارقة يعالج قضاياهم ويتحسس بمشاعرهم ويتجاوب مع آلامهم وآمالهم ، ويؤلف معهم وحدة ثقافية وفكرية .

وقد بدا لى أول الأمر أن الرقعة المكانية التى آثرتها بالدراسة واسعة

وأنه من الخير أن اقتصر على دراسة الشعر القومي في سورية أو مصر أو الشام لأكون أقدر على تعمق البحث ورصد دقائق الاتجاهات والمنازع الا أن الاستاذ الكبير ساطع الحصري أشار على بحصر بأن هذا الاجتزاء ليس محمودا في الدراسات القومية التي تعد الوحدة الثقافية والفكرية والاجتماعية من مقوماتها ٠

أما حدود الفترة الزمانية التي رأيت أن يبقى بحثي ضمنهـا فهي بين الحربين العالميتين ٠ ولم أجد من المعالم والأحداث ما يضارع هذين الحدثين أهمية وشمولا عدا عن أن الفترة بينهما تعد مرحلة متميزة من المراحل الحاسمة في حياة العرب اتفقت في ابتدائها وانتهائها بحدثين قوميين شاملين هما قيام الثورة العربية الكبرى ابان الحرب الأولى وانبثاق جامعة الدول العربية في أواخر الحرب الثانية ٠

ومن جهة أخرى رأيت أن أقف في بحثي عند هذا الحد من الزمن دون أن أعدوه الى فترة ما بعد الحرب الثانية التي نعيشها اليوم٠ فقد تبين لي أن هذه مرحلة جديدة اتسمت فيها الحياة الأدبية والسياسية بطابع انقلابي ثائر وهي جديرة بأن تفرد ببحث مستقل ٠ بالاضافة الى ما بدا لي من أن دراسة هذه الفترة ستكون ناقصة من وجوه كثيرة ما دام لهيب النضال مستعرا وغبار الجهاد ثائرا ولابد قبل كل شيء من أن تهدأ الخواطر وتتضح الملامح وتقر المنازع٠

ولما كان من العسير حصر الاتجاهات الفكرية والتيارات الأدبية حصرا تاما في حدود زمانية معينة لما لها من جذور سابقة وذيول لاحقة رأيتني في بعض الأحيان مضطرا الى تخطي هذا الحد كأن أعود الى مالا بد من التمهيد به في سبيل رصد الاتجاه وتتبع تطوره ٠

وليس بخاف ما يتعرض له كل من يتصدى للدراسات المعاصرة من صعاب ومزالق نظرا لعدم استقرار الرأى حولها ، ولاتصال الدراسة ببعض الأحياء من الشعراء والحكام مما قد يؤخذ مأخذ المحاباة أو التحامل أو التجاهل ٠ الا أن رائدي كان في ذلك الحق والتجرد ٠ وقد حرصت على أن أكون خلال بحثي موضوعيا بعيدا عن الهوى والعاطفة والتعصب

ولو كان ذلك في المجال القومي . وما جدوى ايمان اعمى، كايمان العاجز قد ينطوي على مفسدة للبحث وتجن على الحقيقة .

أما المنهج الذي آثرته في هذه الدراسة فهو أنني عددت تيار القومية العربية أصلا فجعلته في باب ، كما وجدت له من الروافد والنوازع الهامة التي صحبته وأثرت في سيره وتكوينه ما يستقل بباب آخر ، وكان الباب الثالث ينطوي على الموضوعات البارزة التي كانت محور المضمون القومي في الشعر الحديث . أما الباب الرابع فكان نقدا وتقويما للشعر القومي من حيث شكله ومضمونه . وقد نوه الاستاذ المشرف عن أهميته وضرورة وجوده متمما للفصول الاخرى وبخاصة لانه ما من أحد من الباحثين في مثل هذه الموضوعات قام بهذا الصنيع . وكان هذا حقا على البحث .

وكان طبيعيا أن اتخذ من الطريقة التاريخية منهجا في الابواب الثلاثة الأولى وان أجمل من الأحداث التي أنطقت الشعراء وأثرت في الأدب أو تأثرت به اطارا لمراحل دراستي . اذ لا سبيل الى رصد الاتجاه القومي وتفهم تطوره خلال سيره مواكبا التيارات الاجتماعية والسياسية والنفسية بدون الاهتداء بمعالم التاريخ واحداثه . والشعر القومي وثيق الصلة بالمجتمع بل مظهر رفيع من مظاهر نشاطه الحيوي . والأمر كما يراه " لسنج " في أن للمصور لمحة في المكان وللشاعر لمحات تتوالى في الزمان . أي أن الشاعر يصور الحركة والحدث في الكون والحياة وفي الطبيعة والمجتمع . ودراسة التطور أي رصد انتقال الافكار والتيارات والاتجاهات من طور الى طور انما يعني تتبعها عبر الزمان وهذا هو مجال التأريخ الأدبي .

وقد انهمكت أول الأمر شهورا مديدة بجمع النصوص واستقصائها ثم تنسيقها وترتيب الاشباه والنظائر منها واستقراء محتواها وملاحظة أثر البيئة والأحداث فيها ثم الموازنة بينها وأخيرا الانتهاء الى استجلاء التيار الغالب والاتجاه السائد من خلالها .

ولم أغفل في الوقت نفسه الكشف عن النواحي الفنية الوثيقة الصلة

بالموضوع ، اذ لم يغب عن خاطري لحظة أن ما كنت بصدد دراسته شعر قبل كل شيء .

وبوحي من هذه الطريقة أوليت اهتمامي التيار الشامل قبل الشاعر والنزعة السائدة قبل الحادث العارض . ولم أعرض لشعر أو شاعر الا من حيث افصاحه عن اتجاه أو ابانته عن منزع ، وحرصت على وضع كل شاعر في الاطار الذي عاش فيه ولم انظر الى ما يصدر عنه من شعر منبتا عما حوله من الظروف والملابسات . ولهذا جعلت رائدي في الحكم له أو عليه ملاحظة ما كان فيه هو ومجتمعه لا ما نحن فيه اليوم .

كذلك لم انصب من نفسي ترجمانا لحياة الشعراء وانما كانت غايتي متابعة التطور القومي في الشعر الحديث بوصفه اداة معبرة عن حياة أمة ، وتتبع اتجاهه وهو يسير وئيدا ومتعثرا وغامضا ، أو يهب جليا ناشطا وثائرا جارفا كالاعصار .

أما الشعر السياسي المحض الذي يدور في فلك الحياة اليومية العابرة والمجالات المحدودة الضيقة فقد استبعدته من دائرة اهتمامي لأن رائحة النضال لا تعبق منه ، الا ما بدا لي ضروريا في مقارنته بالشعر القومي وايضاحه حقيقة النوازع الفكرية والفنية .

وقد يبدو غريبا أن يصلح الأدب مادة أساسية يوثق بها ويعتمد عليها في تأريخ الاتجاه القومي لدى جيل من الأجيال في حين يملك التاريخ من الوثائق والمستندات مالايملكه الشعر الذي يقيم للعاطفة الشخصية والمشاعر الذاتية شأنا كبيرا .

والواقع أنه علينا أن ندرك قبل كل شيء أن الفن ليس انفعالا جارفا لا علاقة للارادة فيه ولكنه انفعال منظم يتم وفقا لارادة صاحبه ويأتلف مع تفكيره . والقصيد الفني خلق جديد يبدعه الشاعر نتيجة عملية شعورية يشارك العقل في اخراجها الى النور . والفكر رِدف للفن يغذيه ويلونه ويوسع أمامه الآفاق ، وان بين جنبي كل شاعر كبير عقلا كبيرا يحمل موهبته وعبقريته .

فالشعب جزء من الأمة وفى أساس البلاغة " الصرب شعوب " كأن تقول شعب العراق وشعب فلسطين أو شعب بيروت وشعب القاهرة وهذا ما يقابل كلمة People " فالأمة العربية جماع الشعوب العربية[1] وقد تستعمل لفظة الشعب بمعنى الامة كأن تقول : الشعب العربى أو الشعب الفرنسى . "

" والأمة وتقابل كلمة Nation : جماعة من الناس يقطنون بقعة من الأرض معلومة ، ولهم لغة واحدة فى الاغم واخلاق متشابهة وماض مشترك فى الأمجاد والالام وحاضر مشترك فى التفكير والمصالح ".

والوطن Patrie فى الاصطلاح الحديث ، " البلد أو القطر الذى ينسب اليه المرء من حيث جنسيته أو تابعيته/خلافا لما جاء فى المعجمات " " و الوطنية حب الوطن والعمل فى خيره وهى لغويا مصدر صناعى مشتق حديثا بزيادة ياء النسب والتاء على كلمة الوطن مثل قول القدماء عروبية وجاهلية وكيفية وكمية . ومن قرارات مجمع اللغة العربية اعتبار هذا الاشتقاق قياسيا " وكلمة الوطن تعنى القطر الذى ينتسب المرء اليه ويقطنه شعب من الشعوب . وقد يستعمل بمدلول أوسع فيراد به الوطن الكبير الذى تعيش الأمة فوق ربوعه .

" والقوم فى اللغة الجماعة من الرجال والنساء جميعا . ويذكر ويؤنث مثل رهط ونفر وكل ما كان للآدميين من أسماء الجموع التى لا واحد لها " ونحن فى الاصطلاح الحديث نستعمل لفظة القوم بمعنى الأمة

---

(١) استعمال الأمم العربية بدلا من الأمة العربية أو الشعوب العربية خاطئ وقد ورد فى عدد المقتطف يناير ٩٣٩ وفى كتب أخرى . وفى كتاب أنيس المقدسى (١ : ١١) " ظلت تركيا الى عهد قريب سيدة الأمم العربية من الناحية السياسية " وورد لفظ الأمم العربية فى النص الرسمى لخطاب رئيس وفد مصر فى حفلة افتتاح اللجنة التحضيرية لبروتوكول الاسكندرية الذى مهد لقيام جامعة الدول العربية ، اذ قال " يطيب لى أن اشيد بما يربط بين الأمم العربية فى مختلف البقاع من صلات أخوية ... "

وقد اشتققنا من القوم مصدرا صناعيا هو القومية Nationalite وكان من الواجب أن نشتق من الأمة مصدرا كهذا المصدر وهو (الأممية) ولكن لهذه الكلمة في اللغة معنى آخر مشهورا فخوف الالتباس حملنا على العدول عنه ".

فالشعر الوطني ما تعلق بقضية الوطن أو الشعب الذي يقطن قطرا معينا وهو أضيق من مدلول الشعر القومي الذي يتسع ليشمل الأمة أي مجموعة الشعوب الشقيقة .

واذا كان الوطن في معجماتنا المنزل الذي يقيم فيه المرء فان الوطنية تبدأ بحب المنزل ومسقط الرأس وان كان القوم هم الأسرة والاقارب فان القومية تبدأ بحب الأهل .

ويجدر بي القول الآن انني في سبيل استكمال عناصر هذه الرسالة كان لابد لي من أن أقف على عدد كبير من الدواوين والمجموعات الشعرية وقدر محدود من الصحف والمجلات . استمد منها النصوص الملائمة للموضوع وكان جل اعتمادي على المطبوع من هذه النصوص الا فيما ندر. وقد وجدت ضالتي في مكتبات حلب ودمشق وبيروت والقاهرة وبخاصة ما كانت تحتوي عليه مكتبة معهد الدراسات العربية العالية من مصادر شعر الأقطار العربية ولولاها لما جاء البحث على هذا الشكل من الاحاطة والشمول .

كما أنني وقفت على عدد من الدراسات القيمة التي كان لها فضل السبق وشق الطريق في مقدمتها كتاب الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر للدكتور م محمد حسين ، والاتجاهات الأدبية الحديثة للاستاذ انيس المقدسي وكلاهما اتخذ من الشعر والنثر مادة له . ثم كتاب شعر الحماسة والعروبة للدكتور أمجد الطرابلسي وقد اقتصر على بحث هذا الموضوع في بلاد الشام. ولقد أفدت من جهود هؤلاء الأجلاء . كما أفدت من جهود الكثيرين سواهم فيما دبجته اقلامهم من بحوث وما ألفوه من كتب . وكان لي الى جانب ذلك جهدي واجتهادي .

وانني أرجو أن يكون في رسالتي هذه وما لقيت في اعدادها على هذا

الشكل من عنا، مرضاة للحقيقة ولضميري وأمتي . وأنا أول من يعترف بما قد يكون فيها من نقائص وعيوب . كما أقر مع العماد الأصفهاني رحمه الله بأنه " لا يكتب انسان كتابا في يومه الا قال في غده لو غير هذا لكان أحسن ، ولو زيد كذا لكان يستحسن ، ولو قدم هذا لكان أفضل ، ولو ترك هذا لكان أجمل . وهذا من "أعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقص على البشر "

×× ×× ××

وبعد فانني أبادر الى الاشادة بفضل استاذي الجليل الدكتور اسحق موسى الحسيني الذي أشرف علي في مراحل اعداد هذه الرسالة ونهلت طوال ثلاث سنوات من غزير علمه في هذا المعهد . وقد أمدني من مكتبته الخاصة بكل ما رأى فيه الخير لبحثي ، وسدد خطاي بسديد رأيه ، ومحضني الارشاد والتوجيه . كما كان لي في خلقه وأناته خير حافز على المضي في البحث قدما . فله مني اسمى التقدير وأجزل الشكر وأطيب التحية .

عمر دقاق

المدخل

بواكير الشعر القومي

كان القرن الثامن عشر آخر حلقة في سلسلة عصور الركود والجهل والفساد في الشرق العربي ، فقد كانت هذه البلاد في حوزة الدولة العثمانية ، وطال أمد خضوعها لاستبداد المماليك والترك .

ومع هذا التأخر الذي ساد أقطار العرب خلال تلك العهود فإن بصيصا من نور أخذ يلوح ضئيلا في بعض مدن الشام في القرن السابع عشر (١) . ففي حلب ترجم الانجيل عن السريانية ، وعرفت أول مطبعة في الشرق وتأسس أول مجمع علمي ، كما ظهر في بلاد أخرى وبخاصة في لبنان بعض رجال الأدب والعلم وأكثرهم من الاكليروس حيث أخذت تنشأ المدارس الدينية والمؤسسات الثقافية بتأثير البعثات التبشيرية التي كانت تفد الى البلاد .

وكان كل ذلك من بوادر اليقظة المرتقبة وايذانا بانبثاق عهد جديد . وما ان أهل القرن التاسع عشر ، واشتد الاحتكاك بالغرب وتنبه النيام على أصوات مدافع نابليون تقرع اذن ابي الهول حتى أخذ شعاع النهضة يبدد سريعا ظلمات العهود السابقة بفضل تلك الشعلة المباركة التي طلعت من الشام ومصر ، وامتدت منهما الى سائر أطراف العالم العربي .

لقد كانت التركة فادحة صنعتها عهود مديدة من الذل والانحطاط والجهل والتأخر ، خرج منها العرب كمن يتخلص من كابوس وينفض عنه غبار السنين .. ولولا أصالة جعلها الله في نفوس العرب ، مكنتهم من الاحتفاظ بمقوماتهم في لغتهم وقوميتهم وعقيدتهم التي صانها رجال الأزهر والزيتونة والنجف وسواهم في القرون الماضية المظلمة لما قيض لهذه الأمة أن تقف على قدميها من جديد .

---

(١) انظر جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ٤ : ٧

ان الفقر والجهل والمرض التي نابت الشعب لم تبق في مصر حتى فجر النهضة سوى ثلاثة ملايين من الناس(١) . وقد قدم الانراك أرض الكنانة المنكوبة هدية باردة لطامع نابليون الذى لا يجد ... بينما تمكنوا الى حين من الاحتفاظ بسائر الشرق العربي بسبب من ضعفه لا من قوتهم .

وتغيرت حال مصر منذ ذلك الحين ، بعد أن تسلم محمد علي زمام الأمور وأخذ يمد يده الى اوربا يروم الاستفادة من خبرتها وتقدمها .

على أن الحركة الأدبية لم تنشط في بادئ الأمر نظرا لأن اهتمام محمد علي اقتصر على تشجيع العلوم وتقوية الجيش ، ولم تكن المطابع قد قذفت بعد بالكتب .

أما السنوات الثلاث التي قضاها جيش نابليون في مصر فقد " كانت جميعها جهادا عنيفا وصراعا مريرا قاسيا بين الشعب المصري والمعتدين ... وكان لهذه المقاومة الباسلة وهذا الكفاح المرير أثرهما في نشأة الشعور القومي عند المصريين ، واحساسهم المميز بحقوقهم المشروعة في حكم بلادهم " (٢)

ولعل من أقدم مظاهر هذا الشعور مابدا " من سياسة ابراهيم باشا التي كانت ترمي الى فصل بعض الأقطار العربية عن جسم السلطنة العثمانية وتأسيس مملكة عربية كبيرة "(٣) ، وماتفوه به في قولته المشهورة : " ما أنا بتركي ، بل أنا ابن مصر ، ان شمسها قد غيرت دمي فجعلتني عربيا قحا " . ومع اقرارنا باحتمال وجود دوافع توسعية في نفس ابراهيم باشا كانت تشوب نزعته العربية ، فأننا نجد في عبارته تلك مايؤكد عروبة مصر وأبنائها ، ويشير الى عزم ذلك القائد على اقامة دولة حديثة على أسس جديدة

---

(١) المصدر السابق ٤ : ٧

(٢) شوقي ضيف : الأدب العربي المعاصر ٢

(٣) انيس المقدسي : الاتجاهات الأدبية ١ : ١١

قومية ، وليست دينية . ويمكن ان نعتبر التفاف الشاميين وبخاصة النصارى حول ابراهيم باشا حين فتح سوريا ، تأكيدا لهذه الروح القومية الجديدة التي أخذت تظهر في الشرق العربي منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر .

ولاريب ان تراجع الجيش المصرى بعد ذلك الى ماوراء حدوده قد جمد الفكرة القومية في النفوس وعاق انطلاقها الى حين ، وهي بعد وليدة لاتعدو أن تكون مفهوما غامضا عن العروبة في أذهان الناس . ومنذ ذلك الوقت باعدت الظروف بين مصر وبين أقطار الشرق العربي وبخاصة في اعقاب ثورة عرابي والاحتلال الانجليزى .

وهذا الشعور القومي المبكر الذى ظهرت بوادره في مصر قبل ان تظهر في سائر الشرق العربي أخذ يجد صداه في الأدب ويثير النزعة الوطنية في نفوس الشعراء والخطباء والكتاب . ويقرن عبدالرحمن الرافعي ظهور الروح الوطنية في الشعر المصرى بظهور الحركة الوطنية نفسها في أوائل القرن التاسع عشر ، ويرى أن أول رائد لهذه النهضة هو رفاعة رافع الطهطاوى (١) أما عباس محمود العقاد فيرى ان طلائع النهضة الشعرية أخذت تظهر في مصر بظهور طلائع الثورة التي عرفت بعد باسم الثورة العرابية اذ " دبت في نفوس المصريين اريحية الشعور الوطني ، وثقة العارف بحقه المنكر لما هو فيه من بخس واهمال " (٢) .

كما أخذت طلائع اليقظة القومية بالظهور في الشام خلال هذه الفترة نفسها أو بعدها بسنوات وبخاصة في أثناء حكم الوالي مدحت باشا في ولاية الشام عام ١٨٧٧ .

أما في العراق فكانت النهضة الأدبية تسير ببطء الى الأمام لأن احتكاك هذا القطر بالغرب كاد يكون منعدما نظرا لوضعه الجغرافي الداخلي ، ولندرة المطابع وضآلة المدارس ، ومع ذلك ظهر في

---

١) شعراء الوطنية ٦

٢) العقاد : شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ٨ ، ١٢

العراق عدد من الأدباء الشعراء أمثال ابن الصباغ والشهاب الألوسي، ثم محمود شكري الألوسي وعبد الغفار الأخرس وسواهم ، في حين كان في الشام من امثال هؤلاء الشيخ ناصيف اليازجي وابنه ابراهيم والشيخ أمين الجندي ثم فرنسيس المراش وابراهيم الأحدب ، والشيخ نجيب الحداد وجبرائيل دلال . وأما في مصر فقد برز أعلام في الأدب بعضهم مارس الشعر وبعضهم اقتصر عليه وكان منهم محمود صفوة الساعاتي وصالح مجدي ، وعبد الله فكري وعلي الليثي ومحمود سامي البارودي .

ولم يكن الشعر القومي أو الوطني غرضا مألوفا لدى الشعراء حتى القرن التاسع عشر ، اذ أن مفهوم الشعر لم يكن يعدو في ذهنهم ما توارثوه من الأغراض التقليدية ، التي يشوبها غير قليل من آثار الضعف الفني المتبقي من عهود الانحطاط . الا أن عددا من هؤلاء الشعراء في مصر والشام والعراق كان يمارس نمطا من الشعر القومي أشبه شيء بالشعر الحماسي الذي عرفه العرب في عصورهم الغابرة .

والواقع ان الظروف السياسية التي كانت تحياها مصر في ظل الاحتلال الانكليزي كانت تختلف عنها في الشام والعراق المداخلتين في نطاق الدولة العثمانية . فقد كان وجود الأجنبي فوق ارض الوطن حافزا قويا للمشاعر القومية لم يكن في الشام والعراق ما يضارعه قوة وتأثيرا. بينما لم ينظر الى الحكم التركي بهذا المنظار تبعا لاشتراك الترك وغالبية العرب في الشعور الديني . ومن هنا كان الانشقاق على العثمانيين يقتضي طرح العامل الديني جانبا والاعتماد على العنصر القومي وحده وهذا لم يتيسر للعرب الا في فترة متأخرة نسبيا حين ثاروا على الترك ابان الحرب العالمية الأولى وبعد أن نضجت مشاعرهم القومية ووعيهم السياسي الى حد كبير ، في حين استدعى الأمر في مصر الاعتماد على العامل الديني كعنصر فعال في مقاومة الاحتلال الانكليزي .. وقد تجلى كل ذلك في الشعر الحديث فكان شعراء مصر أكثر تمسكا بالجامعة الاسلامية ، يضاف

الى هذا أسباب أخرى منها عطف المصريين على الترك وعلى نظام الخلافة بسبب انحسار الحكم العثماني عنهم في وقت مبكر وبالتالي عدم شعورهم بالنقمة التي كان يشعر بها الشاميون والعراقيون تجاه مظالم الترك ·

وعلى هذا فأن بواكير الشعر القومي بنزعته العربية الماضية لانجدها الا في الشام والعراق والمهجر وبخاصة لدى عدد من الشعراء العرب المسيحيين الذين لم يستشعروا بحكم عقيدتهم أية صلة — دينية أو قومية — تربطهم بالترك وتجعلهم يستمرون في الخضوع لهم · ولذلك كانت طائفة منهم أسبق من سائر المواطنين العرب الى التحسس بالمشاعر القومية العربية ·

* ومن أقدم مانجده من الشعر في هذا الاتجاه الأبيات التالية للشيخ أمين بن خالد الجندى الشاعر الحمصي المعروف المتوفي سنة ١٨٤١ م ، الذى عاصر حملة ابراهيم باشا ، وهي تمثل صرخة من اقدم الصرخات التي اطلقها شعراء الشام تذمرا من جور الأتراك ومظالمهم * (١) وقد صادق ابراهيم باشا وصحبه في غزواته ، وبعد ذلك قبض عليه الترك وسجنوه في الاصطبل عام ١٨٣٠ (٢) ومما قاله (٣) :

سلبوا البلاد من العباد فلا ترى ... في حكمهم ذا نعمة متمولا

والصلك ملك الله يؤتيه لمن ... قد شاء لا هو بالوراثة والولا

من يخبر الأتراك ان جيوشهم ... هزمت وأن (حسنيهم) ولى الى

فالشاعر لايستطيع ان يخفي فرحته بانتصار جيش مصر العربي على جيش الترك ·

كما نجد أبياتا أخرى في المناسبة نفسها للمسلم بطرس كرامة يهنئ فيها ابراهيم باشا بفتح عكا

---

١) أمجد الطرابلسي : شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام ١١

٢) جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ٤ : ٢١١

٣) ادهم الجندى : اعلام الأدب والفن ، ٢٧

ومن العجيب ان يكون ابراهيم اليازجي ذلك اللغوي المحقق والعالم الباحث قد نظم اروع الشعر القومي آنذاك ومنذ عام ١٨٦٨ حين كان في العشرين من عمره يتأجج حماسة (١) . فقصائده الثلاث ، الميمية والبائية والسينية اشهر من ان نذكرها في هذه العجالة ، ولكننا نجتزئ ببعض أبياتها . فالميمية مطلعها (٢)

سلام أيها العرب الكرام وجاد ربوع قطركم الغمام

وفيها يقول : وما العرب الكرام سوى نصال لها في أجفن العليا مقام

ونحن اولو المآثر من قديم وان جحدت مآثرنا اللئام

أما البائية وقد طارت شهرتها فمطلعها : (٣)

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب فقد طمى السيل حتى غاصت الركب

وفيها يقول : فيم التعلل بالآمال تخدعكم وانتم بين راحات القنا سلب

كم تظلمون ولستم تشتكون وكم تستغضبون فلا يبدو لكم غضب

لا دولة لكم يشتد أزركم بها ولا ناصر للخطب ينتدب

أقداركم في عيون الترك نازلة وحقكم بين أيدي الترك مغتصب

وأما السينية فهي تضارع سابقتها في شهرتها ومنها قوله : (٤)

دع مجلس الغيد الأوانس وهوى لواحظها النواعس

أي النعيم لمن يبيت على بساط الذل جالس

ولمن تباع حقوقه ودماؤه بيع الخسائس

الترك قوم لا يفوز لديهم الا المشاكس

فاستوقدوا لقتالهم نارا تروع كل قابس

لقد كانت هذه القصائد وامثالها صيحات مدوية جلجلت اصداؤها في أرجاء الشام وسارت في الآفاق حتى غدت على كل لسان ،

---

(١) = انظر أنيس المقدسي ـ الاتجاهات الادبية ١ ـ ٨٠

(٢) = لويس شيخو : الآداب العربية في القرن التاسع عشر ٢ ـ ٤٠

(٣) = نشرت القصيدة في جريدة المشير بالعدد ٨٠ ، ٢٥ أبريل ١٨٩٦م ص ٦٧١ وتبلغ ٤٨ بيتا مهد لها الشاعر بكلمة نثرية ولم يفصح عن اسمه والمشهور أنها له وقد نشرت كاملة في ديوان (العقد) لابراهيم اليازجي ص ٥٦ وهو يشير الى ان سنة نظمها كانت عام ١٨٨٣

(٤) = القصيدة كاملة في (العقد) أيضا ص ٥٩ ونظمت ايضا عام ١٨٨٣ وتقع في ٦٠ بيتا

وكانت من أسباب نقمة السلطان على مدحت باشا والي الشام (١) وأهمية هذه الأبيات تبدو في كونها أقدم شعر قومي عربي المنزع في النهضة الحديثة ، فقد تجلت من خلالها الفكرة القومية المشبعة بروح الثورة على الاستبداد والتمرد على الحكم الأجنبي ، واستمدت عناصرها من ماضي العرب المجيد وواقعهم الأليم . والحق أن ما أوردناه لليازجي من قصائد ، على قلته ، استطاع أن يجعل منه بحق شاعرا قوميا بل رائدا للشعر القومي في أدبنا العربي الحديث .

كما أن بوادر التمرد على الحكم العثماني ظهرت قوية أيضا لدى رزق الله حسون الحلبي رائد الصحافة ، فهو في أبياته التالية التي تعتبر في طليعة بواكير الشعر القومي لم يستطع كتمان فرحته بانكسار الأتراك في الحرب الروسية العثمانية حيث يقول (٢)

كم حروب للروس دارت على الترك رحاها فغادرتها طحينا
هكذا هكذا تدور على الباغي الليالي ويهلك المجرمونا

وفي ديوانه (النفثات) نمط جديد من الشعر القومي يشير الى تأثر عدد من مثقفي تلك الفترة بالآداب الأجنبية كالقصص الروسي وسواه " ويظهر أن الأدب الرمزي الذي اعتمده بعض أدباء الروس في نقد أساليب الحكم القيصري قد صادف هوى في نفس رزق الله حسون ، فنقل تلك القصص ليشير الى فساد الحكم في العهد العثماني ، فالقصائد المعربة تصور لنا فساد الحكم على ألسنة الحيوانات وتشير الى صلف الحكام وقسوتهم ، وترينا تحكم الأقوياء في الضعفاء وحكم الأغبياء بدلا من حكم الأذكياء والجهلاء عوضا عن العلماء " (٣) ، وهذا النمط من الشعر الرمزي يعتمد على التلميح حين يتعذر التصريح

---

(١) جورج انطونيوس : يقظة العرب تعريب حيدر الركابي

(٢) نشرت الأبيات في جريدة المشير العدد ٢١ ، انظر أيضا المقدسي ١ : ٢٣

(٣) سامي الكيالي : الحركة الأدبية في حلب ص ٤٤

ومن الشعراء المتطرفين الذين لم يجدوا حلا ناجحا لدولة الرجل المريض سوى هدم كيانه ، قول سليم سركيس صاحب جريدة المشير [١]

يا أهل سوريا المقساور | من كل مفخور وفاخر
افترتضون صفارة | لم يرضها في الناس صاغر

ومن مشهور أبياته : [٢]

نرجو صلاح البتراء قد | خابت أمانينا الكواذب
هي دولة ظلمت وليس | العدل عن ظلم بذاهب
ليس المجيبة فقد ما | بل عيشها احدى العجائب

وفي هذه الأبيات نفحة من روح اليازجي وثورته .

ومن هذا الاتجاه المنيف الثائر قصيدة (العرش والهيكل) لجبرائيل دلال الحلبي وهي تمتاز بجرأتها وصراحتها ، وكان الشاعر قد نظمها في باريس حيث عبر بحرية عن آرائه في جور السلطان وشعوذة الكهنوت ، ومما قاله فيها منددا بالاستبداد الحميدي [٣] :

فلم الخضوع لذى البغاة ومالها | عجبا تتيه بتاجها وقضيبها
هل انها الا اناس مثلنا | وبنا ومنا الحزم في تغليبها
فالجيش من أولادنا لقتالها | والبذل من أموالنا لمعيبها

ثم يحث الدلال قومه العرب على الثورة بقوله :

ياغافلين تنبهوا من رقدة | طالت لسعد الوحش في تأديبها
هيا انهضوا وبطردها اجتهدوا فقد | ساد الدمار وعم من تخريبها
حتى يرى كل الورى فوق الثرى | بالأمن يرعى شاتها مع ذيبها

على أن ثمن هذه الجرأة كان غاليا اذ نفي صاحبها في أعماق

---

١)) المشير ١١ مايو ١٨٩٥ ، المقدسي ١ : ٢٤
٢)) " ٢١ أبريل ١٨٩٧ ، المقدسي ١ : ١٧
٣)) سامي الكيالي الحركة الأدبية في حلب ٧٨ ــ ٨٥

السجن حيث قضى لوعة وأسى . (١)

وكان الشيخ نجيب الحداد من رواد الشعر القومي المعاصر الذين تحلوا بنضج الوعي القومي ومن أقدم ما قيل في تصوير أمل العرب في التحرر والوحدة قوله : (٢)

انما نحن هيكل واختلاف الأمم وهم فكلنا أعضاء

وكان مما قاله أيضا وتجلت فيه الروح القومية الثورية قوله : (٣)

آن الأوان لأن أخاطر بالدم — من لم يخاطر بالدما لم يسلم
اجزيرة العرب التي أحببتها — كم من اكف قد رمتك باسهم
لعبت أكف الترك فيك وغادروا — في كل قطر منك نهرا من دم

ولاريب في ان هاتين المقطوعتين نمط جديد من انماط الشعر القومي عبر الشاعر فيهما عن تجاوب العربي مع اخوانه في الأقطار الأخرى وعن النزوع المبكر نحو الوحدة العربية منذ أواخر القرن التاسع عشر .

وكان اديب اسحق من كبار رجال الفكر والأدب وقد سار البيتان الرائعان اللذان ينسبان اليه ، على كل لسان اذ قال (٤) :

قتل امرئ في غابة — جريمة لاتغتفر
وقتل شعب آمن — مسألة فيها نظر

وقد تجلت خلال هذه الفترة نفسها ومضات رائعة لدى عدد من الشعراء المصريين وفي مقدمتهم محمود سامي البارودي الذي جعل من نفسه ومن شعره على السواء وقودا للحركة الوطنية .

فقد أخذ الشعور بالسخط على الحكام وفساد الاحوال يتبلور في أذهان الشعراء ومنهم صالح مجدي الذي توفي قبيل الثورة العرابية ، وبدأت تظهر في شعرهم المطالبة بالحقوق السليبة ، والحد من

---

(١) سامي الكيالي الحركة الأدبية في حلب ٧٣

(٢) ديوانه تذكار الصبا ٥ ـ ٧

(٣) المقدسي ١ : ٨٥ والأبيات غير موجودة في ديوانه .

(٤) عمر الدسوقي : في الأدب الحديث ١ : ٨٢

تسلط الترك ، والتنديد بالظلم والاستبداد . ومن أبرز ما قيل في هذا الصدد أبيات للبارودي نظمها في منفاه حيث قال (١) :

أبى الدهر الا أن يسود وضيعه	ويملك أعناق المطالب وغده
اذا المرء لم يدفع يد الظلم ان سطت	عليه ، فلا يأسف اذا ضاع مجده
وأقتل داء رؤية العين ظالما	يسيء ويتلى في المحافل حمده
علام يعيش المرء في الدهر خاملا	أيفرح في الدنيا بيوم يعده
يرى الضيم يغشاه فيلتذ وقعه	كذي جرب يلتذ بالحك جلده

لقد كان البارودي شاعر الثورة العرابية كما كان عبد الله نديم خطيبها ، ومما نال حظ لاشعراء الأديب المصريين في النضال القومي ، وفي طليعة رواد الأدباء المجاهدين .

ثم بدأ الشعراء ينظمون القصائد تترى في الشعر القومي ، ولم تكد شمس القرن التاسع عشر تؤذن بالمغيب حتى أخذت جذور الوعي القومي تعمق في النفوس ، وكانت طبقة أخرى من الشعراء قد تسلمت راية الشعر القومي وأخذت تبشر دون هوادة بالتحرر والاستقلال . ومنذ ذلك الحين يتبوأ الشعراء العراقيون وفي مقدمتهم معروف الرصافي وجميل صدقي الزهاوي وعبد المحسن الكاظمي مكانة مرموقة في الشعر الحديث بصورة عامة وفي الشعر القومي بصورة خاصة . وتلتقي هذه القصائد الثائرة مع صيحات الأحرار في مصر والشام وتغدو حربا على الاستبداد الحميدي . ومما يقوله الزهاوي في ذلك منددا بالحكومة العثمانية (٢) .

وما هي الا دولة مستبدة	تسوس بما يقضي هواها ويعمل
فترفع بالأعزاز من كان جاهلا	وتخفض بالاذلال من كان يعقل
وقد عبثت بالشعب اطماع ظالم	يحمله من جوره مايحمل
فتعسا لقوم فوضوا أمر نفسهم	الى ملك عن فعله ليس يسأل
فيا ملكا في ظلمه ظل مسرفا	فلا الأمن موفور ولاهو يعدل

---

١)) الديوان ١ : ٧٢

٢)) اللباب ١٢

تمهل قليلا لاتغظ أمة اذا تحرك فيها الغيظ لاتتمهل
وأيديك ان طالت فلا تغترر بها فأن يد الأيام منهن أطول

بهذه الجرأة أنذر الزهاوي الطغاة فكان مصيره السجن والابتعاد .

وكما سمى الزهاوي قصيدته هذه (ختام تخفل) ، اطلق الرصافي على أبياته التالية (تنبيه النيام) وعلى أبيات أخرى " ايقاظ الرقود " وهذه عناوين شاعت في دواوين الشعراء خلال تلك المرحلة من نضال العرب القومي ، اذ أن أولى مراحل الثورة على الظلم الشعور به ، ومما يقوله الرصافي في هذه المقصيدة (١)

أما آن يغشى البلاد سعودها ويذهب عن هذى النيام هجودها
أما اسد يحمي البلاد غضنفر وقد عاث فيها بالمظالم سيدها
عجبت لقوم يخضعون لدولة يسوسهم بالموبقات عميدها
وأعجب من ذا انهم يرهبونها وأموالها منهم ومنهم جنودها

وعلى هذا المنوال نسج ولي الدين يكن قوله وكان من أبرز من ندد بالاستبداد من الشعراء (٢)

صحا كل شعب فاسترد حقوقه فياليت يصحو شعبك المتناوم
هو الشعب أفنى دهره وهو خادم وليس له فيمن تولوه خادم
يقلب من عهد لعهد على الأذى اذا زال عنه غاشم جد غاشم

ودأبت هذه الأصوات الحرة على حمل رسالة الحق والحرية حتى اضطرت عبدالحميد الى نشر دستور البلاد بعد طيه اكثر من ثلاثين عاما . وكان هذا الحدث كبيرا اشاع الفرح في قلوب المواطنين جميعا على اختلاف دياناتهم وقومياتهم ، وملأ نفوسهم أملا واستبشارا ، ومن العسير ان تجد في ذلك الحين شاعرا أو زاجلا أو ناثرا أو خطيبا لم يستخفه الطرب " الا أن الحماس التحرري الداعي الى تمرد العرب

---

(١) الديوان ١٠٣
(٢) الديوان ١٩

على الترك والانفصال عنهم قد فتر في فورة هذه الفرحة الدستورية لأن الانفصال لم يعد له في الظاهر ما يسوغه بعد أن جاء الدستور يطمئن المواطنين على حرياتهم ويعلن المساواة التامة بينهم على اختلاف مذاهبهم وأجناسهم ولغاتهم " (١)

وقد بدا للجميع أن الأماني قد تحققت وأنه ما بعد الدستور زيادة لمستزيد ولا مطلب لمطالب ، اذ عم التسامح وامحت الضغائن وتآخى الترك والعرب ، ورفرفت ألوية المساواة والعدالة والحرية ، واذا الدستور رمز نسجت حوله هالة كبرى من الآمال . ومع ان هذا الدستور لم يحقق شيئا للعرب الا أن اعلانه أحدث هزة في النفوس فحفزت بالوعي الى الأمام كما أدى الى انطلاق اغاريد الشعراء لاهجة بالحرية التي طال احتباسها . ومع أن جميع شعراء العرب في شتى أقطارهم ومهاجرهم هللوا لأعلان الدستور الجديد فأن هذا التهليل لم يبلغ لدى شعراء مصر المدى الذى بلغه في سائر البلاد ، وما ذلك الا لأن مصر كانت غير خاضعة للحكم العثماني المباشر . ويبدو هذا الفارق بشكل أوضح فيما نظم من قصائد اثر سقوط عبدالحميد ، واذا استثنينا ولي الدين يكن الذى عانى أهوال الاستبداد فأن أكثر شعراء مصر ومنهم اسماعيل صبرى وحافظ ابراهيم وأحمد شوقي ومحمد عبدالمطلب وأحمد محرم أظهروا عطفا بالغا على السلطان المخلوع . وهم في ذلك انما كانوا يتجاوبون مع مشاعر المصريين الذين ما زالوا حتى ذلك الحين يرجون خيرا في نظام الخلافة والجامعة الاسلامية ، ومن ناحية أخرى فأن المصريين لم يكونوا يعانون شيئا من مظالم العثمانيين بعد انحسار نفوذهم عن مصر ، وانما كانوا يرزحون تحت وطأة المحتلين الانكليز ، ولهذا لم يشعروا بشيء من النقمة التى كان يشعر بها أهل الشام والعراق والمهجر تجاه تسلط الترك على العرب وطغيانهم على قوميتهم .

على ان شعور العطف على السلطان أخذ يتضاءل عند أولئك الشعراء

---

(١) أمجد الطرابلسي : شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام ٢٠

حتى كاد ينقلب أحيانا الى تشفٍ وعداء ، ونلمس ذلك التحول بوضوح فيما نظمه حافظ وشوقي فيما بعد من قصائد .

وبالرغم من سخط شعوب الدولة العثمانية وقومياتها على عبد الحميد واستبداده بما فيهم الترك أنفسهم فان مشاعر العرب بصورة عامة باستثناء المتطرفين منهم ظلت على ولائها للدولة العثمانية بدافع العاطفة الدينية المشتركة ، فاكتفت بما كانت تلح على المطالبة به من تحقيق العدالة بينهم وبين الترك في الوظائف والتمثيل النيابي ومن الاحتفاظ بشخصيتهم العربية ولغتهم وحقوقهم المشروعة ، والأخذ بنظام الحكم اللامركزي ضمن نطاق الدولة العثمانية . وبرغم شعور التذمر الذى ساد العرب من جراء معاملة الترك لهم فقد كانوا أول الأمر أبعد مايكونون عن القيام بأية ثورة ضدهم . ومما يؤكد ذلك ان الشيخ فؤاد الخطيب الذى غدا بعد ذلك شاعر الثورة العربية الكبرى التي قامت ضد حكم الآستانة هو نفسه الذى كان يخاطب الترك بقوله [١] :

إخواننا الاتراك مدوا لنا يدا
من الود انا قد مددنا لكم يدا

ومانتقاضى ثورة دموية
فلسنا عطاشا نطلب الدم موردا

ولكننا نرجو اخاء موطدا
يعز علينا ان يكون مهددا

ولكن النكسة سرعان ماحلت ، والناس مازالوا في عرس فغيبت الزغاريد في الحلوق وجمدت الابتسامات على الثغور . فلقد تبين للعرب ان الدستور لم يكن الا سرابا من حيث ظنوه ماء زلالا . اذ كان من المؤمل ان تتماسك القوميات المتعددة في جبهة عثمانية واحدة تثبت أمام الخطوب الخارجية لولا استئثار جماعة من غلاة الترك بالحكم وتنكرهم للعرب . فهؤلاء ـ وقد عرفوا بالاتحاديين اتخذوا من القومية التركية الضيقة مبدأ لهم ، وبدت سياستهم

---

(١) الديوان ٣٣

الطورانية العنصرية في ابشع مظاهرها تجاه القوميات الأخرى المحكومة وقد عبر الشعراء عن خيبة الأمل المريرة التي أصابت العرب نتيجة غدر الترك وتنكرهم للدستور . ولكن أنى لعجلة الزمان ان تعود الى الوراء ، وكيف يرضى العرب بأن تهدر حقوقهم بعد أن نعموا بالحرية وتنشقوا بملء رئاتهم نسماتها .

وكان لابد من صراع قومي خفي حينا وسافر أحيانا بين قوتين رئيسيتين في الدولة العثمانية هما القومية العربية والقومية التركية ، ودخل نضال العرب في مرحلة جديدة ضد التنمية التركية كان من مظاهره تلك الجمعيات العديدة السرية والعلنية التي اخذت على عاتقها عبء العمل ونشر الوعي وتعبئة الشعور القومي .

وقد حافظ العرب على الأناة وتذرعوا بالصبر في علاقاتهم مع حكومة الاتحاديين التركية وغدا الأمل في تقويم الاعوجاج كبيرا ، ولاسيما أن فريقا من الترك وقف الى جانب مطالب العرب .

وحين وقعت حروب البلقان عام ١٩١٣ التف الرأي العام العربي حول الدولة العثمانية شأنه في جميع الحروب التي خاضتها العثمانية من قبل ، كحربها مع الروس ومع اليونان ثم مع الطليان وأخيرا مع البلقان . وقد تجلى ذلك في مواقف الشعراء العرب الذين انتصروا بقصائد حارة للعثمانيين وللشرق والاسلام .

غير ان شيئا مذهلا قد وقع آنذاك ، اذ شبت فجأة نيران حرب عالمية كبرى ، صمم الاتحاديون على خوض غمارها بما يشبه مغامرة اليائس فمدوا السنة القتال الضاري الى الشرق العربي وجعلوا الدولة العثمانية طرفا في النزاع بين كتلتين جبارتين متناطحتين

أما العرب فقد أصبحوا يواجهون حربا ضروسا لا جدوى لهم فيها ، ووجد أحرارهم والمتطرفون منهم أن هذه الحرب مجازفة كبرى ستطيح بالدولة نفسها وسيتحمل العرب أنفسهم نتائج غرور الترك .
ومع ذلك بدا لغالبيتهم أن عليهم واجب الدفاع عن دولتهم وتناسي خلافاتهم مع الاتحاديين وما كانوا فيه من أخذ ورد ، حتى ان عددا من أشد شعراء العرب عداوة للترك ولتسلطهم واستبداد سلاطينهم ،

دعوا الى حمل السلاح الى جانب القوات التركية دفاعا عن كيان الدولة نذكر منهم الرصافي اذ قال (١) :

ياقوم ان العدا قد هاجموا الوطنا فانضوا الصوارم واحموا الأهل والسكنا

كما أن الشهيد محمد المحمصاني أحد أحرار العرب ومن اركان (العربية الفتاة) اسرع بالعودة الى بلده من مصر اثر سماعه بقيام الحرب ليكون جنديا في صفوف الجيش العثماني (٢)

وبقيام الحرب العالمية الأولى وما رافقها من أحداث بطش وارهاب ومجاعة في بلاد الشام والعراق واعلان الحماية الانكليزية والادارة العرفية في مصر .. يدخل نضال العرب مرحلة جديدة حاسمة ، والحرب ولود للثورات .

هكذا كان حال الشرق العربي منذ نهضته في القرن التاسع عشر . فالشعور القومي كان يذكو حينا ويخبو حينا ، ومازال كذلك حتى أخذت شعلته في التوهج ، وقد انعكس كل ذلك على الشعر العربي الحديث فكانت فئة من الشعراء ممن ذكرنا اتسم شعورها القومي بالقوة والصفاء والجرأة ووضعت في بواكيرها تلك ، أساسا وطيدا للشعر القومي ، وكانت فئة أخرى معتدلة في شعورها هذا تحاول التوفيق بين الطرفين وتتخذ موقفا وسطا ، ومن هؤلاء شبلي الملاط وعبد الحميد الرافعي وخليل مطران وجميل صدقي الزهاوي وسواهم . وكانت فئة ثالثة موالية للدولة العثمانية ومتجاهلة في الوقت نفسه شعور القوميين العرب مع اختلاف في الدوافع ، فهو اما شعور ديني صادق وغيرة على الدولة الاسلامية من أن تعصف بها مطامع الغرب ، واما رياء ونفاق لجلب منافع وتحقيق مآرب ، واما خوف ورهبة من بطش حاكم واستبداد ظالم .

وهذا الشعر الموالي للدولة يمكن ان نطلق عليه اسم الشعر

---

(١) الديوان ٤٩١

(٢) مصطفى الشهابي : محاضرات في القومية العربية ١٠٦

الرسمي كما أسماه أمجد الطرابلسي ، ومن أصحابه أحمد شوقي ومحمد عبدالمطلب وأحمد محرم وأمين ناصر الدين وشكيب ارسلان وبدر الدين النعساني .

وسنرصد خلال الفصول التالية هذه المشاعر القومية في الشعر المعاصر ونتتبعها في قوتها وضعفها ، واندفاعها وجمودها وازدهارها وانتكاسها .

ومن اليسير على الناقد ان يتبين فيما بين يديه من بواكير الشعر القومي شيئا من الضعف الفني ، اذ لم يقيض للأدب العربي الحديث في تلك الفترة ظهور شعراء كبار ملكوا ناصية فنهم ، ومن اوتي ذلك كالبارودي لم يكن مضمونه الشعري في كثير من قصائده يبلغ مستوى ادائه .. فالمعول على ما اوردنا من شواهد كان على المضمون قبل الشكل ، والمعنى قبل اللفظ ، والشعور قبل الشعر .

ومما تجدر ملاحظته ان أكثر ما قيل من هذا الشعر لم يجرؤ اصحابه على الجهر به الا بعيدا عن سلطة الدولة العثمانية في مصر أو باريس أو في غيرهما .. وما قيل منه في ربوع الوطن أودى بصاحبه أو حالفه الحظ فأفلت ونجا .

وجملة القول ان أصحاب البواكير الذين أشرنا اليهم هم رواد الشعر القومي الأوائل في القرن التاسع عشر ، وكان لهم فضل السبق وميزة البدء ، وهم المفجر الصادق الذي لاح في دنيا العرب حاملا رسالة التحرر ومبشرا بيوم أغر . ولم تكن اشعارهم تلك على قلة ما نظموه في هذا الموضوع سوى القطر الذي يسبق انهمار الغيث والصيحة المدوية تجاوبت مع تعاليم جمال الدين الافغاني وعبدالرحمن الكواكبي وأديب اسحق ، وكانت اشبه بنفخات الصور نبهت العرب من غفلتهم بعد ان ران عليهم الجمود قرونا .

الباب الأول

روافد التيار القومي

الفصل الأول	الجامعة الاسلامية
الفصل الثاني	الرابطة الشرقية
الفصل الثالث	النزعات الاقليمية
الفصل الرابع	العاطفة الانسانية

الفصل الأول

بين الجامعة الاسلامية والجامعة العربية

— ١ —

ان البحث في أصل الشعور القومي عند العرب المعاصرين ، يرجع بنا الى جذور له عميقة تمتد في الماضي مايقرب من أربعة عشر قرنا حين شعر العرب بكيانهم الموحد وشخصيتهم المتميزة لأول مرة على اثر ظهور الاسلام . وهكذا عرف الشعور القومي الكامن في نفوس قبائل العرب طريقه الى التبلور بسرعة منذ ذلك الحين وارتبط المفهوم القومي بالاسلام طيلة عصور مديدة ، ومايزال كذلك حتى اليوم في أذهان الكثيرين من العرب ، ومما ساعد على هذا الالتصاق الشديد بين المفهومين كون الرسول صاحب الدين الجديد عربيا ، وأن الذين نشروا رسالة الاسلام في الأرض كانوا عربا ، وأن التراث الاسلامي لايمكن فصله اطلاقا عن تاريخ العرب والثقافة العربية .

ومع ذلك كله " لايمكن تحديد العرب على وجه الضبط بالاسلام وذلك لأسباب ثلاثة : أولها ان امتداد الاسلام تجاوز العالم العربي بكثير ، وثانيها أن الشعوب العربية فيها عدد كبير من المسيحيين وسواهم من العرب غير المسلمين ، وثالثها أن المسلمين اليوم يضعون لأنفسهم قواعد جديدة للتوفيق بين روح العصر الحديث ومعضلات التقيد بمناهج السلف . الا أن انتشار الاسلام ذلك الانتشار الساحق هو الذي أوجد الدولة العربية التاريخية وطبعها كلها الى يومنا هذا بطابعه وروح حضارته " (١)

وتبعا لذلك ونظرا لأن المقام الأول في القرون الوسطى كان للعامل الديني ، لم يكن ثمة فارق كبير وحدود واضحة بين مفهوم الوطنية ومفهوم الدين ، وأن قصائد الشعراء في العصر الأموي ثم العباسي

---

(١) ارنست هوكنج في مقدمته لكتاب العالم العربي، تأليف نجلاء عزالدين .

تعبر عن هذه الظاهرة بوضوح ، من ذلك مثلا بائية أبي تمام في المعتصم وقصائد المتنبي في سيف الدولة . فهي تصور المعارك التي خاضها الأجداد على انها صراع بين العرب والروم وبين الاسلام والمسيحية في الوقت نفسه ، وقد احكم هذا الربط بين الدين والقومية الى حد كبير خلال الحروب الصليبية التي خاضها العرب على انها حروب قومية وجهاد مقدس معا .

ثم قام الحكم العثماني أيضا على هذا الأساس من عدم التمييز ، فكانت سلطة الدين والدولة متداخلتين في نظام الخلافة . بل ان ادعاء سلاطين الترك أنهم ورثة الخلافة العباسية مكنهم برغم كونهم ليسوا من العرب ، من ان يحكموا هذه البلاد قرونا طويلة متخذين من الدين درعا واقية .

وكانت الصفة الغالبة على الشعر العربي الحديث حتى أوائل القرن العشرين هي المزج بين الدين والقومية واعتبار السلطان التركي خليفة للمسلمين ، والدولة العثمانية دولة الاسلام .

ومنذ اخفاق ثورة عرابي يشير البارودي الى هذا المفهوم المزدوج بقوله (١) :

فهل دفاعي عن ديني وعن وطني ذنب ادان به ظلما واغترب

وقد كان جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعبدالرحمن الكواكبي يفهمون الوطنية على اساس ديني . ومثل هذا الشعور دفع بالامام محمد عبده الى ان يقول " ان المحافظة على الدولة العلية العثمانية ثالثة العقائد بعد الأيمان بالله ورسوله فأنها وحدها الحافظة لسلطان الدين " (٢) كما كان عبدالله نديم وتوفيق البكري ومصطفى كامل الذين ايقظوا الروح الوطنية في مصر من ذوي الاتجاه العثماني أيضا يرون العثمانية والمصرية من مصدر

---

١)) الديوان ١ : ٣٧

٢)) تاريخ الاستاذ الامام ١ : ٩٠٩

واحد هو الاسلام ولاتنفصم الواحدة عن الاخرى ·

وبقي الشعراء في مصر بصورة خاصة ينهلون من معين تلك المبادئ التي صدر عنها هؤلاء الأعلام ، والتي بقي صداها ماثلا في الأذهان الى مابعد الحرب الكبرى ، وكان شعراء الجامعة الاسلامية حريصين على دوام الصلة الدينية والسياسية مع العثمانيين وفي مقدمتهم أحمد محرم الذي يقول (١) ·

يا آل عثمان من ترك ومن عرب ‏ ‏ ‏ ‏ واى شعب يساوى الترك والعربا

صونوا الهلال وزيدوا مجده علما ‏ ‏ ‏ ‏ لامجد من بعده ان ضاع او ذهبا

ومن هؤلاء الشعراء أيضا حافظ ابراهيم الذي يترفق في مخاطبة العثمانيين ولايعدو في أبياته التي يشير فيها الى تغاضيهم عن احتلال الانكليز لمصر حد العتاب (٢) :

يا آل عثمان ماهذا الجفاء لنا ‏ ‏ ‏ ‏ ونحن في الله اخوان وفي الكتب

تركتمونا لأقوام تخالفنا ‏ ‏ ‏ ‏ في الدين والفضل والأخلاق والأدب

ولقد أثار خلع السلطان عبدالحميد نقمة بعض الشعراء فراحوا يبكونه ويترحمون على عهده وبخاصة في مصر التي كانت في منجاة من ظلمه واستبداده ، وذلك واضح في قصائد أحمد شوقي ومحمد عبدالمطلب وسواهما ممن اعتقدوا في هذا الأمر مساسا بالاسلام وقدسية الخلافة وتقويضا لأبرز اركان الجامعة الاسلامية ·

وبدافع من ذلك الشعور المشترك بالرابطة الدينية والحذر من الغرب المسيحي وقف الرأى العام المصري الى جانب الدولة العثمانية في صراعها مع الدول الأجنبية الأخرى ، وقد تجلى ذلك على ألسنة الشعراء المصريين بوضوح كما تشير قصائد كثيرة لشوقي وحافظ والرصافي ومحرم ، وعبدالمطلب والكاشف والزهاوى والكاظمي وعبدالحميد الرافعي وشكيب ارسلان وفؤاد الخطيب ·· وغيرهم

---

(١) الديوان ٢ : ٤

(٢) الديوان ٢ : ١٨

ممن كان شعرهم صريحا في مواجهة أعداء العثمانيين في أثناء حروبهم مع الروس واليونان ودول البلقان ، وحين ثار الصرب واليونان والبلغار على الدولة العثمانية ينشدون التحرر وخلع الربقة التركية من أعناقهم بلغ الرصافي في حقده وغضبه عليهم حد الشتم المقذع اذ خاطبهم بقوله (١)

ياعلوج الصرب والبلغار أولاد الـزوانـي

وهذا يشير الى عدم تميز الفكرة القومية في أذهان الشعراء حتى ذلك الحين ، فالدولة التي كان يعيش الرصافي في كنفها عثمانية اسلامية فهو يرى في انتقاض شعوب البلقان عليها اضعافا لكيانها ، وأنها يجب أن تظل محكومة ، ولم يكن يصلحها للكثيرون يومئذ ان هذه الشعوب لاتربطها أية رابطة قومية أو سوها بالتراك .

ومما يؤكد اثر العقيدة الدينية في موقف الرصافي وسواه من هذه الحركات القومية أن بعض الشعراء من غير المسلمين نظروا الى هذه الحركات بمنظار آخر مضاد على نحو ماوجدنا عند ايليا ابي ماضي الذي دعا الصرب - كما سيمر بنا - الى أن يأخذوا مثالتهم عن البلقان وأن يتشبهوا بالصرب واليونان وأنكر عليهم خضوعهم لأبناء جنكزخان (٢) .

لقد كان كل تقلص لظل الامبراطورية العثمانية يعتبره أنصار الجامعة الاسلامية تقلصا لظل الاسلام ويذكر الشعراء بما عمهم في الأندلس . كما كان كل نصر أو تقدم يحرزه العثمانيون يعتبره هؤلاء الشعراء نصرا للاسلام سواء في المجال العسكري أو في المجالات الأخرى . وقد هلل الشعراء تحييل الحرب الأولى وبخاصة في مصر لأول طيار عثماني ورأوا في نجاحه ذلك نجاحا للمسلمين قاطبة ومما قاله حافظ يومئذ : (٣)

---

(١) الديوان ٤٩٦

(٢) انظر زهير ميرزا : أبوماضي شاعر المهجر الأكبر ص ١٣٥ ، ١٨٧

(٣) الديوان ٢ : ٧٦

أهلا بأول مسلم | في المشرقين علا وطار
النيل والبسفور فيه | تجاذبا ذيل الفخار

وبالرغم من ان هذه الرابطة الدينية اخذت تتضاءل في نفوس العرب قبيل الحرب الكبرى لتفسح المجال امام المشاعر القومية والمطالب الوطنية فقد وقف كثير من شعراء العرب أيضا مع الدولة العثمانية في قتالها ضد الحلفاء عندما نشبت تلك الحرب، مدفوعين بعاطفتهم الدينية قبل كل شيء سواها. وقد انعكست هذه المؤازرة في القصائد الكثيرة التي نظمت آنئذ، من ذلك ما قاله معروف الرصافي الذي يمكن اعتباره من شعراء الجامعة الاسلامية برغم حملته الشعواء على عبدالحميد واستبداده (١)

يا قوم ان العدا قد هاجموا الوطنا | فانضوا الصوارم واحموا الأهل والسكنا
واستنهضوا يابني الاسلام قاطبة | من يسكن البدو والأرياف والمدنا
عار على المسلمين اليوم انهم | لم ينقذوا مصر او لم ينقذوا عدنا
لازلت ياوطن الاسلام منتصرا | بالجيش يزحف من ابنائك الأمنا

ومما كان يدعو الكثيرين من الشعراء والكتاب والزعماء الى التمسك بفكرة الجامعة الاسلامية، ما لمسوه لدى عدد من مفكري الغرب وصحفه وساسته من تنديد بالاسلام وتحفز للاجهاز على أقطاره، ولعل أبيات الرصافي الأخرى التي نظمها خلال تلك الحرب الأولى خير ما يصور أهمية الرابطة الدينية آنذاك (٢):

وبلى ان الاسلام أوجد فينا | وحدة مثل وحدة الرحمن
فاعتصمنا منها بحبل وثيق | هو حبل الأخاء والايمان
ليس معنى توحيدنا الله في الملة | الا اتحادنا في الكيان
وحدة جاءنا من الله فيها | مرسل بالكتاب والفرقان
ماترى سلطة علينا لخلق | غير سلطان خالق الأكوان

---

(١) الديوان : ٤٩٢
(٢) الديوان : ٤٧٦

ولكن فظائع جمال باشا في دمشق وبيروت ابان الحرب العالمية الأولى وبطشه بأحرار العرب جعلت الكثيرين من الشعراء يتحولون عن شعور الولاء للدولة العثمانية وبالتالي للجامعة الأسلامية ويفكرون جديا بالاستقلال ومنهم عبدالحميد الرافعي وفؤاد الخطيب .

ومع ذلك ظل بعض الشعراء مثل شكيب ارسلان وبدر الدين النعساني واحمد محرم وأحمد الكاشف .. على ولائهم لحكام الترك وأشفقوا على هذه الرابطة الدينية ان تنفصم عراها " وقد وقف شكيب ارسلان ضد بني قومه من احرار العرب في استامبول حين دعوا الى الانسلاخ عن العثمانيين واعترف أنه سيكون في الصف المقاوم للحسين بن علي ، وأنه ينتقد سياسة الغرور على دولة الخلافة "[١] وكان من مظاهر ولائه للعثمانيين اندفاعه في اطرائهم والتسبيح بحمدهم ، ودماء الأحرار الذين علقهم جمال باشا على الأعواد لم تطل ، فمما قاله يومذاك مخاطبا الأتراك العثمانيين (٢) :

احبكم حب من يدري مواقفكم	في خدمة الدين والاسلام والحسب
مهما يكن من هنات بيننا فلنا	معكم على الدهر عهد غير منقضب
كفى الشهادة فيما بيننا نسبا	ان لم تكن جمعتنا وحدة النسب
مجدي بعثمان حامي ملتي وأنا	لم أنس قحطان أصلي في الورى وأبي

فالشاعر في أبياته هذه يغتفر كل اساءة مهما تكن بالغة اذا صدرت عن الترك ولا يرى فيها سوى هنات ، وان العهد القديم لايمكن أن ينقضب ، وأنه اذا لم تجمع بين العرب والترك وحدة النسب والأصل فكفاهم الدين الواحد والعقيدة المشتركة . بل ذهب عبدالحليم المصري الى أبعد من ذلك حين قال :

ان قيل في مصر ان الترك قد ظلموا	فمر ظلمهم أحلى من الضرب
ما اعذب القتل من سيف الصديق وما	امره ان يكن من غير مصطحب

---

(١) سامي الدهان : محاضرات عن الأمير شكيب ارسلان ص ١٥ - ١٦

(٢) الديوان : ١٢٩

ولكن سائر العرب في بلاد الشام والعراق كانوا يعانون الوان الظلم من قبل الترك ، لا كما يسمع به الشاعر المصري فيظنه – وبعض الظن اثم – أحلى من العسل . بل على العكس من ذلك كان لسان حالهم يردد بمرارة مع الشاعر الجاهلي :

وظلم ذوي القربى اشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند

واذا كان الترك مسلمين ، فأنهم في نظر الكثيرين قد انحرفوا عن الاسلام حين استحلوا دماء اخوانهم في الدين . وكان لابد للعرب ان يثوروا أخيرا ، وكأنهم دفعوا الى الثورة دفعا بعد ما بلغ السيل الزبى .

وبرغم اننا اليوم قد لا نستسيغ كثيرا هذا الولاء المفرط للعثمانيين في شعر شكيب ارسلان وأحمد شوقي وعبد الحليم المصري وسواهم الا أننا يجب ان ننظر الى الموضوع من خلال الظروف والملابسات التي كانت تسم العالم العربي آنذاك وتجعل هذا الاتجاه العثماني الاسلامي وجهة نظر منطقية ومقبولة في ذلك الحين لدى الكثيرين من العرب الذين فهموا الوطنية على اساس من الدين . فقد رأوا المستعمر الغربي المسيحي يحدد نحوهم انيابا صليبية ، ولم يكن امامهم بد من تكتلهم وتدعيم وحدتهم الكبرى في سبيل مقاومته .

ولكن الواقع ان هذا التكتل بين القوميتين الكبريين في الدولة العثمانية لم يكن يشتد أمره ويتجلى قويا في الشعر الا تجاه المحن والأزمات ، فكان العرب والترك يتحدون موقتا حين يهاجمهم أقوام آخرون من ديانات وقوميات أخرى . وعلى هذا الضوء نستطيع أن نفسر مؤازرة عدد من شعراء العرب للدولة العثمانية عندما كانت تواجهها المحن ، وتغدو مهددة من قبل الغرب ، في حين أن هؤلاء الشعراء أنفسهم كانوا من اشد المعادين لمسلك الحكام الترك في داخل البلاد .

ومع ان كثيرا من الشعراء كانوا يدركون مدى الضعف الذي بلغته الدولة ، وآلت اليه الخلافة ، فأنهم تمسكوا بالوضع

الـرأ هن آنـذاك وحاولوا دعمه بكل قوتهم وقطعوا من الخليفة ان يكون رمزا يلتفون حوله ويكيلون لـه الثناء لأنـه كان في نظرهم البقية الباقية من مظاهر قوة السلف •

ولاريب ان الـترك الـذين أحسنوا استغلال هذه العاطفة الدينية لدى العرب طيلة قرون مديدة لضمان استمرار حكمهم لبلاد هم ساروا في هذه السياسة نفسها أيضا عندما خاضوا غمار الحرب العالمية الأولى واستطاعوا ان يكونوا لأنفسهم بطانة من الشعراء والكتاب تسبح بحمدهم وتعتبرهم حماة الاسلام • وفي كتاب " البعثة الاسلامية الى دار الخلافة العثمانية " الذى ألفه محمد كرد علي بأيعاز من جمال باشا عام ١٩١٦ قصائد كثيرة تنطق بهذا الاتجاه الرسمي ، ومنها ماهو صادر عن رجال الدين كالشيخ بدرالدين النعساني الحلبي في عثمانيته وفي مديحه لجمال باشا ، عدا مافي هذا الكتاب من شعر طافح بالاستخذاء الممجوج •

وقد حاول الـترك ان يضفوا على خصومتهم مع الحلفاء صفة الحرب المقدسة فراحوا يستنفرون العرب للجهاد برغم انهم كانوا متحالفين مع الألمان • وبهذا السلاح المعنوى حاربوا الثورة العربية ووصموا رجالها بالكفر والمروق من الدين بل ان الكثيرين من العرب وبخاصة في مصر التي لم تطلها مظالم العثمانيين الـترك ، استنكروا من تلقاء انفسهم ما قام به اخوانهم في الشام والحجاز ضد الخلافة وتحالفهم مع الغرب المسيحي في سبيل تقويض اركان الجامعة الاسلامية • وبنتيجة هذه الدوافع انبرى أحمد محرم يندد بزعيم الثورة العربية الشريف حسين لثورته على الخليفة وكان مما قاله (١) :

نبئت مازعم الشريف وقومه فسمعت مالم تسمع الأذنان

---

(١) محمد حسين : الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ج ٢ ص ١٩٦ عن ديوانه المخطوط •

يا ذا الجلالة لا سعدت بتاجه ملكا سوالك به السعيد الهاني
الترك جند الله لولا بأسهم لم يبق في الدنيا مقيم أذان

وكأن محرم في بيته الأخير يعلق بقاء الاسلام على بقاء الدولة العثمانية ويخشى ان يكون في زوالها زواله .

وكان الى جانب احمد محرم وعدد من شعراء مصر ، طائفة أخرى من شعراء الشام والعراق لم يرق لهم ما قام به العرب بزعامة الحسين . وقد اشار معروف الرصافي فيما بعد الى تلك الثورة فقال يمن على الحلفاء بالنصر (١)

فقد قادت الأعراب نحو عدوكم خيولا لها في حومة الحرب تجوال
وقامت لهم منكم بمكة رابة لكم فتحت فيها من القدس اقفال
لقد أغضبوا البيت الحرام وربه وهم بمقام البيت لا شك جهال
ولو أن عهد المسلمين كعهدهم قديما لحالت دون ذا النصر أهوال
ولكنهم باعوا الديانة بالدنى فحالت لعمرى منهم اليوم أحوال

ولكن هذا العامل الديني الذي كان يؤلف بين العرب والترك في الدولة العثمانية هو الذي أخذ يباعد بينهما ، فمن الواضح ان شريف مكة الحسين بن علي قائد الثورة العربية نفسه كان يفهم القومية فهما دينيا كما يبدو من منشور الثورة (٢) ، اذ وجهه " الى جميع اخوانه المسلمين " وأحل فيه خلع الطاعة عن حكام الدولة لانحرافهم عن فهم الدين القويم ، كما دعا الى استخلاص الخلافة من الترك واعادتها الى العرب ، وفي بعض فقراته اشارات الى تصرفات الاتحاديين الطائشة التي مست الأسلام وكان لها صدى بالغ لدى مسلمي العرب مما أدى الى نفورهم من الترك واعراضهم عن شعور الولاء نحوهم والعطف عليهم ،

---

(١) الديوان ٤٣٣

(٢) انظر نص المنشور في ثورة العرب طبعة المقطم : ٢٣١ ، والثورة العربية الكبرى لامين سعيد ١ : ١٤٩

وبخاصة بعد لجوئهم الى سياسة التتريك ومحاولة محو اللغة العربية لغة القرآن والرسول ، وتنكر بعض صحف الترك للاسلام ، ورفع اسماء الخلفاء الراشدين من الجوامع ، واستبدال اسماء جنكيزخان وهولاكو وتيمورلنك بها . وقد أثار كل ذلك بالاضافة الى اضطهاد الترك للعرب وتنكيلهم بأحرارهم حفيظة عدد من الشعراء الذين يحلون الدين في المقام الأول ، وان الدوافع الدينية التي أثارت مشاعر عبدالمطلب ضد الحسين وثورته هي نفسها التي أثارت مشاعر شعراء الشام وحولتهم عن مناصرة الترك بعد أن طفح الكيل فالشاعر عبدالحميد الرافعي الطرابلسي الذي كان من أنصار الجامعة العثمانية والعاطفين على الترك ، انقلب ثائرا على الاتحاديين غيرة على دينه وعروبته معا وشرع يقول :

طلبتم الاصلاح من عصبة تموتر بالافساد أقواسها
تزعم حب الدين لكن كما يروج السلعة دلاسها
لو تألف القرآن ما حاربت لسانه حتى التوى فاسها

وقد عبر محمد الهاشمي احد شعراء العراق عن هذا الاتجاه الديني الممتزج بالروح القومية حين قال في أواخر الحرب الكبرى اثر اندلاع الثورة العربية من الحجاز [1] :

بني جنكيز ان الظلم عار وأمر لايقر به قرار
ألا من غائر منكم يغار على قوم بنوا للدين سدا

هم نشروه في شرق وغرب وفي فرس وفي روم وعرب
وفازوا من نبيهم بقرب

بني جنكيز ان الدين يشقى بحكمكم وان الشر يبقى
ويعلو في بلادكم ويرقى

لقد قامت على الدين القيامة وبدلت الخلافة والامامة
فما للدين عندكم كرامة

---

(1) ديوانه : عبرات الغريب ٧٠

ألم تكن الخلافة في قريش تولوها بأصلاح وريش
وانتم قد توليتم بطيش

توليتم بلاد المسلمينا فعثتم في البلاد مخربينا
قيام الحاكمين الظالمينا

أرى لهفة النبوة والكتاب تضاع فيا لذلك من عقاب
لدين محمد وأبي تراب

ولهذه الأبيات ، أهمية خاصة لأنها تصور لنا بوضوح حقيقة المشاعر الدينية والقومية التي دفعت بالعرب الى ثورتهم على الترك، وهي تعبر بجلاء عن شعورهم بأن الخلافة كانت فيهم وانها ينبغي ان تعود اليهم .

والمعروف ان عبدالرحمن الكواكبي كان أول من نادى بجعل الخلافة في العرب في كتابه المشهور "أم القرى" وهذه الفكرة في الواقع فكرة ثورية تجاوبت مع نفوس العرب الى حد كبير وكانت تقض مضاجع السلطان عبدالحميد الذى كان شديد الحرص على ان يستبقي في الآستانة بعض افراد الأسرة الهاشمية من أنجال الحسين كرهائن لديه حيطة منه تجاه كل حركة قد يقوم بها العرب في الحجاز أو غيرها لاسترجاع الخلافة منه ...

ولقد كان الشعراء بالأجمال يعبرون عن حنينهم الى ماضي الخلافة العربية ويتوقون الى استعادة عهودها الزاهرة ومنهم أبوالفضل الوليد الذى يقول (١) :

بغداد يا ثكلى الخلافة رجعي نوحاً له تتفتت الأكباد
اتعود فيك خلافة قرشية كانت بياضها والشعار سواد

---

(١) نفحات الصور ٦٨

— ٢ —

ثم تفاقمت الامور وقطع العرب ذلك الخيط المشترك الذى كان يشدهم الى الترك طيلة عهود مديدة حين قاموا بثورتهم الكبرى التي تعد انتفاضة فكرية واجتماعية وقومية قبل ان تكون ثورة سياسية مسلحة .

وبتأثير هذا العامل الديني أيضا ازداد الشعور القومي انطلاقا وأخذ العرب المسلمون يقابلون عنجهية الترك ونشدق صحفهم المتطرفة بأن راحوا يعتزون بعنصرهم العربي الذى كرمه الله حين جعل الرسالة الحنيفة فيه ، واختار منه محمدا نبيا للمسلمين ، وأنزل القرآن بلسانه المبين . وقد أشار الحوماني الى ذلك اذ قال : (١)

كفى العرب فخرا ان منهم محمدا
وأن له الشأو الذى ليس يلحق

واذا كان هذا شعور المسلمين الجديد الذى أخذ يتعاظم بتأثير مظالم الترك ابان الحرب الأولى ، فكيف حال شعور المسيحيين من العرب الذين كانوا يلاقون الويلات من التعصب الديني آنذاك ، وأية رابطة كان بوسعها أن تشدهم الى الترك وتشعرهم بالولاء نحوهم سواء أكانت هذه الرابطة دينية أم قومية . لقد عبر ايليا أبوماضي عن شعور هذه الفئة من العرب حين خاطب حكام الترك بقوله : (٢)

جريتم بالهلال الى محاق ولولا جهلكم بلغ التماما
اثرتم بيننا الأحقاد حتى ليقتل بعضنا بعضا خصاما

ثم يشير الى اتحاد المسلمين والمسيحيين بعد ان صهرتهم نيران التعصب والارهاب فغدوا يدينون بقومية واحدة :

---

(١) ديوانه : ٢٠٠

(٢) زهير ميرزا : ايليا ابوماضي شاعر المهجر الأكبر ١١١

وشاء الله كيدهم فبتنا ... كمثل الماء والخمر التئاما
وقالوا نحن للاسلام سور ... وان بنا الخلافة والأماما
فهل في دين أحمد ان يجوروا ... وهل في دين أحمد أن نضاما
الى كم يحصرون الحكم فيهم ... وكم ذا يبتغون بنا احتكاما

ولاريب ان شعور النقمة عند أبي ماضي نسج من خيوط البواعث الدينية والقومية معا . فقد أدى فقدان التسامح في سياسة العثمانيين وما سببه من مجازر ومآس الى ازدياد نفور المسيحيين الذين كانوا يحتملون عبء الضحايا في أغلب الأحيان، فراحوا يرقبون يوم الخلاص بلهفة ، وكان هذا الأمر شديد البروز في لبنان حتى أنه دفع بعضهم الى التعصب والتطرف كرد فعل مضاد في نفوسهم عند ما أخذوا يسعون الى الارتماء في أحضان الدول المستعمرة لاشتراكهم معها في العقيدة الدينية أيضا ، أملا في حمايتها لهم ، وعيشهم برعايتها في ظل الأمن والسلام .

وحين سقطت الآستانة في يد الحلفاء وأصبح الخليفة سجينا او كالسجين ، وجم الكثيرون ممن يؤيدون الجامعة الاسلامية حزنا على معقل الخلافة ودولة الاسلام ، وكان هذا الشعور أشد وضوحا لدى الشعراء في مصر بصورة عامة عبر عنه حافظ ابراهيم الذي لم ير في ذلك الاحتلال سوى جانبه الديني (١) :

أيا صوفيا حان التفرق فاذكرى ... عهود كرام فيك صلوا وسلموا
اذا عدت يوما للصليب وأهله ... وحلى نواصيك المسيح ومريم
ودقت نواقيس وقام مزمر ... من الروم في محرابه يترنم
فلا تنكرى عهد المآذن انه ... على الله من عهد النواقيس أكرم

ونجد مايماثل هذه العاطفة الدينية الحادة عند شاعر آخر عرف بقوة عقيدته الاسلامية وتحمسه لنظام الخلافة وهو أبو الفضل الوليد الذي كان قد اعتنق الاسلام . فقد أثار انتصار

---

(١) الديوان : ٢ ــ ٨٨

الغرب على العثمانيين واحتلالهم بلاد العرب حميته الدينية فراح يستنهض قومه لاستعادة مجد الخلافة وطرد المستعمرين وذلك في قوله [1] :

اغيروا كلكم عربا وغاروا
على الدين الحنيف الأحمدى
أمور المسلمين الى ضياع
بحكم المستبد العيسوى
صلاح الدين مات فهل سمي
لقاهرهم له بأس السمي
فيغدو الشرق حرا مستقلا
فتجمعه الخلافة من حرى

وواضح ان لهفته على زعيم يماثل صلاح الدين ، ويرد كيد الاستعمار عن وطنه ، يتضمن نظرته الى أن جيوش الغرب الزاحفة الى بلاد العرب لاتختلف في شيء عن الجيوش الصليبية التي اجتاحت الشرق العربي قبل بضعة قرون ٠

الا أن أبا الفضل الوليد لم يقتصر على هذه النظرة الدينية البحتة بل نظر الى جوهر الموضوع في علاقة الخلافة بالعرب والوضع الجديد الذى آلوا اليه بنتيجة نزول قوات الاحتلال في وطنهم وكان مما قاله آنذاك اثر انتهاء الحرب [2] :

الشام يقهر والعراق يضام	فاليوم لاعرب ولا اسلام
اين العروبة والخلافة منهما	والمسلمون بلادهم اقسام
لبني أمية أو بني العباس في	تلك الربوع أمانة وذمام
هل بعد غزوتها ونكبة اهلها	للمسلمين سلامة وسلام
أو هل تصح خلافة وامامة	حيث الفرنجة واليهود قيام

---

(١) = نفحات الصور ٣٢

(٢) = " " ١٠٩

هذه هي حقيقة شعور الفئة النيرة من المسلمين التي كانت تحبذ مبدأ الخلافة ونظامها في الحكم ولكنها لم تعد تفهم معنى لهذا الوضع الشاذ الذى تجلى في وجود خليفة ليس له من الأمر الا اللقب في حين غدا المسلمون في الشرق العربي يخضعون بالفعل لسلطة الاستعمار الأجنبية .

ثم كانت انتفاضة اتاتورك ضد الحلفاء وجنود اليونان في اعقاب الحرب الأولى بلسما لجراح المسلمين الذين احزنهم سقوط عاصمة الخلافة ، وكأنهم وجدوا في انتصاراته على دول الغرب ادراكا لثأر المسلمين ، واستعادة لهيبة الخلافة المتداعية . وقد هلل الشعراء للبطل الجديد وراحوا يعلقون عليه اوسع الآمال ، وهذا هو الرصافي يشيد به ويتفاءل باسمه : (١)

سمي المصطفى لازلت تعلو الى أوج يطاول كل أوج

وكانت فرحة عبد المطلب وهو من أبرز شعراء الجامعة الاسلامية كبيرة اذ انتشى بهذا الظفر ووجد فيه نصرا مبينا للمسلمين : (٢)

هذا مقامك شاعر الأسلام فقف القريض على أجل مقام
عادت صوارمنا الى أغمادها من بعد ماظفرت بخير مرام
هذا الحنيف يسير تحت ظلالها فخم الجلالة سامي الأعلام
ضحك الهلال لها الغداة وربما أجرى مدامعه شئون غمام

ولعل قصيدة شوقي اشهر ماقيل في ذلك الحدث حيث يقول : (٣)

الله أكبر كم في الفتح من عجب ياخالد الترك جدد خالد العرب
ولا ازيدك بالاسلام معرفة كل المروءة في الاسلام والحسب
للترك ساعات صبر يوم نكبتهم كتبن في صحف الأخلاق بالذهب
خيل الرسول من الفولاذ معدنها وسائر الخيل من لحم ومن عصب

---

١)) = الديوان ٤٤٠
٢)) = الديوان ٢٥٣
٣)) = الشوقيات ١ ـ ٦١

يوم كبدر فخيل الحق راقصة — على الصعيد وخيل الله في السحب
هزت دمشق بني ايوب فانتبهوا — يهنئون بني حمدان في حلب
ومسلمو الهند والهند ومرفيجذل — ومسلمو مصر والأقباط في طرب
ممالك ضمها الاسلام في رحم — وشيجة وحواها الشرق في نسب

ان افتتاح شوقي قصيدته بعبارة الله اكبر ، وتشبيهه اتاتورك بخالد بن الوليد ، وقرنه معركته بمعركة بدر ، ثم تصحيره عن فرحة مسلمي الأرض بذلك النصر .. كل ذلك ينم بوضوح عن ذلك الشعور الديني نحو الترك الذى كان امتدادا لشعور شوقي نحو العثمانيين من قبل ومظهرا جليا لأيمان الشاعر في كلا الحالين بالجامعة الاسلامية .

ولقد غاب عن هؤلاء الشعراء في الواقع جوهر حركة اتاتورك القومية فلم ينظروا اليها الا بذلك المنظار الديني الذى كان اتاتورك أبعد الناس عنه . وكان مما يعزز هذا الاتجاه في نفس شوقي اتصال نسبه بالترك . فقد لاحظ محمد حسين هيكل حين قدم لديوان شوقي الأول أن ماقاله أمير الشعراء في ذلك الجزء عن العرب ومايتصل بهم يشتمل ثلاث قصائد ، وماقاله عن الخلافة وعن الترك يشتمل ثماني عشرة قصيدة [1] اذ كان أمير الشعراء على حد تعبير هيكل " المعبر عن الميول والآمال الكمينة في نفوس المسلمين جميعا لا في نفوس المصريين وحدهم ، وحرصهم على وحدتهم ، وعلى كيانهم بازاء الأمم الغربية التي كانت تنظر اليهم بعين صليبية بحتة " .

وينبغي ان نلاحظ أن مانظمه الشعراء من شعر موال للعثمانيين لم يصدر جميعه بدافع الأيمان بالجامعة الاسلامية ، فقد كان منه شعر رسمي ينطق بلسان الحكام ويسبح بحمدهم ، طمعا في بلوغ مآرب وأملا في تحقيق مكاسب ، وكان بعضه يقال عن تقية ايثارا للسلامة وتجنبا للارهاب وبخاصة في الشام حتى انتهاء العهد التركي .

---

[1] انظر مقدمة الجزء الأول ص ١٣

على أن ما حدث بعد ذلك خيب آمال أنصار الجامعة الاسلامية اذ لم يلبث اتاتورك حتى اطاح بالخليفة العثماني وقضى على نظام الخلافة الاسلامي . وكانت هذه الحالة من أخطر ما واجهه المسلمون في تاريخهم الحديث فللمرة الأولى في حياتهم سقطت الخلافة بعد أن اتصلت حلقاتها خلال ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن تنقل مركز الخلافة فيها بين عواصم البلاد الاسلامية المختلفة ولكنه ظل في كل الأحوال رمزا للرابطة التي تجمع بين المسلمين في شتى بقاع الأرض (١) وكانت الصدمة كبيرة في نفوس شعراء الجامعة الاسلامية اذ شعروا بفراغ لايحد تجاه ذلك الحدث . وقد عبر شوقي عن شعور الخيبة المرير بعد ما علقه من آمال على اتاتورك في بعث الخلافة ، واعادة أمجادها حين رثاها بقوله : (٢)

عادت أغاني العرس رجع نواح	ونعيت بين معالم الأفراح
كفنت في ليل الزفاف بثوبه	ودفنت عند تبلج الأصباح
ضجت عليك مآذن ومنابر	وبكت عليك ممالك ونواح
الهند والهة ومصر حزينة	تبكي عليك بمدمع سحاح
والشام تسأل والعراق وفارس	أمحا من الأرض الخلافة ماح
وعلاقة فصمت عرا أسبابها	كانت ابر علائق الأرواح
نظمت صفوف المسلمين وخطوهم	في كل غدوة جمعة ورواح
ياللرجال لحرة موءودة	قتلت بغير جريرة وجناح

" ولم يكن أحمد محرم أقل من شوقي حزنا وصدق عاطفة في القصيدة التي كتبها بهذه المناسبة والتي يقول فيها " (٣)

---

(١) = محمد حسين : الاتجاهات الوطنية انظر ص ٢٨ فما يلي . .

(٢) = الشوقيات : ١ ــ ١١٤

(٣) = محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ٢ ــ ٣٠ والأبيات اختارها المؤلف من ديوان مخطوط للشاعر .

أعن خطب الخلافة تسألينا　　　أجيبي يافروق فتى حزينا
لقد فجع المروءة فيك دهر　　　أصابك في ذويك الأولينا

ثم استمرت معركة الخلافة على الصعيد الفكري وانقسم الناس بين محبذ لها وراغب عنها ، ولكن الكثيرين اخذوا يشببون مآل اليه أمر المسلمين آخر الأمر في ظلها ، وجعلوا ينفضون أيديهم من نظامها بعدما صارت الى شبح هزيل ، ووجد عدد ممن عرفوا بقوة عقائدهم الدينية في خطوة اتاتورك خيرا للمسلمين ورأوا في الحكم الجمهوري عودا الى نظام الشورى في الاسلام [1] ، ومن هؤلاء الشاعر محرم نفسه الذي يتعزى بزوال الخلافة المتداعية على الرغم من حزنه لسقوطها ويقول [2] :

ومانفع الخلافة حين تمسي　　　حديث خرافة للهازلينا
تموت تتجرع الآلام شتى　　　على ايدي الدهاة الماكرينا

وقد ظل بعض دعاة الجامعة الاسلامية يمنون انفسهم بعودة نظام الخلافة ويأملون في توحيد شمل مسلمي الأرض ، فأخذوا يتنادون لعقد مؤتمر اسلامي عام يهدف الى بحث الأمور والتداول في أمر ترشيح خليفة آخر للمسلمين ، اذ لايصح ان يكون هذا المنصب الأكبر شاغرا . وقد كانت مصر مركزا لهذا النشاط ، وقام الأزهريون بدور فعال في سبيل عقده .

وحين أتت الوفود من أقطار المسلمين تبين ان أكثرها كان يبيت أمر استخلاص الخلافة لبلده ، وان السياسة سخرت المؤتمرين لمآربها ، فكان أمان الله خان ملك الأفغان طامعا في الخلافة ، وكان الملك فؤاد يعمل في الخفاء لهذا الهدف ، عدا تطلع الشريف حسين المبكر اليها منذ أعلن ثورته ، ولم يسفر المؤتمر

---

(١)= محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ٢ : ٣٠ والأبيات اختارها المؤلف من ديوان مخطوط للشاعر .

(٢)= انظر محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ٢ : ٢٤ ـ ٤٥

عن شيء بسبب تعارض الأهواء (١) . أما الحسين فقد أعلن نفسه خليفة على العرب في هذا الجو من الانقسام وبايعه عدد من مسلمي الشام وبخاصة في شرق الأردن وفلسطين ، وقد نظم عدد من الشعراء في الشام حول هذه البيعة التي تمت عام ١٩٢٩ من ذلك ماقاله بدر الدين الحامد أحد شعراء سورية (٢)

تاج مجد الخلافة انتظما ... فوق رأس الخليفة العربي

يابني هاشم خلافتكم ... زنتموها بالحق والقضب

ياربوع الحجاز طبت ثرى ... فيك مجدي وفيك خير نبي

وفي ذلك يقول أيضا محمد كامل شعيب العاملي من ربوع لبنان مبايعا الحسين بالخلافة : (٣)

اليك مليك العرب مني بيعة ... مباركة عن أهل صيدا وعامل

أجل بايعتك اليوم فهر وهاشم ... وجاراهما آسار حرب ووائل

أبت أن ترى الاك للعرب ملجأ ... واعظم حام للخلافة كافل

غير أن معظم هذه القصائد التي قيلت حول موضوع بيعة الحسين كانت تفتقر الى الحماسة ، ولعل مرد ذلك الى الفترة غير المناسبة التي أعلن فيها الحسين نفسه خليفة ، حتى أن بعضهم استنكر سعي الحسين الى الخلافة مع أن عهدها ولى منذ أن أطاح بها الأتراك قبل قرون والى ذلك يقصد الزركلي حين انتقد الحسين (٤)

عجبا لمن طلب الخلافة في النجوم

اين الخلافة لاخلافة في الحديث ولا القديم

تلك التي ذهبت مع الأيام قبل ذوى (سليم)

---

(١) = انظر تفصيل هذه الأمور في محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ٢ : ٣٩ ـ ٤٥

(٢) = الديوان ١٤٧

(٣) = الحماسيات في النهضة العربية ١٨

(٤) = الديوان ٧١

وواضح ان الشاعر لا يقر الحسين على مطالبته بالخلافة ، كما أنه من جهة أخرى لا يعتبر سلاطين آل عثمان خلفاء • أى انه كان يرى حكمهم للعرب غير شرعي وان الخلافة لم يعد لها معنى بعد ان خرجت من ايدى العرب العباسيين • •

والواقع ان العرب قد نفضوا ايديهم من نظام الخلافة وبخاصة بعد ان شاركوا هم أنفسهم في تقويض اركانها بل ان الشكوك والريب اخذت تساورهم تجاه الحسين نفسه بعد ماتبين لهم ضعفه أمام الانكليز • وبنتيجة فتور الجماهير تجاه هذه البيعة ولانهماكها في مقاومة العدو الاستعماري الجديد تقلص نفوذ الحسين واكتفى بأن يعلن نفسه خليفة على الحجاز فحسب تحت ضغط بريطانيا لأسباب أهمها رغبة الحلفاء في حصر نفوذه هذا في بقعة محدودة ، واخلاء الجو لهم ليطلقوا يدهم في اجزاء الشام الأربعة •

وحين توفي الحسين بن علي بكاه الشعراء وندبوا حظه وحظ العرب والمسلمين ، ولكن قلة منهم في الشام والعراق ومصر اشارت الى تلك البيعة • اذ تجاهل اكثرهم ماكان من أمرها بعد أن انطوى الحديث عنها وعن موضوع الخلافة نفسه ، وثمة اشارات تلمح الى ذلك نمثل لها بقول أمين ناصر الدين يرثي زعيم الثورة العربية وقد وجد فيه حاميا حوزة الدين : (١)

نبكي الحسين مليكا اروعا بطلا   صدق اللقاء وحرا مخلصا وأبا
وحاميا حوزة الدين الحنيف تقي   وفاعلا في سبيل الله ماوجبا

— ٣ —

والواقع أنه منذ سقط الخليفة العثماني طرأ على مضمون الشعر القومي الحديث تطور كبير ، وأخذ يعبر عن شعور قومي

---

١) الالهام ٥

متعاظم بعيدا عن نظام الامبراطوريات . وادرك العرب ان عهد الخلافة قد ولى ، وأن اثارة موضوعها من جديد لم يجلب لهم الا الشقاق فجنحوا الى رفض مبدأ الخلافة جملة . وقد انعكس هذا الاتجاه لدى اكثر الشعراء في السنوات التي اعقبت الحرب الأولى ، وهذا محمد الأسمر ينكر على بعض المصريين تمسكهم بهذه المسألة ويعتبر الخلافة التي انهارت :[1]

(رواية) قذف الأتراك (مسرحها) عن ارضهم مثل قذف البحر للرمم

ونحن لسنا بدون الترك منزلة ونحن لسنا بدون الصين والعجم

هم حطموه ورحنا نحن نحمله فوق الكنانة حمل الهم والسقم

فهذه الأبيات تشير الى ان الشعراء اخذوا ينزعون الى نظام جديد في الحكم ويصدرون عن فهم صحيح للقومية .

واذا كان صوت دعاة الجامعة الاسلامية قد خفت بعد ذلك وتحول الى دعم جامعة العروبة بصورة عامة ، فقد ظل عدد من الشعراء يفتقدون الخلافة ونظامها بشيء من الحسرة ، ويرون فيها صورة من الماضي الزاهر ، بل انهم نشطوا مجددا للعزف على وتر الدين بعد ما ذاقت أمتهم من المستعمر الغربي ألوان العذاب . فهذه مصر والعراق وفلسطين والأردن أصبحت في قبضة الانكليز واستولت فرنسة على سورية ولبنان ، وغدا الشمال الافريقي نهبا مقسما بين الطليان والاسبان والفرنسيين ، لقد استيقظ الشعور الديني من جديد ليرفد المشاعر القومية المتعاظمة في نفوس العرب الذين لم تستسغ شعوبهم واكثريتها من المسلمين ان يتحكم فيها الغرب المسيحي . وقد عبر أبوالفضل الوليد الذي قيل انه اعتنق الاسلام في مهجره[2] عن هذه الظاهرة فقال منددا باستعمار فرنسة لأقطار الشمال الأفريقي :[3]

---

(1) ~~الالهـ...~~ الديوان ٧٩
(2) انظر جورج صيدح : ادبنا وادباؤنا في المهاجر ٢٠٧
(3) نفخات الصور : ٨١

من الفرنسيس بلوانا ونكبتنا فهل يظلون فينا مستبدينا
المريمات مذلات فواطمنا كما تذل الأناجيل الفراقينا
فما لنا قوة الا بسيدنا محمد فهو يرعانا ويحمينا
قد اصطفى بين كل الناس أمته كما غدا المصطفى بين النبيينا

والحق أننا لانكاد نجد شاعرا المتأمت في شعره العواطف الدينية والقومية الى هذا الحد الذى نراه عند هذا الشاعر المهجرى .

وهكذا استمر صوت الدين عاليا في الشعر القومي يؤدى دوره الفعال في مقاومة الاستعمار ، ويغذى الشعور القومي الملتهب في نفوس العرب . وقد حقق هذا الالتقاء الرائع بين المشاعر الدينية والقومية بعد الحرب العالمية الأولى انتصارات باهرة للحركات الثورية التحررية في البلاد العربية ، وكان في مقدمة الذين تحولوا الى مناصرة الفكرة العربية وفهموا العروبة والقومية فهما اسلاميا عبدالحميد الرافعي وشكيب ارسلان وأحمد شوقي وحافظ ابراهيم وأحمد محرم وعلي الجارم وعلى الجندى ..

وحين قامت ثورة العراق ضد الاحتلال البريطاني كان العامل الديني من أهم مقوماتها نظرا لأن الشعور القومي لم يكتمل نضجه حتى ذلك الحين لدى الشعب العراقي وقد كان كثير من زعماء الثورة من رجال الدين وعلى رأسهم قائدها الروحي الأمام محمد تقي الشيرازى الذى كان لفتاواه بأعلان الجهاد المقدس ضد الأجنبي المحتل وتحريم طاعته أثر كبير في الهاب المشاعر الوطنية وايقاد نار الثورة ، كما أن عددا من شعراء تلك الثورة كانوا من رجال الدين والأدب أيضا وكثير منهم من الشيعة القاطنين في الحلة والنجف الأشرف مثل محمد رضا الشبيبي ومحمد باقر الشبيبي وعبد الغني الخضرى ومحمد مهدى البصير وعبدالحسين الأزرى وعلي الشرقي وسواهم .. وهذا الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء يقول (١)

---

(١) انظر عبدالكريم الدجيلي : محاضرات في الشعر العراقي الحديث ٦٤ عن مجموعة مخطوطة للشاعر .

كم نكبة تحطم الاسلام فيها والعرب
والانكليز اهلها فتش تجد هم السبب

وحين خرج محمد سعيد الحبوبي رائد الشعر العراقي الحديث من الضريح العلوي في النجف يريد قتال الانكليز ابان الحرب الأولى كان مدفوعا بشعور ديني جارف . وقد ارسل اليه محمد القزويني هذين البيتين اللذين يؤكدان هذه الظاهرة لدى الشاعر المجاهد : (١)

نحن بني العرب ليوث الورى   دين الهدى فينا قوى عزيز
لابد أن تزحف في جحفل   تبيد فيه جحفل الانكليز

ولئن تردد كثير من السوريين في الالتحاق بالثورة العربية الكبرى التي نشبت ضد الحكم العثماني عام ١٩١٦ وذلك اشفاقا منهم على نظام الخلافة واشهار السلاح في وجه اخوتهم المسلمين والترك لقد أجمعوا أمرهم بعد ذلك وبادروا الى قتال الفرنسيين . وحين نشبت الثورة السورية عام ١٩٢٥ كانت النفوس مفعمة بالشعور القومي ومع ذلك كان للشعور الديني اثره الكبير في تغذية حركة النضال ضد المستعمرين ولهذا اختلط مفهوم الدين والقومية في قصائد كثيرة . وهذا الشاعر محمد على الحوماني يصدر عن هذا الاتجاه بقوله : (٢)

مجد العروبة أقفرت عرصاته   والضيم حل به فأين أباته
الله للاسلام هدم صرحه   والى الحضيض تساقطت شرفاته

ومن ذلك أيضا ماقاله شوقي في قصيدته المشهورة دمشق : (٣)

ألست دمشق للأسلام ظئرا   ومرضعة الأبوة لاتمحق

كما عبر أحمد زكي أبوشادي عن هذا الجانب الديني تجاه هذه الثورة

---

(١)= المصدر السابق ٣٣ عن مجموعة مخطوطة ايضا
(٢)= الديوان ٩
(٣)= الشوقيات ٢ ـ ٨٨

فقال : (١)

ريعت لنكبة مجدك الأحلام   وبكاك باسم فخاره الاسلام
حرب الصليب رددتها في أمسهم   شرفا فعادوا ينقمون فهاموا

وقد استيقظت الحمية الدينية قوية في نفوس كثير من الشعراء عندما أخذ الفاشيست من الطليان ينكلون بأحرار العرب في طرابلس الغرب ، اذ ارتكب المستعمرون هناك فظائع رهيبة تجاه المسلمين في تلك البقعة العربية وعبثوا بمساجدهم . وكان ما أبدوه من ضروب التعصب الأعمى جديرا بأن يستفز مشاعر العرب والمسلمين بل البشر كافة ، وقد أثارت الأحداث المؤلمة عام ١٩٣١ التي انتهت بمقتل عمر المختار قرائح شعراء العرب على اختلاف ديارهم من أشهرها مانظمه أمير الشعراء شوقي مستنكرا شنق شيخ بلغ السبعين من السنين ولم تكن جريرته الا الذود عن وطنه وقد أشار شوقي الى فقد الاسلام له بقوله : (٢)

ركزوا رفاتك في الرمال لواء   يستنهض الوادي صباح مساء
المسلمون على اختلاف ديارهم   لايملكون مع المصاب عزاء

كما عبر احمد محرم عن تلك الفضية التي شملت العرب والمسلمين على السواء فقال : (٣)

ذعر (الحطيم) وراع (يثرب) عاصف
للموت ضج لهوله الحرمان
سهم اصاب المسلمين وجال في   كبد الهدى وحشاشة الأيمان
وارحمتا للمسلمين تفرقوا   وتباعدوا في الأرض بعد ثوان

وهذه القصائد تذكرنا بحروب مماثلة جرت بين الطليان أيضا وبين العثمانيين فوق تلك الأرض نفسها قبيل نشوب الحرب العالمية الأولى

---

(١)= ديوان الثورة ٨٨   (٢)= الشوقيات ٣ ـ ١٧
(٣)= محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ٢: ١٥٤ عن ديوان مخطوط للشاعر

وكيف تطوع آنذاك آلاف العرب الى جانب الترك لطرد الدخيل من طرابلس، مما أثار قرائح الشعراء على نطاق واسع . ولاريب أن ماتظمه الشعراء في رثاء المختار كان يستدعي هذا الاهتمام بالجانب الديني من شخصية الفقيد الكبير فهو رأس الأسرة السنوسية ذات النفوذ الروحي البارز والمكانة الدينية السامية ، وكان نضاله المستميت ضد الاستعمار نموذجا لالتقاء العقيدة الدينية والقومية . والى ذلك أشار اكثر الذين رثوه من الشعراء .

والواقع ان الشعور الديني لم يتجل قويا في الشعر القومي المعاصر الا من خلال مانظمه الشعراء من قصائد حول احداث فلسطين منذ أن وضعت الحرب الأولى أوزارها . فقد تميزت القضية الفلسطينية بطابع قومي وديني مما نظرا لوقوع احداثها في الأرض المقدسة مهد عيسى ومسرى محمد ومهبط سائر الرسل .

وبالأضافة الى العرب اهتم مسلمو الأرض قاطبة بما يجرى حول المسجد الأقصى من مسآس، كان وقودها اخوانهم في الاسلام . ويعتبر انعقاد المؤتمر الاسلامي العام في القدس دليلا على اهتمام مسلمي العالم بما يحدث في الديار المقدسة . ومن هذه الزاوية أيضا نظر كثير من الشعراء العرب الى نضال الشعب في فلسطين على أنه جهاد مقدس يقوم به المؤمنون دفاعا عن عقيدتهم ومنافحة عن ارضهم الطاهرة ولذلك كان للعامل الديني أثره في الهاب المشاعر ضد الصهيونية . وقد عبر الشاعر العراقي محمد علي اليعقوبي عن هذا الشعور مخاطبا زعماء المسلمين بقوله :(1)

مثلتم الاسلام في مجلس	كنتم به السمع له والبصر
صونوا حمى الدين الحنيفي من	تلاعب الشرك وايدى الغير
والبيت والأرض التي شرفت	بالمصطفى والطيبين الغرر
والمسجد الأقصى الذى قد سرى	منه لأعلى العرش خير البشر
فاغتنموها انها فرصة	أتاحها للمسلمين القدر

(1) الفلسطينيات ١٦

ومما قاله اليعقوبي في هذا الاتجاه أيضا (١)

ايغتصب البراق شذاذ قوم   برغم المسلمين وهم شهود

ومن هذا القبيل أيضا ماقاله أبوالفضل الوليد

قد أذلوا العربي المسلما   ليهودى زنيم شرس

ضامه في المسجد الأقصى كما   ضام عيسى وسط بيت المقدس

ويقسم أحمد محرم بمجرى الوحي : (٢)

لاومجرى الوحي من مقدسها   لن تروها ليهود مطمعا

ونستشف هذه النظرة الاسلامية تجاه أرض فلسطين المقدسة لدى عمر بهاء الأميرى اذ يقول (٣)

يافلسطين ياتراث النبوة   يالسان المجد الأثيل المفوه

.. الأباة الكماة تهتز ثأرا   كلما ممرج الرسول تأوه

أما محمد عبدالغني حسن فيشير الى تلك الرابطة الدينية التي تربط المصريين بأخوتهم في فلسطين ويقول (٤)

نحن في الهم اخوة جمعتنا   فكرة حرة وقربى ودين

— ٤ —

والظاهرة التي اخذت تميز الشعر القومي الحديث منذ نهاية الحرب الأولى ، استمرار العاطفة الدينية فيه الى جانب الشعور القومي . ولكن الروح الوطنية والمشاعر القومية أخذت تنمو باطراد على حساب الجامعة الاسلامية التي كان لها شأن كبير قبل الحرب العالمية الأولى وفي أثنائها . وذلك بفضل الثورات

---

١))= الفلسطينيات ٥

٢))= محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ٢ ـ ٥٥ عن ديوان مخطوط للشاعر

٣))= من ديوانه المخطوط " في بلادى "

٤))= من وحي الحياة ٩٨

القومية المتوالية في العالم العربي التي ابتدأت حلقاتها بالثورة العربية الكبرى، ثم ثورة مصر عام ١٩١٩ فثورة العراق والثورة السورية واخيرا ثورات فلسطين المتعددة . ففي مصر تحول الشعراء ومعهم الرأى العام عن فكرة تأييد تركي يتربع فوق عرش في الآستانة ، الى الالتفاف حول الوطن المصرى ودعم كيانه ، وقد رأينا مثالا لهذا التحول في أحمد شوقي بعد عودته من منفاه في الأندلس / أما في العراق وفي الشام التي تضم سورية ولبنان وفلسطين وشرق الأردن فقد أخذ الشعور القومي يتعاظم منذ ثار اهل تلك المناطق على الخلافة العثمانية والنفوذ التركي ، وكانت العروبة هي السمة البارزة لدى شعرائهم الذين عزفوا ألحان القومية على وترين اثنين هما تحرر العرب ووحدتهم . في حين اقتصر شعراء مصر على العنصر الوطني والجامعة المصرية وحدها أى على التحرر فحسب دون اى شيء آخر .

وهذا الأمر جدير بأن يستوقفنا ويقودنا الى اكتناه وتتبع آثاره في الشعر . الواقع ان انفراد مصر بالاحتلال البريطاني في وقت مبكر وقبل ان تبتلى بمثله سائر أقطار الشرق العربي وضع المصريين في وضع معين جعل قضيتهم تختلف عن سائر قضايا الشام والعراق التي بقيت خاضعة للحكم العثماني المباشر سنوات طويلة أخرى . ثم نما هذا الحاجز بتأثير البريطانيين ولم يعد المصريون بعد ذلك يتجاوبون مع قضية انفصال العرب عن الترك وبالتالي لم يتحمسوا لثورتهم ابان الحرب بل استنكروها أيضا . ولم ينته أمر هذا الافتراق الا بعد أن وحدت الأحداث بينهما عندما شمل الاستعمار بلاد الشام والعراق منذ انتهت الحرب الأولى ، ومنذ ذلك الحين أصبح العدو مشتركا وبدأت الفكرة العربية تنمو على ضفاف النيل وتنطلق من مكامنها . ولذلك وجدنا مفهوم العروبة يتلفع لدى اكثر الكتاب والشعراء في مصر بثوب اسلامي واضح المعالم . كما أن المفهوم القومي بدا غائما فيما نظم من الشعر اول الأمر . ومن مظاهر هذه الروح القومية التي بعثت مجددا

في مصر وارتدت ذلك الطابع الاسلامي أبيات لحافظ ابراهيم في (تحية الشام) يقول فيها :[1]

(النيل) وهو الى (الأردن) في شغف يهدى الى (بردى) اشواق ولهان
وفي (العراق) به وجد (بدجلته) (وبالفرات) وتحنان (لسيحان)

فعلى الرغم من بروز الفكرة العربية في بيتي حافظ يستوقفنا ورود كلمة سيحان فيهما . وسيحان هذا أو سيحون نهر في آسيا الوسطى الروسية يصب في بحر آرال ، وقد ذكره الشاعر في عداد مناطق العروبة نتيجة لفهمه الخاص للوحدة العربية وعدم تمييزه بينهما وبين الوحدة الاسلامية ، الا اذا كانت القافية اضطرته الى ذلك وهذا مالا نرجحه لدى شاعر كبير مثل حافظ ابراهيم .

وقد نظم محمود أبوالوفا قصيدة مطولة أسماها (اذاعة اسلامية) ذكر في تقديمه لها[2] أنه راح يفكر في حال البلاد العربية الاسلامية ، وينتقل بخياله من تونس الى طرابلس الى جاوة الى حضرموت ثم الى العراق وأخيرا يعود الى مصر . وقد خص الشاعر كل بلد من هذه البلاد بأبيات تحدث فيها عن شئونها وشجونها ، ونحن نلاحظ أن جميع ماذكره من هذه الأقطار كان عربيا باستثناء جاوة ، وهذا شبيه بما وجدناه آنفا لدى حافظ حين حشر سيحان في جملة البلاد العربية على صعيد واحد . وربما ترجع اقتصار ابي الوفا على ذكر جاوة المسلمة دون ان يردفها بأيران وتركيا والأفغان وسواهما من الأقطار الاسلامية ، الى ماكانت تعانيه هذه الجزيرة وأخواتها من المناطق الاندونيسية آنذاك من وطأة الاستعمار الهولندى ..
ولكن الغريب ان يبلغ الشاعر هذه الآثار من الشرق الأقصى ولا يرد

---

(١) الديوان ١ ـ ١٣٩
(٢) أشواق ١٠٧

في اذاعته الاسلامية ذكر للشام أو لسورية التي كانت تغلي كالبركان في ظل الحكم الفرنسي . ومع ذلك استأثرت بلاد العرب وقضاياهم بأكبر اهتمام الشاعر في اذاعته الاسلامية . .

ولعل من ابرز مايشير الى هذه الظاهرة قصيدة لشاعر مصري آخر هو محمود غنيم نظمها عام ١٩٣٥ أي في فترة متأخرة نسبيا ، ومع ذلك فأن الفكرة العربية لم تبد جلية خلالها بل كانت متداخلة بالفكرة الاسلامية أيضا (١)

~~أني اتجهت الى الاسلام في بلد~~ ~~تجده كالطير مقصوصا جناحاه~~
~~ومع العروبة كان الكون مسرحها~~ ~~فأصبحت تتوارى في زواياه~~
~~كم بالعراق وكم بالهند من شجن~~ ~~شكا فرنسه الأحرام شكواه~~
مابال شمل شعوب الضاد منصدعا   رباه أدرك شعوب الضاد رباه
عهد الخلافة في العصفور قد درست   آثاره طيب الرحمن مثواه
اني لأعتبر الاسلام جامعة   للشرق لامحض دين سنه الله
سل المعالي عنا اننا عرب   شعارنا المجد يهوانا ونهواه

وتسير سائر الأبيات على هذا النحو من الازدواج بين العروبة والاسلام . وكما هو جلي تبدو الجامعة الاسلامية اكثر بروزا لدى الشاعر غنيم الذي يضطرب في فهمه للعروبة ويرى أنها تعني الشرق والضاد والاسلام .

وما أكثر مانصادف في دواوين الشعراء من عناوين لقصائد أو عبارات في الأبيات نفسها تشير الى عدم التمييز بين العروبة والاسلام من نحو : نصر للعرب والمسلمين ، او فقيد العروبة والاسلام او ماكان من هذا القبيل ، وثمة مثال نورده في قصيدة لشاعر آخر هو علي الجندي نظمها بمناسبة وفاة فيصل الأول ، واطلق عليها اسم (مأتم العروبة والاسلام) وهي تصور الى حد بعيد قوة الاتجاه الاسلامي وطغيانه على الفكرة القومية ، واذا كان في

---

(١) الديوان ٧٨

العنوان ذكر للعروبة فليس في القصيدة كلها ذكر لها أو للعرب او حتى للثورة العربية التي كان فيصل بطلها الأول ، وكل ماوجده الشاعر في الفقيد أنه ربيب هاشم وسليل سبط الرسول ، فهو يعزى عنه آل البيت دون أن يرى فيه أكثر من شخصية دينية فحسب، في حين ان فيصل يعتبر رائد الزعماء العرب الذين فهموا القومية العربية بعيدة عن الاسلام ، واتجهوا الى فصل الدين عن الدولة على أساس قومي محض . وثمة قصيدة أخرى للشاعر نفسه يرثى فيها احمد زكي باشا ويجعل عنوانها (شيخ العروبة) ولكنها برغم هذا العنوان المستمد من لقب الفقيد لاتكاد تشير الى العرب والعروبة الا في بيتين من بين خمسين بيتا . ولعل من أهم اسباب هذا التصور الديني المحض للمسائل القومية عند الشاعر الجندى وعند محمود غنيم أنهما نشآ نشأة اسلامية وتخرجا في كلية دار العلوم .

وكذلك يمكن ان نعتبر ارجوزة شوقي المطولة (دول العرب وعظماء الاسلام) التي نشرت في ديوان مستقل من أهم الأمثلة على اختلاط المفهومين العربي والاسلامي وتداخلها في أذهان الكثيرين من الشعراء ، وهذه الملازمة بين المفهومين التي تطالعنا في عنوان الأرجوزة نفسه مردها في الواقع الى هذا التداخل الكبير بين التراث العربي والاسلامي وتاريخهما بحيث يبلغان درجة التوحد في كثير من الأحيان ، والى ذلك يشير شوقي حين يتحدث عن اللغة العربية ويعتبرها الاساس الأول في كيان العرب وصرح الاسلام .

والأمثلة على هذا التلازم تبلغ حدا من الكثرة بحيث تكفي الاشارة اليها . واكثر ما يتجلى ذلك في القصائد الكثيرة التي نظمت في الرسول عليه السلام بمناسبات ذكرى مولده أو غزواته او حلول العام الهجرى وغير ذلك مما هو طافح في دواوين

الشعراء (٢) .

ويعتبر أحمد محرم مثالا بارزا لتحول أنصار الجامعة الاسلامية الى الجامعة العربية ، برغم عدم اتضاح الفكرة القومية لديه أيضا ، فهو يقول ابان الحرب العالمية الثانية حين بدأت المباحثات لتأسيس جامعة للدول العربية : (١)

أمم العروبة جاء يومك فاعملي	والى مكانك فانهضي وتقدمي
هذا زمان ليس يفهم اهله	الا حديث النار او لغة الدم
امم العروبة جد جدك فانظمي	من عقدك المنثور مالم ينظم

فالملاحظ ان الشاعر يعتبر شعوب الأقطار العربية أمما شتى تريد اليوم أن تتحد ، قبل ان يرى فيها أمة جزأتها الفير وأنها تنزع الى استعادة ما الفاعهدها .

وكذلك يبدأ هذا التحول الى الاتجاه العربي لدى شوقي الذى " لم يكن يذكر العروبة قبل الحرب الأولى الا على هامش مدائحه في الترك أو في الرسول الكريم " (٣) .

ومما لاريب فيه ان الروح القومية اخذت تسرى سريعا بعد ذلك في شعر المصريين ونثرهم بفضل وحدة القضية ووحدة الآمال والآلام والمصير بين الشعوب العربية التي صهرتها الأحداث وألفت بين قلوب ابنائها .. والحق ان احتضان بعض المؤسسات الدينية في مصر كالأزهر وجمعية الأخوان المسلمين والشبان المسلمين ، للدعوة

((١ = محمد حسين : الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ٢ ـ ١٧٥ عن ديوان مخطوط للشاعر .

((٢ = كان عبد الرحمن عزام الأمين العام لجامعة الدول العربية يفهم العروبة على اساس ديني اسلامي وهذا واضح في كتابه " الرسالة الخالدة " فهو يمجد العنصر الديني والروحي في اقامة الأوطان ، بل ينتقد القومية والوطنية ويلتمس الدولة والعلاقات الدولية في تعاليم الاديان السماوية .

((٣ = شوقي ضيف : شوقي شاعر العصر الحديث ١٥٦

العربية كان له تأثير بالغ في دفع الحركة القومية الى أمام ، اذ التقى دعاة الجامعة الاسلامية بدعاة العروبة على صعيد التحرر الكامل ، ووجدوا في الوحدة العربية مرحلة كبيرة نحو الوحدة الاسلامية المنشودة (١) يضاف الى ذلك مركز مصر العريق في صون الثقافة العربية والتراث الاسلامي على مر العصور ، وكونها بؤرة النهضة الأدبية الحديثة،ومن هنا تتضح لنا أيضا بعض اسباب اختلاط مفهوم العروبة والاسلام لدى كثير من شعراء مصر .

ولعل مؤتمر ادباء العرب الذى انعقد في القاهرة عام ١٩٥٨ واقتصرت ابحاثه على الأدب والقومية العربية ، خير دليل على استمرار صفة التلازم بين المفهومين العربي والاسلامي الذى لم تنفصم عراه في نفوس بعض وفود العالم العربي من خلال ما ألقوه من كلمات وتعليقات وقصائد ، وذلك على الرغم من ان الفكرة القومية قد تغلغلت في نفوس العرب وتجلت في الشعر المعاصر الى حد لا مثيل له من قبل .

وبعد فقد اكتفينا بتتبع العامل الديني في الشعر القومي المعاصر ، دون أن نعنى بالشعر الديني المحض الذى نجد نموذجا منه في " الالياذة الاسلامية " لأحمد محرم وفيه يؤرخ الشاعر لغزوات الرسول في قصيدة مطولة شبيهة بشعر الملاحم ، أو في علوية عبد المطلب وفي عدد من أماديح الشعراء في الرسول عليه السلام ، وكثير مما نظمه الشعراء الشيعة العراقيون في علي والحسين رضي الله عنهما .

ومن حسن الحظ ان تحول الكثيرين من أنصار الجامعة الاسلامية الى دعاة متحمسين للعروبة جاء في الوقت الذى أخذت فيه الدعوات المنحرفة الضيقة تستشرى في نفوس المصريين واللبنانيين وتنعكس بقوة في قصائد الشعراء .

---

(١)= انظر تفصيلات هذه العلاقة في : الدكتور اسحق موسى الحسيني الاخوان المسلمون .

ومن كل ماسبق ومن خلال رصدنا للاتجاه الاسلامي في الشعر القومي المعاصر نستطيع القول ان العاطفة الدينية كان لها منذ عصر الرسول المقام الأول في نفوس الشعراء واستمر شأنها كذلك حتى أواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين ، وحين بدأت بوادر الشعور القومي تتسرب الى نفوس العرب نتيجة لعوامل سياسية واجتماعية وتأثيرات فكرية خارجية انعكس كل ذلك في الشعر واخذت الفكرة العربية الشاملة او الفكرة الوطنية المحلية تنافس الجامعة الاسلامية الكبرى برغم ان كلتا الجامعتين العربية والاسلامية كانت في جوهرها حركة بعث واحياء تهدف الى استعادة الأمجاد الماضية ، ولم شعث الشعوب المتآخية التي فرقها الدهر ، ومزقتها الفير والأحداث . الا أن الوحدة الاسلامية غدت مثلا أعلى ينشده الشعراء وسائر الناس في غير أوانه ولئن اشتدت الدعوة اليها في بعض الأحيان فانما حدث ذلك في أحوال طارئة نجمت عن استفزازات الغرب المسيحي . والواقع أن هذه الدعوة لم تفلح حتى في العهود الماضية في تكتيل ملايين المسلمين المنتشرين في أقطار متباعدة من آسيا وافريقيا تفصل بينهم اراض شاسعة ، وثقافات مختلفة ، ولغات متعددة ، واتجاهات متباينة . لقد استطاع الاسلام أن يوحد عقيدة عدد من الأمم ، ولكنه لم يستطع أن يقضي على قومياتها او يوحدها فبقيت فرسا وأتراكا وهنودا وعربا .

ويمكننا أخيرا ان نخلص من خلال هذا الفصل الى الأمور التالية :

١ - كانت البواعث الدينية غالبة على الشعر القومي حتى الحرب العالمية الأولى ، نتيجة ظروف تاريخية واجتماعية عميقة الجذور.

٢ - ازداد تمسك الشعراء بفكرة الجامعة الاسلامية برغم تداعي نظام الخلافة ، حرصا على مجابهة الغرب الذي كان ينظر الى العرب والمسلمين بعين صليبية .

٣ - ظل الشعراء يترنمون بنغمة الخلافة ويتوقون الى اعادتها برغم انهيارها ، يدفعهم الى ذلك حنينهم الى الأمجاد السالفة

في ظل خلفاء بني أمية وبني العباس .

٤ ـ كان الشعراء الذين هاجموا المستعمر بعنف ، وبخاصة في مصر هم بالأجمال من الذين اعتنقوا العقيدة الاسلامية واستلهموا صراحة العرب وابناءهم .

٥ ـ كان لشعراء الجامعة الاسلامية فضل كبير في الوقوف ضد النزعات الوطنية الضيقة وخاصة في مصر .

٦ ـ ظل العنصر الديني كسبا كبيرا للنضال القومي ، اذ أمده بنار جديدة ضد المستعمرين كان الشعر القومي يفتقر الى مثلها في معركته ضد العثمانيين .

٧ ـ تحول اكثر شعراء الجامعة الاسلامية ودعاتها وبخاصة بعد سقوط الخلافة العثمانية الى دعم الاتجاه العربي وذلك بالسعي لأعادة الخلافة الى العرب أول الأمر ، ثم خطوا خطوة اخرى في الدعوة الى رابطة العروبة باعتبار عدم التنافي بينهما ..

٨ ـ اخذت الروح القومية تنافس العامل الديني باطراد وتنمو على حساب الجامعة الاسلامية في الشعر المعاصر منذ الحرب العالمية الأولى .

٩ ـ اختلاط الدين بالقومية كان أحيانا سلاحا ذا حدين فهو من جهة زاد النضال القومي قوة ولكنه من جهة أخرى أوجد الحذر في نفوس المسيحيين من طغيان الاكثرية المسلمة عليهم مما أفسح المجال لأحابيل المستعمر والنزوات الاقليمية المنحرفة ..

١٠ ـ ظل عدد من الشعراء يحوك قصائده القومية نسيجا سداه الاسلام ولحمته العروبة دون ان يستطيعوا التمييز الدقيق بينهما في شعرهم ، وذلك نتيجة لعمق جذور الاسلام في النفوس ، وتشابك تراث العرب والمسلمين .

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

الفصل الثاني

بين الرابطة الشرقية
والرابطة العربية

— ١ —

لعل اطلاق كلمتي الشرق والغرب كان يعني منذ القرون الوسطى شطري العالم القديم شطر آسية وافريقية وشطر أوربة .

ويبدو ان بوادر الرابطة الشرقية اخذت في البروز منذ الحروب الصليبية التي كانت في جوهرها استعمارا أوربيا تجلبب بالدين ، اذ أن الحماسة الدينية كانت الحافز الوحيد الذى استطاع آنذاك سوق الجحافل الجرارة الى الشرق تحت لواء الكنيسة بحجة تخليص الأراضي المقدسة من أيدى المسلمين . وهكذا ارتبطت تلك الحملات الغربية بالتعصب الديني في أذهان الشرقيين .

غير ان الروح الشرقية اخذت تستيقظ مجددا في العصر الحديث وعلى نطاق شامل بشكل شعور غامض بالتعاطف بين بلاد متعددة ، وذلك كرد فعل للتوسع الاستعمارى وغزو الشرق . وغدا اكثر اجزاء آسية وافريقية فريسة في قبضة بضع دول اوربية . ومن ذلك يتضح ان هذه العاطفة بين الشرقيين تكونت نتيجة ظروف بعينها وازاء خطر مشترك طارئ ، فهي أبعد ماتكون عن قوة الرابطة الحقيقية التي نجدها في الدين او في القومية او الروابط الأخرى ..

والواقع أنه منذ عصر التوسع الاستعمارى في القرن التاسع عشر اخذت الهوة تتسع بين شطرى العالم القديم حتى انقلب هذا الشعور الى عداء متبادل بين الشرق والغرب . وقد دأب بعض المفكرين في اوربا على تعميق هذه الهوة ووضع فلسفات ونظريات تجعل هذين الشطرين على طرفي نقيض ، وكان من أشهرهم الشاعر الاستعمارى رديارد كبلنغ الذى قال جملته المشهورة (الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا) ، بالأضافة الى النظريات العرقية التي قامت على أساس من ازدراء شعوب الشرق وتبرير استعمار الغرب لها .

وقد برزت النزعة الشرقية بوضوح في الشعر القومي المعاصر على أثر الحروب التي وقعت بين الدولة العثمانية وبعض الدول الغربية مثل حرب الروس (١٨٧٨) ثم حرب اليونان (١٨٩٧) ، ثم حرب طرابلس ضد الطليان (١٩١١) وأخيرا حروب البلقان (١٩١٣) .

وكان نضال العرب والمسلمين عامة جزءا من نضال الشرقيين ضد الغرب المستعمر . ومن هنا أصبح مفهوم الشرق رجراجا ، وكثر استعماله في الشعر والنثر والصحافة ، فتارة يقصد به الجامعة الاسلامية ، وتارة أخرى يراد به العالم العربي وأحيانا كان يشمل الشرق بأجمعه . أما الغرب فقد ارتبط في أذهان هذه الشعوب بالجشع والغزو والاستعمار منذ عهد الصليبيين . وقد أشار علي الجندي الى ذلك حين قارن بين صلاح الدين بطل الشرق وبين ريتشارد قلب الأسد قائد الغرب بقوله : (١)

حامي القدس اين ريتشارد لا أين — قضى (الليث) وانطوى حلفاؤه
فارس (الغرب) راعه فارس الشرق — ويدري فضل الفتى اكفاؤه

ومن هنا كان التعميم في مدلول كلمة الشرق واطلاق الشعراء لمعناه بمقابل حقيقة المعضلة المشتركة التي تتركز في الجشع الاستعماري ضد البلاد الآمنة . وقد أخذ الشعراء على عاتقهم أن يبشروا برسالتهم ، ويبصّروا شعوبهم بما يحوكه الغرب ضدهم . من ذلك مثلا مانظمه الرصافي من أبيات اشار فيها الى ضحك الحق تجاه مايدعيه الغرب من رعاية لمبادئ العدالة والحرية والمساواة وشر البلية مايضحك : (٢)

وكم قد سمعنا ساسة الغرب تدعي — بأشياء من بطلانها ضحك الحق
فهم منعوا رق الأسير وانما — اجازوا لهم أن يشمل الأمم الرق

---

(١) = اغاريد السحر ٧٨
(٢) = الديوان ٤١٥

وقد نسج الزهاوي ابياته من شعور الحذر والمقت تجاه الغرب الكائد : (١)

الغرب يلقاك من مكره — بوجه طلق
ياشرق لا تأمنه فالغرب غير صديق

وكذلك يحذر الياس قنصل أمته من احابيل الغرب الماكر (٢).

اياك ى الغرب تسعى فاحذروها فقد تخذت أديم اللطف مكرا
تصافحكم ولكن عن ريا٠ وتشمل من هشيم الخلق جمرا

ويصور الشيخ فؤاد الخطيب علاقة الشرق المغبون بالغرب العاتي فيقول (٣)

ايها الشرق انت في خدمة الغرب — كما يخدم اليتيم الوصيا
فهو يعتصر من دمائك ماشاء — وقد عز أن تراه رضيا

وقد دأب الشعراء على حث الشرق السادر الغافل على النهوض وحضه على الثورة ، وبخاصة في فترات الركود والاستسلام لمشيئة الأجنبي . وهذا ولي الدين يكن يهيب بالشرق ان يثب فيقول (٤)

ياشرق لج بك العداة هوى ياشرق اغراهم بك الطمع

او يقول :

فلينهض الشرق أهل بجدته قد آن ان ينهضوا وان يثبوا

وبهذه الروح يخاطب مصطفى الغلاييني ابناء الشرق وفيهم قومه : (٥)

بني الشرق طال النوم فيكم فأيقظوا رقودا تشاوى غفلة وسبات
لقد طال هذا الليل ياشرق فاستفق
وهب الى أيامه النحسات
بني الغرب رفقا بالضعيف فقد كفى
بني الشرق يلقون منكم ضربات
دعوا الشرق يحيا وحده في اعتزاله فما يبتغي منكم لهى وهبات

---

(١) = رباعيات الزهاوي ٨٠ (٢) = السهام ٤١
(٣) = الديوان ٥٥ (٤) = الديوان ١٤
(٥) = الديوان ١٥٠

وكذلك يحث شفيق جبري هذا الشرق على الوثوب ضد ذئاب الغرب بقوله : (١)

ياشرق مالك لاتضيق	وقد بدت منك المقاتل
والغرب قد نصب الحبا	ئل في المخارج والمداخل
عز النصير فليس ينصر	في الشدائد والنوازل
الا الأسنة والصوارم	والمدافع والقنابل

كما يندد الياس قنصل بخنوع الشرق واستسلامه تجاه المستعمر الغربي ويقول : (٢)

يا أيها الشرق النصير الى متى	تلقى أمر الاضطهاد وتخنع
والى متى تشكو ومامن راحم	يرثى لدى الشكوى ومامن يسمع

لقد كان هذا الشرق نائما والغرب يعبث في أرجائه فسادا ، والشعراء دائبون على قرع أسماعه برنين قوافيهم وناقوس قصائدهم والملاحظ أن صوت دعاة الرابطة الشرقية قد خفت خلال أعوام الحرب العالمية الأولى وكاد هذا الشعور بالتعاطف يتجمد في العالم العربي نتيجة ماحدث من تغيرات سياسية آنذاك ·

اذ تحالفت الدولة العثمانية مع المانيا ، وتحالف العرب (باستثناء المصريين) مع بريطانية وفرنسة ، وبذلك لم يعد الصراع خلال تلك الحرب حاسما بين الشرق والغرب ، بل اتخذ طابعا آخر نتيجة ظهور مبدأ القوميات في الشرق ·

ومن هنا نلاحظ ان أكثر القصائد التي نظمت في الثورة العربية الكبرى لاتلح على هذه الرابطة الشرقية ، خلافا لما كانت الحال عليه من قبل خلال الحروب التي خاضتها الدولة العثمانية ضد دول الغرب ·

---

(١)= المختار من الشعر في سورية ، لصبري الأشتر ٤

(٢)= على مذبح الوطنية ٦٢

أما في مصر فقد كانت المعضلة مستمرة وجنود الاحتلال مازالوا يجثمون فوق البلاد ، ولهذا استمر شعراء مصر بالمقابل في حذرهم من الغرب المستعمر وفي خشيتهم على الامبراطورية العثمانية ، الدولة الاسلامية الشرقية الكبرى التي كانت بمثابة السد الذى يحول دون تدفق المستعمرين ، والصخرة التي تتحطم عليها مطامعهم . وقد ندد عدد من الشعراء وفيهم أحمد محرم بزعيم الثورة العربية الذى استسلم لأكثر دول الغرب جشعا فقال (١) :

نبئت مازعم الشريف وقومه	فسمعت مالم تسمع الأذنان
خدعوه اذ ضاق السبيل بمكرهم	ورموا بآمال اليه حسان
ياذا الجلالة لاسعدت بتاجه	ملكا سواك به السعيد الهاني

وحين تكشفت الحرب الكبرى عن نيات الحلفاء الغادرة انفجر الشرق العربي غاضبا ، وبرزت الروح الشرقية من جديد تعبر عن شعور المرارة بعد ما ابداه الشرق من سذاجة وثقة تجاه الغرب الماكر ، ولم تكن ثورة ١٩١٩ في مصر الا جزءا من انتفاضة الشرق المتوثب ضد الغرب المستعمر . وقد عبر محمد الأسمر عن هذه الظاهرة واشار الى تقلبات الدهر على الشرق والغرب بقوله (٢) :

رجعنا كما كانوا وصاروا كما كنا كذاك الليالي لاتديم لها خدنا

ثم يخاطب سعد زغلول زعيم مصر وقائد ثورتها

فتى الشرق ان الغرب أدلى بمخلب

وناب ، فلا تهتز بينهما جبنا

ووجد الشعراء في ثورة مصر ثورة الشرق ، كما وجدوا في

---

(١) محمد حسين : الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ٢ ـ ١٩٦

عن ديوان مخطوط للشاعر .

(٢) تغريدات الصباح ٢٠

سعد زغلول زعيما شرقيا استطاع بعزيمته ان يتصدى للغرب ، وفي ذلك يقول حافظ ابراهيم : (١)

لله وقفة في الشرق تعرفها الصلا ويحفها التكبير والتهليل

زلزل بها في الغرب كل مكابر ليرى ويعلم ماحواه الغيل

وحين توفي سعد افتقده الشعراء العرب ورثوه بحرارة .
وهم لم يجدوا فيه زعيما مصريا فحسب بل زعيما للعرب وللشرق ،
وهذا حليم دموس يناجيه من لبنان بقوله (٢) :

زعيم الشرق وهو نداء حق لمثلك لم يقم في الشرق ند

وكذلك يناجيه محمد الفراتي من ضفاف الفرات بقوله (٣) :

للشرق يازغلول ماشيدته عجزت بناة المجد عن تشييده

وتتجلى هذه العاطفة الشرقية بشكل بارز أيضا في الشعر المعاصر تجاه زعيم شرقي آخر هو مصطفى كمال اتاتورك الذي انتصر على اليونان احدى الدول الغربية المتحالفة ، وبهر انتصاره ذاك ، الشرق والغرب على السواء . وقد هاج هذا الظفر المبين قريحة الرصافي ، فأملت على قلمه قصيدة رفعها (الى بطل الشرق الأكبر) كما نعته في عنوانها ، ومما قاله فيها (٤) :

نصرت على بني يونان نصرا أقام الغرب في هرج ومرج

كما أشار الياس فرحات الى هذه الظاهرة الشرقية أيضا في حركة اتاتورك وانتفاضته في وجه الغرب ووجد ذلك بشيرا بانطلاق الشرق وتحرره (٥) :

---

١))= الديوان : ١ ـ ١١١ ٢))= الديوان ٢ ـ ١٢٤
٣))= الديوان : ١٧٧ ٤))= الديوان ٤٤٠
٥))= الديوان : ١٧١

أرى في العالم الشرقي نارا جذوع الغرب تأكل والغصونا
سلوا عن حرهنا الغازي كمالا يخبركم بما لا تعلمونا

وشبيه بهذا الاستبشار والتهليل ما نجده في بائية أحمد شوقي بهذه المناسبة وفيما نظمه عدد آخر من الشعراء .

وبنتيجة الشعور المعادي لدول الغرب الذى بلغ في نفوس العرب حدا كبيرا ، تطورت النزعة الشرقية في النفوس وخرجت من نداءات التنبيه والتحذير الى مرحلة التهديد والوعيد ، وذلك بعد أن وعى المغلوبون على أمرهم جوهر قضاياهم وعانوا بأنفسهم من مرارة العبودية ، وهذا مصطفى الغلاييني يتصدى للغرب محذرا اياه من غضبة الشرق المرتقبة فيقول (١) :

أرى ان اهل الشرق قد ضاق ذرعهم بكم فاحذروا من داهم الوثبات
اثرتم دفين الحقد في الشرق كله الا فارتقبوا من اسده الهجمات

وكذلك يشير ابو الأقبال اليعقوبي الى أن ساعة الخلاص قد اقتربت وينذر الظالمين بويل شديد (٢) :

ولكم في الغرب من باغ غشوم ولو ان الغرب من أهل الكتاب
ولسوف الشرق يودى بالظلوم ويريه كيف يأتيه العذاب

وقد شبه الزهاوى في رباعياته بلاد الشرق ببركان تغتلي في جوفه الحمم ولا بد من أن تنفجر في وجه الغرب عاجلا أو آجلا (٣) :

الشرق يشبه بركانا به حمم اخاف من أنه ياغرب ينفجر

وحين تفجرت الثورات القومية في أرجاء الشرق عامة وفي العالم العربي بوجه خاص بعد الحرب الأولى استبشر الشعراء بهذه الانتفاضات وأملوا من ورائها الخير للشعوب المستعمرة وقد عبر

---

١)) = الديوان ١٥٠
٢)) = النظرات السبع ١٢
٣)) = رباعيات الزهاوى ١٣٦

الزهاوي عن هذا الشعور بقوله[1] :

قد ثار في الشرق الخلق   واقترب الوعد الحق

ماكان الغرب بذي ظن   ان سوف يحاسبه الشرق

ولم تكد ثورة مصر تنطلق في أعقاب الحرب الأولى حتى تكاثر شرر الانتفاضات في أنحاء الشرق العربي ، فقد قامت ثورة العراق اللاهبة ضد الاحتلال البريطاني في عام ١٩٢٠ ، وأخذت تتجلى على ألسنة شعراء العراق أعمق العواطف الوطنية متسمة بصفات قومية ودينية وشرقية معا ، ومما يمثل تلك العاطفة الشرقية ابيات لخيري الهنداوي يقول فيها[2] :

ايها الشرق هل فقدت الشروقا   فأضل الأقوام فيك الطريقا

بيتوا أمرهم بليل وجاؤك –   جميعا يتلو فريق فريقا

حاولوا لا أبا لهم ان يكون –   الشرق كالمهد مستضاما رقيقا

وثمة ابيات للرصافي في هذا الصدد يصور فيها براعة ، علاقة العراق بالاستعمار من خلال نظرته الشاملة الى الغرب والشرق وذلك في قوله[3] :

ان هذا الشرق والغرب لمغبون وغابن

فترى الشرق تجاه الغرب يمشي مشي ماهن

وترى الغرب عليه ، واقفا موقف خائن

فهو يمتص دماء الشرق في كل الأماكن

ان في الشرق تجاه الغرب نيرانا كوامن

واذا تسأل عما هو في بغداد كائن

فهو حكم مشرقي الضرع غربي الملابن

---

١)) = رباعيات الزهاوي ١٣٨

٢)) = رفائيل بطي : الشعر العصري في العراق العربي ١٦٦

٣)) = الديوان ٤٣٨

وكما كانت العاطفة الدينية تسير أحيانا الى جانب الشعور القومي ، كانت النزعة الشرقية أيضا تبرز احيانا أخرى من خلال تلك القصائد ، وحين نشبت الثورة السورية عام ١٩٢٥ نظم أمير الشعراء شوقي قصيدة قومية رائعة عبر فيها عن هذا الاعتزاز الشرقي تجاه الغرب حين اشاد ببني أمية قائلا (١) :

كانوا ملوكا سرير الشرق تحتهم فهل سألت سرير الغرب ماكانوا

ورأى محمد سعيد العامودي في انتفاضة السوريين ضد احدى دول الغرب العاتية مفخرة للشرق اذ قال (٢) :

ياشام حسبك مفخرا في الشرق ان — بنيك قد نهضوا وقد أرضوك
اليوم اظهرت الفخار مجددا لزعانف الغرب الألى جهلوك
اليوم ياحرية قد حق أن تأتي فأهل الشرق قد نشدوك

كما يخاطب محمد الشريقي الشرق كله من خلال مخاطبته لسورية الثائرة فيقول (٣) :

يا أيها الشرق ان الغرب مؤتمر والحق للسيف والمغلوب مهتضم
حرية الشعب أولى ماتقدسه وخير دين به الشرقي يعتصم

أما أحداث فلسطين فقد كانت أنصع دليل على تآمر الغرب ضد شعوب الشرق ، وقد حفل الشعر القومي الذى نظم فيها ببواعث شتى قومية ودينية وشرقية وانسانية مما التقت جميعها على صعيد واحد تندد بالاستعمار الغربي ، وقد اشار الشاعر العراقي علي البازى الى الباعث الشرقي في تلك القضية بقوله (٤)

يابني الشرق لقد عاثت بكم أمم الغرب وانتم هجد

---

١))= الشوقيات ٢ ـ ١٢٢
٢))= ديوان الثورة ٩٨ ٣))= ديوان الثورة ٤٠
٤))= الفلسطينيات ٤٨

كما عبر محمد علي اليعقوبي من العراق أيضا عن تجاوب أقطار الشرق مع فلسطين ومشاركتها اياها في البلاء [1] :

فمصر والصين وايرانهما وجارتاها والعراق الأغر

والمغرب الأقصى ومن حوله من دول للشرق اضحت عبر

ان اججت نار البغي بيننا فأن زند الغرب يرمي بالشرر

ما اسلف الغرب عهودا ولا مواعدا للشرق الا غدر

ومن كل ذلك يتضح مدى الانسجام الذى انعكست آثاره في الشعر المعاصر ، بين العاطفة الشرقية وبين الأماني القومية في كثير من الأحداث السياسية التي عرفها العرب خلال هذه الفترة من تاريخهم الحديث . لقد كانت العاطفة الشرقية قوة دافعة أخرى من بين القوى التحررية المتعددة التي انطلقت تجابه الشر والعدوان والاستعمار ، ورافدا فعالا كان له أثره البالغ في تعزيز الحركات الوطنية والشعور القومي في نفوس الشعوب العربية ..

— ٢ —

والسؤال الآن ، ماذا كان الشعراء المعاصرون يقصدون من معنى على وجه التحديد من وراء استعمالهم لفظة " الشرق" في قصائدهم ، وماذا كانت تعني هذه الكلمة في أذهانهم .

لقد سبق أن أشرنا الى مدى الاضطراب في مفهوم الشرق لدى الشعراء والكتاب واختلافهم حوله اتساعا وضيقا ، واطلاقا وتقييدا .

والواقع اننا نتبين ثلاثة مدلولات رئيسية لهذه الكلمة من خلال مابين أيدينا من الشعر المعاصر .

الأول ورود كلمة الشرق مطلقة في الشعر بمدلولها الواسع المطلق لأمم الشرق قاطبة بحسب المصطلح الجغرافي الشامل .

---

(1)= الفلسطينيات ١٦

والثاني : كان يريد به الشعراء الأمم الاسلامية وفي جملتها العرب .

والثالث : كانوا يريدون به الشرق العربي أو الشعوب العربية وحدها .

ولاريب ان كل مدلول من هذه المدلولات انما يعكس تيارات سياسية واجتماعية ، كانت تمر بالشرق ، وتخلق ظروفا وافكارا تؤثر في نفوس العرب وتتجلى آثارها في قصائد الشعراء ..

وحين يطلق الشعراء لفظ الشرق بمعناه الأول فأنهم يريدون به في الغالب جميع أقطار الشرق وشعوبه على اختلاف أديانهم وقومياتهم من عرب وترك وهنود وصينيين ويابانيين ، ومن مسلمين ونصارى وبوذيين ويهود وسواهم .. وهذا المفهوم الشامل مطابق لواقع الرقعة الجغرافية الواسعة التي تشمل مانعنيه اليوم بالشرق الأدنى والشرق الأوسط والشرق الأقصى .

وقد أشار الشعراء المعاصرون مرارا الى كفاح هذه الأمم مقرونا بكفاح العرب ضد العدو المشترك في ذلك الشرق الكبير ، وكان انتصار اليابان على الروس عام ١٩٠٤ في نظر هؤلاء الشعراء ظفرا للشرق المهيض الجناح على الغرب العاتي ، ترك أثرا بالغا في ضمير الشعوب المستضعفة ، وبعث في نفوسها الثقة والآمال التي افتقدتها أمدا طويلا . وكم من قصيدة هللت لهذا النصر المبين ووجدت فيه بشيرا بانتفاضة العرب والمسلمين . واعتبر حافظ ابراهيم سباقا الى التغني بانتفاضة اليابان والأشادة بنهضتها كما نجد في ذلك قصائد متعددة لمصطفى صادق الرافعي وأحمد نسيم ومحمد عبد المطلب وأمين ناصرالدين وفؤاد الخطيب وغيرهم من الشعراء .. وأكثر مانظم في هذا الشأن كان قبل الحرب العالمية الأولى مما لايدخل في نطاق بحثنا هذا ، كما كان طابعه بالأجمال الحث والاستنهاض ..

ومع ذلك فأن الحرب العالمية الأولى تنتهي ونهضة اليابان مازال ملء الأسماع وتعتبر المثل الأعلى عند عدد من الشعراء ،

حتى ان اما الفضل الوليد اعتبرها ربة الشرق الأقصى وتحدث عنها بزهو واعتداد وذلك في قصيدة له أسماها (المشرقية) قال فيها [(١)]

ألا فرج لأهل الشرق يرجى	بنجدة ربة الشرق المقصي
هي اليابان تطلع للمعالي	بمطلع راية الشمس السني
وجحفلها يضيق البر عنه	وفيه كل مقدام عدي
مشى الأمراء والقواد فيه	الى تذليل جبار طغي
فهب الشرق بعد خمول دهر	لصرخة ذلك الشعب النخي
وحار الغرب في نصر مبين	على الجيش اللهام المعتري

وواضح أن الشاعر يعتز بهذا النصر ويشيد به معتبرا اياه دعما وسندا لكفاح قومه ، وكأنه يرجو لها مثله ضد الغرب ذلك العدو المشترك . ويبدو أن وثبة اليابان هزت الشرق وشعوبه وبقي صداها في نفوسهم عشرات السنين ، وهذا محمد شعيب العاملي يضرب باليابان مثلا للعرب ويحثهم على النهوض بقوله [(٢)]

يابني الشرق ويحكم كيف نبقى —	أبد الدهر عرضة الشنآن
حبذا الشرق ناهضا لمراقي —	المجد والسمي نهضة اليابان

بل اننا نجد هذا المثل الأعلى مازال يتردد خلال الحرب العالمية الثانية في ذهن الصافي النجفي [(٣)] :

ياأمة العرب لا تنسوا رسالتكم	فأنكم قد خلقتم قادة الأمم
فما العروبة الا كل مكرمة	تبدي الفوارق بين العرب والعجم
وصيروا أمة اليابان قدوتكم	في العلم والخلق والاقدام والعظم
لا تستنيروا بنور الغرب فهو دجى	مبطن بلصوص أو بسفاك دم

فالصافي حين يدعو قومه الى الاقتداء باليابان يعبر عن تلك النزعة الشرقية التي تقوم على الحذر تجاه كل ما هو غربي ، والتي

---

١)) = نفخات الصور ٣٢   ٢)) = الديوان ٥٢

٣)) = الحان اللهيب ٨٣

وجدت ضالتها في النهضة اليابانية . ولايخفى ان هذه القصائد التي اشادت بانتصارات اليابان وتقدمها الحضاري انما كانت تعبر أيضا عن ظاهرة نفسية في نفوس العرب الذين وجدوا في ذلك الموضوع مايطرد عنهم شعور اليأس الذي ران عليهم زمنا طويلا ، ومايكون بلسما لجراحهم ومتنفسا لرغباتهم في التحرر والنهوض ، بالأضافة الى ماكانوا يجدونه في تصدي اليابان للغرب من ثأر لهم وانتقام لكرامتهم المهدرة . وقد نجدد هذا الشعور بالتعاطف نحو اليابان على أثر انتهاء الحرب العالمية الأخيرة ، حين قذف الغرب جزرها بالقنابل الذرية فدمرها وأباد سكانها ، ووضع بذلك الدمار الرهيب حدا لتلك الحرب الضروس . واتسع هذا التعاطف حتى شمل العالم واتسم بطابع انساني ألهم الشعر بأروع الاحساسات وأنبلها ..

وكان كفاح الهند المستميت في سبيل تحررها مثار اهتمام الشعراء العرب الذين وجدوا في نضالها مايعزز نضالهم ضد العدو المشترك ، وقد وجد الاستعمار في تلك البلاد بقرة حلوبا أنشب فيها أظفاره واستنزف خيراتها وسلبها كنوزها الدفينة . وهذا الياس قنصل يلقي بنظره من العالم الجديد نحو هذا الشرق المكافح فيرى بلاد العرب والهند من معدن واحد تعاني الأهوال من الاحتلال الأجنبي ويجمع بينها ابتلاؤها بالاستعمار الغاشم :(١)

ياشرق جزأك الغريب فلم تمد	الا دويلات تذل وتخضع
فالشام تأبى ان تلين وتنثني	وحقوقها كادت هناك تضيع
والهند قائمة هناك بثورة	فتصيب ركن الانكليز وتصدع
لم يجد سجن زعيمها شيئا ولا	هي بالقذائف والقنابل تفجع

كما نرى الشاعر نفسه يجمع بين نضال عدد من الأمم الشرقية على صعيد واحد في احدى قصائده فيتحدث عن الثورة السورية

---

(١) = على مذبح الوطنية ٥٥

وسطش فرنسة بدمشق وعن نضال فلسطين والارعاب الصهيوني وينتقل في القصيدة نفسها الى كفاح الهند وزعيمها الكبير بوحي من الشعور بوحدة القضية المشتركة (١)

وماغندى الضعيف سوى نبي شبيه الأنبياء المرسلينا

فقد كان غاندى قبلة أنظار العرب يكنون له من الاحترام والتقدير مالا يقل عما يكنه له الهنود ، ولذلك نرى الشاعر القروى يضعه أيضا في مصاف الأنبياء ويرجو للعرب مثل ونبتنه بقومه (٢)

من شط (بحر الفنج) زأر غضنفر اشجى لسمعي من هديل حمام
صوت يردده مسيح الهند في دلهي لتسمع يامسيح الشام

كما يشير القروى أيضا الى نضال غاندى السلبي حين قاوم الاحتلال مع شعبه بأعلان الصوم ومقاطعة بضائع المستعمر ، ويتمنى على المسلمين في بلاد العرب ان يضايقوا المحتل بمثل ذلك (٣)

لقد صام هندى فجوع دولة فهل ضار علجا صوم مليون مسلم
أهاب بآلات الحديد فعطلت مصانع كانت جنة المستعصم
وشل دواليب الرخاء بصرخة ادارت دواليب القضاء المحتم
كساها نسيج العنكبوت وكم كست جسوم البرايا بالقشيب المنمنم

أما عمر يحيى الذى ساقه اضطهاد الانكليز الى الهند فقد ابتأس لما رآه في هذه البلاد من تأخر وجهل يصوقان بعضهما وتحررها من قبضة المستعمر وهو يقول (٤)

أنا في الهند أرى الشرق وما في حناياه من الداء الدفين
ضاق صدر الشرق عن أبنائه وحوى من قادة الغرب مئين

---

١))= على مذبح الوطنية ٦٩
٢))= الديوان ٣٧٥
٣))= " ٣١٤
٤))= البراعم ١١٨

ليس بدعا ان ترانا عندهم　　في زوايا دارنا مستعبدين
فلكم تضحك لما أن ترى　　بقرا ترعى وأقواما تسهون

فلم تكن نظرة الشاعر الى تلك البلاد نظرة المتفرج العابر ، فقد عز عليه ان يرى بلدا شرقيا كبيرا يمكن للمستعمر في أرضه ويبيح له خيراته . ومن الملاحظ أيضا أن الشاعر يتحدث عن العرب والهنود والشرقيين جميعا بصيغة المتكلم على أنهم بمثابة اسرة واحدة مستعبدة ألف الجرح بين قلوب أبنائها فتعاطفوا

وقد سبقت الاشارة الى أثر تعاليم جمال الدين الأفغاني في زيادة اهتمام العرب والمسلمين بالروح الشرقية الشاملة من ذلك قولته المشهورة عن الهند : " لو كنتم انتم مئات الملايين من الهنود ، وقد مسخكم الله فجعل كلا منكم سلحفاة وخضتم البحر، وأحطتم بجزيرة بريطانيا العظمى لجررتموها الى القعر وعدتم الى هندكم أحرارا " ولاريب ان مثل هذه الآراء للأفغاني ومحمد عبده وشكيب ارسلان ورشيد رضا وسواهم من أعلام الفكر والأدب الذين أولوا بلاد الشرق عنايتهم في تعاليمهم ومؤلفاتهم ، كان لها صدى في الشعر الحديث استمر أمدا غير قصير ، حتى ان الشاعر المهجرى أبا الفضل الوليد استمد مضمون أبياته من هذه العبارة الشعرية الطريفة للأفغاني وصاغ من وحيها قوله : (١)

فلو أن الهنود مشوا جميعا　　الى يوم أغر عرمرمي
لطاح الانكليز به وآلت　　شدائده الى شد المطي

وثمة قصيدة للرصافي يرمز فيها الى الهند والعراق بالفيل والجمل ، كما يرمز للمحتل الانكليزى عدوهما المشترك بالذئب فيقول (٢)

اذا ماسمعت الحق في قول قائل　　تخيلت فيلا بالحديد مكبلا
فلو قام هذا الفيل واستجمع القوى　　لهز بها شم الجبال وقلقلا

---

(١)= نفخات الصور ٣٢

(٢)= الديوان ٤٥٣

لنا حمل وهو العراق نظنه غدا من وراء الفيل للذئب مأكلا
فأن ينج هذا الفيل من قيد اسره نجونا والا أصبح الأمر معضلا

فمن خلال هذه الأبيات تتضح الآلام المشتركة التي آخت بين بلدين شرقيين ، وربطت بينهما في مصير واحد ، والرصافي لا يرجو خلاصا للعراق الا بعد تحرر الهند وهكذا كان .

وكانت هذه النظرة الشاملة الى العرب وسائر الشرقيين رائد كثيرين من الشعراء المعاصرين . فالشاعر القروى لا يفرق بين زعماء الشرق الذين ثاروا في وجه الغرب المستعمر من أجل تحرير شعوبهم حين رجا للشام واحدا من كثلهم يقود أمته في انتفاضتها كما ثارت الهند ومصر وتركيا والمغرب وذلك في قوله (١) :

أين غندى واين زغلول منا اين عبد الكريم اين كمال .

وقد عبر الياس فرحات من مهجره القصي عن استبشاره بانتفاضات أمم الشرق المتلاحقة في سبيل تحررها فقال (٢) :

الشرق فتح ناظريه فهاله مرأى ذئاب الغرب في وثباتها
الصين ناهضة الى اعدائها والهند نافضة غبار سباتها
والريف مقتحم عباب عجاجة كلف بوجه الشمس من ذراتها
والشام بعض الشام هب محاولا فك القيود محطما حلقاتها

فظاهرة النضال واحدة بين أمم عديدة استشعرت وطأة الاحتلال فهبت تذود عن حياضها .

وكأنما أدرك الشعراء ان تحرر الشرقيين من قبضة الأجنبي رهن بذلك النضال المشترك وأن آمالهم بالاستقلال لن تتحقق الا اذا تخلصوا من ادواء التفرقة والتعصب . وقد اشار حافظ ابراهيم الى أهمية هذا التسامح والوئام في قصيدة القاها في جامعة بيروت الاميركية عام ١٩٢٩ وقال فيها (٣) :

---

١))= الديوان ٣٣٦ ٢))= الديوان ٢٦٠
٣))= " ١ - ١٣٣

متى أرى الشرق ادناه وأبعده عن مطمح الغرب غير وسنان
لافرق بين بوذي يمشي به ومسلم ويهودي ونصراني

وهذان البيتان نموذج لغلبة المفهوم الشرقي على جانب من الشعر القومي، واشتمال هذا المفهوم على أديان الشرق المتعددة وقومياته المتباينة ٠

وهكذا عبر طرف من الشعر القومي المعاصر عن تلك العاطفة الشرقية الشاملة التي وسمت نضال أمم شتى ، قربت بينها الغير والأحداث ووحدت كفاحها مآسي الاستعمار ٠ ولم يكن تجاوب الشعراء مع وثبات هذه الأمم الشرقية من قبيل فضول النظم والتحدث بشئون دول غريبة أو أجنبية ، فقد كانوا يعكسون في قصائدهم مشاعر العرب ، وتطلعهم الى جيرانهم بعين الأمل الكبير ، في أن يكلل ذلك الكفاح المرير بغار النصر ، لأن كل نصر يحرزه اولئك كان يشد من أزر العرب ، ولم يكن تهليل الشعراء لتلك الانتفاضات التي كانت تنبعث من الشرق سوى تعبير غير مباشر عما في نفوس الأمة العربية من نزوع نحو التحرر المنشود ٠

— ٣ —

واذا ماحاولنا اكتناه مفهوم الشرق في أذهان الشعراء المعاصرين من ناحية أخرى وجدنا ان اضطرابهم في اطلاق ذلك المفهوم يرجع في الواقع الى تضييق دلالته الواسعة الشاملة واقتصارهم فيها على الشرق الاسلامي في أغلب الأحيان ، وعلى الشرق العربي أحيانا أخرى ، وهذا الفهم المترجرج كان يؤثر في المفهوم القومي ذاته لدى الشعراء ، ويصيب معنى العروبة في الشعر المعاصر بكثير من الغموض والاضطراب ٠

ونظرا لأن العاطفة الشرقية سبقت في ظهورها الروح القومية فقد طبعت في معظم الأحيان بالطابع الاسلامي وبخاصة في عهود

قوة أنصار الجامعة الاسلامية ، وفي ظل الخلافة العثمانية ، ولعل أبرز مايشير الى ذلك تأسيس (جمعية الرابطة الاسلامية) في مصر عام ١٩٢٢ واصدارها مجلة الرابطة الشرقية التي كان من اركان تحريرها عدد من أعلام الاسلام مثل محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار الاسلامية ، وأحمد زكي باشا الذي كان ملقب بشيخ العروبة والشيخ محمد بخيت شيخ الجامع الأزهر ، والشيخ عبدالمحسن الكاظمي الشاعر العراقي (١) ، وان فاتحة المجلة لم تكن تميز بين العرب والمسلمين والشرقيين وكان حديثها في العدد الأول عاما يشمل طرابلس وتركيا وافغانستان والصين ومصر والهند والملايو ، دون ان يرد لليابان ذكر لأنها غير مسلمة .

وكذلك كان الأمر مثلا في قصيدة شوقي التي نظمها تحية لانتصار اتاتورك فالمعركة الظافرة شبيهة بمعركة بدر والانتصار فيها انتصار للاسلام واتاتورك في الترك كخالد في العرب ثم نقرأ في القصيدة نفسها قوله أيضا : (٢)

هزت (دمشق) بني (أيوب) فانتبهوا	يهنئون (بني حمدان) في (حلب)
ومسلمو الهند والهندوس في جذل	ومسلمو مصر والأقباط في طرب
ممالك ضمها الاسلام في رحم	وشيجة وحواها الشرق في نسب

فهذه البلاد على حد تعبير شوقي ممالك ضمها الاسلام في رحم وحواها الشرق في نسب ، والشاعر اذ يذكر الهندوس ، والأقباط فانما يفعل ذلك مدفوعا بعاطفته الشرقية الشاملة من جهة ، وروح التسامح الديني التي عرف بها من جهة أخرى .
ولسنا نرى في بيت شوقي الأخير سوى تعبير عن معنى واحد في كلا الشطرين فالترادف ظاهر بين الفاظهما ويعني لديه ان الشرق هو الاسلام . وقد لمسنا من قبل ، الطابع الاسلامي فيما نظمه محمد علي اليعقوبي بشأن أحداث فلسطين ، ونلاحظ هنا

---

(١) انظر محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية ٢ ـ ١٠٢

(٢) الشوقيات ١ ـ ٦١

ان هذه العاطفة الاسلامية لاتنفصل عن المفهوم الشرقي في قوله (١)

يازعماء الشرق يامن بهم	يجلى ظلام الخطب مهما اعتكر
فمصر والصين وايرانها	وجارتاها والعراق الأغر
والمغرب الأقصى ومن حوله	من دول للشرق اضحت عبر
ان أججت نار الوغى بيننا	فأن زند الغرب يرمي بالشرر
ما أسلف الغرب عهودا ولا	مواعدا للشرق الا غدر

هذا التصور الاسلامي المحض للعاطفة الشرقية يعتبر استمرارا للتصور الذى كان يغلب على الشعر القومي قبل الحرب الكبرى . ولكن الأمر أخذ في التبدل خلال الأحداث والثورات القومية التي عرفها العالم العربي بعد تلك الحرب واثر انهيار نظام الخلافة العثماني واضمحلال فكرة الجامعة الاسلامية .

واذا علمنا ان كثيرا من دعاة الجامعة الاسلامية تحولوا بعد الحرب الكبرى الى دعاة للجامعة العربية كما تبين لنا ذلك في الفصل السابق ، ادركنا مدى اختلاط هذه المفاهيم بعضها ببعض بحيث كانت العاطفة الشرقية تعني في الشعر القومي العروبة حينا والاسلام حينا آخر ، وتعنيهما كليهما معا في معظم الأحيان .

وتبلغ هذه المفاهيم حد الاضطراب والغموض في مثل قول شوقي وهو يحيي تركيا (٢)

فنحن ان بعدت دار وان قربت	جاران في الضاد أو في البيت والحرم
ناهيك بالسبب الشرقي من نسب	وحبذا سبب الاسلام من رحم

فمع أن البيت الثاني لايخرج في معناه عن البيت الذى اوردناه آنفا :

ممالك ضمها الاسلام في رحم	وشيجة وحواها الشرق في نسب

نتساءل عما يريده شوقي حين يجعل العرب والترك جارين في

---

١))= الفلسطينيات ١٦

٢))= الشوقيات ١ ـ ٢٦٨

الضاد ، فهل يقصد اللغة العربية ، وهي ابرز مايميز بين العرب والترك ، أو أنه يقصد القرآن باعتباره كتابا للمسلمين ، مع أنه اورد ذكر الرابطة الدينية في قوله البيت والحرم ، عدا عن أن العطف (بأو) يوحي بأن الشاعر يعني بالضاد غير ما يعنيه بالبيت والحرم .

ويتجلى هذا المفهوم المزجوج لمدلولات العرب والشرقيين والمسلمين مما في قول محمود غنيم (١) :

أني اتجهت الى الاسلام في بلد	تجده كالطير مقصوصا جناحاه
ويح العروبة كان الكون مسرحها	فأصبحت تتوارى في زواياه
كم بالعراق وكم بالهند ذو شجن	شكا فرددت الأهرام شكواه
سل المعالي عنا أننا عرب	شعارنا المجد يهوانا ونهواه
هي العروبة لفظ ان نطقت به	فالشرق والضاد والاسلام معناه

وبيت القصيد عندنا ماجعل فيه العروبة لفظا معناه الشرق والضاد والاسلام . والواقع ان تسرب مفهوم العروبة الى الشعر العربي الحديث ومزاحمته المفاهيم الأخرى التي من اهمها الرابطة الشرقية والجامعة الاسلامية هو الذى ولد اضطراب هذه المفاهيم واختلاط بعضها ببعض بسبب عدم تبلور كل منها في نفوس الشعراء . وان احمد شوقي الذى وجدناه من قبل يصدر في قصائده عن مفهوم شرقي واسلامي مزدوج نراه الآن ، وبخاصة فيما نظمه من قصائد قومية منذ عام ١٩٢٥ يضفي على النزعة الشرقية المتبقية آثارها في نفسه ، ثوب العروبة ، وماذلك الا لأنه بدأ يتجه اتجاها قوميا عربيا ويقصر اهتمامه بالدرجة على بلاد العرب وقضاياها على الرغم من ان مفهوم الشرق والشرقيين ظل لاصقا به وبحافظ ابراهيم وعلي الجارم وسواهم من الشعراء بسبب طول

---

(١) الديوان ٧٨

عهدهم باستعماله وكثرة ترديده على الألسن والصحف ، ومن بوادر هذا التحول الجديد عند أمير الشعراء قوله في نكبة دمشق : (١)

ونحن في الشرق والفصحى بنو رحم ونحن في الجرح والآلام أخوان

كما يقول في مهرجان تكريمه عندما بويع بأمارة الشعر (٢)

ياعكاظا تألف الشرق فيه من فلسطينه الى بغدانه

كلما أن بالعراق جريح لمس الشرق جنبه في عمانه

وأغلب الظن ان شوقي في كلا الحالين هنا يقصد بالشرق رابطة العروبة ، ومما يؤكد ذلك اقتران الشرق بالفصحى وكون القصيدة تدور حول دمشق العربية ، والبيتان الأخيران يشيران بوضوح الى تطور مفهوم الشرق عند شوقي وسواه من الشعراء في هذه المرحلة من ازدياد الوعي القومي .

وقد طبعت العروبة مفهوم الشرق أيضا في أبيات القاها حافظ ابراهيم في هذه الفترة نفسها بمناسبة مهرجان تكريم شوقي ايضا وذلك في قوله مخاطبا أمير الشعراء (٣) :

فغن ربوع النيل واعطف بنظرة على ساكني النهرين واصدح وأبدع

وحي ذرا لبنان واجمل لتونس نصيبا من السلوى وقسم ووزع

فنبه عقولا طال عهد رقادها وافئدة شدت اليها بأنسع

فقد غمرتها محنة فوق محنة وانت لها ياشاعر الشرق فادفع

فبالرغم من أن القصيدة اتخذت عنوانا لها (نهضة الشرق) فأن ابياتها كأبيات شوقي في الرد عليها لاتشير الى أى قطر شرقي غير بلاد العرب ، أو أى شعب غير عربي ، ومانعت الشاعر لشوقي بأنه شاعر الشرق الا من هذا القبيل أيضا أى شاعر العرب او من قبيل اطلاق الكل على الجزء ..

---

(١)= الشوقيات ٢ ـ ١٢٢ (٢)= الشوقيات ٢ ـ ٢٣١

(٣)= الديوان ١ ـ ١١١

والملاحظ هنا ان هذه الأبيات وماسبقها من ابيات شوقي، تحمل روحا واحدة ، وتعلو فيها نغمة العروبة الواضحة على نغمة الشرق الخافتة ، وتفسير ذلك بالنسبة لشاعرين عرفا ببعدهما عن تيار العروبة الصافي وانشغالهما بالتعبير عن العواطف الاسلامية والشرقية وغيرها .. انما يعني أنهما وسواهما من الشعراء اخذوا يتأثرون بالمد القومي الجديد ويعكسونه جليا في شعرهم ولقد بدا جو تكريم شوقي مشحونا بمشاعر العروبة ، فالوفود تمثل اقطار العرب وكان التقاؤها حدثا قوميا ، كما كان بين الحضور عدد من زعماء الثورة السورية التي كان لها تأثير فعال في نفوس سائر العرب وصدى بعيد لدى معظم الشعراء .

وقد أخذت الدعوة العربية تقوى بازدياد وتنعكس آثارها جلية في الشعر المعاصر .

ويمكن القول ان ردة فعل ظهرت على نطاق محدود تجاه العاطفة الشرقية الفضفاضة التي كان عدد من شعراء مصر يشغلون بها ، وثمة قصيدة للشاعر السوداني حسين المنصور يوجه فيها الى أحمد شوقي نقدا لاذعا بسبب نزعته الشرقية[1]

قد عشت ياشوقي لسانا هادئا ... متخوفا من لفظة الثوران
العرب تبغي شاعرا متنمرا ... يزجي القريض الثائر الوجداني
دع عنك ذكر الشرق واحفز يعربا ... واخصص بشعرك ثائر العربان
ماذا يهم العرب زلزال سرى ... في الهند او في الصين واليابان
أو ليمر في تلك البلاد شويعر ... او شاعر يبكي على الأوطان

والحق اننا لانكاد نجد شاعرا آخر يتصدى بمثل هذه الصراحة للتنديد بالعاطفة الشرقية باعتبارها نزعة واسعة الشمول تبدد طاقة الشاعر في شئون اقطار أخرى، وتصرفه عن معالجة قضية بلده التي ينبغي ان تكون مبعث اهتمامه الأول . ولاندري اذا كان

---

(1) = الشاطئ الصخري ١٥٠

الشاعر السوداني يخفي شيئا من العداء الشخصي نحو أمير الشعراء وراء هذه الحملة . الا اننا نرى في هذه الأبيات مايتجاوب مع عواطف العرب الذين كانوا منذ اواخر العهد العثماني وفترة تأسيس الجمعيات العربية قبيل الحرب الأولى ، يتطلعون الى شعراء مصر البارزين ويأملون منهم عزف ألحان العروبة ، حتى أن عددا من أحرار العرب بادروا الى لقاء شوقي حين زار بلاد الشام وحدثوه في هذا الشأن وأنهم يتلهفون على قصائده الرائعة التي تذكي في نفوس العرب روح النضال ضد الاحتلال .

ولاريب ان السبب في عدم تنديد الشعراء بالرابطة الشرقية او عدم تعصبهم لها ، أنها لم تكن رابطة بالمعنى الصحيح ولأنها من جهة أخرى دعوة واسعة للتعاطف لم تكن لتتعارض مع الدعوات القومية الاخرى .

والواقع ان العاطفة الشرقية التي ظلت لدى شعراء مصر بصورة عامة ، وحتى فترة متأخرة نسبيا ، متشحة بالاسلام ، كانت لدى اكثر شعراء الشام والعراق موسومة بطابع العروبة في اكثر الأحيان . وهذا محمد رضا الشبيبي أحد أدباء العراق يقول في قصيدة أسماها (الشرق الناهض) اثر نكبة دمشق بقذائف الفرنسيين (١)

صلة الشرقي بالماضي اسلمي	لاتعودى سندا منقطعا
جاهدى ياأمم الشرق الألى	قتلونا جاهديهم اجمعا
جددى عهد علي غازيا	وأعيدى مالكا والنخعا
واذكرى مافعل الغرب بمن	هذبوه واصنعي ماصنعا
وثب الريح من الغرب بهم	فأنار الشرق والغرب معا
وتعالى في العراقين صدى	صرخ بني الأطرش حتى اسمعا
مدن لو تركت لاتصلت	جزأوها ليسودوا قطعا

---

(١) = ديوان الثورة ٤٤

وغدا الشرق في ذهن حسن البحيري من شعراء فلسطين يعني العرب أيضا ، وذلك في قصيدة اطلق عليها اسم (الشرق) وقال فيها : (١)

لاتستهن ياغرب انا أمة كتب اسمها لذرا الملا عنوانا
من شرقنا شمس الهداية اشرقت فأنارت الآباد والأزمانا
فسل الفرات عن الذين تهوأوه - فقد وعى ماشنف الآذانا
سل عنهم اليرموك سل بردى وسل نيل الكنانة أو سل الأوقيانا

ونحن نجد هذا الاتجاه - أي مطابقة الشرق للعرب - لدى بعض الذين مارسوا القضية العربية ومنهم عبد الرحمن الشهبندر أحد الزعماء الثائرين في سورية ، فهو يحاول في مقال له أن يحدد معنى الشرق فيقول (٢) " ان المقصود به ليس هو مجد الحيثيين والفراعنة والآشوريين والبابليين والفينيقيين ومن حذا حذوهم وكلها أمم قد خلت وزالت لغاتها فأصبحت حشو لفائف البردى ، وليس المقصود مجد التبت وكوريا والصين فهذه أمم بعيدة عنا .. " وهكذا ينتهي الكاتب الى ان يقصر مدلول الشرق على بلاد العرب فحسب ، وهذا الاتجاه لدى الشهبندر وأمثاله في فهمهم للشرق يقابل المفهوم الاسلامي لدى مصطفى صادق الرافعي ورشيد رضا وغيرهما ...

أما المسيحيون العرب وبخاصة في الشام والمهجر الأمريكي فقد كانوا بحكم دينهم بعيدين عن أن يفهموا العاطفة الشرقية فهما اسلاميا ، ولذلك اتسمت لديهم هذه العاطفة بالروح الشرقية العامة أو بالطابع القومي العربي . ولألياس فرحات قصيدة مطولة اسماها (الشرقية) (٣) تحدث فيها عن نضال سوريا ولبنان ومصر وفلسطين وليبيا وتركيا ، فأدخال تركيا في عداد

---

(١) = ابتسام الضحى ٣٧

(٢) = مجلة الهلال نوفمبر ٩٣٣ (٣) = الديوان ١٧١

هذه الدول كان بتأثير عاطفته الشرقية وحدها بدليل أن ثمة اقطارا اسلامية أخرى كالهند آنذاك واندونيسيا وسواها كانت دولها أكثر تمسكا بالاسلام واتساما بطابعه ومع ذلك لم يشر الشاعر اليها ...

وقد أدى تأسيس جامعة للدول العربية في مصر عام ١٩٤٤ الى دفع الشعور القومي بقوة الى الأمام ، وبخاصة في هذا البلد العربي الكبير الذى كان بؤرة للاشعاع الفكرى والاجتماعي والثقافي في العالم العربي ، ومصطرعا لأفكار ونزعات ونزوات شتى كالجامعة الاسلامية والجامعة العربية والرابطة الشرقية ، والدعوة الفرعونية والنزعة الغربية .. وكان من نتائج ذلك أن ارتدت العاطفة الشرقية التي مازالت جذورها حتى ذلك الحين ممتدة في نفوس الشعراء ، ـ كما كان شأن الجامعة الاسلامية أيضا ـ رداء ناصعا من العروبة لدى عدد من الشعراء تمثل لهم بعلي الجارم الذى كان في معظم شعره بعيدا عن هذه الروح القومية الجديدة ، ونستطيع ان نختار من قصيدته " الجامعة العربية " قوله (١) :

سنا الشرق من أى الفراديس تنبع	ومن أى آفاق النبوة تلمع
صحا الشرق وانجاب الكرى عن عيونه	وليس لمن رام الكواكب مضجع
لقد كان حلما ان نرى الشرق وحدة	ولكن من الأحلام مايتوقع
فليست حدود الأرض تفصل بيننا	لنا الشرق حد و العروبة موقع
تذوب حشاشات العواصم حسرة	اذا دميت من كف بغداد اصبع
ولو بردى انت لخطب مياهه	لسالت بوادى النيل للنيل أدمع
ولو صدعت في سفح لبنان صخرة	لدك ذرا الأهرام هذا التصدع
فيازعماء الشرق والشرق أمة	على الدهر لاتفنى ولاتتضعضع
هنا علم الشرق الذى في يمينكم	ستعنو له الأيام والدهر أجمع

ومن الملاحظ هنا ان الشاعر لم يستطع ان يبعد عن لسانه

(١) الديوان ٤ ـ ٤١

لفظ الشرق الذي ألفه طويلا ، فهو يردده ويترنم به في كل بيت تقريبا ، كما أن لفظي العرب والعروبة قلما يردان في القصيدة ، عدا استعمال الشاعر بعض العبارات الغامضة مثل اعتباره الشرق أمة في البيت الذي يسبق الأخير ، ومن المرجح أنه يريد به العرب • ومع ذلك فروح القصيدة بالاجمال تنم عن نزعة عربية شديدة ، وتشير الى التأثير الفعال الذي بدأت تحدثه الأحداث القومية في نفوس الشعراء •

وهكذا نقلت مفهوم الشرق في هذه المرحلة المتأخرة من حياة الشعر الحديث ، وأخذ يعني العروبة في اكثر الأحيان ، ولم يكن ذلك التطور سوى انعكاس لاهتمام الشعراء المتزايد بمعالجة قضايا العرب نتيجة لتعاظم الشعور القومي • والواقع أن مفهوم الشرق في أذهان الشعراء والكتاب كان بين مد وجزر يلبس لكل حال لبوسها ، تبعا للظروف الاجتماعية والسياسية ، ففي عهد ازدهار الجامعة الاسلامية كان يفيد الشرق الاسلامي ثم انحسر عن ذلك أيضا ليطابق الشرق العربي •

الا أن هذا المفهوم اخذ يكتسب وضوحا ودقة في الأذهان ويعود الى ماوضع له بعد أن اخذت المفاهيم الأخرى التي كانت تختلط به تتسم بالتحديد وتستعمل فيما وضعت له أيضا مثل الجامعة الاسلامية او الرابطة العربية او الروح الوطنية ، وبذلك نأى الشعراء بعض الشيء عن استعمال لفظ الشرق في شعرهم القومي ، وأصبح وروده يعني في الغالب مطابقته المدلول الجغرافي لامتداد الأقطار الشرقية التي تشمل الشرق الأقصى والأدنى والأوسط ، كما يعني أيضا في الشعر المعاصر بصورة عامة ، الجمع بين العرب وسواهم من القوميات الأخرى المناضلة في هذا الشرق الكبير •

— ٤ —

والواقع ان كثيرا من الشعراء كانوا يرتفعون بكلمة الشرق عن معناها الجغرافي ، سواء قصدوا به المدلول الضيق بالشرق العربي، أو المدلول الأوسع وهو الشرق الأسلامي أو المدلول الشامل وهو الشرق الأكبر على اطلاقه ، ويقصدون المعنى المجرد الذى يتضمن حقيقة ثقافة الشرق وطبيعة حضارته وخصائصه فلسفته الروحية وكنه شخصيته المتميزة . وقد كان هذا الاتجاه بالاجمال بعيدا عن معالجة الأحداث الطارئة والثورات الناشبة ، وخاليا من لهجة التحدى والعنف .

من ذلك ماعبر عنه اديب التقى في قصيدة اسمها (بين الشرق والغرب) نظمها على أثر زيارة شاعر الهند طاغور لمدينة دمشق عام ١٩٢١ ، وقد تجلت فيها نفحة انسانية وادعة كأنما سرت اليها من روح الشاعر الهندى العظيم (١)

حنانك عهد الشرق هل أنت راجع	بما ينبغي ام ليس تحناننا يقضى
أ أحرار اهل الغرب أموا بلادنا	ترونا كرا ما لا نسر لكم بغضا
تعالوا الينا لا لفتح وغارة	لنستعبدوا حرا وتستعمروا ارضا
ولكن لترتادوا حقائق شرقنا	وتستمعوا للقلب عن كثب نبضا
حملتم الى الشرق الأسار وجئتم	تراضونه والشرق بالأسر لا يرضى

وتعتبر قصيدة (الشرق والغرب) للصافي النجفي - وقد نظمها في أواخر الحرب العالمية الثانية - من أجمل ماقيل في تصوير مادية الغرب وفلسفته وفيها يقول : (٢)

جئناك ياغرب بالأديان والحكم	وجئت للشرق باستعمارك النهم
ما الغرب الا كيان لافؤاد له	يحيا كآلاته بالغاز والفحم
زفيره من دخان نافث نقما	وقلبه نابض بالنار والحمم

---

١)= الديوان ١٠١ ٢)= الحان اللهيب ٨٣

انسانه من حديد لاشعور له … فلا تغر بلحم ظاهر ودم
ماذا أقول لغرب ماله أذن … فقد أصيب من الآلات بالصمم
الغرب جسم لروح الشرق مفتقر … والروح عافته مما فيه من سقم

وفي ابان هذه الحرب نفسها كان علي محمود طه يناجي الشرق المترقب ، ويخاطب الغرب الغارق بالنيران والدماء وذلك بروح انسانية عذبة أوحتها اليه " ليلة عيد الميلاد " : (١)

أيها الشرق الذي خصته بالروح السماء
يا أبا الحكمة لا هان عليك الحكماء
ناد أوربا فقد يسمعها منك النداء
دنست بالقوة حتى صرعتها الكبرياء
ارقصي في النار انت اليوم للنار غذاء
واشربي في حانة الشيطان ماطاب الأنباء

والواقع ان هذه العاطفة الشرقية لم تخف حدتها في الشعر العربي المعاصر عبر السنين برغم تبدل مفهومها ضيقا واتساعا وطغيان الروح القومية عليه ، ولعل السبب في ذلك يعود الى استمرار النظام الاستعماري الذي لم يحد الغرب عن فرضه بالقسر والاكراه على دول الشرق . فقد ظل الشعراء يندون بالغرب ودوله كلما ألقى الى قومهم بشر جديد . وكان هذا الالتقاء الفعال بين النزعة القومية والعاطفة الشرقية كما كان الأمر بين هذه وبين العاطفة الدينية ، كسبا كبيرا للحركات التحررية في العالم العربي . وهكذا بقيت الهوة على اتساعها بين الشرق والغرب في الشعر العربي المعاصر . وقد ظلت عبارة (كبلنغ) السائرة التي تقول ان الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا حقيقة مؤسفة لم يعمل الغرب من جهته على تلافي أمرها ، وستبقى وصمة في جبين الغرب والانسانية كلها طالما بقي الغرب مصرا

---

(١) زهر وخمر ٨٣ ط ٣

على نزعته الاستعمارية . وفي احدى رباعيات الزهاوي تضمين لهذه العبارة التي أطلقها الأديب الامبراطوري والتي تقرر تحكم الغرب القوي في الشرق الضعيف الى الأبد (١)

الغرب والشرق ضدان ليس يجتمعان

الا أن حسن الحصيري كان واضحا وصريحا حين أخذ يخاطب (كبلنغ) مباهيا اياه بحضارة الشرق ومشيرا الى عبارته المأثورة وذلك في قصيدة له عنوانها (الشرق) وفيها يقول : (٢)

" رد يارد " هذا الدهر سله من ابتنى ــ الهرمين سله من اعتلى الأيوانا

الشرق شرق عــزة ومهابة	والغرب غرب خسة وهوانا
من شرقنا شمس الهداية اشرقت	فأنارت الأبعاد والأكوانا
انا أنرنا غربكم بضيائنا	أيام كنتم في الورى قطعانا

أما الصافي النجفي فقد استوحى عبارة (كبلنغ) وكأنه يرد بها عليه (٣)

الشرق لايلتقي بالغرب في زمن وهل ترى تلتقي الأنوار بالظلم

ومما زاد العاطفة الشرقية رسوخا في نفوس الشعراء العرب يقينهم ان أصل البلاء واحد شمل العرب المسلمين وسواهم ، وان دول اوربا اتفقت جميعا على اقتسام هذا الشطر الكبير من العالم واستثماره ارضاء لجشعها ، فكأن الغرب اخطبوط هائل ليست اطرافه الممتدة نحو الشرق سوى انكلترا وفرنسة وايطاليا واسبانيا وهولندة .

والحق ان هذه الأفكار التي كانت تتصاحب او تتضافر في الشعر

---

(١) رباعيات الزهاوي ١٦٠

(٢) ابتسام الضحى ٣٧

(٣) الحان اللهيب ٨٣

الحديث من عاطفة شرقية او جامعة اسلامية أو رابطة عربية ٠٠ كانت واحدة منها تعزز الأخرى ، ولم تكن تنافيها ٠ وقد أفاد منها الفكر العربي الحديث كما افادت الحركات التحررية ٠٠ وكل ذلك وجد صداه الأمين في الشعر المعاصر ٠

ان العاطفة الشرقية في حقيقتها لم تكن رابطة قومية بالمعنى الصحيح ترتكز الى أسس سياسية او اجتماعية أو فكرية متينة وهي من جهة أخرى دعوة واسعة للتعاطف، لم تكن تتعارض مع الاتجاه القومي أو لتتناقض مع الوحدة الاسلامية والوحدة العربية ، بل كانت هذه الدعوات والنزعات تلتقي جميعا على صعيد التحرر القومي ٠ ولعل أصدق تعبير عن كنه الرابطة الشرقية ماورد في بيت أحمد شوقي اذ قال[1]:

وما الشرق الا أسرة أو عشيرة تلم بنيها عند كل مصاب

ومن ذلك نخلص الى المقول ان الرابطة الشرقية في الشعر المعاصر كانت رافدا كبير للتيار القومي يسايره أو يختلط به او يجانبه ولكنه لم يكن في أي حال يعترض تدفقه ٠

واذا مانظرنا الى الأمر من جهة أخرى نجد أن فكرة العروبة التي اطلت برأسها في الشعر العربي منذ أواخر القرن التاسع عشر ثم ازداد شأنها بعد الحرب العالمية الأولى ، كادت تضيع في زحمة دعوات اخرى اكثر شمولا واتساعا كالدعوة الى الجامعة الاسلامية والرابطة الشرقية ٠٠ ولكنها استطاعت بفضل جذورها العميقة الكامنة في النفوس ان تشق طريقها من خلال هذه الغمرات شيئا فشيئا متساوقة مع انضاج المشاعر القومية في المجتمع العربي ٠

ولعل من اسباب قوة هذه العاطفة الشرقية في الشعر الحديث برغم افتقارها الى الأسس الواقعية التي تمكنها من ان تكون رابطة بالمعنى الصحيح تؤلف بين أمم شتى ، تسلط الغرب المستعمر على الشعوب الشرقية مما ولد في نفوسها شعورا قويا

---

(١) ، شوقيات ٢ : ١٢

بالتعاطف الذى خلقته محنة الاستعمار المشتركة . وأصبح نضال العرب خاصة والمسلمين كافة جزءا فعالا من نضال الشرقيين ضد الغرب المغتصب . بل ان هذا الشعور بالتعاطف اخذ بالاتساع نحو آفاق الانسانية الشاملة منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وراح يشمل جميع الشعوب المغلوبة على أمرها في أية بقعة من الأرض ، اذ لم يعد الصراع العالمي مجرد صراع بين الشرق والغرب بل غدا نضالا مريرا بين التحرر والاستعمار .

الفصل الثالث

النزعات الاقليمية

الفرعونية ـ الفينيقية ـ الآشورية

عندما انحلت عرى الرابطة الاسلامية في أعقاب الحرب الكبرى الأولى على أثر انفراط عقد الامبراطورية العثمانية وانهيار نظام الخلافة نشطت في الشرق العربي الدعوات القومية التي حاولت أن تملأ الفراغ وأخذت تقوم على دعائم جديدة بعيدة عن الأسس الدينية . وكانت دعوة القومية العربية اقوى هذه الدعوات ، اتخذت مظهرا حاسما لها في "الثورة العربية الكبرى" ، وشملت بلاد الشام والعراق منذ العهد الفيصلي .

وقد قوى الاتجاه في فترة النهوض القومي الى بعث الصفحات الرائعة من الماضي العريق ، وذلك باستيحاء أمجاد العرب أو أمجاد من سبقهم من فراعنة وفينيقيين وآشوريين وسواهم . وقد ظهرت قبل ذلك الدعوة الطورانية في تركيا [1] وكانت اسبق تلك الدعوات القومية ، ولكنها لم تلبث ان استحالت الى عصبية عنصرية ضيقة . ثم انزلقت الوطنية المصرية فيما يشبه هذا الاتجاه ، كما ظهرت بوادر من هذا القبيل في الساحل السوري وفي العراق ، وكانت جميع هذه النزعات المتطرفة في تلك الأقطار تحاول ان تثبت لنفسها كيانا سابقا على الاسلام بعد أن وجدت في تراثه قاسما مشتركا بينها جميعا ليس بوسعه وحده أن يؤكد ذاتها المستقلة ، أو يسم كل شعب فيها بخصائص ومميزات ينفرد بها على الصعيد القومي .

أما الاستعمار الذى تنفس الصعداء بعد ان استطاع تفتيت الأمبراطورية العثمانية ، ورأى انهيار الجامعة الاسلامية باعتبارها كانت تضم كتلة كبرى لمجموعة من الشعوب المناهضة له ، فقد هاله انبثاق القومية العربية قوية في اعقاب الحرب الكبرى وهو

---

(1) انظر حاضر العالم الاسلامي للأمير شكيب ارسلان في وصف هذه الحركة .

الذي أسهم بنفسه في تحريضها ضد الدولة العثمانية ، فراح يعمل بدأب من جديد على تفتيتها ، وذلك بتشجيع قيام القوميات الضيقة في كيان الأمة العربية ، وسعيه لايجاد كيانات صغيرة متعددة في قلب العالم العربي ، وخلق اوطان متميزة تتسم حدودها بالقداسة .. كل ذلك في سبيل توطيد سياسة التقسيم والتجزئة التي بدت جلية في أعقاب الحرب الأولى .

وكان أبعد هذه النزعات خطرا الدعوة الفرعونية في مصر ، وثمة دعوة مماثلة عرفها لبنان وكانت تدعو الى الفينيقية ، كما عرف العراق دعوة ثالثة كانت تنادي بالآشورية .

- ١ -

كانت مصر طيلة عهود مديدة تؤلف مع بلاد العرب وحدة سياسية ودينية وثقافية ، وتتسم بالطابع العربي الأصيل الشامل ، كما كانت الحصن المنيع للثقافة العربية والتراث الاسلامي.

الا أن مصر تفردت خلال العصور الحديثة بأحداث معينة جعلتها تسير حينا من الدهر في اتجاه خاص ينسجم مع الظروف التي وجدت فيها آنذاك ، فقد استقلت عن السلطنة العثمانية على يد محمد علي دون سائر البلاد العربية ، ثم ابتليت بعد ذلك بالاستعمار قبل كثير من البلدان العربية الأخرى . وتجلى هذا الافتراق في قضية مصر عن سائر قضايا العرب في الثورة العربية الكبرى التي قام بها عرب الحجاز والشام والعراق متحالفين مع انكلترا وفرنسا ضد الحكم التركي ، فقد استنكر كثير من المصريين تلك الثورة ضد الخلافة الاسلامية وبخاصة تحالفها مع الدولة التي تحتل مصر وتذل شعبها ..

ورسخ في الأذهان منذ ذلك الحين ان شئون مصر تفترق عن شئون بلاد العرب الأخرى وأن هدفها الأول يجب أن يتركز في اجلاء المستعمر واستخلاص مصر للمصريين ولما كانت الجامعة الدينية

الصلة البارزة التي كان يشعر بها المصريون تجاه اخوانهم العرب والمسلمين قبل انهيار الخلافة وظهور التيار القومي ، فقد انقلبت موجة الوطنية المتطرفة التي غمرت مصر بعد الحرب الكبرى الأولى الى رد فعل قوى تجاه الجامعة الاسلامية قوامه الانفصال والاستقلال عن تركيا وعن كل الأقطار التي كانت تابعة لها ، والتي كانت تشكل معها الامبراطورية العثمانية .

فقد بدا المصريون عقب انفراط عقد الدولة العثمانية وكأنهم يفتقدون ذاتهم تجاه الفراغ الذى حدث بانهيار نظام الخلافة فراحوا يلتمسون هذه الذات المتميزة في تاريخهم الغابر ، وسرعان ماوجدوا في ماضيهم العريق السابق على الاسلام والمسيحية مايشيع الزهو ويبعث على الثقة في النفوس ، "وكان هذا الأدب المعتمد على التاريخ شعره ونثره من أقوى الأدوات في استنهاض الأمم وبعث الأمل ومحاربة اليأس ورد الثقة الى نفوس تمكن منها سوء الظن بنفسها حتى قتل فيها روح الأمل والطموح "(١)

وبانهيار الجامعة الاسلامية ، وفصل الدين عن شئون الحكم من جهة ، وقيام الثورة العربية بدون اشتراك مصر فيها من جهة أخرى ، أصيبت الرابطة الدينية والرابطة العربية على السواء بنكسة في مصر وأصبح المجال مفتوحا امام دعاة الاقليمية والاعراض عن الشرق العربي ، وغدت التربة صالحة لبذر بذور الفرعونية والقومية المصرية المتميزة والأفكار المسمومة التي أخذت تلقى في الأذهان بأن مصالح مصر تتعارض مع مصالح العرب .

ويمكن أن نرد بذور الدعوة الفرعونية الى عهد الحملة الفرنسية على مصر منذ ان كشف شامبليون عن سر الهيروغليفية وحل طلاسم حجر رشيد ، فقد بدت بوادر هذا الاتجاه في

---

(١) محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ١ ــ ٩٩

شعر البارودي اذ قال : (١)

سل الجيزة الفيحاء عن هرمي مصر   لعلك تدري غيب مالم تكن تدري

بناءان ردا صولة الدهر منهما   ومن عجب ان يغلبا صولة الدهر

ومما ساعد على تعاظم هذا الشعور في مصر نشاط الحفريات وظهور المكتشفات الأثرية الفرعونية ، واهتمام الصحف بها والتحدث عنها بكثير من الزهو والاعتداد .. وقد استبشر الشعراء بهذه المظاهر الجديدة وسرهم ان يروا ماضيهم الدفين يبعث امام عيونهم من مراقده ، فراحوا يتغنون بمصريتهم ويشيدون بأجدادهم في نشوة بالغة .

وكان أحمد شوقي في طليعة هؤلاء الشعراء استجابة لهذا الاتجاه الجديد . ومن طبيعة شوقي سرعة التجاوب مع مجتمعه وحرصه على تصوير نزعاته ومشاعره ، وقصيدته (كبار الحوادث في وادي النيل) التي ألقاها في مؤتمر المستشرقين عام ١٨٩٤ وهو شاب في السادسة والعشرين (٢) ، تعتبر البادرة الأولى لديه ، في ابراز الجانب الفرعوني من تاريخ مصر ، وفيها اشادة برمسيس ومناجاة لسيزوستريس ، واعظام لآمون وايزيس واوزيريس وآبيس (العجل) ، ولكن شوقي لم يقتصر في مطولته هذه على الاشادة بالفراعنة بل جمع بين أمجادهم وأمجاد العرب على صعيد واحد ، مما يدل على ان فكرة الاعتزاز بماضي مصر كانت الباعث الأول في شعره . الا أن اهتمام شوقي بالجانب الفرعوني ، أخذ يشتد على أثر اشتداد النزعة الفرعونية لدى عدد من الكتاب والصحفيين والسياسيين ... ممن اطلقوا لنزواتهم العنان دون ان يخشوا منافسة أنصار الجامعة الاسلامية الذين انزووا اثر انهيار خلافتهم ، أو أنصار الجامعة العربية الذين كادوا ينحصرون في السوريين المقيمين والذين كان بعضهم يهادن المحتل فيقابل بالريبة والحذر .

وكان كل اكتشاف فرعوني يزيد هذه النعرة استفحالا لدى الشعراء حتى أن " اكتشاف قبر توت عنخ آمون أحدث دويا كبيرا وكأنه نصر مبين ، وبلغ من انشغال الرأي العام بتوت عنخ آمون أن شوقي

---

١)) الديوان ١ ـ ١٤٩   ٢)) أنظر الشوقيات ١ ـ ١٧

نظم فيه وحده في هذه المناسبة أربع قصائد (١) كانت أولاها قصيدة " توت عنخ آمون " نظمها على أثر اكتشاف المقبرة وهي اكثرها ذيوعا وقد استهلها بقوله : (٢)

قفي ياأخت يوشع خبرينا   احاديث القرون الأولينا

وكانت الثانية على أثر وفاة مكتشف المقبر كارنارفون من آثار لسعة بعوضة قبل أن يتم كشفه وقد كثرت الأراجيف وقتذاك عما سموه لعنة الفراعنة (٣) وقد استهلها بقوله (٤)

في الموت ما أعيا وفي اسبابه   كل امرئ رهن بطي كتابه

أما الثالثة وهي " توت عنخ آمون والبرلمان " فنظمها بمناسبة افتتاح أول برلمان في مصر عام ١٩٢٤ وقد بدأها بخطاب توت عنخ آمون قائلا (٥)

قم سابق الساعة واسبق وعدها   الأرض ضاقت عنك فاصدع غمدها

وأما الرابعة " توت عنخ آمون وحضارة عصره " فمطلعها (٦)

درجت على الكنز القرون   وأتت على الدن السنون .

وبرغم اهتمام شوقي البالغ بهذا الموضوع فهو بصورة عامة لم يبلغ حد التطرف الذي وجدناه لدى بعض الكتاب آنذاك ، اذ ظل بعيدا عن التعصب الأعمى للفراعنة ، ولاريب ان قوة عاطفته الاسلامية كانت خير عاصم له من التعصب والهوى ، ولذلك نراه يصرخ بفرعون وعصره فيقول (٧)

زمان الفرد يافرعون ولى   ودالت دولة المتجبرينا

وأصبحت الرعاة بكل أرض   على حكم الرعية نازلينا

كما يشيد بنظام الشورى ويحمل باستبداد الفراعنة بقوله (٨)

روح الزمان ونظمه   وسبيله في الآخرين

ان الزمان وأهله   فرغا من المفرد اللعين

وهكذا يرى شوقي في الفرعونية دعوة رجعية لاتلائم روح العصر الحديث

---

١)* انظر محمد حسين الاتجاهات الوطنية ٢ : ١٤٠ ــ ١٤١

٢)* الشوقيات ١ ــ ٣١٣   ٣)* محمد حسين ٢ ــ ١٤٢

٤)* الشوقيات ١ ــ ٨٩   ٥)* الشوقيات ٢ ــ ١٩٧

٦)* الشوقيات ٢ ــ ١١٦   ٧)* " ١ ــ ٣١٣

٨)* " ٢ ــ ١٩٧

وحضارته . والواقع ان اكثر مانظمه أمير الشعراء حول الفراعنة يتسم بالعبرة والموعظة واستخلاص المغزى من الماضي والتاريخ . وتبرز هذه الظاهرة لديه في قصائده المتعلقة بالتاريخ الفرعوني او العربي على حد سواء فهو يقول مثلا تجاه قصر الحمراء الأندلسي : (١)

وعظ البحترى ايوان كسرى وشفتني القصور من عبد شمس

ويصدر عن هذه الروح نفسها تجاه معبد أنس الوجود حيث يقول : (٢)

اين فرعون في المواكب تترى يركض المالكين كالخيل ركضا
اين ايزيس تحتها النيل يجرى حكمت فيه شاطئين وعرضا
اين هوروس بين سيف ونطع أبهذا في شرعهم كان يقضى

على ان شوقي ينساق مع روح تلك الفترة المتطرفة في بعض شعره فيشيد بحضارة مصر القديمة وآثارها ويزهو بها على الحضارات الأخرى ، ولايفوته أن يبرز الروح الفرعونية حتى في صدد حديثه عن حضارة العرب في الأندلس فيقول مستوحيا طريقة ابن زيدون (٣)

وهذه الأرض من سهل ومن جبل قبل (القياصر) دناها فراعينا
ولم يضع حجرا بان على حجر في الأرض الا على آثار بانينا

وحين يتحدث عن آثار مصر في قصيدته « أيها النيل » يقول مباهيا (٤)

لا (الفرس) اوتوا مثله يوما ولا بغداد في ظل الرشيد وجلق
كم موكب تتمايل الدنيا به يجلى كما تجلى النجوم وينسق
تعنو لعزته الوجوه ووجهه للشمس في الآفاق عان مطرق
ومشى الملوك مصفدين خدودهم نعل لفرعون العظيم ونمرق
مملوكة أعناقهم ليمينه يأبى فيضرب او يمن فيعتق

وعلى هذا المنوال من روح الاستعلاء ينسج شوقي أبياته ويفاخر بأمجاد الفراعنة بما يقرب من خمسين بيتا . ومع أنه لم يتحدث في هذه القصيدة عن العرب والاسلام الا بأبيات قليلة ، وأن ما قاله

---

١)) الشوقيات ٢ ـ ١١٦ ٢)) الشوقيات ٢ ـ ٦٨
٣)) " ٢ ـ ١٢٧ ٤)) " ٢ ـ ٧٩

هنا يعتبر من اكثر قصائده تطرفا نحو الفرعونية ، فأن الطابع الذى يميزها يتفق مع سائر قصائده الأخرى أيضا في هذه النظرة الشاملة لتراث مصر وحضارتها واعتبار ذلك الماضي بوجهيه الفرعوني والعربي وحدة متكاملة يؤلفان معا تاريخ مصر وشخصيتها ٠

وقد تناول محمود عماد أيضا موضوع ذلك الاكتشاف الأثرى وذهب الى أبعد مما ذهب اليه شوقي بمراحل حين اعتبر توت عنخ آمون جده ، بل انه أضفى عليه صفة النبوة لأن جسمه لم يدركه الفناء بفضل التحنيط (١) :

ياتوت معذرة الحفيد لجده ان لم تكن منا حقرت حفيدا

لم يفن جسمك بعد دفنك أدهرا ان النبوة لاتروم مزيدا

وقد حشر الشاعر في هذه القصيدة اسماء فرعونية كثيرة مثل هاتور وآمون وايزيس واوزيريس وسيتي ورمسيس وغيرها ٠

وتعتبر قصيدة " مصر " لحافظ ابراهيم من أبرز ماقيل أيضا في هذا الاتجاه ٠ وتحدث مصر عن نفسها مفعم بروح الزهو والاعتداد بنتيجة الشعور الوطني الجارف الذى تدفق في أعقاب ثورة ١٩١٩ وعمق شعور مصر بشخصيتها ، وتبدو النزعة الفرعونية في هذه القصيدة ركنا هاما من التفاخر بأمجاد مصر التي تتحدث عن نفسها بقولها : (٢)

هل رأيتم تلك النقوش اللواتي اعجزت طوق صنعة المتحدى

هل فهمتم اسرار ماكان عندى من علوم مخبوءة طي بردى

ذاك فن التحنيط قد غلب الدهر ــ وأبلى البلى وأعجز ندى

أنا أم التشريع قد أخذ الرومان ــ عني الأصول في كل حد

ورصدت النجوم منذ أضاءت في سماء الدجى فأحكمت رصدى

وشدا (بنتئور) فوق ربوعي قبل عهد اليونان او عهد نجد

واذا كان شوقي حريصا على ايجاد التوازن بين عناصر الشخصية المصرية حين يشيد بالفراعنة دون ان ينسى العرب او المسلمين فأن حافظ في هذه القصيدة قصر افتخاره على الفراعنة وحدهم

---

(١) الديوان ٣٤٣

(٢) " ٢ ــ ٨٩

دون ان يشير ببيت واحد الى تراث العرب الزاهي في مصر .
وواضح ان فكرة الأسبقية والامتياز في حضارة مصر المقديمة من حيث النقوش والتحنيط والتشريع والمفلاء والشعر هي التي استولت على ذهن حافظ وأملت عليه هذا الاتجاه في قصيدته ، الا أن حضارة العرب جاءت متأخرة في الزمن عن حضارة مصر المقديمة وهذا ماجعل الشاعر يباهي بالشاعر الفرعوني (بنتئور) دون الشعراء العرب ومفكريهم . ومع ذلك فأن حافظ لم يكن مولعا كشوقي في طرق هذا الجانب القديم من تاريخ مصر والأكثار من نظم القصائد فيه .

والواقع أن هذا التيار الجديد قد غمر اكثر شعراء مصر آنذاك فأقبلوا عليه يغترفون من معينه بشغف ويصوغون منه القصائد المطولة يشيدون فيها بتلك العهود الغابرة بكثير من الزهو والاعتداد من ذلك ما نراه لأحمد زكي أبي شادي الذي يخاطب مصر بقوله : (١)

يا قبلة (ايزيس) تركع نحوها ... شكرا لمنصفها على الآباد
هل انت الا مجد (منف) تقمصت ... آياته بجنانك الوقاد

وهو حين يخاطب مصر ثانية يردد ما كانت تتداوله الصحف من أن المصريين أحفاد الفراعنة (٢)

رمسيس لم يدفن بأرضك روحه ... الا ليلحظها بغير شريك
والتابعون من الفراعنة الألى ... احيوك لم يبنوا لغير بنيك

وقد سلك محمد الأسمر نفسه في جملة الداعين الى خلق ادب محلي ، متميز بالطابع المصري ، مستقل عن آداب الشعوب الشرقية الأخرى الناطقة بالضاد (٣) وكان في طليعة المزهوين بأمجاد الفراعنة ومما قاله مفتخرا (٤)

خلت من بني فرعون شم المنازل ... ولم تخل الا من رجال بواسل
مضوا ومضت ايامهم غير انهم ... لهم في المعالي كوكب غير زائل

---

١)) مصريات ٥٦   ٢)) مصريات ٥٩
٣)) انظر محمد حسين الاتجاهات الوطنية ٢ ـ ١٣٧
٤)) تغريدات الصباح ٢٦

ورثناهم أما المروش فقوضت وأما المواني فهي دون الحمائل

وهو يترحم على تلك العهود الغابرة بقوله : (١)

ألا رحم الله الزمان الذى مضى فلله من عصر ولله من عهد

بنى فيه خوفو الراسيات على الثرى فأعجب به يبني الرواسي بالأيدى

ويصور لنا الأسمر تلك النشوة الحالفة التي كان يشعر بها عدد من الكتاب والشعراء تجاه الفراعنة فيهتزون لذكرهم طربا فيقول (٢)

لنا وطن للضيف بين رحابه قصور وللأعداء فيه قبور

تحيط به أبناء فرعون انهم يسيرون حيث المكرمات تشير

يحدثني التاريخ عنهم فأنثني وبي صلف من قوله وغرور

وكثير مما نظمه عباس محمود العقاد وبخاصة في سعد زغلول يسير في هذا الاتجاه ، ففي احدى قصائده التي نظمها على أثر نقل رفات سعد الى ضريحه المقام على النمط الفرعوني يقول (٣) :

الفراعين الألى أجليتهم لتمنوا لو أجازوك الطريق

انت اضفيت على أوطانهم سمة وهي من الأسر تضيق

انت ايقظت لهم تاريخهم وهو في نومته لا يستفيق

فضلك اللاحق أحيا فضلهم فاستوى منه طريف وعريق

وفي قصيدة أخرى للعقاد اسمها " تمثال رمسيس " اشادة بسطوة فرعون مصر وجحافله التي بلغت الشام وبابل ونينوى واعتداد بآمون وبنتاور .. وشبيه بذلك أيضا قصيدته المسماه " هيكل الكرنك " (٤) فهو في اكثر هذه القصائد وأمثالها لم يكن ليشير الى أية أمجاد عربية على النحو الذى وجدناه لدى شوقي .

وبالرغم من أن الشاميين والعراقيين كانوا يجدون في سعد زغلول زعيما للعرب وللشرق لا زعيما لمصر وحدها فأن العقاد في مراثيه المتعددة لزعيم مصر لم يشر الى شيء من ذلك وانما كان سعد في نظره حفيد الفراعنة فحسب . ففي قصيدته المطولة " ذكرى الأربعين " التي يصف فيها تشييع جثمان الزعيم

---

(١) تغريدات الصباح ٢٧ (٢) تغريدات الصباح ٢٨

(٣) عابر سبيل ٨٥ (٤) الديوان ٢٦٨

الراحل يقول : (١)

موكب رمسيس لم يظفر به   وهو مولى الخلق من بيض وجون

اذ لم يذكره سعد الا برمسيس ، وكان بوسعه ان يقرنه أيضا بأبطال عظام من التاريخ الاسلامي والعربي الحافل ، بل ان المتوقع من العقاد وغيره ممن نظموا في سعد زغلول ان يذكرهم اسمه في بعض الأحيان بسعد آخر هو ابن أبي وقاص أحد كبار الصحابة ومن اعلام العرب والاسلام ، في حين وجدنا الكثيرين ممن تناولوا مصطفى كمال اتاتورك في شعرهم فطنوا الى هذا الأمر برغم تركية اتاتورك الذي رأى فيه شوقي ملامح من ابن الوليد ونعته بخالد الترك في قصيدته الهائية ، كما خاطبه معروف الرصافي ناعتا اياه بسمي المصطفى ...

وفي (أعاصير مغرب) للعقاد قصيدة رثاء في أحد أدباء السودان عنوانها "الشهيد معاوية" (٢) يتوقع القارئ العربي ان يذكره هذا الاسم بابن أبي سفيان مؤسس اكبر دولة عربية في التاريخ ولكن ظنه يخيب ، ولاندري اذا كان هذا يعني اعراض العقاد عن التراث العربي وأعلامه أم استغراقا في الحاضر لما جرى عليه في كتبه من محاباة للشيعة ..

والواقع ان انقطاعا نفسيا بين عدد من شعراء مصر وبين أمجاد العرب كاد يحدث بسبب طغيان التيار الفرعوني في أرض الكنانة ، وهذا محمود عماد يرحب في قصيدة له بالملك السابق فاروق فيشبهه بآمون (٣)

آمون اشرق يوم عيد الوادي   ام ذاك فاروق المنار الهادي ..

ويبدو أن الفترة التي عاشتها مصر آنذاك جعلت آمون ورمسيس وخوفو وبنتاثور ورع وايزيس ، أشد لصوقا بنفسية أولئك الشعراء واكثر استهواء لمشاعرهم من ابن خلدون وابن الوليد والمتنبي وصلاح الدين والمأمون .. ولاريب ان هذا الاتجاه كان من آثار الآراء المتطرفة التي كانت تتردد في بعض الصحف والمحافل ، وتزعم

---

(١) ديوان العقاد ٢٨٧   (٢) ص ١٢٣

(٣) الديوان ٣٥٠

أن وجود العرب في مصر لم يعد كونه حقبة طارئة أضيفت الى سلسلة طويلة من حلقات التاريخ المصرى ، " وأن مصر تعرضت لغزوات الفاتحين من أحباش ويونان وفرس ورومان وعرب وترك وافرنج ولكنها احتفظت بشخصيتها المصرية وأنه مضى على مصر اكثر من الفين وثلاثمائة سنة منذ مافقدت استقلالها بانتهاء حكم الفراعنة " (١) كما ادعى آخر (٢) أنه من الخطأ البين ان تنظم مصر في سلك البلاد العربية اذا تعلق الأمر بالناحية القومية ، انها ورثت الاسلام واللغة من غزاتها الجدد ولكنها لم تكن عربية قط .

صحيح ان الشعراء في مصر نجوا بصورة عامة من هذه المزالق ولم يبلغوا هذا الحد من التطرف والأخذ بالنعرات الانفصالية ، الا أن ظلا من تلك الآراء بدا في بعض مانظموه من شعر . وللعقاد قصيدة اسمها " بين عهدين " يبدو ان المقصود بالعهد الأول فيها عهد الفراعنة وبالثاني عهد مصر الحديثة يقول فيها (٣)

كنانة الله كم أوفت على خطر ثم استقرت وزال الخوف والخطر
وكم توالت على أبوابها أمم ومصر باقية والشمس والقمر
كأن رمسيس حي في مدينته يرعى بنيه وهم من حوله زمر

ومحمد الأسمر الذى وجدناه يتغنى بمفاخر مصر الفرعونية تواق الى استعادة أمجادها السالفة وكأنه لايرى في سعد زغلول الا فرعونا جديدا (٤)

اعد ياسعد فينا عهد (مينا) وذكر بالفراعنة الشداد
السنا قادة الأمم الخوالي ومفرق رأسها من عهد عاد

كما يقول :

ومن كان (مينيس) المتوج جده قضى عمره تحت العجاجة دائبا

---

(١) من محاضرة لمرقص باشا سميكة انظر المقتطف مارس ١٩٢٦ ، وانظر محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية ٢ ـ ١٣٤

(٢) عبدالله عنان انظر ملحق السياسة الأدبي ١٤ أكتوبر ١٩٣٢

(٣) عابر سبيل ٩٠ ـ ٩٦ (٤) تغريدات الصباح ٢١

كذلك نجد صدى لتلك الأفكار في قول ابي شادى حين يخاطب مصر بقوله : (١)

الفرس والرومان والعرب اكتفوا ... لسمو دولتهم بأن عرفوك

فهو يسلك العرب مع الفرس والرومان وأنهم جميعا غزوا مصر ، وكأني بالشاعر يعتقد ضمنا ان العرب شئ والمصريين شئ آخر .

وكانت الدعوة الى خلق أدب قومي مصرى تصادف هوى في نفوس الكتاب والشعراء وهي تطالب بأن تقوم نهضة مصر على بعث المجد الفرعوني القديم مثلما قامت النهضة الأوربية الحديثة على بعث المجد اليوناني واللاتيني (٢) دون ان يتناول هذا الأدب المصرى الجديد حياة الشرق العربي او البلاد الشقيقة المجاورة وبلغ الأمر ببعضهم حد المطالبة بفصم عرى الجامعة اللغوية والاعتماد على اللهجات المحلية لأن العربية سائرة الى الانقراض ولا تصلح لغة للحياة ، كما آلت اليه حال اللاتينية وأن على كل قطر ان يقوى لهجته المحلية لتكون لغته القومية كما صنعت فرنسا وايطاليا واسبانيا ...

وقد كادت الدعوة الفرعونية تبلغ لدى بعض الشعراء حد الالتزام بفضل الجهود الدائبة التي بذلها عدد من الكتاب والصحفيين والمحاضرين والخطباء حتى بلغت آثارها جهاز الدولة الرسمي فيما بدا من مياسم فرعونية على منشآتها ونقودها وطوابع بريدها ونصبها ... حتى لم يكد يخلو ديوان شاعر من التفاخر بأمجاد الفراعنة وآثارهم . وقد اصدر أحمد زكي أبوشادى ديوانا خاصا عام ١٩٢٤ اسماه " وطن الفراعنة " ويقصد به مصر وقد أهداه " الى بناة القومية المصرية وحماتها " وهو يشتمل على بضع عشرة قصيدة تدور جميعها حول التاريخ المصرى القديم وتستمد مادتها منه ، باستثناء قصيدة واحدة من التاريخ العربي وصف فيها قلعة صلاح الدين . وفي هذا الديوان اشادة بالغة بالأهرام وبناتها ، وأبي الهول ووادى

---

(١) مصريات ٥٩

(٢) انظر السياسة الاسبوعية ١٧ ديسمبر ٩٢٧ ، والاتجاهات الوطنية ٢ ١٣٦ - ١٣٧

الملوك ومعبد حاتاسو والكرنك الخ .. وبالاضافة الى المقطات المذكورة تبدو عليها وطأة النظم ويبدو خيالها محدودا ، فأنها محشوة بالأسماء المفرعونية المفريبة على اللغة العربية وهي في الواقع احدى ثمار التأثير البالغ لتلك النعرة القومية المتطرفة .

ويحسن بنا ان نستمع الى رأى الشاعر نفسه في ديوانه هذا حيث يقول (١) : " اجتهدت في اختيار مواضيع متنوعة مرتبطة بتاريخ مصر القديم وبحياتها الاجتماعية ، وبنهضتها الحديثة ، فمن حق الأدب القومي ان تحفل بالمواضيع القومية الصحيحة ، ومهما كانت عنايتنا بتاريخ العرب فأن أبلغ حفاوتنا بالأدب المصرى من حق وطننا علينا ، فلا خير في قصر عناية الطالب المصرى على بغداد ودمشق وقرطبة وطليطلة او في اغفاله وادى الملوك ومعبد حاتاسو ومقابر العظمة المدهشة لمصر القديمة "

ولم ينج من هذا التيار شاعر سورى اقام في مصر هو خليل مطران الذى نظم في الموضوع قصيدة اسماها " نشيد توت عنخ آمون " وقال فيها (٢)

أنا (فرعون) ، أنا (توتانمون) صاحب التاجين من أبناء (را)

كما اشاد مطران أيضا بتمثال نهضة مصر وتغنى بالهرم في أبيات وقصائد أخرى

وبوسعنا بعد ذلك ان نحكم على ضوء ماتقدم من شواهد في هذا المجال بقولنا ان النزعة المفرعونية لم تكن لتبلغ في قصائد الشعراء بصورة عامة حد التبشير المذهبي بالنعرة الانفصالية المتطرفة ، بل كانت لاتعدو حدود التفاخر بالماضي العريق في مرحلة من تكوين شخصية مصر القومية التي بهرتها المكتشفات الرائعة وأعادت اليها ثقتها بنفسها وقوت قدرتها على شق طريقها في الحياة ..

على أننا لانكاد نجد لدى شعراء مصر في مقابل ذلك - وان كنا نجد لدى بعض كتابها - تنديدا قويا بهذه النعرة المفرعونية المتطرفة ونحو قطع الصلة بالعروبة ومحاولة تفسير

---

(١) ص ٧٦ (٢) الديوان ١٦٦

وجه مصر الحقيقي . وثمة أبيات قليلة نظمها الشاعر السوداني حسين المنصور في مصر، تندد باتجاه أحمد شوقي في قصائده الوطنية يقول فيها (١)

العرب تبغي شاعرا متنمرا	يزجي القريض الثائر الوجداني
أيصح مدحك فترة وثنية	واشادة بهياكل ومباني
ماتوت عنخ وغيره ، ودماؤهم	ان تبغها لم تجر في شريان

والواقع أن التنديد بالنعرة الفرعونية لم يصدر عن شعراء مصر وانما صدر عن شعراء الشام والعراق بالدرجة الأولى اذ أنهم ادركوا خطر تلك الدعوة المنحرفة التي كانت تهدف الى ابعاد مصر عن شقيقاتها ، فقد كانت أرض الكنانة معقد رجائهم وقبلة أمانيهم ، وهذا معروف الرصافي يؤكد عروبة مصر بقوله (٢)

اني أرى مصر والتاريخ يشهد لي	تحيا بعرق بها من ضئضئي العرب
وليس فرعونها ممن يشط به	بعد عن العرب العرباء في النسب
يمت للعرب ماضيها وحاضرها	بنسبة غضة في المجد والحسب

وعندما استفحل أمر الدعوة الى " ضرورة خلق ادب قومي يكون مستقلا عن آداب الشعوب الشرقية الأخرى الناطقة بالضاد معبرا عن نفسية المصريين وشعورهم " تصدى الرصافي لأولئك الدعاة في قصيدة اسماها " التعصب الوطني للأدب " وقال فيها (٣)

من جور مصر على العروبة أنها	تتعمد التمصير في آدابها
من أين كانت مصر في اقباطها	كمواطن الأعراب في اعرابها
ابت العروبة ان يفوق هزارها	صرد زقى في مصر زقي غرابها

وقد دأب شعراء الشام وخطباؤها وزعماؤها على اثارة الموضوع كلما سنحت لهم الفرص ، من ذلك مافعله شفيق جبري في قصيدة له عندما زار أمير الشعراء دمشق عام ١٩٢٥ وقد أشار

---

(١) الشاطئ الصخري ١٥٠

~~(٢) الديوان~~

(٢) لم ترد الأبيات في ديوان الرصافي، نقلها في كتاب مصطفى علي عن معروف الرصافي ، ص ١٣٩

(٣) الديوان ١٧٢

فيها الى انحراف عدد من رجال مصر عن العروبة وناشدهم الشماء بحبالها (١) :

كيف تضطرب العروبة فيهما	حتى تجول على السنين مجالها
لو تشتكي مصر أذى بشمالها	بترت ربوع الغوطتين شمالها
بالله بالقرآن بالبيت الذي	قذفت اليه جرهم ابطالها
لا تقطعوا صلة العروبة بيننا	حتى تدل على النفس ادلالها
ماذا بمصر وكلنا ظمئ الى	مصر يناجي اهلها ورجالها

وقد جدد شفيق جبرى القول في عروبة مصر بعبارات أشد وطأة على أثر زيارة حافظ ابراهيم لدمشق عام ١٩٢٩ فقال في حفلة تكريمه (٢) :

اذا بكت جنبات النيل من ألم	بكت دمشق بدمع منه هتان
اواصر ببيان العرب محكمة	النيل والشام في الآلام صنوان
أرى رجالا على الأهرام ديدنهم	حل الأواصر من طي وشيبان
تنكبوا عن صميم العرب واعتصموا	بحبل رمسيس أحداثا بأحدان
كأنما مضر الحمراء مازحفت	الى المقطم من شيبه وشبان
لكن مصر وان هشت وان عبست	ركن العروبة للقاصي وللداني

وقد أزرى ايليا ابوماضي ببناة الأهرام من حيث كان ذلك مبعث افتخار لاحد له عند المصريين فقال (٣) :

بني الأهرام (فرعون) فدامت	لتخبر كيف كان الظالمونا

وهذه النظرة من أبي ماضي ربما كان مردها الى منزع الشاعر الانساني ونفوره من العنف والاستبداد والسخرة ، وهي من ناحية أخرى تماثل ما كان يصدر عن ابراهيم عبد القادر المازني وأحمد حسن الزيات في هذا الصدد نحو آثار الفراعنة وما توحيه من جبروت ..

والواقع ان هذه القصائد وأمثالها لم تكن سوى رد فعل

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، م ٥ ، ج ٨ ، ص ٣٨٨

(٢) ذكرى الشاعرين ١٩١ (٣) الخمائل ١٢٣

معتدل تجاه دعاة الفرعونية الذين تطرفوا في دعوتهم الى حد انكار كل صلة لمصر بالعروبة حتى كادوا على حد قول احمد حسن الزيات يجعلون المآذن مسلات والمساجد معابد والكنائس هياكل والعلماء كهنة • واعتقدوا ان الرابطة المكانية أو رابطة الأرض وحدها تكفي لايجاد صلة بين الشعوب • وكما كانت طائفة من الكتاب ترى أن مصر الحديثة أقرب الى مصر الفرعونية منها الى جاراتها العربيات ، كذلك كانت طائفة اخرى تعتقد ان مصر أقرب الى اليونان وكانت طائفة ثالثة تعتبرها ألصق بأوربا ، وقد التقوا جميعا في ابعاد الطابع العربي عن مصر (١) •

ومن الحق ان نقول ان الشعراء في مصر لم يغلوا في نزعتهم الفرعونية المدى الذى بلغه كتابها في تطرفهم ، ومعظمهم اشاد بها باعتبارها عصرا وحقبة من التاريخ لا على أنها جنس أو قومية ، وربما كانت طبيعة الشعر وقوالبه وقوافيه من جهة ، وعمق الثقافة العربية في نفوس الشعراء من جهة أخرى خير ماعصم الشعر في مصر من الانزلاق البعيد نحو تلك الآراء المتطرفة ، وجعله يتسم في معظم الأحيان بالمحافظة والاتزان ولايفسح صدره للنعرات المحلية والدعوات الغريبة الا بصعوبة وبمقدار ••

وكان لشعراء الجامعة الاسلامية فضل كبير في حصر تيار الفرعونية وعدم استفحال أمره في الشعر ، صحيح انهم لم يتصدوا للتنديد به كما كان متوقعا منهم وذلك لأن الرياح لم تكن آنذاك تهب معهم ، الا أنهم بنتيجة انزوائهم في هذه الفترة بعد ان فقدوا خلافتهم ، ظلوا معصومين من الانجراف في هذا التيار الذى وجدوا فيه تعلقا بوثنية عريقة تغاير عقيدتهم

---

(١) الملاحظ ان الدعوة الى الفرعونية تبناها حزب الاحرار الدستوريين او على الأصح بعض أعضاء هذا الحزب وكانت جريدة السياسة منبرا لآرائهم •

الاسلامية السامية . وكان من أبرزهم أحمد محرم ومحمد عبدالمطلب وكذلك فان الذين تخرجوا في دار العلوم عصمتهم ثقافتهم العربية والاسلامية بصورة عامة من الانزلاق نحو الفرعونية المتطرفة ومن هؤلاء محمود غنيم وعلي الجندي وغيرهما ..

وقد وجدنا بين شعراء مصر من اتسم باعتدال نظرته الى ماضي مصر وتاريخها فاعتز بالعرب والفراعنة على السواء دون أن يصدر في ذلك عن دعوة مذهبية معينة ، وقد عبر علي الجندي عن هذا الاتجاه في بعض أبياته اذ قال (١) :

نحن جند النيل ابناء الفدا ورجال الحرب ابطال الكفاح

من فراعين ومن عرب كرام يومئ الناس اليهم بالسجود

وصدر عن الاتجاه نفسه علي أحمد باكثير بتفهم ووعي لمعضلة الازدواج في تراث مصر الحضاري فقال على لسان أحد شخوص مسرحياته (٢) :

ابوكم أبي يوم التفاخر يعرب وجدكم فرعون اضحى بكم جدي

وهكذا نرى عزوف عدد من الشعراء عن حدة الدعوات المذهبية وتطرف النعرات الانفصالية وحرصهم على المؤاخاة بين هذين العنصرين العريقين في تراث مصر العربي والفرعوني ، والتأليف بينهما في وحدة متماسكة منسجمة . ومما نلاحظه في هذا الصدد ان الكثيرين من الشعراء الذين افتتنوا بالفرعونية كانوا هم أنفسهم شأن كثير من الكتاب أيضا في طليعة المبشرين بالعروبة نذكر منهم أحمد شوقي وحافظاً وأبا شادي .. مما يدل على الصفة العارضة للدعوة الفرعونية التي ازدهرت على نطاق التمهل في وقت من الأوقات .

وجملة القول ان الشعر العربي في مصر ظل عربي اللسان والهوى ، وقد علقت به بعض الشوائب الى حين ولكنه بفضل ما اتسم به من أصالة استطاع ان يتخلص منها بعد ذلك ويسير قدما في الاتجاه العربي السليم .

---

(١) الحان الأصيل ٤٥ (٢) انظر فن المسرحية ص ٣٤

— ٢ —

ان الدعوة الى الفرعونية لم تكن النزعة الوحيدة من نوعها في العالم العربي بل كانت الى جانبها دعوات أخرى كالدعوة الفينيقية التي قامت في لبنان ، والدعوة الاشورية في العراق . وقد ظهرت هذه الدعوات في فترات متقاربة بعد انتهاء الحرب الأولى ووقوع بلاد العرب في قبضة المستعمرين الذين شجعوا هذا الاتجاه الجديد وحرصوا على دعمه بستار من الأبحاث العلمية والمكتشفات الأثرية أملا في تفتيت وحدة العرب عن طريق خلق كيانات منفصلة متميزة في العالم العربي .

والواقع ان جميع هذه الدعوات كانت من طبيعة واحدة تعبر عن اتجاه فكري واحد وتستلهم مقوماتها من معين واحد هو ذلك الماضي السحيق السابق لوجود الكيان العربي . ومؤيد ذلك ماكتبه محمد حسين هيكل بعنوان "حاضر لا ماضي له ، لامستقبل له "(١) اذ قال انه حين يدعو المصريين الى هذا الاتجاه انما يراه واجبا قوميا يجب أداؤه في البلاد المختلفة بالدعوة الى مثله ، وأضاف قوله " .. ان تطبيق هذه الفكرة في بلاد الشرق العربي يؤدي الى نتيجة هي خير النتائج ، ويؤدي ان يصل اهل الشام حاضرهم بماضيهم منذ عهد الفينيقيين ، والى ان يصل اهل العراق حاضرهم بماضيهم الى عهد آشور وبابل " .

وقد استهوت الدعوة الفينيقية بعض اللبنانيين بعد أن وجدت الظروف مواتية لها في هذا البلد الصغير الذي كان عرضة لمجازر طائفية منذ مأساة ١٨٦٠ في ظل حكم عثماني فاسد كان قوامه التعصب والدسائس مما سمح للمستعمرين بدس أنوفهم في

---

(١) انظر ملحق السياسة الاسبوعية ٢٩ سبتمبر ١٩٣٣

شئون لبنان حتى تمكنوا من احتلاله مع سورية في الحرب الأولى ، وقد دأب الفرنسيون على بعث الماضي الفينيقي والحيثي في بلاد الشام عن طريق كتابة تأريخ جديد لها (١) والكشف عن آثارها المدفينة اسوة بما فعله الانكليز في مصر ، واستطاعت فرنسا ان تنفذ الى مشاعر اللبنانيين عن طريق الطائفية المستحكمة بينهم بأيهام الموارنة بأنهم ليسوا من العرب وانما هم أحفاد المردة القدماء وان لبنان من أرومة فينيقية ، وأن القومية العربية فكرة اسلامية ترمي الى التسلط على المسيحيين .. (٢) حتى خيل الى بعض اللبنانيين ان العروبة دعوة رجعية قوامها العودة الى الصحراء ، وأن مصلحة لبنان في الاتجاه نحو الغرب الأوربي وقطع صلته بكل ما هو عربي ، ونجم عن ذلك قيام منظمات آمن بعضها بالكيان اللبناني الخاص وشخصيته المتميزة ، وخشي عليه ان يذوب في كيانات أخرى اكثر اتساعا كالكيان العربي او الاسلامي .. كما آمن بعضها الآخر بالكيان السوري بشطريه الساحلي والداخلي لاحتوائه على أمة متميزة .

ومن أبرز مظاهر تلك الدعوة مانجده في مقال نشره شكري غانم وهو في باريس تبرأ فيه من العروبة كما برأ اللبنانيين من الأمة العربية وقال (٣) " اننا معاشر السوريين او اللبنانيين لسنا بعرب وان تكلمنا بالعربية وانما نحن فينيقيون " وكان ذلك منه على أثر قيام أول حكومة عربية في الشام ، وقد تصدى له معروف الرصافي بقصيدة اسماها (صبح الأماني) نافح فيها عن العهد الجديد وفند دعواه وكان مما قاله معرضا بهؤلاء المارقين من عروبتهم (٤)

وهل حسبوا ان العروبة في الورى من العمر حتى انكروا ذلك العمرا

---

(١) انظر محمد حسين الاتجاهات الوطنية ٢ : ١٢٦

(٢) انظر الأمير مصطفى الشهابي : القومية العربية ١٥٨

(٣) انظر ديوان الرصافي الهامش ٤١٧

(٤) الديوان ٤١٧ ، والعمر مرض الجرب يصيب الأبل

الا أن الدعوة الفينيقية لم تلق في لبنان من الذيوع ما لقيته الفرعونية في مصر ، وكل مانظمه الشعراء في هذا الموضوع على قلته لايعدو نطاق التفاخر . من ذلك مانجده في قول أبي ماضي اذ يبرر هجرته واخوانه من لبنان : (١)

لبنان لاتعذل بنيك اذا همو ركبوا الى العلياء كل سفين
ورثوا اقتحام البحر عن فينيقيا ام الثقافة مصدر التمدين

فالأشادة بعظمة فينيقيا البحرية كان محور تفاخر الشعراء ، واكثر ما انصب هذا التفاخر على أمرين:عظمة دولتهم البحرية ، وأسبقيتهم الى ابتكار حروف الهجاء . وقد اشاد شكر الله الجر بهاتين الصفتين البارزتين فقال : (٢)

وشطوط نسج السحر لهما من شعاع البدر و الشمس كساء
عمرت في سالف الدهر بنا يوم كانت من بني الدنيا عفاء
في غزاة من بني فينيقيا لايبالون مع الفتح بلاء
روضوا البحر وشادوا فوقه منشآت كن للمجد وطاء
خلفوا في كل أرض أثرا صانه التخليد في حرف الهجاء

ومما قاله الشاعر نفسه مشيدا بتلك الأمجاد السالفة ، قصيدته " على خرائب بيبلس " وهي مدينة جبيل الفينيقية على الساحل اللبناني : (٣)

اي شعب كشعبك الجبار خالد في جلائل الآثار
ضاربا في جوانب الأرض رهوا عابثا بالخطوب والأخطار
ناشرا في بحارها منشآت هازئات بالموج والأعصار
اعجز الأرض كلها مابناه من حصون وشاده من ديار
وتماثيل للجمال اجادت تحت أجزائها يد الحفار
عرف الموج حسنها فترامى فوق اقدامها عديم القرار

ولاريب أن أبياتا كهذه لاتخرج عن تصوير روعة تلك الآثار الفينيقية

---

١)) الخمائل ١٠٥ ٢)) الروافد ٤١
٣)) الروافد ١٥

التي لاتعدو نظرة الشاعر اليها الناحية المغنية ، ويتابع الشاعر نفسه قوله في المقصيدة نفسها :

أمة شرد الزمان بنيها ‏ ‏ فذراهم على متون البحار
حدث الناس أيها الشط عمن ‏ ‏ حكموا في أعنة الأقدار
خبر الكون عن عظائم شعب ‏ ‏ كان ملء الأسماع والأبصار
ان اجدادنا وما أحرزوه ‏ ‏ كان بالجد من غنى وفخار
فانهجوا نهجهم وكونوا كبارا ‏ ‏ يرحب الكون للرجال الكبار

فالأبيات لاتخرج عن نطاق التفاخر على الرغم من اعتزازهما اللبنانيين احفادا للفينيقيين ، وهذا النسب الذي اشار اليه الشاعر نسب معنوي والاشادة به أمر طبيعي بل ان التفريط به لايعد طبيعيا ، وهدف الشاعر من حث قومه واستنهاضهم واضح يذكرنا بطريقة شوقي في فرعونياته .

وقد تغنى عقل الجر بالمعهد الفينيقي وزهى به في نشوة بالغة فقال (١) :

ألم نكن وعيون الشرق شاخصة ‏ ‏ شمما على صخره فاق الملايينا
الم تكن لبني الدنيا اساتذة ‏ ‏ حتى حروف الهجا من صنع أيدينا
ألم نكن وبحار الكون مسرحنا ‏ ‏ نلقي على أيها شئنا مراسينا
انا ثبتنا ثبات الأرز في جبل ‏ ‏ قد جاور الله في أعلى عليينا
وارى الزمان شموبا في غياهبه ‏ ‏ وقصرت يده عن أن تواريننا

والملاحظ ان الشاعر بالتزامه ضمير المتكلم في أبياته جميعا يحرص على اعتبار نفسه من حفدة أولئك المفينيقيين ، وهذه الروح روح الاعتداد والزهو بذلك الماضي الغابر تماثل ما وجدناه لدى عدد من شعراء مصر كحافظ ابراهيم في قصيدته مصر تتحدث عن نفسها ومحمد الأسمر في عدد من قصائده ، فهنا بناة الأهرام وأم التشريع ورصد النجوم وفن التحنيط ، وهنا سادة البحار واساتذة العالم ومبدعو حروف الهجاء ..

---

(١) انظر الأبيات في جورج صيدح : ادبنا وادباؤنا في المهاجر الاميركية ٣٩٤

ولم يكن اطلاق اسم (النادي الفينيقي) على احدى الحلقات الأدبية في المهجر البرازيلي الا مظهرا من روح الاعتداد والتفاخر عند عدد من اللبنانيين الذين كانوا يحرصون على توكيد شخصيتهم القومية في تلك البلاد النائية ويجدون في مثل هذه المظاهر مايرضي ذاتهم الطامحة . والنادي الفينيقي نفسه لم يكن لديه من الفينيقية سوى الاسم حتى ان النشيد الذي نظمه عقل الجر لهذا النادي لايحمل من الفينيقية سوى العنوان فلغته عربية ومعانيه عربية حتى ان الاعتزاز بالعروبة جاء في صلب هذا "النشيد الفينيقي" (١)

ايه اشبال الأسود   انتم خير الأمم
فاقتفوا اثر الجدود   واملأوا الدنيا عظم
وابعثوا فينيقيا
حسبكم نادي الأدب   وعكاظ المهجر
محييا مجد العرب   من بطون الأعصر
ناشرا ما طويا

وثمة قصيدة عنوانها (الفينيقيون) عربها فوزي المعلوف عن الشاعر البرازيلي (أولافو بيلاك) ، لاتكاد تخرج عما اوردناه الا بكثرة ماضمته من اسماء فينيقية خلال أبياتها من ذلك قوله : (٢)

لله صور وهي تسبح في الضيا   والبحر يلمع وجهه البسام
سفن من الأرز المتين يمدها   مستعرضا أحمالها (حيرام) *
سيروا (فملخار) يبارك من جلوا   والشوق خلف والرجاء امام
من أرض (صيداء) ومن (أنترمس)   و(جبيل) قد شدوا لها ارقاما
ليوسعوا سبل الحياة وينشروا   علم الحضارة والشعوب نيام

والواقع ان الشعر الحديث في سوريا وبخاصة في لبنان لم يكن تواقا الى اقتحام هذا المجال الفينيقي بتلك الحماسة التي وجدناها لدى بعض المصريين ، وما ذلك الا لأن الدعوة الفينيقية

---

(١) انظر وديع ديب : الشعر العربي في المهجر الامريكي ٨٧
(٢) ديوان المعلوف ٣٣
* حيرام ملك فينيقي كبير عاصر سليمان ملك اسرائيل وذلك قبل الميلاد بنحو الفي عام ، وملكا [illegible] ملك فينيقي [illegible] .

في الأصل لم تلق الرواج الذي لقيته في مصر ، ولعل من أسباب ذلك ضآلة الآثار الفينيقية الماثلة أمام اللبنانيين خلافا لما كان عليه الحال في مصر من قيام الأهرام وأبي الهول ووادي الملوك والكرنك ومومياءات الفراعنة ومعابدهم وسواها من مظاهر الجبروت ، ولهذا لم ينفعل الشعراء في لبنان بعظمة الفينيقيين الا قليلا :

لقد فخروا بماضيهم الغابر وحق لهم ذلك لأنه جزء من تراثهم الذي آل اليهم من تلك العهود السحيقة ، وبقيت الحماسة للفينيقيين ضمن حدود المباهاة والافتخار دون أن تؤول في الشعر الى دعوة مذهبية ، ولم يشأ شعراء لبنان بصورة عامة ان يتعلقوا بسراب بعيد والماء الزلال يترقرق عند أقدامهم . بل ان ظاهرة التفاخر نفسها برزت على نطاق ضيق بحيث لم تجر الألفاظ الفينيقية على ألسن الشعراء في لبنان ، كما جرت نظائرها الفرعونية على ألسن الشعراء في مصر ، وربما كان مرد ذلك الى ان الصحافة اللبنانية لم تول الدعوة الفينيقية إهتماما كبيرا خلافا لما كان يحدث في مصر من نشر أنباء المكتشفات وصورها ، وتدبيج المقالات المستفيضة في تأييد الدعوة الفرعونية أو في تفنيدها ......

حتى أن ما مر بنا من ألفاظ فينيقية في قصيدة الشاعر البرازيلي (أولافو بيلاك) المعربة عن البرتغالية لانكاد نجد نظيرا لكثرته فيما نظمه الشعراء العرب أنفسهم ، وهذا الأمر يجعلنا نعتقد ان شعراء لبنان كانوا يجهلون دقائق ذلك الماضي الفينيقي وتفصيلاته بحيث كان بعض الشعراء الأجانب يفوقونهم في هذا المضمار

والواقع ان النزوع الى أمجاد الفينيقيين الغابرة كاد يقتصر على المهجريين من شعراء لبنان كما تدل الشواهد التي مرت بنا آنفا . ولم تكن هذه الظاهرة على الأرجح الا نتيجة لأزمة نفسية لابد أن يمر بها المغترب فيما يبدو حين يطأ تلك الأرض الغريبة النائية فيشعر وكأنه فقد ذاته في هذا الخضم المضطرب من الأقوام المتباينة في مللها ونحلها وألسنتها ، ولذلك كان المهاجر يحرص على توكيد هذه الذات ، وبلورة شخصيته عن طريق مباهاته اولئك الغرباء بعراقة أصله وانتمائه الى شعب مجيد كان شأنه نابها منذ فجر التاريخ .

على أن أبرز ما قيل من شعر حول هذا الموضوع انما كان في معالجة هذه النعرة من الناحية السلبية التي بدت في استنكار هذا التيار الاقليمي والتصدي لدعاته . ويعتبر الياس فرحات ورشيد سليم الخوري من شعراء المهجر ، في مقدمة من ذادوا عن الاتجاه القومي السليم ونددوا بمعتنقي الآراء المنحرفة .
وقد ألمع الشاعر القروي في مقدمة ديوانه الكبير الى خطر تلك النعرة الاقليمية الضيقة فقال [1] : " يا فتيان العرب ، لقد كثر بينكم قادة عميه يوقعون في قلوبكم انكم لستم عربا فيفصلونكم عن أنفسكم ، ويتعسفون بكم كل طلعة ، ان عروبتكم لن تجحد فضل أقاليمكم ولكن أقلمتكم تخسركم عز العروبة وأبدها وغنمها " .

وفي موشح " تحية الى الأندلس " لالياس فرحات غمزة خاطفة بدعاة الفينيقية حيث يقول [2] :

ربا ابنة الزهراء يا أندلسية	ان من أجدادك العرب بقية
لم تزل شامخة الرأس ابية	لم تفرقها مساع أجنبية

لم (تفينقها) دواع مذهبية

فهو يقرن الفينيقية مع المحاولات الاستعمارية ، ويرى فيهما جميعا خطرا على العروبة . ونستنتج من قصيدة أخرى لفرحات أيضا وجهها " الى عرب سان باولو " أن عددا من دعاة الفينيقية قد بلغوا المهجر ونشطوا في نفث سموم دعوتهم هناك ، وها هو ذا يحذر من ذلك الخطر الماحق فيقول [3] :

بني بلد البن اللذيذ شرابه	ويا من رأوا نور العروبة ساطعا
سمعت بأن الأرقم الصل زاركم	لينفث سما بين شدقيه ناقعا
وان جراثيم (التفينق) اوشكت	تمد اليكم في الظلام الأصابعا
حذار فهذا الداء صعب شفاؤه	ولاتحوجوني أن اعدد المباضعا

وتعتبر قصيدة " حيرام حيرام " لفرحات من أقوى ما قاله

---

(١) انظر المقدمة ص : ط ن (٢) الديوان ٢١٠
(٣) الديوان ١٢٢

شاعر عربي في التصدي للدعوة الفينيقية وتفنيدها بعد أن اشتد ساعد أنصارها في لبنان أملا في اضفاء صفة القداسة على حدوده المصطنعة مع جيرانه العرب والتمهيد لسلخه عن عروبته وتمكين الاستعمار منه. ومن هذه الأبيات قوله (١) :

قوم لقد انكروا جهلا أرومتهم	مستمسكين بقوم مالهم أثـر
لولا التعصب كانوا كلهم عربـا	فلتهنأ العرب لم يعلق بها الإضر
هذا (الفطينوق) للتفريق اوجده	عات يغضه بالوحدة الحذر
وكيف لا يحذر الباغي اذا اجتمعت	تحت البيارق بدو العرب والحضر
فليعلم النفر الغاوون أنهم	ضلوا السبيل الى العليا فانحدروا
ما كل من حملت أرض ذوي رحم	لبنان ينبت فيه الأرز والحجر

والطريف في هذه القصيدة ان الشاعر نفسه يفتخر فيما يلي من ابياتها بأمجاد الفينيقيين على أنها جزء من التراث الكبير الذي آل الى لبنان ، ولكنه يربأ بهذه الأمجاد ان يستغلها ويدنسها اناس تحوم حول وطنيتهم الريب والشكوك :

انا نحن بمجد السابقين الـى	نشر الحضارة يغشي صفوه الكدر
الراكبين فحول الموج مزبدة	أيام لم يك يعلو ظهرها بشـر
ما ذنبهم وهم الأحرار يكسبهم	دعوى العبيد هوانا بعدما اندثروا
حيرام حيرام والأيام عادلة	لو كنت حيا لكنت اليوم تنتحر
يبغي الدعوة المعالي وهي شاهدة	ان الدعي على اضلاعها حجر

وبالأجمال فقد رأى الشعراء وبخاصة في سورية ان الدعوة الفينيقية التي كانت تلقى التأييد من فرنسة خطر يهدد العرب ويزيد هم انقساما . وقد ربط خير الدين الزركلي بين هذه النعرة وبين الخيانة في معرض تنديده بفرقة (المقناصة) التي جندها الفرنسيون من بعض المرتزقة في لبنان لقمع الحركات الوطنية فقال (٢) :

قناصة الشؤم ماذا في كنانتها	لبئس ما ادخرت في الروع من باس
ما ان رأيت سلوقيين قبلهم	هيجوا فهاجوا على آسادهم أخياس

---

(١) الديوان ٢٠٧ (٢) ديوان الثورة ١٠٨

دعاهم فمصوا داعي مواطنهم وساقهم فمضوا مهماز نخاس
الله يعلم انا كلنا عرب وان أبيتم فما في الأمر من باس
كونوا سلائل (فينيق) او انتسبوا الى عناصر لم تخلق وأجناس

" الواقع ان الفينيقيين الذين كانوا اول المستوطنين للساحل اللبناني ، حيث بنوا حضارة مزدهرة مؤسسة على التجارة البحرية ، زالوا وزالت معهم لغتهم وحضارتهم قبل العصر المسيحي ، وقد خلقت خرافة الفينيقية لمواجهة الاتجاه ضد الوحدة العربية ولكن لما كانت فكرة مصطنعة فأنها سرعان ماتلاشت "(١)

وثمة دعوة أخرى مماثلة برزت في لبنان وسورية سميت بالقومية السورية ، لم تختلف في جوهرها واهدافها الاقليمية وانكارها للعروبة ، عن النعرة الفينيقية ، فقد دأب عدد من الأدباء على ابراز الشخصية اللبنانية او الشخصية السورية بشكل متميز ومن اولئك سعيد عقل الذي يعتبر (٢) " ان شخصية لبنان من مجموعة أربع بؤر عقلية : من صيدون الموغلة في القدم ، والتي تعاصر موسى والفراعنة ، الى المقدس من حيث اشطاع يسوع ، فأنطاكية حضارة اليونان والرومان ، حتى عهد دمشق ودخول العرب باب التاريخ "

وكما كانت الحفريات تمد دعاة الفرعونية بنسغ الحياة من حين الى آخر كذلك كان الشأن في لبنان وسورية اذ كان لمكتشفات رأس شمرة وسواها اثر بالغ في تعزيز النزعة القومية السورية ، وفي ذلك يقول زعيم الحزب القومي السوري الاجتماعي انطون سعادة(٣) " ما يعنينا في هذا الموضوع من اكتشافات رأس شمرا هو القصائد والملاحم الرائعة التي تثبت بدون شك ان الشعر الكلاسيكي ابتدأ في سورية وعنه نقل الأغريق الذين تطاولوا هم والرومان على غمط سورية حقها في الابداع الفني وقيادة الفكر الانساني " .

---

(١) نجلاء عزالدين : العالم العربي ٤٥٧
(٢) قد موسى " المقدمة "
(٣) الصراع الفكري في الأدب السوري ٨٢

ويحاول سعادة وضع اسس ادب سوري جديد على نمط المحاولات التي دعا اليها بعض المصريين فيهيب بالشعراء ان يطلعوا على هذه الكنوز الروحية الثمينة ليزدادوا يقينا بحقيقة نظرتهم الى أن يقول : (١) "الآن اخاطب أنا جمع شعراء سورية قائلا تعالوا نأخذ بنظرة الى الحياة والكون والفن نقدر على ضوئها ان نبعث حقيقتنا الجميلة العظيمة من مرقدها . لقد نتج عن هذه النظرة الجديدة في سورية مجرى حياة جديد لتيارات النفس السورية التي كانت مكبوتة ومحجوزة ، فهل يتنبه لهذه الحقيقة أدباء سورية وخصوصا شعراؤها ويلبون الدعوة .. "

وقد آتت هذه النداءات أكلها فظهرت بوادر الاستجابة لدى عدد ضئيل من الأدباء الذين فزعوا الى تلك العهود الغابرة يستمدون من اساطيرها ادبا جديدا متميزا وفي مقدمتهم سعيد عقل الذي اصدر مسرحيتين في هذا المجال هما : "بنت يفتاح" و "قدموس" . وقد بلغت به نزعة الاستعلاء حدا جعلته يصف رسالة لبنان بأنها "رسالة فذة تخولنا لبننة العالم" (٢)

ومع ذلك لم تبلغ النعرة الفينيقية لدى الشعراء في لبنان مابلغته لدى بعض ساستها وكتابها من التطرف . لقد تجرأ مثلا شكري غانم وسواه على القول بأنهم فينيقيون وليسوا بعرب ، الا ان الشعر كشأنه في مصر أيضا لم يفتح صدره لمثل هذه الآراء الهدامة .

وان هذه الدعوة أيضا بقيت محدودة بعد أن طفت الى حين بتأثير ظروف سياسية واجتماعية معينة ، ولم تلبث ان انحسرت ، ولم تترك في الشعر الحديث سوى صدى باهت . وقد ظل الشعر في لبنان مضري الألفاظ عربي الروح بفضل تأصل العروبة في هذه البقعة التي انبثق منها فجرا لنهضة الأدبية الحديثة وغمرت أنوارها العالم العربي .

---

١)- الصراع الفكري في الأدب السوري ٨٦

٢)- مقدمة قدموس ٢٢

— ٣ —

ونأتي الآن الى دعوة ثالثة اطلت برأسها في العراق ولكنها ولدت هزيلة ولم تلبث ان اضمحلت وماتت ، تلك هي الدعوة الآشورية التي حاولت خلق قومية في العراق تقوم على صلة النسب مع الآشوريين والبابليين الذين كانت لهم حضارة عريقة في هذه البقاع قبل بضعة آلاف من السنين .

والواقع ان هذه الدعوة اقتصرت على فئة ضئيلة من العراقيين ولم تكن تعدو نطاق بعض الأقليات من بقايا الآشوريين . وقد كان الأجنبي المحتل يقوم بدور فعال في دعمها وتحريضها كما كان شأنه في مصر ولبنان ، والى ذلك اشار الشاعر المقروى ممهدا لأحدى قصائده بقوله : (١) " كانت انكلترا خلال حكمها للعراق تكرم الملك فيصل وتقيم له المهرجانات في لندن وتتظاهر بصداقته ، في حين كانت باليد الأخرى تمد الآشوريين بالمال والعتاد ليثوروا على حكم الأسرة الهاشمية من ذلك ما قام به (مار شمعون) الآشوري حين اعلن الثورة " ثم يورد قصيدته التي يقول فيها :

يمدون (للتسليم) في لندن يدا	ويخفون للتسليح في (نينوى) يدا
لأمر يلاقيه المفرنجي باسما	فتزد حذرا مازات ذئب تـوددا
تراه صحيح الود وهو سقيمه	كما تكسب الحمى الخدود تـوردا
وهز (لشلمانصر) سيف هاشم	وكان (لمورشمعون) كيلا مـلبدا

وقد اشار عدد من شعراء العرب الى محاولة بقايا الآشوريين تغيير وجه العراق العربي واقامة دولة آشورية بمساعدة المستعمر . ومما قاله عمر أبوريشة في صدد تأبين غازي : (٢)

ليمن يطوى التاريخ صفحة مجد	انت سطرتها بأسنى سـداد
يوم هزت آشور في وجهك الطلق	رماحا وعـافة الأحقاد

---

١)) الديوان ٣٤٣ ٢)) الديوان ١٢٥

أما خير الدين الزركلي وهو في طليعة الشعراء الذين عرفوا بنضج شعورهم القومي وأصالته فقد ضاق ذرعا بالسياسة الجائرة التي كان يتبعها المستعمر في بلاد العرب من تقسيم وتجزئة ، ورأى في مثل هذه الدعوات الاقليمية ضغثا على ابالة فهو يتحدث عن حالة قومه والأسى يملأ قلبه : (١)

تجهمت النكوب لهم فباتوا	اسارى في العراق وفي الشآم
وقسمت البلاد بهم فراحوا	ووحدتهم تصير الى انجذام
أمنتسب لآشور وماض	بنسبته الى ارم بن سام
ومنقطع تردد بين بين	فحار فحاد عن طرق الزحام
وكانوا أمة سادت وشادت	موحدة المنابت والمنامي
فبث الجهل وانقسموا شعوبا	فلا قربى ولا صلة اعتزام

على أن هذه الدعوة الآشورية التي اصطبغت بصبغة سياسية اكثر منها اجتماعية لم تؤثر كثيرا في مجرى التيارات الفكرية والأدبية في العراق ، اذ لم يشعر العراقيون بأية رابطة أو آصرة تشدهم الى أجداد بابليين أو آشوريين لايكادون يعرفون عنهم الا اليسير مما تناثر في الكتب أو المتاحف ، كما أن طبيعة العراق ومناخها وقلة الصخور فيها لم تساعد آثار تلك الأمم الغابرة على أن تعمر احقابا مديدة خلافا لما كان عليه الحال في مصر •
ومن جهة أخرى فأن ضعف الصحافة العراقية وقلة انتشارها آنذاك ، لم يتح لهذه الآراء ان تتخذ من الصحف منبراً لها ، بالاضافة الى ان قوة العقيدة الدينية لدى الشيعة وسائر المسلمين في العراق كانت درعا واقية لمثل هذه النعرات التي ترتبط بماض عريق بالوثنية •

ومن هنا ندرك سبب ضآلة تسرب الآراء الاقليمية الى أدباء العراق ، اذ ماكان لأمجاد بابل أو نينوى في نفوسهم للشعب مكانة بغداد والبصرة والكوفة والموصل ، كما لم تستطع عظمة بختنصر ونبوخذنصر وسميراميس ان تضارع عظمة المأمون والرشيد

---

(١) الديوان ٤٩

والجاحظ الذين مازال ذكرهم يرن في أرجاء العراق وسائر العالم العربي .

والواقع أننا لانكاد نجد في دواوين شعراء العراق أي صدى لدعوة اقليمية ضيقة ، بل ان الشعر في العراق لم يفتح صدره حتى للمفاخرة بأمجاد الماضي الغابر كما كان الشأن عليه في مصر ولبنان . فقد كان الزهاوي والرصافي والكاظمي والجواهري وبحر العلوم والهنداوي والشبيبي واليعقوبي وسائر الشعراء في العراق أبعد مايكونون عن التجاوب مع تلك النزعات القومية المنحرفة ... حتى ان مانظمه الشعراء في موضوع البابليين والآشوريين على قلته لايعدو نطاق التفاخر والاعتداد بالحضارات العريقة التي عرفتها أرض الرافدين . من ذلك ماقاله علي الشرقي مناجيا مدينة بابل ومشيدا بحضارتها وعظمتها : (١)

بابل يابلد السحر سلام	ياسرير المجد والمجد غلام
السرايا لك (والبرج) لواء	والصفايا لك والبرج رغام
ولد الفن على عتبتها	حوله الطفلان علم ونظام
نصف الهيكل والأرض دمى	هيبة الهيكل والأرض ركام
هذه اللبنة في معجزها	(لحمو رابي) حلال وحرام
قد شجاني أسد في بابل	رابض ليس لـه عنق وهام
ضاع ـ لما ضيعت آثارنا ـ	مجدنا الغالي وأجداد عظام
بابل ما أنا الا حالم	بك يصبيه انطباع وارتسام
نشأ الملك بواديك لـه	من جلال العدل والعليا وسام
والفرات الرهو في ارياضه	الميزان يراع وحسام
خاضه الاسكندر المغرور في	عزمه فاعتاقه الموت الزؤام
ورأى (كورش) فيه أمة	للعلا فيه عرام وغرام
ونوى (مردوخ) في فرضته	حانقا يملأ جنبيه احتدام
و (نبوخذ نصر) في شاطئه	زاحف يتبعه جيش لهام
بين (نيبور) و (ركيا) جيشه	ولـه في (أوروشليم) قتام
والفراتيون انك حفزتهم	للملمات دروع وسهام

---

(١) عواطف وعواصف ١٣٢

فالقصيدة على ندرة أمثالها لدى شعراء العراق من حيث اهتمامها بهذا الموضوع ، لاتمتاز بمقومات فنية تذكر عدا ضعف نسجها ، والشاعر يسرد فيها بعض آثار بابل ومعالمها ثم يمر بتلك الانتصارات الغابرة التي حققها البابليون ضد قدماء الفرس والمصريين ، وهي من حيث اتجاهها لاتختلف عما انطوت عليه مثيلاتها من مباهاة بالماضي الغابر . مع ضآلة مايجهد الشاعر في وصفه من الآثار الماثلة التي لاتعدو لبنة قديمة وأسد أطاح الدهر برأسه .

أما ماعدا ذلك من الشعر الذي يجري على هذا النمط من الافتخار بالأمجاد السابقة على العرب والاسلام فلا نكاد نجد نظائر له تذكر لدى شعراء العراق أنفسهم . وثمة قصيدة نظمها شاعر مهجري هو أبوالفضل الوليد اسماها (العراقية) وقال فيها : (١)

لدجلة (نينوى) أم حصان	و (بابل) بعدها ام الفرات
(فبابل) اى مملكة حوتها	وقد جاءت بكل المعجزات
بأسوار تنوء بها الرواسي	وجنات تلوح معلقات
وأملاك لهم ملك فخيم	بناه (بختنصر) بالظبات
وأما (نينوى) فلها حديث	شجي بالعظائم والعظات
مليكتها (سميرة) ثم كانت	اشد من الملوك على العداة

ومع ان الشاعر لايزيد في أبياته هذه على ان يقف وقفة الفنان تجاه روائع الماضي كحدائق بابل المعلقة أو دهاء سميراميس وجمالها ، فأنه يؤكد في القصيدة نفسها رسوخ العروبة في العراق برغم تعاقب الأمم على أرضه اذ يقول :

فكم دول توالت ثم دالت	وكم امم توارت بائدات
سوى عربية ثبتت لفضل	وليس لغيرها فضل الثبات

وثمة آثار أدبية ظهرت في العراق واستوحت تاريخ الآشوريين والبابليين كأوبريت " بابلون " الشعرية (٢) وهي شبيهة

---

١) - نفحات الصور ٦٢

٢) - لصفاء الحيدري وبابلون أميرة بابلية تقع في حب أخيها .

بقدموس ، وبنت بختاح لسعيد عقل . وكمسرحية شعرية أخرى اسمها (شمسو) وأخيرة عنوانها "الأسوار"(١) كما اكثر الأدباء في قصائدهم الغنائية وأوبراتهم وأقاصيصهم من معالجة موضوع سميراميس الأميرة الآشورية . الا أن هذه الآثار ومثيلاتها المستوحاة من عهود الفراعنة والفينيقيين والتي ارتدت في الغالب الثوب الشعري والقصصي لم تكن تعدو الجو الاسطوري والخيالي فظلت بعيدة عن النطاق الواقعي للأمة ضئيلة الأثر في حياتها القومية .

ولكننا نقع على آثار ادبية متعددة تحمل اسم (بابل) من ذلك مثلا مجموعة مختارة من الشعر العراقي القديم والحديث أخرجها محمد علي اليعقوبي باسم "البابليات" . وثمة مجموعة شعرية أخرى تحمل اسم (البابليات) أيضا لمحمد مهدى البصير وهي تحوى في جملتها شيئا من شعره الى جانب بعض محفوظة . كما اطلق على الخاقاني على كتابه الكبير اسم "البابليات" او شعراء الحلة ، وقد آثر جعفر الحلي ان يطلق على ديوانه الشعرى عنوان "سحر بابل وسجع البلابل" الخ ..

كل هذه الأسماء التي تشير الى بابل لاتعدو في الواقع الغلاف الذى ارتسمت حروفها عليه فوق ماذكرنا من كتب ومجموعات شعرية ودواوين ، وليس وراءها مايمت بأى صلة أو اشارة الى البابليين أبعد من ذلك . ولاريب أن صفة المقدم وأصالة الحضارة في العراق جعلت عددا من الأدباء يجدون في كلمة (بابل) رمزا عريقا لأرض الرافدين .

أما سوريا فقد نجت تقريبا من وجود نزعات اقليمية مماثلة برغم محاولات المحتلين ، وقد انعكس هذا الصفاء في الشعر فكان ناصعا في عروبته . ويعتبر العهد الفيصلي في دمشق على قصره نموذجا للحكم العربي السمح "فرئيس الدولة كان حجازيا ، ومدير العدل لبنانيا ، ومدير المالية لبنانيا

---

(١) المسرحيتان لخالد الشواف

متمصرا ، ومدير المعارف سوريا من حلب ، ومدير الشرطة فلسطينيا من نابلس ورئيس اركان الجيش عراقيا وهكذا ... " (١)

وقد أشار ساطع الحصري (٢) الى " أن سورية أعرق الأقطار العربية في الشعور بالقومية العربية واكثرها تجردا عن النزعات الاقليمية " فقد كان تيار العروبة من القوة والصفاء بحيث لم يسمح لأية نعرة منحرفة ان تطل برأسها وذلك برغم ان سورية كانت مسرحا لحضارات الآراميين والحيثيين العريقة ..

واذا مارصدنا مسار هذه النعرات الاقليمية المنحرفة من خلال الشعر المعاصر ، نجد أنها كانت ترتكز بالأجمال الى اهداف سياسية وقومية متطرفة بدأت أول الأمر باتجاه وطني يهدف الى خلق كيانات جديدة مستقلة - شأن المفتي يشب عن الطوق ويجنح للعزلة والتميز عن جامعة الأسرة وتوكيد ذاته وشخصيته . وقد تجلى ذلك في خشية لطفي السيد وسواه من المفكرين أن تذوب الشخصية المصرية في الدولة العثمانية ، وتخوف الكثيرين من مسيحي لبنان ان يطغى عليهم المسلمون في الشرق العربي وحرص بقايا الآشوريين في العراق على التميز عن العرب في دولة مستقلة خوفا على كيانهم من الانقراض .. الا أن جميع هذه المخاوف تبددت مع نمو الوعي القومي السليم ، واثر تضاؤل النفوذ الاستعماري في بلاد العرب ، وقد تنبه أنصار هذه الدعوات بصورة عامة الى اخطار القوميات الضيقة لأنها تدعو الى الانفصال والتجزئة وأنها قد تتحاسد وتتناحر مما يضعف كيانها امام قوى الشر العاتية .

ان علاقة سكان مصر والشام والعراق بالفراعنة والفينيقيين والآشوريين اصبحت واهية الى حد لم تعد تصلح معه أن تكون اساسا لبناء قومي وبخاصة بعد أن تقطعت اسباب اللغة والعقيدة والمشاعر . على ان صلة المصري أو اللبناني أو العراقي بماضيه

---

(١) الأمير مصطفى الشهابي : محاضرات في القومية العربية ١٢٢

(٢) آراء وأحاديث في القومية العربية ١١

العربي يجب ان تبقى وثيقة وطيدة تبعث على الفخار والاعتزاز ، لأن هذا الماضي ركن هام من التراث العربي الكبير الذي آل الينا نحن العرب .

ولاريب ان النجاح لم يحالف تلك الدعوات لأنها قامت على العزلة والانفصال ولأنها لم تستند الى أساس واقعي من حياة الجماهير التي لم تلتفت كثيرا الى ماضيها الموغل في القدم وبالتالي لم يكن بينها من يعتز باسرحدون وبختنصر او بحيرام وملخار أو باخناتون وخوفو .

ومن حسن الحظ ان الشعر العربي المعاصر قد ربأ بنفسه ان يغدو بوقا لهذه الدعوات المذهبية الضيقة ، وحاكيا لتلك النعرات الانفصالية وهو في الواقع لم يكن يعدو حدود التفاخر بالأمجاد السالفة التي آلت الى العرب وأضيفت حلقتها الى سلسلة تراثهم العريق . ولاضير على الفن ان يتسم بخصائص مميزة في كل قطر أو بيئة أو مدينة بل ان التنوع من مقومات الفن الرفيع ومن مستلزمات الأبداع والأصالة . ومن الضروري ان نجد طابعا اقليميا طريفا لدى كل من شعراء لبنان أو العراق او المغرب او سواهما من أقطار العرب على ان يكون هذا التنوع وهذه الألوان ضمن اطار وحدة الطابع العربي الشامل الذي يبسط جناحيه على فنوننا الأدبية كلها .

الفصل الرابع

بين العاطفة الانسانية والعاطفة القومية

— ا —

من الظواهر البارزة في هذا العصر الحديث مناداة عدد من رجال الفكر والفن بالأنسانية . ويبدو ان اهتمام العالم بما انتجه المعري وطاغور وتولستوي وبرتراند رسل وسواهم ممن كانت آثارهم مفعمة بالطابع الأنساني الأصيل ، حث الكثيرين من الكتاب والشعراء على مجاراتهم في هذا المضمار أملا في ادراك شيء من تلك الشهرة العريضة .

وقد استهوت هذه النزعة الانسانية عددا من الشعراء العرب المعاصرين فراحوا يعلنون انهم يريدون ان يكونوا لكل جيل ولكل جنس . أما الشعر الوطني والقومي فقد ترفعوا عنه لأنه في نظرهم شعر محدود بحدود الزمان والمكان مشدود الى الأحداث العارضة والأرض المضيقة . والشاعر الانساني الرفيع عندهم من أعرض عن احداث عصره ، وتحلل من نطاق بيئته ، وتخطى حدود وطنه ، وتجاهل ماتعانيه أمته . وقد خيل الى هؤلاء ان الأمر في غاية اليسر وأنه ليس على الواحد منهم الا ان يختار في ان يكون شاعرا قوميا محدودا أو شاعرا انسانيا خالدا .

ان مجرد هذه الفكرة التي قد تخطر ببال الفنان ، وتداعب آماله ، تغاير طبيعة الفن الصحيح الذي لا يتقبل هذا التخطيط الصارم الذي يسبق عملية الابداع الفني . وكل فنان يحاول استعجال صفة الشهرة والخلود دون ان تكون طبيعته ومواهبه مهيأة لذلك ، انما يلاحق اطياف شهرة زائفة ، وخلود موهوم ، شأن من يسعى وراء سراب براق .

حقا انهم لمساكين اولئك الذين يأنفون ان تتضوع من شعرهم رائحة وطنهم .

لقد كان ادبنا العربي القديم غنيا بالعناصر الانسانية ويكفي ان نضرب المثل بأبي العلاء المعري الذي كان شعره مشبعا بتلك الروح برغم معالجته قضايا مجتمعه في الصميم .

ولعل هذه الأبيات لأبي الطيب المتنبي من خير ما قاله شاعر في تصوير العاطفة الانسانية على أنها نزعة الى السلام وليست دعوة الى الاستسلام :

كلما انبت الزمان قناة　　ركب المرء في القناة سنانا

ومراد النفوس أصغر من أن　　نتعادى فيه وأن نتفانى

غير أن الفتى يلاقي المنايا　　كالحات ولا يلاقي الهوانا

فهي انسانية ايجابية بحق ، تستنكر التطاحن والتناحر والحروب ولكنها تأبى ان يكون الاستسلام والأذعان ثمنا لسلام زائف والا فالموت اجدر بالمرء من عيش الذل والهوان ٠٠

والذى يهمنا هنا ان تستشف المشاعر الانسانية التي عانقت شعرنا القومي المعاصر ، وأن نتلمس في بعض القصائد الانسانية شيئا من عناصر الوطنية والقومية ٠ اى اننا نحاول ان ندرس الجانب الانساني في الاتجاه القومي ، كما حاولنا من قبل دراسة الجانب الديني والنزعات الأخرى التي عايشت شعرنا القومي الحديث ٠

أما الشعر الانساني المحض البعيد عن ملامسة تراب الوطن والذى لا نضطرب بين قوافيه انفاس الأمة فموضوع آخر ليس من شأننا هنا ان نخوض في بحثه ٠

ولكن ما حقيقة تلك الانسانية وكنهها بعد أن كثر الحديث حولها ، وتطلع الكثيرون نحوها ؟ ٠٠ انها نزعة أصيلة في الأنسان ونظرة شاملة نحو البشر تطمح الى السمو بالنفس نحو المثل العليا وتطهيرها من شوائب الأنانية والنفعية ، وتنزيهها عن التعصب والتحزب ٠ وهي عاطفة شاملة تضم البشر وتعتبرهم اخوة وتشدهم الى أهداف سامية مشتركة ٠ وكأنهم اسرة كبرى تذوب بينها الفروق العارضة والصفات المميزة ، ولا يقام معها كبير اعتبار لعرق او لجنس أو لدين ولا مفاضلة بين أسود وأبيض ، أو شرقي وغربي ، أو مسلم ومسيحي ، او عربي وهندى ٠

لقد صدر خير الدين الزركلي الشاعر القومي الكبير عن نفحة

انسانية أصيلة بقوله في احدى قصائده الوطنية : (١)

يكفر فينا معشر مشوا هم على الحق والانسان قد يتهصر

دع الناس لاتسبغ الذين تسهودوا بشر ، ولاتبغ الذين تنصروا

عجبت لأمر الناس ابناء واحد يفرقهم دين وجنس وعنصر

وكأن هذه النفحة قبس من روح المعري وفنه الانساني الرفيع . وقد سبق أن رأينا اتساع العاطفة الشرقية الى رحاب الانسانية في قصيدة لأديب التقي ، نظمها على أثر زيارة طاغور الشاعر الانساني الى دمشق وقال فيها (٢) :

أأحرار اهل الغرب أموا بلادنا ترونا كراما لانسر لكم بغضا

تعالوا الينا لا لفتح وغارة لتستعبدوا حرا وتستعمروا ارضا

ولكن لترتادوا حقائق شرقنا وتستمعوا للقلب عن كثب نبضا

ومن ذلك ماقاله عمر أبوريشة في غمرة الأحداث التي كانت تحيق بالعالم العربي (٣) :

ليت شعري متى ينفض هذا الشرق من خاطره الطيوف جفونه

ومتى ينشر الوئام جناحيه مظلا جباله وحزونه

ومتى تخمد العواصف في اليم ، وتحدو ريح السلام سفينه

فالشاعر هنا يتوق الى رؤية هذا الشرق قويا سعيدا يسوده الوئام وتمحى منه آثار الحزن ، وتخمد فيه عواصف الأحداث ، وحينئذ ينعم بالسلام المنشود . ولاريب أن شعرا كهذا كلام عذب تهفو اليه النفس وتطرب ، بل الأعذب منه لو أن المتناحرين على المغانم اقتنعوا بدعوة الزركلي ، واستجاب المستعمرون لنداء التقي ، وحققت الأقدار أماني أبي ريشة . ولكن أنى لمثل هذا الشعر الوادع المترفق ان يكون مجديا في تحقيق رسالته تجاه وطن استحكمت فيه الطائفية والتعصب ، واستشرت علله وأدواؤه ، وتكالبت عليه قوى الشر والعدوان .

---

١) الديوان ٨٥ ٢) الديوان ١٠١

٣) الديوان الأول ٢٠٦ ـ ٢١٦

لقد خاض العرب معركة المصير ضد أعداء كثر في الداخل والخارج ، وكان عليهم ان يقاوموا الاستبداد ، ويناضلوا الاستعمار وكان على الشعراء وهم رواد الحرية والوعي ، ان يقرعوا نواقيس الخطر ويشحذوا العزائم ويوقظوا النيام ويبشروا بالخلاص . وكيف يستمع الطغاة في زحمة المعارك وغمرة الدماء وصليل الحديد ، الى أصوات كهديل الحمام ، وألحان كأنغام الناى ، ونداءات في نعومة الحرير .

والواقع أن الشعراء ساروا في هذا الطريق السهل الممهد اذ تغنوا بتعاليم الثورة الفرنسية واشادوا بمبادئ ولسون ، ووثقوا بوعود الحلفاء ، وتفاءلوا بالخير ، وتوقعوا الانصاف ، حتى عتب عليهم اغراقهم في ذلك الى حد السذاجة .. ولكنهم لذعوا بالجمر من خلال الرماد ، ولسعوا بالأفعى من داخل القش ، فقد كشفت لهم دولة الحرية والعدالة والمساواة عن أنياب عصل في اسرتها السم الناقع ، وبدت حليفة الأمس وصديقة العرب ذئبا ضاريا في ثوب حمل وديع ، واكتوى العرب بنار الغدر فأورثهم ذلك شعورا حادا بمرارة الخيبة عبر عنه الشعراء ، ولم يجدوا مناصا من اعلان النضال من جديد مع شعوبهم الثائرة .

ومن هنا كان لزاما على النزعة الانسانية البحتة في غمرة هذا الصراع الرهيب ان تخفت الصوت ، لتفسح المجال أمام الشعر القومي المتحفز ليؤدي رسالته الملحة في هذه المرحلة العصيبة من حياة العرب ، ولذلك قل أن نجد شعرا يعزف على وتر الانسانية في خلال نضال العرب المرير ضد قوى الشر اذ أن ذلك الحال اقتضى من العرب ان يجندوا كل طاقاتهم بما في ذلك الأدب شعره ونثره في سبيل التحرر . ومن الطبيعي أن تقابل بالريب والحذر كل دعوة انسانية يصدر عنها شاعر ويتجاهل فيها واقع شعبه وظروف وطنه ، اذ ان التبشير بالسلام في أوج احتدام المعركة مع العدو دعوة صريحة الى الاستسلام ، والمناداة بالصفح والتسامح تجاه عدو غادر لايرحم دعوة صريحة الى الذل

والعبودية ، لأن وضع الندى في موضع السيف مضر ، على حد تعبير الشاعر العربي .

— ٢ —

وثمة ظاهرة طبيعية عرفها الشعر الحديث بتأثير ظروف اجتماعية معينة ، اذ أن العاطفة الانسانية الكامنة في نفس الشاعر العربي كانت تستيقظ في الساعات التي يخيم فيها اليأس على العالم ويهدد البشر شبح الحروب ، لتضفي على المشاعر القومية نفحات فياضة من الانسانية الرحيبة . ولذلك تلفح كثير من الشعر القومي بثوب الانسانية المفضفاض . ففي ابان الحرب الكبرى الأولى يصدر الزهاوي عن قوله في رباعياته (١)

ان المدافع ترغو والحرب حرب ضروس
طارت هنالك ايد وارجل ورؤوس

قد شبت الحرب نارا عمت تروع الأناما
يانار كوني علينا بردا وكوني سلاما

ومن ذلك ما قاله ايليا ابوماضي في تلك الحرب أيضا : (٢)

بئس الوغى يجني الجنود حتوفهم
في ساحها والفخر للتيجان
ما أقبح الانسان يقتل جاره
ويقول هذي سنة العمران
لاحق الا ما تؤيده الظبى
ما دام حب الظلم في الانسان
ما بالكم لاتغضبون لمجدكم
غضبات مذلوم الجبين مهان

---

١)= ص ١١٣

٢)= زهير ميرزا ايليا ابوماضي شاعر المهجر الاكبر ١٨٩

وكأن الشاعر اذ يستنكر ان يقتل المرء أخاه ، لايجد في الوقت نفسه مفرا من اتباع المنفى مع اهله لاستخلاص الحقوق المغتصبة ، لأن ذلك في نظر الشاعر شر لابد منه . وهي ابيات شديدة الشبه بما أوردناه للمتنبي في بداية هذا الفصل .

وأبو ماضي يندد في قصيدة أخرى بتلك الحرب الطاحنة نفسها بقوله : (١)

اعجب مافي بني التراب	قتالهم فوقه عليه
قد صيروا الأرض كالكتاب	وانحشروا بين دفتيه
واستعجلوا الموت بالعذاب	وكلهم صائر اليه
فراقبوا ذمة الأخاء	ولتنس احقادها الخصوم
لاتتبعوا سنة البقاء	فأنها سنة ظلوم

ففي بيته الأخير استنكار لنظرية مبدأ دارون الذي يقضي بأن البقاء للأقوى ، على العلاقات بين البشر لأن ذلك يعني فناء شعبه في جملة الشعوب المستضعفة وهو الذي يرى (٢)

أن الأنام على اختلاف لغاتهم	وصفاتهم لو يذكرون قبيل

ومن اهم ما نظمه أبو ماضي في غمرة تلك الحرب وتمثل فيه هذا المزج الموفق بين الاتجاهين الانساني والقومي اللذين تعانقا في نفسه موشحه " متى يذكر الوطن النوم " الذي يقول فيه : (٣)

جلست وقد هجع الغافلون	افكر في أمسنا والغد
وكيف استبد بنا الظالمون	وجاروا على الشيخ والأمرد
ذكرت الحروب وويلاتها	وما صنع السيف والمدفع
وكيف تجور على ذاتها	شعوب لها الرتبة الأرفع
وتخضب بالدم راياتها	وكانت تذم الذي تصنع

---

(١) زهير ميرزا : ايليا ابو ماضي شاعر المهجر الأكبر ١١٨

(٢) المصدر السابق ٢٣٨

(٣) الجداول ٢٧

كما يقتل الطير في الجنة ويقتنص الظبي في السبسب
كذلك يجنى على أمتي بلا سبب وبلا موجب
فحتام تؤخذ بالمقسوة ويقتص منها ولم تذنب

أرى الليث يدفع عن غيضه بأنيابه وبأظفاره .
ويجتمع النمل في قريته اذا خشي الغدر من جاره
ويخشى الهزار على وكنته فيدفع عنها بمنقاره

متى يذكر الوطن النوم كما تذكر الطير أوكارها

ففي هذا الموشح تنديد بقوى الشر وويلات الحروب . كما فيه انتقال بارع من ذلك الجو العام الى موضوع بلده لبنان الذي كان يلاقي الأمرين مع اخوته العرب . ولعل أجمل مافي الموشح مقطعه الأخير بتشبيهاته الرائعة التي قصد الشاعر من ورائها الى حث أمته على النضال .

وقد أشار بشارة الخوري الى مأساة لبنان ايضا عام ١٩١٧ حين هلك كثير من أهله على قارعة الطريق بسبب المجاعة الرهيبة فقال (١)

انها الحرب ولم تترك علي سطحها الا جسوما باليه
ونفوسا حوما حول البلى تتمشى في صدور خاويه

وثمة قصيدة أخرى أوحت بها الى محبوب الخوري الشرتوني مأساة لبنان أيضا في غمرة تلك الحرب نفسها عندما شدد الأتراك الوطأة على العرب وشنقوا عددا كبيرا من أحرارهم ، وهذه القصيدة التي عقد الشرتوني قوافيها في مهجره القصي تعزف ألحانها الشجية على ذلك الوتر الانساني السامي مستوحيا اياها من تلك الأحداث المقومية الدامية فوق سفوح لبنان الخضر (٢) .

---

(١) الهوى والشباب ٧٧
(٢) الديوان ٦٣

أرى الأرض وهيج النار ملء جهاتها ... طعان القنا فيها وصدم الفيالق
ملايين من ابنائها هبطوا الثرى ... وما انفك يهوى لاحق اثر لاحق
فهل تجد الأنهار في الأرض مسبحا ... وفي الأرض طوفان الدماء الدوافق
وهل تجد الأطيار في الجو مسرحا ... وفي الجو أفواج النفوس الزواهق
عيال على أعشاشها مطمئنة ... تناولها صرف الزمان بطارق
يجرد من أحشائها مهجاتها ... ويقذفها مذبوحة في الخنادق
فلا تقطعوا أغصانها وصخورها ... فكم ظللت من موجع متضايق
ولا تسموا ثغرا لحمرة وردها ... فحمرة ذاك الورد من دم عاشق
هناك قبور الوالدين وحولها ... يجود اليتامى بالدموع الخوارق
وثم قبور العاشقين وفوقها ... تسيل حشاشات الحسان العواتق
حنانك عرش الله ما لك ملتقيا ... على عربي القوم وطأة ساحق
لئن تطلبوا أكبادنا وقلوبنا ... فلن تبلغوها عن طريق المشانق

لقد سرت في أوصال هذه القصيدة روح انسانية عميقة اشبه شيء بروح المعرى والخيام ، وبخاصة في تصوير الموتى من ضحايا الحرب وكيف تفتقت وجوه الأرض عن جثثهم نباتات وأغصانا ، واكتست اجساد الطير من لحومهم لحوما ، واستحالت خدود العاشقين من حمرتها القانية ازهارا وورودا .

ومن أمثلة اشتداد العاطفة الانسانية اثناء الحروب وفي أعقابها ، وبسط جناحيها الرحيبين على الشعر القومي قصيدة " أخي " لمخائيل نعيمة التي نظمها أيضا عام ١٩١٧ . وهي صورة نابضة بالحياة تمثل بصدق ، نفسية هذا الشاعر المرهف الحس الذى اكتوى بنيران الحرب الكبرى ، وعانى تجربتها القاسية بعد ان كتب عليه أن يخوض غمراتها مجندا في الجيش الأمريكي ، مما زاد في صبغ عدد من قصصه وقصائده بصبغة انسانية محببة . وهذه مقاطع من قصيدته يقول فيها :(١)

أخي ان ضج بعد الحرب غربي بأعماله
وقدس ذكر من ماتوا وعظم بطش أبطاله

---

(١) همس الجفون ١٤

فلا تهزئ لمن سادوا ولاتشمت بمن دانا
بل اركع صامتا مثلي ، بقلب خاشع دام
لنبكي حظ موتانا

أخي ان عاد بعد الحرب جندي لأوطانه
وألقى جسمه المنهوك في أحضان خلانه
فلا تطلب اذا ما عدت للأوطان خلانا
لأن الجوع لم يترك لنا صحبا نناجيهم
سوى أشباح موتانا

أخي ان عاد يحرث أرضه الفلاح أو يزرع
ويبني بعد طول الهجر كوخا هده المدفع
فقد جفت سواقينا ، وهد الذل مأوانا
ولم يترك لنا الأعداء غرسا في أراضينا
سوى أجياف موتانا

أخي من نحن لا وطن ولا اهل ولا جار
اذا نمنا اذا قمنا ، ردانا الخزي والعار
لقد خمت بنا الدنيا كما خمت بموتانا.
فهات الرفش واتبعني ، لنحفر خندقا آخر
نواري فيه أحيانا

فالشاعر في قصيدته ناقم أشد النقمة على تلك الحرب الضروس التي لم تبق ولم تذر ، حانق أشد الحنق في الوقت نفسه على ذلك الدمار الذي نزل بوطنه ، وتلك المجاعة المهلكة التي فتكت بقومه . أما حديثه عن الجوع والعري والفقر والخزي والذل والعار ، وعن الأرض والفلاح والكوخ والمدفع والأموات والأحياء فكان صورا مقتضبة اوحت بها هذه الألفاظ التي أحسن اختيارها لما تلقيه من ظلال انسانية على مأساة شعب لبنان ، وبذلك وفق الشاعر في أن يخرج من وصف مأساة محلية طرأت في وقت من الأوقات على حياة شعب من الشعوب المنكوبة ، الى تصوير معضلة انسانية عامة .. غير أن هذه العاطفة الانسانية الثائرة انتهت بصاحبها الى اليأس كما انتهت الى ذلك أيضا قصيدة " النهاية " لنسيب عريضة وكلتاهما نظمت في عام واحد ، في حين ان ما أوردناه قبل صفحات لأبي ماضي انتهى به في مقطعه الأخير الى الحث والاستنهاض والتمرد والثورة فكان اكثر ايجابية من الناحية القومية ، وأبعد عن

يأس نعيمه واستسلامه . ومع ذلك تبقى قصيدة نعيمة نسيج وحدها . ومما يجمد فيها معاني الانسانية تلك الكلمة العذبة "أخي" التي اتخذ منها عنوانا توج بها قصيدته ثم جعلها فاتحة لمقاطعها كلها ، وبذلك تجلى ذلك التعانق المحبب بين العنصر الانساني والقومي واتحادهما في صوفية عميقة .

ثم ارتدى الشعر القومي المعاصر حلة جديدة من العاطفة الانسانية حين لاح شبح الحرب مرة أخرى ولم يكد العالم ينسى ما عاناه من أهوال في الحرب الأولى . وقد عبر عدد من الشعراء في خلال تلك المحنة الشاملة عن انبل العواطف وأحلى الأماني ، من ذلك ماقوله محمد عبد الغني حسن (١) :

ملأوا البلاد عداوة وخصاما ماضر لو ملأوا البلاد سلاما

الله لايرضيه ان شعوبه يتبادلون على العداء سهاما

وحين أهل عام هجري جديد خلال تلك الحرب الأخيرة استقبله علي محمود طه بهذه العاطفة وقال (٢) :

غن للهجرة عاما بعد عام وادع للحق وبشر بالسلام

كن بشير الحب والنور الـسني مهج كلمى واكباد دوامي

ثم يشير الى ايادي النبي محمد على البشرية بقوله :

زلزل العالم من أقطاره بقوى الروح على القوم الطغام

وبنى أول دنيا حرة برئت من كل ظلم وأثام

تسع الناس على الوانهم لم تفرق بين آري وسام

حاطم الأصنام هل مثلك يد تنذر الظلم صريحا من حطام

وفي قصيدة "الصليب الأحمر" لعمر أبي ريشة تبرز أدواء البشر وطبائعهم في السعي وراء الاحتراب والتفاني حيث يقول (٣) :

في كل متكأ وكل وسادة جرح يسيل ودمعة تتحدر

عيسى طلعت على الوجود وليس في آفاقه الا الشقاء الأكدر

---

١)- من نبع الحياة ١٠٧ . ٢)- زهر وخمر

٣)- الديوان ٢٤١ .

تجزى الخطيئة في ملاعب لهوه ... والصنو خلف ركابها والمزهر
في كل صوب ارعن متنمر ... يسعى اليه ارعن متنمر
هزوا بوجهك فاتكات حرابهم ... واستكبروا والله منهم اكبر

فالمقصدة برغم انها تصور مأساة البشر وجراحهم في تلك الحرب الطاحنة ، تتضمن تنديدا بقوى الشر العاتية التي تقض مضاجع الشعوب الآمنة وفي جملتها أمة الشاعر . ونحن نجد هذه الظاهرة اشد بروزا لدى أبي ريشة نفسه في قصيدة أخرى اذ يقول(١) :

لم يزل شرب النجيع سكارى ... يتبارون حوله عدوانا
ما ألانت قلوبهم أدمع الأيتام ـ أو هزهم أنين الحزانى
فضحايا هم تمور على الرمل ـ المدمى وتعتلي صلبانا
كلهم في وليمة البغي يخشى ... ان يرى جوفغيره ملآنا
قل لتلك الحمائم البيض طيري ... فالخطايا تدفقت طوفانا .

وقد انحسرت أمواج هذه الحرب عن نزعة انسانية بارزة ظهرت جلية في نتاج عدد من شعراء الجيل الجديد تحول حدود البحث دون تناولهم ...

وهكذا وجدنا الشعراء العرب يرتفعون أحيانا بأحداث وطنهم الى مستوى انساني رفيع ويعزفون على هذا الوتر حين كانت أهوال الحروب والمجازر البشرية تطغى على أحداث قومهم وبلادهم ، وكأنهم في ذلك كانوا يلتفتون الى العالم يواسونه في محنته التي لم تكن في جوهرها الا صورة مكبرة لمحنة أمتهم ووطنهم .

أما في أوقات السلم ، فلم يكن العرب ينعمون بالسلام الا غرارا لأن المستعمر كان يجثم فوق صدورهم والنضال من أجل ازاحته عن الوطن كان مستمرا بلا هوادة ، ومع ذلك فقد يعثر الباحث على بعض النفحات الانسانية من خلال ثورة البراكين وغبار المعارك ، من ذلك ما قاله الكاظمي ابان الثورة السورية(٢) :

جنى الأنسان يوم جنى ... على الانسان عاقله
الا قوتلت يا انسان ـ من هذا تقاتله

---

(١) الديوان ٧٣ (٢) ديوان الثورة ٥

أليس أخاك من تردى واختاك من تنازله
الا عطف تناشده ألا عدل تسائله
وفيم الانتداب اذا غلا بالمقتاك غائله
يموت الطفل من جوع ويحيا فيه قاتله

وقد صدر أحمد شوقي عن شعور انساني اصيل في نفسه حين انقض الطليان على برقة الآمنة كالوحوش الضارية ثم شنقوا زعيمها عمر المختار وهو شيخ هدت جسمه السنون فقال من قصيدته الرائعة : (١)

ياويحهم نصبوا منارا من دم يوحي الى جيل الغد البغضاء
ما ضر لو جعلوا العلاقة في غد بين الشعوب مودة واخاء
جرح يصيح على المدى وضحية تتلمس الحرية الحمراء

وثمة قصيدتان لبدوي الجبل وخليل مردم تحملان اسما واحدا هو (شهيد ارلندا) تعتبران نموذجا لانسجام المشاعر القومية والانسانية ، فقد تطلع الشاعران الى بطولة شعب صغير يربض فوق جزيرته ويقاوم الاستعمار بلا هوادة ، وهزهما نضاله ، فتجاوبا معه بعد أن ألف الجرح بينهما وبينه .
ومما قاله مردم في بطولة ذلك الشاب الايرلندي (٢) :

بنفسي انت من هاد امام أنار لمدلج الأقوام فجرا
ليهنك ان اهل الأرض الب على أن يدركوا لذويك ثأرا
كأنك من ذوي قربى لمنا رثيناك باكيا نظما ونثرا
ولم تك ذا ولاء في معد ولم تبلغ بك الأجداد فهرا
ولكني بكل فتى كريم اخي ثقة عزيز النفس مغرى

فقد وجد الشاعر في كفاح هذا الفتى وشعبه صورة حية لكفاح العرب وأخا لهم في النضال المشترك ، وكانت ابياته تعبيرا عن التجاوب الانساني العميق بين اسرة الشعوب التي تؤلف بينهم رابطة الانسانية الشاملة .. وثمة قصائد أخرى من هذا

---

(١) الشوقيات ٣ ـ ١٧
(٢) جريدة البرق عدد ١١٢٧ وانظر قصيدة بدوي الجبل في ديوانه ١٨٥

المقبل عبر فيها أصحابها عن مشاركتهم بعض شعوب العالم في محنتها نشير من بينها الى قصيدة " الفتاة الحبشية " لاسكندر الخوري البيتجالي (١) التي تصور انقضاض قوى الطليان الفاشية على الحبشة الآمنة عام ١٩٣٥ ، وهذا التجاوب الانساني مرده أيضا الى ابتلاء العرب والأحباش معا بالعدوان الاستعماري .

وهذه أبيات لنسيب عريضة يخاطب فيها وطنه الامريكي الجديد في نيويورك وهي تمثل الجانب الايجابي من الاتجاه القومي وتعزف لحنها على وتر الإخاء البشري (٢)

يابنت مجد الغرب في الفلواء اني ابن الشآم
ياجارتي قلب ودود ليس يرغب في خصام
ياجارتي لسنا على طرفي نقيض في المرامي
مجدي ومجدك واحد مابين أمجاد الكرام
هو أن يسود الحق في دنيا المودة والسلام
هو أن يعيش الناس اخوانا على شرع الوئام
وأنا على عهد العروبة لن أزال السري الخيام
ان كنت بين الناطحات السحب او بين الخيام

ومن هذا المقبيل مانظمه الرصافي في قصيدته يوم (سنغافورة) في الحرب الأخيرة (٣) ومانظمه علي محمود طه وسواه من الشعراء اشادة ببطولة ستالنجراد (٤) ثم ما كان أخيرا من تجاوب شعراء العرب على نطاق واسع تعدا هم الى شعراء العالم وأدبائه ، مع أبناء (هيروشيما) التي حل بها دمار وهلاك لم يشهد هما البشر من قبل .

وقد حور الشعراء على ان يتجاوبوا من حين الى آخر مع مشاعر الشعوب الأخرى دون ان تربطهم بهم رابطة دين أو قومية او جوار وانما كانت العاطفة الانسانية وحدها مبعث تجاوبهم هذا ، فقد أيقنوا ان المأساة لاتقتصر على أمتهم فحسب بل

---

١) المنقود ٩٥ — ٢) الديوان ٢٧٤
٣) الديوان ٤٧٣ — ٤) زهر وخمر ٦٣

تشمل سائر الأمم بعد ان غدت البشرية المعذبة ضحية الظلم والعدوان ٠

— ٣ —

والملاحظ ان أكثر ماتتجلى العاطفة الانسانية في الشعر القومي المعاصر ، لدى شعراء المهجر بالدرجة الأولى وذلك لاتساع أفقهم الاجتماعي ، وعيشهم في بيئات جديدة تغاير ماعرفوه في الوطن الأم ، ولأنهم أيضا لم يعيشوا في الأتون اللاهب من المعارك والأحداث والثورات كما كان يعيش اخوانهم في وطنهم ، فكأن حرارة ذلك الأتون كانت تصل اليهم بعد أن تفقد بعض حدتها ، فيعكسونها هادئة لطيفة كما تعكس صفحة القمر أشعة الشمس ٠

ويعتبر جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة في طليعة أدباء المهجر الذين بشروا بالفكرة الانسانية في الأدب ومن آراء جبران السائرة (١) " الأرض كلها وطني ، والعائلة البشرية عائلتي " ويجاريه نعيمة في ذلك فيقول " لا أدري أين ولدت ولايهمني ان أدري ولذلك لا وطن لي ولو كان لي وطن لتبرأت منه لأن العالم كله في نظري هو واحد لايتجزأ " وليس يعنينا من هذين القولين الا مدى تأثيرهما في الشعر المهجري ٠ ومن المرجح ان صدور هذه الآراء عن علمين كبيرين من ادباء المهجر وركنين بارزين في الرابطة القلمية كان له صدى لدى عدد من شعراء الشمال في طليعتهم ايليا أبو ماضي يدليل خفوت الصوت القومي فيما نظم من قصائد منذ اتصاله بأعضاء الرابطة القلمية وان لم يذهب في شعره الى المدى الذى ذهب اليه جبران ونعيمة في نثرهما وهذا الانعطاف واضح في نتاجه الأخير المتمثل في ديوانيه البارزين البارزين الجداول ثم الخمائل ٠

---

(١) دمعة وابتسامة ١٨٨

ونحن نجد في المقدمة الضافية التي وضعها القروي لديوانه الكبير اشارة الى هذه الظاهرة التي نبه أمرها في المهجر اذ أن جماعة " نصحوه بالانصراف عن الشعر الوطني الى الشعر الانساني ليصير شاعرا عالميا فأجابهم : هب أصاب من قال انني كان في وسعي ان أصير شاعرا عالميا فأنني لست بآسف انني احببت بلادي اكثر من نفسي، وحاولت ان افتدي مجدها بمجدي وخلودها بخلودي " (١)

لقد كان عدد من ادباء المهجر ونقاده يربأون بالأدب شعره ونثره ان يعالج قضايا الوطن ويعيرون القروي وفرحات والوليد باتجاههم القومي في قصائدهم ، وقد انبرى القروي في شطر من مقدمة ديوانه ومقدمة أعاصيره للدفاع عن مذهبه وتفنيد فكرة الانسانية المزعومة ومما قاله في ذلك أيضا (٢) : " وما الشاعر الوطني الحمي في أمة مستعبدة الا الشاعر الانساني قبل أي شاعر سواه ، لأن هذه المبادئ التي يسبح لها ويصلي في محرابها ويجاهد في سبيلها ليست معبودة وطنه فحسب بل معبودة الأوطان جميعا ، ولعمري أية قيمة وأي سرور ، وأي فأل يجد المتبجحون بأنسانيتهم المتخدرة في عالم لاحرية ولاحق ولاعدالة فيه " ويقول (٣) " ان صراخ سورية وعويلها يكاد يقض مضاجع النائمين في المريخ ، ودخان غيظها يوشك ان يبطن القبة الزرقاء بقبة سوداء ، افتريدون منا ان نجترح المعجزات فنسمعكم همس الأزهار وسط هذا الضجيج ونصور لكم الوان الشفق وراء هذا القتام ، .. وهبوكم لاتؤمنون بغير الوطن الأرض وطنا وغير الانسانية عشيرة ، افتعتقدون أن الارض قد صارت جنة والناس فيها ملائكة ينعمون ... ان الذي يغضب لحق هضم في الصين أولى به أن يناضل لدفع حيف نزل ببلاده .. ان الحرية هي الحياة بمعناها الشريف ، وهي أول حقوق الانسان

---

(١) انظر مقدمة الديوان صفحة ز ل (٢) انظر مقدمة الديوان ص ز ل

(٣) مقدمة الأعاصير ٢٤٧ ـ ٢٤٩

فهل من شروط حبكم للانسانية ان تنكروا الحياة على أقرب أبناء الأنسانية اليكم ... افأنتم اكلف بالسلام من مسيح السلام ، أما غضب فانها ل بالسوط على الصيارفة وباعة الحمام لطردهم من الهيكل غيرة على بيت أبيه .. "

ولاريب أن هذه المقاطع من اقوى ما دافع به شاعر عن انجاهه القومي وفند فيه الدعوة الانسانية البراقة .. ويمكن ان نضيف الى من ذكرنا ، اديبا آخر عرف بعروبته الصادقة ومع ذلك سقط في هاوية التناقض حين انزلق مع دعاة الانسانية الموهومة ، وأخذ ينادي بانسانيته تلك وهو في قلب المعركة في فلسطين الثائرة ، ويعلن أنه ليس مسيحيا ولا بوذيا ولا مسلما ولا يهوديا ، كما أنه ليس عربيا ولا انكليزيا ولا فرنسيا بل انه فرد من أفراد هذه الانسانية . وتبلغ به انسانيته حدا التخاذل اذ يقول والحرب في بلاده دائرة وقومه يتساقطون صرعى الارهاب الصهيوني والبريطاني فيقول مخاطبا شعبه : " اغمدوا سيوفكم في أغمادها ولاتحاربوا أحدا ففي الدنيا متسع للجميع "(١)

والحق أنه " لم تستطع الدعوة الى الأخوة البشرية على ما فيها من نفحة عذبة جذابة ولا المذهب الاشتراكي الحر على ما فيه من قواعد معقولة ومقبولة ان يطمسا معالم القومية الجنسية او يذهبا بالفوارق اللغوية والثقافية ، فالعالم لا يزال مقسوما الى انجليز والمان وفرنسيين وطليان وعرب واسبان وما الى ذلك من أقوام وشعوب " (٢)

ويبدو أن سبب بروز هذه النزعة الانسانية السلبية في الأدب الحديث حتى كادت تعزل دعاتها عن شعوبهم ، ظهور بعض القوميات العدوانية المتناحرة في اوربا واعتمادها على العنصرية المتطرفة والقوة الغاشمة في سبيل التوسع والاستعمار كما كان الشأن

---

(١) انظر تفصيلات ذلك في أمالي الدكتور الحسيني على طلبة معهد الدراسات العربية العالية وهي مخطوطة — وانظر خليل السكاكيني في يومياته .

(٢) انظر مقالة عبدالرحمن الشهبندر : الهلال نوفمبر ٩٣٦

في النازية والفاشية ، في حين ان القومية المتفتحة المتآخية مع سائر القوميات نواة للأنسانية المنشودة . والقومية العربية لايمكن ان تكون عدوانية لأنها نفسها كانت ضحية العدوان .

والشعر القومي المعاصر لم يحمل في ثناياه أية بذور للقومية العدوانية او العنصرية المغالية حتى في فترات انجرافه مع المذاهب الاقليمية الضيقة ، فهو في قوميته لم يكن ليتعارض مع الانسانية ، بل كان عونا لها ومرحلة طبيعية في سبيل بلوغها . وثمة أبيات لمخائيل خليل الله ويردي تعبر عن هذا التعانق الجميل بين العروبة وبين الانسانية يقول فيها (١)

نحن قوم نريد عيشا كريما ولكل الورى نسود النعيما

فأذا ضمت العروبة ابنـــاء ــ بلادي نلنا المرام العظيما

ومتى وحد الأخاء بني الدنيا ــ اتبعنا صراطه المستقيما

وهذه هي العروبة الحقة وكل قومية متفتحة ، انها نواة للأنسانية الشاملة المنشودة ، ليست عادية ولا مستعدية ، وليست متعالية ولا متعصبة . وان التعاطف مع آلام البشر ، والتجاوب مع أحداث العالم ، صفات أصيلة في القومية المتفتحة لأنها غصن نضير من دوحة البشرية . وليس أجدر من الأدب بأن يحمل هذه الروح الانسانية الأيجابية لأن الفنان انسان قبل كل شيء ، ولهذا فأننا نكبر عاطفة حافظ ابراهيم تجاه أهالي مسينا حين نكبوا بالزلزال ، كما نكبر ثورة برنارد شو على وحشية قومه في دنشواي (٢) ونشد بروما ن رولان بعفاالته الانكليز في حرب البوير (٣) لأن ضمير الانسان هو الذي تكلم في هؤلاء قبل ان يكون الواحد منهم عربيا او انكليزيا أو فرنسيا .

ان ظروف الوطن العربي وابتلاؤه بالاستعمار هي التي حدت من انطلاق شعرائه في اجواء العاطفة الانسانية الرحيبة ، وفرضت

---

(١) الديوان ٣٢٤

(٢) انظر مقدمة " جزيرة جونبول الأخرى "

(٣) راجع مسرحية " سيأتي الغد " .

عليهم ان يقدموا عليها الرسالة القومية . وان السنين الطويلة التي عاشها العرب في نضال دائب جعلت شعراءهم ينهمكون في تصوير مآسي بلادهم وحفزهم أبناء قومهم قبل كل شيء آخر .. ومن ذلك فقد كانت رسالتهم هذه تساير في مراميها الرسالة الانسانية ، لأنها تدعو الى اقامة العدل واعلاء الحق ، ورد الكرامة لكل مواطن في أرضه ، واعادة الحرية الى وطن هو جزء من الوجود الشامل ، والى شعب هو عضو في اسرة الانسانية الكبرى .

من كل ذلك يتضح ان القومية المتفتحة والانسانية الحقة ليستا ضدين تقابل احداهما الأخرى ، ووجود احداهما لا ينفي بالضرورة وجود الثانية ، لأن القومية الايجابية ليست سوى خلية فعالة في جسم البشرية .

ان الشاعر شأنه شأن أي فنان ليس بوسعه أن ينفلت من وجدان قومه وان ينسلخ عن تراب وطنه . والقومية ليست جدارا يحجبه عن الانسانية وانما هي قمة سامية يشرف من فوقها على آفاق الانسانية الرحيبة ، وان انسانية الأدب لا يمكن ان تعني اطلاقا ان يتحلل الشاعر من أواصر الوطن ، ومن وشائج الأرض ، ومن وجدانية اللحم والدم والتاريخ والمجتمع " ويخطئ من يظن أنه ليس في وسع الأدب السمو الى أفق الانسانية الا بالابتعاد عن اللون المحلي او القومي ، وربما كان العكس هو الصواب ، أي كثيرا ما كان الأدب اصدق انسانية اذا كان اصدق قومية ، ذلك ان الابتعاد المصطنع عن القضايا القومية والألوان المحلية يخرج الأدب عن نزاهته وصدقه "(١) ومتى استطاع الشعر ان يكون تعبيرا حيا عن تجارب أصيلة صادقة ، ووجد فيه أي انسان في اي مكان نفسه وحقيقته فقد اكتسب الصفة الانسانية لأن الفن الحق الأصيل لا وطن له وهو ملك لمن يتذوقه . وعلى

---

(١) أمجد الطرابلسي من محاضرة الأدب العربي بين الأدب القومي والأدب الانساني ص ١٨٣ نشرت في مجموعة دار الكتب الوطنية بحلب عام ١٩٥٢ .

هذا الأساس تروعنا المأذة هوميروس والفضيلة ولسيلة وسيرة الأيام على الرغم من بروز السمة القومية المحلية في هذه الآثار الأدبية جميعا .

ان النزعة الانسانية المصطنعة ربما أبعدت الانسان عن وطنه ، اما النزعة الانسانية الأصيلة فهي التي تربطه بوطنه ربطا لا انفصام له (١) وعلى هذا فالدعوة الى الاستقلال والمطالبة بالحرية ومكافحة الاستبداد اهداف قد سنتها الشعوب وباركت من بشروا بها ، وقد كان لها في الأغلب وجهان قومي وانساني معا . « وان من الأعمال الأدبية الحديثة التي استلهمت من وثبة القومية المصرية مايحمل في طياته بذور الخلود والانسانية ويمكنه ان يتعدى الحدود ليجد فيه كل شعب يشق طريقه الى الحرية مرآة لنفسه . وان اديبا كهذا ، دائم الاتصال بالمقيم البشرية لاشك أنه جدير بالحياة » (٢) .

والشاعر بصورة عامة ، ونظرا لطبيعته المرهفة ونفسه الصافية نفور من التباغض والخصام يشمئز من الدماء والحروب ، ويتفطر قلبه أسى للبؤس والشقاء ، فهو تواق أبدا الى ادراك الأهداف السامية التي تحقق لأمته ولسائر البشر ، العدالة والرخاء والسلام .

×× ⁂ ××

وجملة المقول لم ينبجس الشعور القومي المصري صافيا في الشعر الحديث أول الأمر . فمنذ ولادته في نفوس المصريين صحبته منازع أخرى أخذت تضفي عليه ألوانها حتى بات من العسير التمييز بينها وبينه ، بل استطاعت هذه المنازع في بعض الأحيان وبتأثير ظروف وعوامل تاريخية واجتماعية ان تطغى على الحس القومي السليم وتنحرف به عن التطور السوي .

---

(١) انظر المرجع السابق (٢) المرجع السابق .

وعلى الرغم من ان الشعور القومي العربي اتسم في بعض الأحيان بصراع مع المنازع الأخرى مثل الجامعة الاسلامية والروح الوطنية المحلية ، الا أنه أفاد منها كثيرا في تطوره وازدهاره .
فقد عزز الشعور الديني في كثير من الأوقات شعور العرب بعروبتهم وكذلك اكتسب هذا الشعور قوة بازدهار الوعي الوطني المحلي في بعض الأقطار العربية ، واتفقت ايضا النزعة الشرقية ضد الغرب المستعمر في كثير من وجوهها مع الاتجاه القومي ، كما انسجمت النزعة الانسانية التي تدعو الى السلام وسعادة البشر وتحرير الانسان من العبودية مع الأهداف القومية الأساسية
أما النزوات التي كانت تشوب ذلك الشعور القومي ، وتحد من سيره وتعوقه عن التقدم كالمغالاة بالفرعونية والفينيقية والآشورية .. فكانت عامل تجزئة وتبعيد اكثر منها عامل توحيد وتقريب ..

وكان طبيعيا أن يأخذ الاتجاه القومي طريقه السوى بعد ان اتضحت معالم القومية العربية بتأثير الأحداث الجسام التي تعرض لها العرب في تاريخهم الحديث ، وغدت كالنار تطرد الخبث من الحديد ، "وأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ماينفع الناس فيمكث في الأرض . "

وقد عكس الشعر العربي الحديث على صفحته الرائقة مجمل ذلك الصراع والتطور والانحراف وعبر عن مختلف المنازع التي لازمت الشعور القومي خلال فترات معينة ، كما عبر عن تلك الشوائب التي علقت به حينا من الدهر ثم انحسرت عنه .

وربما كانت مراحل هذا الصراع اشد بروزا في النثر الحديث ، لأن الشعر بحكم طبيعته يضيق بالجدل والصراع الفكري والمذهبي ، ولهذا فأن المضمون فيه كما تبين لنا لم يتسم بهذه الحدة التي عرفها النثر . والشعر اشبه بصفحة القمر الذى يعكس الينا الأشعة اللاذعة المتوهجة معتدلة لطيفة ..

الباب الثاني

تيار القومية العربية

الفصل الأول

نشوء الفكرة القومية

اذا كانت القومية بمفهومها البسيط تعني شعورا مشتركا بين جماعة من البشر بأن ثمة ما يجمعهم ويؤلف بينهم ليكونوا أمة واحدة متميزة عن سائر الأمم ، فأن القومية بهذا المعنى عريقة في وجودها لدى الأقوام منذ فجر التاريخ وقيام المجتمعات المتحضرة . فهي تتمثل في الهنود والصينيين والآشوريين واليونان وغيرهم من الأمم التي كانت ذات قومية متميزة بعضها باد ليندمج في قوميات أخرى وبعضها مازال قائما .

" فالقومية بهذا المعنى شيئ موجود في التاريخ باستمرار وقد يشتد الشعور بها فتكتسب قوة تجعلها فعالة في التاريخ حتى لتطغى على كل علاقة أخرى تجمع بين الأنسان والأنسان ، وقد تضعف فتظهر عليها قوى أخرى تكون أكثر فعالية وشدة فيتوارى الشعور بالقومية لتحل محله روابط أخرى ولكنه لا ينعدم بل يستكن في النفوس ويكمن في ضمير الأمة "(١)

ولقد كانت القومية العربية موجودة على هذا الشكل الباهت الغامض خلال عصور ما قبل الاسلام ، اذ تغلبت عليها الرابطة القبلية فتوزع ولاء العرب نتيجة لذلك على عدد من شيوخ العشائر . ومما يؤكد وجود تلك القومية آنذاك ، الوجدان المشترك المتمثل في الشعر الجاهلي والأمثال والأساطير والحج والمعتقدات والعادات المشتركة وغيرها . وثمة مثل بارز على انطلاق المشاعر القومية من مكامنها في نفوس العرب حين قام الفرس بغزو بلادهم في معركة ذي قار ، فقد استيقظت المشاعر القومية لدى عدد من القبائل تجاه قومية أخرى عادية ، وكان ذلك ارهاصا بوحدة العرب في ظل الاسلام .

ثم انتشر الاسلام بين قبائل العرب فآخى بينها ووضع حدا لخلافاتها ووحدها في أمة تدين بالولاء لزعيم واحد من طينتها ،

---

(١) انظر محمد منيف الرزاز في محاضرة له عن القومية القاها في الكويت .

وكان المفضل الأول في ذلك للعقيدة الجديدة التي اعتنقها العرب فألفت بينهم وتغلبت على كل رابطة سواها .

وما حدث بعد ذلك أن الاسلام انتشر بين الترك والفرس والهنود وغيرهم وكان أن تقبلت هذه الأمم دين العرب ولكنها لم تتقبل قوميتهم ، ولذلك حافظت على كيانها ، وكانت من أبرز عوامل الاضطراب في الدولة الاسلامية ، لأنها كانت تنزع باستمرار الى الاستقلال بقوميتها في دولة ذات كيان متميز .

وقد صور الأدب العربي القديم وبخاصة في العصور العباسية الصراع المرير بين العرب والفرس والدعوة الشعوبية ، كما صور من جهة أخرى الصراع بين العرب والترك ، وقد وجدنا بوادر المفكرة العربية لدى أبي تمام والمتنبي وغيرهما ، وكان دعبل الخزاعي وعبد الله بن المعتز من الشعراء الذين تصدوا بسلطتهم القومية السليمة للدخلاء الترك من مثل (وصيف ، وبغا ، وأشناس ، وباغر) ونددوا بتسلطهم على الحكم .

ومن ذلك يتبين أن الدين حتى في أزهى عصوره سواء أفي الشرق أم في الغرب لم يتمكن من التغلب على المقومات القومية للأمم ، ولكنه كان في الوقت نفسه عاملا فعالا في الكيان القومي المستقل لدى كل أمة . وقد بقي الاسلام تبعا لدوره العظيم في بعث القومية العربية ومصاحبته اياها قرونا مديدة ، مختلطا لدى العرب بالمفهوم القومي حتى العصور الحديثة "حين تأثرت القومية العربية وسائر القوميات في الشرق بظهور القوميات الغربية وأفادت من تطورها وفلسفتها واهتدت بهديها ، ثم انصهر ذلك كله في الشعور القومي الأصيل النابع من ذات الأمة ، والذي اتخذ هذا المظهر العاتي البارز تجاه الاستعمار ، وشرعت تطرد الضباب من حولها وتخلع ثوب الغموض الذي كانت ترتديه قبل القرن التاسع عشر " (١)

---

(١) المرجع السابق .

وقد انصهر التراث العربي الجوهري بالتفكير الغربي الحديث ، وحدث تفاعل امتزج بشخصية الأمة وظروفها الراهنة ، وتولد شعور قومي متميز لا بالقديم ولا بالأوربي ، وكان أبرز مظاهر لهذا الشعور القومي مطالبة العرب بأن تعود الخلافة اليهم بعد ان استأثر بها الأتراك قرونا كما تجلى ذلك فيما كتبه عبد الرحمن الكواكبي ونجيب عزوري وسواهما ". « ولم تعد القومية مجرد رد فعل انطوائي سلبي ينتهي الى الرجعية والتعصب ولا رد فعل مقلد ينتهي الى انكار الذات ، وانما استحالت الى رد فعل واع تجاه الاستعمار وما ينطوي عليه من استعباد وكبت للحريات واستغلال للخيرات وزرع للنعرات الطائفية والعنصرية والطبقية . وأصبحت القومية العربية عقيدة ايجابية خلاقة لكيان أمة جديدة حديثة تقوم على أسس وطيدة ودعائم ثابتة من الاستقلال والتحرر والوحدة الشاملة والديمقراطية والعدالة الاجتماعية والتحرر الاقتصادي ، وهي في نشأتها وظروف نموها تختلف عن القوميات الغربية التي غدت عدوانية توسعية لأنها ترعرعت في ظل النظام الاستعماري » (١) .

وكان طبيعيا ان يفتقر المفهوم القومي خلال فترة من حياة العرب الحديثة الى الدقة والتحديد والوضوح شأنه في ذلك شأن كل مفهوم اجتماعي ، وقد رأينا في الفصول السابقة مدى تصوير الشعر الحديث ظاهرة اختلاط القومية العربية بالعقيدة الاسلامية والعاطفة الشرقية ثم بالنزعات الاقليمية الشائبة ..

ومع أن الشعر الحديث قد واكب نضال العرب منذ أواخر القرن التاسع عشر فأن الفكرة القومية لم تجد لنفسها مكانا في الشعر الحديث الا بصعوبة . فالعاطفة الوطنية في مصر كانت وحدها تطبع قصائد الشعراء منذ عهد البارودي وما قبله أيضا ، دون ان تتسم تلك الوطنية بميسم القومية

---

(١) انظر المرجع السابق .

العربية ، كما كانت العاطفة الدينية طابع كثير من الشعر الوطني في العالم العربي .

ولكن عددا من شعراء الشام وبخاصة في لبنان استطاعوا ان يكونوا في أذهانهم مفهوما سليما للقومية العربية منذ ذلك الحين ، فكانوا رواد الاتجاه العربي . وقد أخذ شعور العرب بقوميتهم وعروبتهم يتميز ويقوى باطراد في أواخر العهد العثماني ، " وان الحاح عدد من الشعراء على لفظتي العرب والترك ، وايرادهما معا وتوجيه الخطاب الى الطرفين على أنهما طرفان تهمهما قضية مشتركة لا أمة واحدة متماسكة قد انصهرت عناصرها في قومية واحدة ، ان هذا الالحاح ان دل على شيء فعلى ان الفكرة العربية قد شقت طريقها الى الأمام ، وعلى أن الانفصال النفسي كان قد وقع فعلا بين الترك والعرب ، وعلى أن هذا الانفصال قد استقر فعلا وبصورة لاشعورية في نفوس الشعراء جميعا سواء في ذلك من كان عربي الاتجاه أو عثمانيه "(١) من ذلك مانراه مثلا في قول أحمد محرم (٢)

يا آل عثمان من ترك ومن عرب ... وأى شعب يساوى الترك والعربا

أو قول شوقي : (٣)

يا شعب عثمان من ترك ومن عرب ... حياك من يبعث الموتى ويحييها

أو قول أمين ناصر الدين : (٤)

بني العرب والاتراك أين حمية ... يروع العدا منها اللظى المتسعر

والواقع ان الفكرة القومية نمت بشكلها الواعي ومفهومها الحديث في أذهان مثقفي العرب الذين كانوا منتشرين في الآستانة وباريس والمهجر نتيجة احتكاكهم بالقوميات الأخرى واتساع آفاقهم ، ولقد كانت هذه الفكرة كامنة في نفوسهم تغشيها العاطفة

---

(١) أمجد الطرابلسي : شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام ٥١

(٢) الديوان ٢ ـ ٤ (٣) الشوقيات ١ ـ ٣٣٥

(٤) صدى الخاطر ٢٥

المشتركة مع الترك الا أن نموها السريع كان على شكل رد فعل تجاه القومية التركية المتطرفة (الطورانية) (١) من ذلك مثلا أن أحد غلاة الترك تعمد أن يردد على مسامع بعض العرب قصيدة تركية تنم عن تلك الروح المتعالية فيها تحد صارخ للعرب ولرسولهم مما ومازال الأمير مصطفى الشهابي يذكر أحد أبياتها وهو (٢)

جد مز جنكيز خان عاقلدر بزم   جد مز جد الحسينه هم معادلدر بزم

ومعناه :

جدنا نحن هو جنكيز خان العاقل   وجدنا نحن معادل لجد الحسين

ومن هذا القبيل افتراءات جريدة (اقدام) التركية على العرب وتصرفات الترك الشائنة ضدهم مما كان له أسوأ الأثر في نفوس العرب ، وكان في الوقت ذاته خير موقظ لقوميتهم الكامنة .

ومنذ ذلك الحين بعد أن قامت الحرب الكبرى يدخل الشعر القومي في طور جديد تزداد معه الفكرة العربية قوة واتضاحا نتيجة لازدياد الوعي القومي من جهة ولانحسار المفهوم الديني والعاطفة الشرقية ، ولخروجها ظافرة بعد ذلك من حومة صراعها مع النزعات الاقليمية الضيقة من جهة أخرى .

ولعل أول مانلاحظه في هذا الشعر الذي قيل منذ قيام الحرب الكبرى ، ان الفكرة العربية قد أفادت في نشأتها من الحركات القومية الأخرى التي كانت تقوم من حين الى آخر في الدولة العثمانية ، كحركات شعوب البلقان التي كان لها صدى في نفوس العرب فضلا عن صدى سائر الحركات الأخرى في أوربا .. وقد دلت بعض قصائد الشعراء آنذاك على هذا التأثر من ذلك قول ايليا ابي ماضي مخاطبا قومه (٣)

---

١)) انظر الأمير شكيب ارسلان : حاضر العالم الاسلامي

٢)) انظر كتابه محاضرات في القومية العربية ٦٤

٣)) زهير ميرزا : ايليا أبوماضي شاعر المهجر الأكبر ١٣٥

أبناء سوريا الفتاة تضافروا وخذوا مثالكم عن البلقان
ما الترك اهل ان يسودوا فيكم أو تحكم الآساد بالغلمان (١)

ولا يبعد أن تكون عبارة (سوريا الفتاة) التي وردت في قوله من مظاهر تأثر الشعراء بعبارة (تركيا الفتاة) وهو اسم الحزب الذي اسسه الترك وجاراهم فيه العرب بعد ذلك بتأسيس حزب آخر يحمل اسم (العربية الفتاة) . ونجد هذا الاتجاه أيضا في قصيدة أخرى لأبي ماضي يقول فيها (٢) :

أبناؤكم لهفي على أبنائكم يلهو بهم ابناء جنكزخان
ثوروا عليهم واطلبوا استقلالكم وتشبهوا بالصرب واليونان

فهذا المفهوم الصحيح للفكرة القومية عند أبي ماضي مرده الى ادراك حقيقة الثورات القومية التي كانت تنشب في تلك الفترة ، مما جعله يجد أن قضية بلاده لاتختلف في جوهرها عن هذه القضايا القومية في شيء . وليس مصادفة ان تنطلق البادرة التحررية الأولى قبل ذلك من البلقان نفسها حيث كان عدد من الضباط العثمانيين من العرب والترك يعيشون في غمرة الشعور القومي اللاهب ويتشبعون بروحه الثورية حتى آل بهم الأمر الى زحفهم الشهير على الآستانة واكراههم السلطان على اعلان الدستور واطلاق الحريات العامة .

ويشير أبو ماضي أيضا الى ظاهرة القوميات التي تعاظم شأنها في العالم ويعجب ان يرى العرب بعيدين عنها فيقول (٣)

أدركت غاياتها كل الشعوب نهض الصين ومازلنا نيام

وعلى هذا الصعيد القومي ينظر أبوماضي الى حكم الترك للعرب فيرى فيه تحكما للأقلية في الأغلبية (٤)

الى كم يحصرون الحكم فيهم وكم ذا يبتغون بنا احتكاما
السنا نحن اكثرهم رجالا اذا عدوا وأرفعهم مقاما

---

١)) الغلمان مفردها غليم وهو ذكر النعام
٢)) زهير ميرزا : ابوماضي ١٨٧ ٣)) المرجع السابق ١٥٦
٤)) المرجع السابق ١١١

كما يقول (١)

متى كان جنكيز لقحطان سيدا فيمسي بنو هذا لذاك مواليا

والملاحظ في البيت الأخير والذي قبله أن روح الاعتداد بالعروبة أخذت تشتد في الشعر العربي وتتسم في هذه المرحلة من نشوتها بشيء من التعالي اقتضته غطرسة الترك • ومن جهة أخرى فأن الكثيرين من الشعراء العرب المسلمين لم يكونوا آنذاك يصدرون عن مثل هذه الآراء ، فقد كانت غالبيتهم ترى في ثورات البلقان حركات هدامة تهدف الى اضعاف الامبراطورية العثمانية وتشكل خطرا على دولة الخلافة وعلى الاسلام نفسه • بل ان عددا كبيرا من العرب لم يكن آنذاك يستشعر خطرا من جراء تحكم الترك به لأنهم كانوا في نظره مسلمين ، وليس من ضير في أن يرث المسلمين مسلم وان كان غير عربي •

وكان اعدام جمال باشا أحرار الشام ابان الحرب الكبرى نقطة تحول في مشاعر العرب القومية اذ فتح هذا العمل الطائش اعينهم على ان الدين وحده ليس بوسعه أن يؤلف بين عنصري الامبراطورية المتداعية ، وأنه ليس ما يحول دون استقلال كل عنصر في دولة متميزة • وقد أدرك الشعراء مغزى هذا التنكيل واشاروا الى ان ذلك يرجع أولا وأخيرا الى نزعتهم القومية الخالصة وأن هذا الانتقام هو ذروة الصراع بين القوميتين الرئيسيتين في الدولة العثمانية • وهذا بشير يموت يعبر عن ذلك في صدد رثائه لعمر حمد أحد الشهداء الذين بطش بهم السفاح يومذاك (٢)

ذهبوا في حب أمتهم شهداء الفضل والشيم
ذنبهم في الدهر انهم عرب للترك لم تنم

كما يعبر عن الفكرة نفسها فيما بعد محمد المدناني ذاكرا اولئك الشهداء بقوله (٣) :

---

١)) المرجع السابق ١٩٩ ٢)) ديوان عمر حمد ٨٦

٣)) اللهيب ٣٢

وما وزرهم الا ابناء نفوسهم وأنهم عرب فيا حبذا الوزر

وقد ضرب (اتاتورك) بعد الحرب الأولى مثلا صارخا للعرب وسائر شعوب الشرق في الانتفاضات القومية وبناء الدول على أساس قومي حديث وفي ذلك يقول شكرالله الجر معجبا بذلك البطل القومي (١)

ومن كان كالغازي فما ضل ناهج مناهجه أيان بالشعب يمما

فما أجمل الاسلام بالشرق لو مشى على خطوات المصطفى مترسما

كما صدر محمد الشريقي عن هذا الاتجاه بصورة أوضح في تأثره بالانتفاضة القومية التركية والأيرانية فقال مخاطبا سعد زغلول (٢)

ان العروبة يازغلول قائدنا فاجهر كما جهر الأتراك والعجم

وامدد يديك وصافح كل من نطقوا بالضاد يقبل عليك القوم كلهم

والشاعر نفسه يوضح مارمى اليه ويقول " جهر الترك بالجامعة التركية ، وقد سلك الفرس هذا الطريق عينه في نهضتهم الجديدة " .

ثم انطلقت الفكرة القومية من صميم ظروف العرب وحياتهم وراحت تنمو في نفوسهم باطراد على هذا الأساس الحديث الذي وجدته في بعض القوميات التي عاصرتها وشابهتها في ظروف ولادتها ونشأتها والتي كانت بمثابة الجداول التي ترفدها وتزيدها صقلا وجلاء . وقد عبر فوزي المعلوف عن هذه الرغبة الملحة التي كانت تمتلج في نفوس العرب وتحفزهم الى بناء قوميتهم المتيدة (٣)

فلتحي قومية كانت لنا نسبا يضم اشتاتنا ماظاتنا النسب

ومن يكون بلا قوم يدل بهم فلا يشرفه دين ولا لقب

كما ادرك حافظ ابراهيم في " عمريته " منذ نهاية الحرب

---

(١) الروافد ٣١ (٢) ديوان الثورة ٤٠

(٣) الديوان ٣٠

الكبرى أن تصدع القومية العربية كان السبب المباشر في انهيار مجد العرب بعد ان تحكمت فيهم العناصر الأجنبية (١) :

واها على دولة بالأمس قد ملأت جوانب الشرق رغدا من أياديها

والله ملقا لها قدما وكاد لها واجتث دوحتها ألا مواليها

لو أنها في صميم العرب قد بقيت لما نعاها على الأيام ناعيها

وهكذا استمرت المشاعر القومية في نفوس الشعراء على نطاق شامل ، وأخذت فكرة العروبة تشق طريقها بقوة في الشعر الحديث ، حتى غدت مبدأ يدين به الأدباء وعقيدة يعتنقونها وينافحون عنها .. من ذلك ما نجده في قصيدة تصدى بها الرصافي لشكري غانم وبعض اللبنانيين الآخرين الذين لم يتورعوا عن اعلان تبرئهم من العرب والعروبة (٢)

وهل حسبوا ان العروبة في الورى من العار حتى انكروا ذلك العرا

بل غدت العروبة هدفا مقدسا يستعذب الموت في سبيله ، كما قال أبوريشة في صدد اشادته بنضال بلاده (٣) :

هل ترى فوقها سوى كل حر يقحم الموت في سبيل العروبة

وكان أول ما خاضه الشعر المعاصر الذي بشر بفكرة العروبة تلك المعارك الجدلية على الصعيد الفكري والعاطفي ضد الطائفية الدينية المتعصبة والنزعات الاقليمية المنحرفة . ومع أن معالم الطائفية والتعصب كانت أوضح في لبنان منها في سائر بلاد العرب بنتيجة عوامل استعمارية ورواسب اجتماعية ، فمن الحق أن نقول أيضا (كما سيتضح بالتفصيل في فصول قادمة) أن شعراء لبنان ونخص المسيحيين منهم الذين عاشوا في المهجر كانوا حربا شديدة على هذا الانحراف القومي فقد اتخذوا من القومية العربية عقيدة لهم وراحوا يبشرون بها بحرارة وايمان ، وفي ذلك يقول محبوب الخوري الشرتوني (٤)

---

(١) الديوان ج١ ــ ٧٧ (٢) الديوان ٤١٧

(٣) الديوان طبعة العصر الجديد ١٦٠

(٤) الديوان ٨٢

قالوا تحب العرب قلت أحبهم ... يقضي الجوار علي والأرحام
قالوا لقد بخلوا عليك أجبتهم ... اهلي وان ضنوا علي كرام
قالوا العداوة قلت أطهر عنصر ... صفت القلوب هناك والأجسام
ومحمد بطل البرية كلها ... هو للأعارب اجمعين امام

فالشرتوني يعتز بالرسول محمد اعتزاز المسلمين به ويعده القائد الأول للعرب كافة .. كما يعتز الشاعر المقروي بعروبته ويبلغ في ذلك حد التقديس (١)

اني على دين العروبة واقف ... قلبي على سبعاتها ولساني
انجيلي الحب المقيم لأهلها ... والذود عن حرماتها فرقاني

ولاريب أن غلبة روح الجدل والمنطق على الفكرة القومية لدى شعراء لبنان في أوائل عهدها واتسامها بطابع التحدى في بعض الأحيان يعود الى وجود بؤر تنكر العروبة كما تبين لنا ذلك في حديثنا عن النعرة الاقليمية ، ولذلك قل أن نجد هذه الظاهرة في الشعر القومي لدى شعراء سائر الأقطار العربية .. وهذه المرحلة من نشوء الفكرة القومية أمر طبيعي في الشعر الحديث شأن كل دعوة جديدة تحاول ان تشق طريقها الى الأذهان ، ولنا في الدعوة الاسلامية خير مثل على ذلك نلمسه جليا في سور القرآن المكية وفي خطاب الرسول عليه السلام ومواقفه .

ومن أطرف ما سجله الشعر المعاصر من مظاهر ازدهار الفكرة القومية وتعاظم شأنها ، أن عددا من الشعراء حاولوا أن يطبعوا الأنبياء المرسلين بالطابع القومي فضلا عن رسالتهم الدينية والانسانية المقدسة . من ذلك مثلا قول أبي الفضل الوليد (٢) :

كان الرسول حجازيا بمولده ... فشرف الشام لما زار غسانا
وكان عيسى شآميا فما وطئت ... رجلاه أرباض يونان وروما نا

---

١)= الديوان ٤٢١
٢)= الأنفاس الملهبة ١٣٢

وقد رأينا الشاعر القروي أيضا ينظم قصيدة قومية يناجي فيها السيد المسيح ويعتبره "السوري الأعظم" ثم يقول[١] :

انت يا ابن الله سوري صميم أفناس ياترى أم تتناسى

xxx xxx

وبعد أن تخف وطأة التأثر والاقتداء بالقوميات الأخرى ، وتنحسر موجات الطائفية والاقليمية عن المجتمع العربي ، يتخلص الشعر المعاصر من تلك الظواهر السلبية ، ويتجه الشعراء الى ابراز المقومات القومية بروح ايجابية بناءة ويأخذون دورهم القيادي في الدعوة الى الفكرة القومية السليمة على أسس وطيدة مستمدة من طبيعة أمتهم العربية ومستوحاة من النظريات الاجتماعية والمفاهيم الفكرية الحديثة ٠

وهذه الأسس والمقومات التي حام حولها الشعراء وجعلوا منها محور مضمونهم الشعري تتركز في النواحي التالية :

النسب العربي — اللغة العربية — الماضي المشترك — الآلام والآمال المشتركة — الوحدة العربية ٠

وهذه ليست في جوهرها الا العناصر الرئيسية للاتجاه القومي في الشعر المعاصر ٠

---

(١) الديوان ٤٣٩

الفصل الثاني

وحدة الأصل

يعتبر العرب من أشد الأمم تمسكا بالأنساب ورعاية لها ٠ وقد تجلت هذه الظاهرة بشكل بارز في أدبهم القديم وبخاصة في شعر الحماسة والفخر ٠

ويبدو أن تلك الظاهرة سرت الى العرب المعاصرين فحاولوا بعثها بشكل جديد في أمتهم باعتبارها احدى الروابط القومية التي تشيع الثقة والاعتداد في نفوسهم وتوحي اليهم بأنهم أحفاد اولئك الأبطال الذين حملوا شعلة الحضارة قرونا مديدة ، وكانوا سادة العالم في القرون الوسطى ٠

وربما كان الشعر في مقدمة الفنون استجابة لابراز رابطة النسب القومي والاعتزاز بوحدة الأصل ٠ وقد رأينا ان عددا من القصائد التي عكست مظاهر في المجتمع العربي من نزعات قومية ضيقة كانت ترتكز في جوهرها على ايجاد رابطة قرابة وشيجة مع الفراعنة أو الفينيقيين أو سواهم ممن اعتبرهم بعض الشعراء أجدادا لهم ٠ والواقع ان طبيعة الاتجاهين واحدة سواء ما كان منها متعلقا بالانتساب الى العرب او بمن سبقهم من الأمم الغابرة ٠

ومن المسلم به علميا أن النسب المادي الدموي مع الشعوب القديمة والأجناس الأصلية لم يعد له اليوم وجود بين البشر نتيجة التمازج الكبير الذي تم بينهم على مر العصور ٠ وعلى هذا ليس من أمة تستطيع اليوم أن تدعي لنفسها قرابة صافية مباشرة مع عرق من العروق أو شعب من الشعوب ٠ وليس ذلك مما يضير الشعور القومي في شيء لأن النسب المعنوى كثيرا ما يفوق النسب المادى بين الجماعات ٠ وقد رأينا الشعوب الناهضة تشيد كيانها وتبعث قوميتها بالاعتماد على الأواصر الثقافية والروحية والتاريخية ٠

ومع ذلك فأننا مازلنا نرى عددا ولو ضئيلا من الشعراء المعاصرين ينهجون نهج القدماء في الاعتماد على رابطة النسب الحقيقي من بينهم مثلا الشاعر المصري محمد عبدالمطلب الذى

" كان عربي النشأة والمولد والهيئة معتزا بنسبه هذا كل الاعتزاز ..
وكان شديد العصبية لسلف هذه الأمة وقوادها وعلمائها وشعرائها ومؤلفيها "(١) وهو يرجع بنسبه الى جهينة ويتيه بها في شعره اذ يقول(٢) :

وأنا ابن الصيد من انكرني ... ينكر الليث اذا ما انتسبا
من أبيين كرام ضربوا ... فوقها خيام العلا قببا
وكفاني من فخاري نسبة ... جمعت في طرفيها العربا

وهذا علي الجندي ينسج أبياته على هذا المنوال ويزهى بنسبته العريقة الى العرب فيقول(٣) :

بني الجزيرة تهفو نحوكم كبد ... تهوى على الجمر القيصوم والضالا
لست الغريب فلي قربى ولي نسب ... الى ربيعة ماحالت ولا حالا
ان كان كندة اعمامي انيه بهم ... فأن لي في بني شيبان أخوالا

وليس هذا التفاخر من باب المجاز لأن الشاعر نفسه يعلق على ذلك مؤكدا أن آباءه كنديون وأجداده لأمه من بكر وائل من ربيعة . ومع أن شعراء آخرين منهم محمد العدناني في فلسطين وبعض الشيعة في العراق كانوا حريصين على عقد روابط مماثلة مع آل البيت أو مع سواهم من العرب الأقدمين فأن هذه الظاهرة تبقى محدودة في الشعر المعاصر لاتعدو النطاق الفردي ، وهي بالتالي لاتصلح لأن تكون رابطة قومية اجتماعية تشمل العرب جميعا .

وكل اشارة في الشعر المعاصر الى الأجداد أو الأحفاد لاتعدو أن تكون رابطة معنوية برغم ظاهرها المادي كقول حافظ ابراهيم عن سورية ومصر(٤)

أم اللغات غداة الفخر أمهما ... وان سألت عن الآباء فالعرب

أو قول محمود غنيم(٥) :

---

(١) عمر الدسوقي : في الأدب الحديث ٢ : ٣٠٦
(٢) المصدر السابق ٢ ـ ٣٠٨ (٣) اغاريد السحر ١٣٥
(٤) الديوان ١ ـ ٢٦٨ (٥) الديوان ٩٧

ان تسألوا عني الى من انتمي   فالى رعاة النوق والأغنام

وحين يقول محمد على الحوماني مثلا عن السوريين انهم : (١)

عرب الأحساب والدهم   يعرب والجد قحطان

فهو يتحدث في حقيقة الأمر عن نسب جماعي استدعته الروح القومية المتوثبة ، وليس جعل (يعرب) والدا و (قحطان) جدا الا تعبيرا أريد به مدلوله الواسع والرابطة المعنوية .
اذ ان يعرب وقحطان برغم الشك في ثبوت وجودهما التاريخي أصبحا في مخيلة الشعراء مجرد رمز للأصل العربي العريق .

وشبيه بذلك ما قاله أبو ماضي، وقد أشار الى انتساب العرب الى قحطان وما يقابل ذلك من انتساب الترك الى جنكيزخان : (٢)

ومن كان قحطان أباه فانه   "له الصدر دون العالمين او القبر"

وان بني قحطان اذ جد جدهم   لأعظم من ان يستنيم بهم حسر

أو ما قاله الشاعر العراقي أحمد رضا الهندي مستغيثا لفلسطين بقحطان (٣)

يالقحطان اين تلك الحمية   أين آثار روحنا العربية

وكثيرا ما كان الشعراء يعتبرون انفسهم ومواطنيهم أحفادا ليعرب او قحطان او عدنان كما فعل خير الدين الزركلي حين عمد الى استنهاض قومه لمقاومة دخول المستعمرين الى بلاده باسم الوصاية والانتداب (٤) :

اسليل يعرب طال منامك تربت   حتام تلبث لاهيا حيرانا

ان كنت من عدنان فاسلك نهجه   واذا جبنت فلست من عدنانا

ومن هذا القبيل ما نجده من شعر كثير نظمه الشعراء المعاصرون اعتزازا برابطة النسب العربي ووحدة الأصل كقول الصافي النجفي : (٥)

---

١)) الديوان ٢٨   ٢)) زهير ميرزا : ايليا ابوماضي شاعر المهجر الأكبر ١٩٩

٣)) الفلسطينيات ٣١

٤)) الديوان ٥٥   ٥)) ألحان اللهيب ٩٣

أنا عربي وحسبي بهذا جوابا يحطمه سائلي
فآبائي الصيد من هاشم وأخوالي الغر من (عامل)(١)
ولي نسب جال في الكائنات ومن عاهل سار في عاهل

أو مانجده في قول أبي المفضل الوليد مشيرا الى المقرابة بين أهل الشام والعراق : (٢)

الشام أخت للعراق وفيهما نور العروبة للضليل الناشد
اهلوهما ابناء عم كلهم عرب بآداب لهم وعوائد

وكذلك نجد من هذا المقبيل قول محمد عبدالغني حسن (٣)

هي العروبة قربى بيننا وكفى أنا الى العرب الأحرار ننتسب

فالمقرابة في جميع هذه الأبيات اقرب الى ان تكون رابطة معنوية برغم مايؤثره الشعراء من عبارات النسب الحقيقي ، ومايجرون عليه من اطلاق الألفاظ التي تشير الى قرابة الدم والتي تتردد في نطاق الأسرة الواحدة من نحو اعتبار قحطان أو عدنان او يعرب جدا أو أبا للعرب وكون هؤلاء احفادا أو أبناء لهم ، أو نحو اعتبار الشعوب العربية اخوة أو اشقاء أو أبناء عم ٠٠ الخ

ويعتبر الياس فرحات من أشد الشعراء حرصا على استمرار وحدة الأصل في شبان الجيل الجديد من عرب المهجر الذين فشا فيهم داء التفرنج والأعراض عن العروبة وأبرز ماقاله في هذا الموضوع قصيدة اسماها " نحن عرب وأولادنا افرنج " ويقول فيها : (٤)

لاتقولوا مالنا والعرب كي تضربوهم مثلا يا شعراء
انهم أجدادنا بالرغم من قائل انا من العرب براء

---

١)) عامل : جبل في لبنان اكثرية أهله من الشيعة وأصل الكلمة عاملة وهي قبيلة نزلت في تلك المنطقة فعرفت بهذا الاسم ٠ والنجفي شاعر شيعي المذهب ٠

٢)) نفخات الصور ٥٦ ٣)) من نبع الحياة ٩١

٤)) الديوان ١٩٧

انهم أجدادنا ان شرفوا ... أو دنوا فالدم لايصبح ماء
هبهم الشوك فهل من وردة ... تنكر الشوك لترضي الكبرياء

وليس من المعتقد ان الشاعر يعني في بيته الثالث بأن القرابة بين العرب المعاصرين واجدادهم القدماء تقوم فعلا على رابطة الدم . اذ المرجح أنه اراد بذلك مجرد قوة ارتباط العرب بأسلافهم ، كما أن المثل الشائع الذى مفاده (أن الدم لايصبح ماء) هو الذى أملى عليه هذا التعبير على الصعيد العربي الشامل ..

وقد لقى المسيحيون العرب في بعض الظروف والبيئات شيئا من الحرج بسبب اختلاط الاسلام بالعروبة في الأذهان وكان المستعمر يزيد الأمر تعقيدا عن طريق بذر بذور الطائفية وايهام المسيحيين في لبنان وبخاصة (الموارنة) بأنهم ليسوا من العرب ، وكان جميلا ان تتغلب النزعة القومية الأصيلة على هذه الأباطيل ، بل كان أجمل من ذلك أن نرى الشعراء المسيحيين أنفسهم أمثال القروى في طليعة المعتزين بالعروبة واوائل دعاتها من امثال رشيد سليم الخورى والياس فرحات ، وفارس الخورى ، والأخطل الصغير ونقولا فياض ، ومحبوب الشرتوني ووديع البستاني ونصرة سعيد وكثيرين غيرهم ، وفي ذلك يقول واحد منهم هو اسكندر الخورى البيتجالي (١)

قبل المسيح وأحمد ... كنا ومازلنا عرب
كانت ومازالت لنا ... اوطاننا أملا وأب
لادين يجمعنا سوى ... دين المحبة والنسب

فهو يعلو بالرابطة الوطنية والقومية على كل رابطة سواها

ولايخفى أن الغساسنة مثلا كانوا من القبائل العربية التي احتفظت بمسيحيتها وعرفت بصدق عروبتها وأصالتها ، وأن المسيحيين في لبنان كانوا بناة النهضة العربية الحديثة .

---

(١) المنقود ٦٢

ومهما يكن من أمر وحدة الأصل العربي للعرب المعاصرين وسختها المادية أو المعنوية ، فقد حظيت من الشعراء المعاصرين باهتمام كبير كان عاملا لامندوحة عنه في بعث الشعور القومي الكامن في النفوس،واحكام أواصر القربى بين الأحفاد والأجداد .

وربما كان الشعر العربي قديمه وحديثه فريدا في هذا الأمر الذى تجلى من خلاله حرص العرب على النسب العربي ووحدة الأصل القومي ..

اللغة المشتركة

ورد في تاريخ ابن عساكر الحديث التالي للرسول عليه السلام :
" يا أيها الناس ان الرب واحد ، والأب واحد ، ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وانما هي اللسان فمن تكلم بالعربية فهو عربي " .

وهذا الرأي ينسجم مع النظرية الحديثة للقومية ، التي تجعل رابطة اللغة في رأس مقومات الأمة . والواقع أن أمما عديدة اعتنقت الاسلام وكانت العقيدة الدينية قاسما مشتركا بينها جميعا . ولكن الصفات المشتركة للأمة بقيت مقصورة على البلاد التي تتكلم العربية ، في حين احتفظت سائر الأمم الاسلامية كالأتراك والفرس والهنود بقومياتها الخاصة أيضا تبعا لاحتفاظها بلغاتها .

واللغة وسيلة للتفاهم توثق العلاقات الاجتماعية بين الأفراد ، وتقرب بين مفاهيمهم وأنماط تفكيرهم ، وتحمل اليهم تراث الأجداد ، وتودع في تعابيرها سماتهم المميزة ووجدانهم الجماعي المشترك . وقد قدم لنا التاريخ أمثلة كثيرة على اندثار أمم أو انصهارها في أمم أخرى نتيجة اندثار لغاتها أو اقتباسها لغات أجنبية عنها ..

وقد فطن الشعراء في هذا العصر الى أهمية لغتهم في حفظ كيانهم القومي وبعثه ، وهذا أبا الفضل الوليد يعتبر بقاء الأمة رهنا ببقاء لغتها اذ يقول (1) :

ان الشعوب حياتها بلغاتها ... ومماتها الأهمال والنسيان
هي مظهر الأرواح منا فاحفظوا ... ارواحكم وشعوركم برهان

وما من ريب في أن التعاطف بين المتكلمين بلغة واحة يكون أقوى وأشد ولو كانوا أمتين مختلفتين . والاستعمار يدرك هذه الحقيقة ويحارب اللغة القومية ويحرص لفرض لغته على الأمم المستضعفة تمهيدا لدمجها به وابتلاعها .

---

(1) الانفاس الملهبة ١١٢ .

من ذلك ما تعرضت له العربية على يد الاتراك الاتحاديين في الشام والمفرنسيين في الشمال الأفريقي العربي .

- ١ -

ولعل أبرز معركة حقيقية في الشرق العربي خاضتها اللغة العربية على أساس كونها في مقدمة مقومات القومية العربية ، ثباتها أمام محاولات التتريك التي قام بها حكام الآستانة قبيل الحرب الكبرى وأثناءها . وكان التعرض للعربية في مقدمة الأسباب التي دفعت بالكثيرين من نبهاء العرب الموالين للعثمانيين الى أن ينفضوا من حولهم ومن أشهر هؤلاء الشيخ فؤاد الخطيب شاعر الثورة العربية والشيخ عبد الحميد الرافعي الذى يقول مفتخرا بلغته واشراق بيانها ومعرضا بمن يكيدون لها (١)

لغة بفضل جمالها وجلالها	شهدت شواهد محكم القرآن
قل للألى جهلوا مكانتها وقد	كادوا لها في السر والأعلان
عاديتم ما تجهلون ولم يصب	قدر المورود كراهة الجعلان
والله يأبى ان تذل فبشروا	من رام ذلتها بكل هوان

وقد صح ما تنبأ به الشاعر فكان الهوان نصيب من راموا اذلال العربية لأن الله يأبى ان تذل . ومن الملاحظ ان في هذه الأبيات غيرة شديدة على اللغة العربية صدرت عن بواعث دينية وقومية معا وهذا طبيعي لأنها لغة العرب ولسان القرآن الكريم . وهذه البواعث نفسها هي التي أملت على أمين ناصر الدين قوله (٢) :

نحن الألى بلسانهم قد انزلت	آي الكتاب وذلك الألهام

حين تصدى للرد على افتراءات جريدة اقدام التركية التي كان دأبها التنديد بالعرب ولغتهم . وفي ذلك يقول أيضا أبو الفضل الوليد

---

(١) أنيس المقدسي : الاتجاهات الأدبية ١ ـ ٩٨

(٢) الالهام ٩٣

ممتزا بلغة العروبة والاسلام (١)

كفاها أنها الله اصطفاها لقرآن تسبلي كالصباح

وقد عبر فؤاد الخطيب عن محنة اللغة العربية يومذاك فقال (٢)

جاروا على لغة القرآن فانصدعت له القلوب وضج البيت والحرم

فالقدس باكية والشام شاكية وفي الحجاز يكاد الركن ينحطم

بهذا المنظار الديني المقدس نظر عدد من الشعراء العرب وبخاصة في المراحل الأولى من تطور الشعور القومي الى اللغة العربية حين تعرضت لكيد الاتراك ، وقد اعتبروا الدفاع عنها دفاعا عن الاسلام أيضا ، ولم تكن مناصرتهم للغة العرب الا مناصرة للقومية في الوقت نفسه . ويمكن القول ان هذه الظاهرة اى المنافحة عن اللغة العربية تعتبر جديدة في الشعر القومي املتها سياسة الاتحاديين العنصرية الخرقاء .

ولاريب ان من أسباب بقاء العربية قوية راسخة على مر العصور ذلك الطابع المقدس الذى اتسمت به نتيجة ارتباطها بالدين باعتبارها لغة النبي محمد ، ولسان الدعوة الاسلامية والقرآن الكريم . وهذا مانجده واضحا في قول شاعر مثل علي الجارم في قصيدة يفتخر فيها بماضي العربية الزاهر (٣) :

تكلمت سور القرآن مفصحة فاسكتت صخب الأرماح والقضب

وقام خير قريش وابن سادتها يدعو الى الله في عزم وفي دأب

ولم تزل من حمى الاسلام في كنف سهل ومن عزه في منزل خصب

أما الجانب القومي المحض في اللغة العربية فيبدو في كونها لغة العرب القدماء منذ ماقبل الاسلام وحاملة تراثهم ومعقل قوميتهم ، ومن هنا كانت السمة الأولى التي تميز جميع العرب ممن سواهم مسلمين ومسيحيين . بل ان الجانب الأسلامي في لغة العرب لايمكن ان ينفصل عن الجانب القومي لأن الرسول نفسه

---

(١) الانفاس الملهبة ٨٣ (٢) الديوان ٢٥

(٣) الديوان ٣ ـ ٥٥

كان غيرنا قبل ان يبشر برسالته ولأن الاسلام كان دين العرب ،
وهم الذين حملوه الى العالم كما أن القرآن كتابهم الأول وحصن
لغتهم الأكبر .

وقد اتسم الدفاع عن العربية باعتبارها احدى المقومات
القومية الأساسية ، بمظهر آخر في مصر حيث خاض الشعراء
معركتها ضد التغريب والتحلل منذ أواخر القرن التاسع عشر .
فقد تفشت بين بعض الشبان المصريين بتشجيع من المستعمر
وأقلامه المسمومة روح الازدراء للغة العربية ولكل ما هو عربي ،
فراحوا يشيدون بأفضلية لغات الغرب ويتماهون بنبراتها وزعموا ان
العربية الفصحى آيلة الى الاضمحلال وليس بوسعها ان تساير روح
العصر وحضارته وأن الأجدر اتباع اللهجات العامية ودعمها لأنها
لغة الحياة (١)

ويعتبر مصطفى صادق الرافعي في طليعة حماة العربية في
نثره وشعره ومن بعض ما قاله في هذا الموضوع قصيدته
" اللغة العربية والشرق " يقول فيها

أم يكيد لها من نسلها العقب	ولا نقيصة الا ما جنى النسب
كانت لهم سببا في كل مكرمة	وهم لنكبتها من دهرها سبب
كان الزمان لنا واللسن جامعة	فقد غدونا له والأمر ينقلب
اذا اللغات ازدهت يوما فقد ضمنت	للعرب اي فخار بينها الكتب

ثم يتندد محمود غنيم بالذين بهرهم كل ما هو غربي وتنكروا لقوميتهم
ولغتهم ، فلم يعودوا لا شرقيين ولا غربيين وذلك في قصيدة اسماها
" قومتي بين الشرق والغرب " قال فيها (٢)

أبناء عمي من نزار ويعرب	ليسوا بأعراب ولا أعجام
لا تأمنوا المستعمرين فكم لهم	حرب تقنع وجهها بسلام
حرب على لغة البلاد وغاذها	ليست تشن بمدفع وحسام

---

(١) انظر تفصيل ذلك في كتاب محمد حسين الاتجاهات الوطنية ٢
منذ ص ٢٣٥ وما كتبه سلامة موسى في اواخر كتابه " اليوم والغد "
(٢) الديوان ٩٧ ـ ١٠١

لا أعرف المزبى يلوى فكه | أن هم يوما فكه بكلام
أن فتاة تسمع لكنة ممقوتة | من فيه (سكسونية) الأنغام
لفظا من الفصحى وآخر نابيا | كالمقا و ممزوجا بكأس مدام
لن يستعيد العرب سالف مجدهم | ولسانهم غرض لكل سهام
ان يرفعوا ما انقض من بنيانهم | فالضاد أول حائط ودعام

والجديد في هذه الأبيات التي نظمت على أثر استفحال موجة التحلل والميوعة بين الشبان في أعقاب الحرب الأولى ، أن الشاعر استطاع أن يدرك حقيقة مرامي الحملة على اللغة العربية ، وأنها كانت جزءا من أساليب الاستعمار وحربهم المقنعة ضد العرب ولغتهم .

وقد قارن علي الجارم بين ماضي العربية الزاهر وما تعانيه في حاضرها من كيد ثم حمل بشدة على هذه الزمرة اللئيمة فقال : (١)

وعاثت العجمة الحمقاء ثائرة | على ابنة البيد في جيش من الرهب
يقوده كل ولاغ أخي أحن | مضمخ بدماء العرب مختضب

ومن الواضح أن سبب هذا المدفاع الحار عن اللغة العربية من قبل الشعراء والكتاب لا يقتصر على كونها لغة القرآن ووسيلة نقل التراث التليد فحسب ، بل يتعدى ذلك الى كونها أقوى رابطة تشد العرب بعضهم الى بعض ، وتجعل منهم أمة قومية تتبوأ مكانها على وجه الأرض ، فالتحول عنها الى لغة أخرى او استبدال اللغات العامية بها كان يعني في حقيقة الأمر فقد أقوى الأواصر القومية ، وبالتالي انهيار المجتمع العربي او انصهاره في مجتمع آخر ، او تفتته الى مجتمعات عديدة تتباين لهجاتها العامية مع الزمن حتى تتقطع بأهلها آخر الأمر أواصر النسب ..

ولعل هذه الغيرة على اللغة العربية التي تجلت لدى

(١) الديوان ٣ ـ ٥٥

شعراء مصر بالدرجة الأولى كانت من أهم الأسباب التي حفظت لذلك القطر عروبته وعصمته من النزعات المتطفلة ، ولم يكن يضارع هذه القصائد حرارة وغيرة على العربية الا ما دبجته أقلام مصطفى صادق الرافعي ومي زيادة واحمد حسن الزيات ومصطفى لطفي المنفلوطي واسعاف النشاشيبي وسواهم في هذا المضمار .

وكأن مصر قد عوضت بذلك عن بطشها - خلال فترة من تاريخها الحديث - في المضمار القومي فهي منذ المقدم ملاذ الفصحى . « ولما كانت وحدها تمتاز عن بلاد العرب الأخرى في أواخر العهد العثماني بكون اللغة العربية فيها اللغة الرسمية ، في حين كانت التركية هي اللغة الرسمية حتى في الولايات العربية فقد كان العرب يتطلعون الى مصر ويغبطونها على هذه النعمة ويبجلون انفصالها عن الدولة العثمانية الذي اكسب اللغة العربية ما تستحقه من المكانة ، وقد ظلت بعد الحرب الأولى في نظر العرب كعبة الفصحى ومحجة الفكر والأدب في العالم العربي » (١)

وقد وجد عرب المهجر في تلك البيئة الأعجمية التي قدر لهم أن يعيشوا فيها ، وضعا مشابها لما كانت تعانيه لغتهم القومية في المشرق، فناضلوا عنها بقوة وايمان على الرغم من ضعف وسائلهم وقلة عددهم وقسوة ظروف الحياة عليهم. وثمة ابيات لايليا ابي ماضي تنعى على النشء العربي الجديد في المهجر تفرنجه وتحلله من روابط قوميته منها قوله (٢)

وصلتنا بذوينا لغة	لم تصلنا بيننا الظرفاء
كل حيوان حقير عالم	بلغاه وبنونا جهلاء
ان تقل قولا فصيحا بينهم	ردوه بلسان البغضاء
ومانوا تحدجنا أعينهم	وعلى الثغر ابتسامات ازدراء

---

(١) انظر ساطع الحصري : آراء وأحاديث في القومية العربية ١٣ - ١٤

(٢) الديوان ١٩٧ .

خالطوا العجم فصاروا مثلهم　　دأبهم للعرب اضمار العداء
نحن غرقى في خضم انمــا　　لغة الضاد سفين للنجـاء

وكان في طليعة مظاهر حنين المهجريين الى ارض وطنهم شوق الى العروبة يبرى أجسامهم ويجعلهم شديدى الاحساس بغربتهم . فالشاعر القروى لاتسليه تلك الجموع الغفيرة التي تضطرب حوله ولا المدن المحتشدة بأهلها لأنه لايسمع منها انغام لغته العذبة لغة الأم والأهل والوطن فهو يقول : (١)

حولي اعاجم يرطنون فما　　للضاد عند لسانهم قـدر
ناس ولكن لا أنيس بهم　　ومدينة لكنها قفـر

ومن الطبيعي ان يكون افتقاد المهجريين لغة الوطن في تلك البلاد الغريبة من أقوى اسباب حرصهم على الأبقاء عليها ، ولهفتهم على سماع نبراتها الشجية . ومن أطرف ما قاله الشاعر القروى معبرا عن هواه في حب العربية ، تلك الأبيات في متفرنج عربي (٢) :

أضحك ما يضحكني ، مستعجم　　يبغي بلغة يسبهـا
وحقّها ان لم اكن أحببه　　سامحته لأنني أحبها (٣)

— ٢ —

وهذا الشأن الكبير الذى كان للغة العربية في نفوس الشعراء بشكل خاص هو الذى حدا بهم الى التفاخر والمباهاة بها ، باعتباره أبرز مظهر ينم عن عروبتهم . ولعل ذلك يعود الى طول صحبتهم لها ، وغوصهم على أسرارها حتى غدت جزءا حيا

---

(١) انظر جورج صيدح : أدبنا وادباؤنا في المهاجر الامريكية ٢٥

(٢) الديوان ٣٩٠

(٣) هذا الموقف من القروى اشبه شيء بما أورده أحد نقادنا القدماء عن ظاهرة اجتماع المتعة الفنية بالألم النفسي ، حين ذكر قصة عربي كان يستمع الى شاعر يهجوه ، فقد أخذته النشوة لجودة القصيدة واستبد به الألم لوطأة معانيها على نفسه

من كيانهم ووجودهم يطربون لنبراتها وينتشون بجرس ألفاظها ، من ذلك ما قاله أمير الشعراء شوقي (١)

ان الذى ملأ اللغات محاسنا   جعل الجمال وسره في الضاد

ومن ذلك أيضا ما قاله عبد الحميد الرافعي (٢)

شغف بذكر مفاخر العربان   سمعي وأنعش خاطرى وجناني

أما أبو المفضل الوليد فقد كاد هيامه باللغة العربية يبلغ مرتبة الوجد اذ قال (٣)

ألا ياحبذا لغة تصبت   فؤادى في الغدو وفي الرواح

اذا لفظت كألحان المثاني   وان خطت كأزهار الأقاحي

بها كتبت صحائف خالدات   فما صرف الزمان لها بماحي

طربت لسمعها طفلا واني   لتطربني وقلبي لا نفتاح

ويمكن أن نرى شبيها بهذه الروح روح الزهو والاعتداد في أرجوزة شوقي (دول العرب وعظماء الاسلام) (٤) ، التي اشاد في أولها باللسان العربي ودوره في اقامة الحضارة العربية ، كما اشاد خلالها بفصاحته ، وكيف أن الله اختاره لكتابه . وقد توسع شوقي في مفهوم اللغة العربية وأوردها بمعنى تراث العرب وثقافتهم ، ولكن لجوءه باستمرار الى حث القارئ على الاغتراف من معينها بعبارات من النوع الطلبي الانشائي جعل ارجوزته تلك اقرب الى المواعظ الباردة منها الى الشعر القومي الحار .

ويطول بنا الأمر لو رحنا نستقصي ما قيل في موضوع الاعتزاز بلغة العرب وبيانها المشرق ، ويكفي ان نشير الى أن هذه الظاهرة ليست في جوهرها الا مظهرا بارزا للاعتزاز بالعروبة نفسها باعتبار هذه اللغة اقوى أسسها وأهم مقوماتها.

وهكذا عبر الشعراء بتأثير ظروف وبواعث معينة عن مدى تعلقهم بالعربية ، باعتبارها مظهرا فعالا للشخصية العربية ،

---

(١) الشوقيات ١ : ١٢٩

(٢) أنيس المقدسي : الاتجاهات الأدبية ١ ـ ٩٨

(٣) الانفاس الملهبة ٨٣

(٤) م ن ٨

الا أن الجانب السلبي كان يغلب بصورة عامة على ما مر بنا من اشعار حول هذا الموضوع سواء ماكان منه دفاعا ومناضلة عن اللغة القومية او ماكان تنديدا وتقريعا لسرماتها والعاقين من أبنائها ، أو ماكان أخيرا مباهاة بأصالتها وتغنيا بسحرها وأعجازها .

- ٣ -

أما كون اللغة الضادية جامعة اللسان واحدى المقومات الرئيسية للشعور القومي ، والرابطة الاساسية بين الشعوب العربية ، فقد عبر الشعراء عن ذلك الجانب تعبيرا واعيا يفوق ماكان منهم تجاه المقومات الأخرى للقومية العربية .

ونحن نستشف في ديوان شوقي " دول العرب وعظماء الاسلام " ، تخطيطا مبسطا لعناصر القومية اذ وضع أمير الشعراء لغة العرب في رأس تلك العناصر ثم ثنى بالتاريخ المشترك ، ومع ذلك فأن الخمسين بيتا التي تحدث فيها عن لسان الضاد ، كما سبق لنا القول ، لايعدو فيها باب التفاخر والأشادة والحث على الاغتراف من ذلك التراث الثمين ، ولانكاد نجد في هذه الأبيات ما يشير الى الدور القومي الذى تقوم به اللغة الا قوله (١)

رب لسان جمع الأقواما وكان كالجنس لهم قواما

ونحن نجد في الشعر القومي عنصر اللغة مصاحبا عنصر العقيدة الاسلامية في بعض الأحيان كقول الرصافي (٢)

اذا القوم عمّتهم أمور ثلاثة لسان واوطان وبالله ايمان

فأى اعتقاد مانع من أخوة بها قال انجيل كما قال قرآن

ويعود الرصافي الى ذكر عنصر العقيدة الدينية مقرونا بآصرة اللغة في قصيدته " بين تونس وبغداد " (٣)

---

(١) ص ٩ (٢) الديوان ١٣١

(٣) الديوان ١٣٤

أتونسان في بغداد قوما ترف قلوبهم لك بالسوداد
ويجمعهم وإياك انتساب الى من خص منطقهم بضاد
وماضي العماد اذا تدانت أواصر من لسان واعتقاد

ولكن آصرة اللغة في تكوين الشعور القومي بدأت تستقل بنفسها في الشعر المعاصر مع تتابع الأيام لأسباب عديدة منها انهيار نظام الخلافة العثماني وتأثر الشعراء بالنظريات الاجتماعية ونظم الدول الأوربية التي كانت جميعا تتناول المسائل القومية في معزل عن الدين . وتبدو هذه الظاهرة الجديدة بطبيعة الحال لدى الشعراء المسيحيين الذين لا يستشعرون سوى العروبة ولغتها رابطة تجمعهم مع العرب المسلمين . وهذا حليم دموس يشيد بدور اللغة في بناء كيان الأمة فيقول (١)

وأنتم يا بني قومي أناشدكم بعين به عز انجيل وقرآن
صونوا حمى اللغة الفصحى فليس لكم
من دونها وطن يحلو له شان

وهو يرى بحق ان اللغة العربية هي الرابطة الكبرى التي تؤلف بين المتكلمين بها على اختلاف عقائدهم اذ يقول عنها (٢)

ستظل رابطة تؤلف بيننا فهي الرجاء لناطق بالضاد

كما يصدر عن ذلك أبو الفضل الوليد (٣)

ما بيننا نسب فيه لنا شرف وهذه اللغة الزهراء برهان
عيسى وأحمد في بلواهما اجتمعا والناطقون بحرف الضاد اخوان

وكان من اجمل ما قاله أنيس الخوري المقدسي (٤)

ان فرق الأيمان بين جموعنا فلساننا العربي خير موحد
قربت به الأقطار وهي بعيدة وتوحدت من بعد فت في اليد

وبرغم عزوف فوزي المعلوف عن الشعر القومي وايثاره العيش في جو رومانسي حالم فانه لم يكن معزولا عن شئون الحياة

---

(١) المثالث والمثاني ١٤٤
(٢) المثالث والمثاني ١٣٢
(٣) الانفاس الملهبة ٧٥
(٤) الاتجاهات الأدبية ١ ـ ١٠٢

والمجتمع في فنه الرفيع ومما قاله في هذا الموضوع (١) :

فلنحي قومية كانت لنا نسبا | يضم اشتاتنا ماقاتنا النسب
تالله لانرتقي الا متى اتحدت | تلك المآذن في الأوطان والقبب
ولنستعد لغة الضاد التي دعيت | ام اللغات شبابا برده قشب
ان لم نكن كلنا في اصلنا عربا | فنحن تحت لواها كلنا عرب

كل هذه الأبيات والمقطوعات تنم عن ادراك قومي سليم واجلال لشأن اللغة وأهميتها في احكام عرى الوحدة بين العرب على اختلاف عقائدهم . وفي مقابل هذا الشعور القومي المفياض نجد قصائد كثيرة مماثلة مما نظمه سائر الشعراء العرب من المسلمين الذين حرصوا بدافع من تسامحهم الديني على ابقاء اللغة عنصرا قوميا مستقلا عن عنصر المقيدة الاسلامية في المضمار القومي وهذا معروف الرصافي يرى ان لغة الضاد اكبر جامعة للعرب على اختلاف عقائدهم فيقول (٢) :

وتجمعنا جوامع كبريات | واكبرهن سيدة اللغات

وهذا مصطفى الغلاييني أيضا يقول وقد عاش في بيئة لبنان ذات الحساسية الطائفية (٣) :

مافي الديار وان لجوا سوى عرب | من عهد آدم سل آثارهم تجب
ان فرقتهم ديانات فقد جمعت | أهواءهم لغة الأجداد في سبب

وقد عني الشعراء في الشام والعراق بصورة عامة بتوكيد عروبة مصر التي كانت تضطرب فيها نزعات شتى ، وهذا محمد الشريقي لايفوته في ابان الثورة السورية ان يلتفت الى مصر ويخاطب زعيمها (٤)

يارمز مصر وحسب العرب جامعة | هذا اللسان وتاريخ به العظم
ان العروبة يازغلول قاعدتنا | فاجهر كما جهر الاتراك والعجم

---

(١) الديوان ٣٠
(٢) الديوان ٥٦٥
(٣) الديوان ١٠٠
(٤) ديوان الثورة ٤٠

واصدد يديك وصافح كل من نطقوا بالضاد يقبل عليك القوم كلهم
يامصر ياكعبة المفصحين وموئلها لأنت للشام في آمالها حرم

فرابطة اللسان تستأثر باهتمام الشاعر ويرى فيها خير جامع لشمل العرب .

وعندما استفحل خطر النعرات التي ترمي الى سلخ مصر عن عروبتها هب شفيق جبري يدافع عن تلك الروابط القومية المشتركة التي تتمثل في اللغة العربية وآدابها ، وتشد العرب بعضهم الى بعض ولو كانوا منتشرين في أقاصي الأرض . ومما قاله وكان في مناسبة تكريم حافظ ابراهيم في دمشق (١)

تضمنا لغة لم يمح رونقها زحف السنين بآلام واشجان
لولا قوافي بوادي النيل ننشدها في غوطة الشام او في أرز لبنان
لقطعت بيننا الأرحام واضطربت بنا الوساوس في وصل وهجران
لكن مصر وان هشت وان عبست ركن العروبة للقاصي وللداني

ولم تلبث الأصوات الناشزة في مصر أن خفتت وانحسرت موجة الاقليمية عن عروبة راسخة ، وكان صدور مجلة الرسالة مظهرا لازدهار الاتجاه القومي في مصر ، وحين أهل عليها عام جديد أشاد محمود غنيم بدورها في تقريب الأفكار بين العرب فقال (٢)

مشت مثل جان داراك بين العرب تشد عراهم بأقوى سبب
تبشر بالضاد بين بنيها وأكرم بحرمة هذا النسب
وما وحد الجمع مثل اللسان ولا اتحد الجمع الا غلب
اذا اتحد الفكر في معشر تجمع من شمله ما انشعب
قد انتظمت امم الضاد طرا فكانت كعقد وكانوا كحب
فذا كاتب من اعالي الفرات وذا من دمشق وذا من حلب

واذا كان الشاعر يجمل اللغة والتفكير في صعيد واحد فلا يفرق بين أمر الاتحاد في اللغة والاتحاد في التفكير فانه محق لأنه

---

١)) ذكرى الشاعرين ، ١٩١ ٢)) الديوان ٢٢٨ ـ ٢٣٠

لأن اللغة في الواقع تجريد للأفكار . وكما قال أحد علماء الاجتماع "ان التفكير هو التكلم سرا والتكلم هو التفكير جهرا "

أما بدوي الجبل فيرى في لسان الضاد الجامعة الكبرى لشعوب العرب وخير عاصم لكيانهم القومي تجاه الدخلاء الغاصبين (١)

كل الربوع ربوع العرب لي وطن ما بين مبتعد منها ومقترب
للضاد ترجع أنساب مفرقة فالضاد افضل أم برة وأب
تفنى العصور ويبقى الضاد خالدة شجى بحلق غريب الدار مغتصب

وقد أشاد خليل مطران بفضل هذه اللغة في اقامة صرح جامعة الدول العربية فقال يخاطب زعماء العرب (٢)

يا سادة العرب من صيابة نجب أوتوا الرياسات او ارباب تيجان
تضمهم في سبيل الضاد جامعة كل بها لأخيه خير معوان

وهكذا يتضح لنا ان رابطة اللغة حظيت في الشعر المعاصر بمكانة كبيرة على الصعيد القومي ، وكانت في نظر الشعراء العلاج الفعال للطائفية المذهبية والتعصب الديني ، كما كانت الجامعة للشمل المبدد ، والطريق الطبيعي المؤدي الى وحدة العرب ، وأخيرا الدرع الواقي من النزعات المنحرفة ومن شر كل معتد أثيم ..

---

(١) الديوان ١٧٣ (٢) الديوان ٤ : ٢٥٧

الفصل الرابع

الماضي المشترك

من طبيعة الأمم أنها في فترات نهوضها تلوذ بماضيها ، وتستوحي أمجادها السالفة ، وتعيش على نشوة ذكرياتها الغابرة . والنهضة العربية الحديثة شأنها في ذلك شأن النهضة الأوربية قبلها كانت ترمي الى بعث الماضي العريق ، واحياء التراث الغابر ، واستعادة الأمجاد السالفة . وقد قيض للعرب ماض زاهر ، وحضارة راسخة الأصول بوأتهم مكانة مرموقة بين الأمم في تاريخ البشرية ..

ومنذ المقدم عرف العربي بروحه المحافظة وحرصه على الاحتفاظ بنسبه واعتزازه بتواصله . ولقد أخذ العرب في هذا العصر يعيرون تاريخهم وماضيهم اهتماما بالغا ، فهم اليوم انما يتوقون الى استعادة تلك العهود المشرقة وبعث الأمجاد الرائعة " وليس التاريخ عند العرب ماضيا بعيدا ميتا يستعيدونه عندما يشاؤون وينسونه عندما يريدون ، ويتدارسونه في مظانه عندما تدفعهم الحاجة الى حفظه وتذكره ، بل هو بينهم شديد القرب منهم بحيث يمكن أن يقال ان العرب يعيشون تاريخهم . وفي الحقيقة انهم يذكرون أمجادهم ويحسونها كأنها جزء عضوي من وجودهم .. وكل عربي يعرف الكثير عن النبي محمد وعن عمر وعلي والحسين ومعاوية وخالد والرشيد وصلاح الدين وعنترة .. ويرفد التاريخ العربي القديم تاريخ الحركات الشعبية الثورية ، وتاريخ النهضة القومية في الآداب والعلوم منذ مطلع القرن التاسع عشر كما أصبح التاريخ المعاصر جزءا من التاريخ القومي للعرب ، يعتزون به ، ويتأثرون بسير أبطاله . "(1)

وهكذا كان التاريخ العربي الحافل قاسما مشتركا بين العرب ، ألف بين مشاعرهم في شتى أقطارهم المتباعدة ، " فقد واجهوا دائما مصيرا واحدا ، وأدوار الانحطاط والازدهار كانت تشملهم في

---

(1) نبيه أمين فارس ومحمد توفيق حسين : هذا العالم العربي
١٥ — ١٦

فترات واحدة ، وكان الخليفة في اغلب الأدوار واحدا . وحين وقعت البلاد تحت الحكم العثماني ، وقعت جميعها دفعة واحدة وحين انحسر عنها لاقت جميعها المصير الواحد ، وأصبحت فريسة للاستعمار . وعندما بدأت النهضة الحديثة في العالم العربي سارت في وقت واحد ، وفي اتجاه واحد ، وحين عزمت المقومية العربية على التحرر والاستقلال هبت في وقت واحد " (١)

= ١ =

كل هذه العوامل المشتركة التي سيطرت على ماضي العرب وعلى حضارتهم وتراثهم كان لابد لها من أن تؤثر في حاضرهم وفي حياتهم الراهنة . وأن تتجلى على ألسنة شعرائهم . والشاعر العربي الحديث بحكم قوة البعث القومي التي يعيشها وتبعا لثقافته الوثيقة الاتصال بتراث العرب وماضيهم كان أشد وعيا لعنصر التاريخ في المضمار القومي وأكثر لصوقا به . ونحن نجد في أبيات محمد الشريقي مايشير الى أهمية التاريخ العربي المشترك اعتباره الى جانب اللغة المشتركة عاملا اساسيا في تكوين الشعور القومي اذ يقول (٢)

يا ناطق الضاد ان جزت الشآم غدا عرج على مصر حيث المجد والكرم

وانزل هنالك بأخوان غطارفة ظلالهم مدها التاريخ والرحم

ثم يقول مخاطبا سعد زغلول

يا رمز مصر وحسب العرب جامعة هذا اللسان وتاريخ به المعظم

ولهذا نعتقد أن ورود لفظ (التاريخ) في بيتين متتالين على أنه عنصر فعال من عناصر القومية أمر عارض ساقته الصدفة ،

---

(١) انظر محمد منيف الرزاز : معالم الحياة العربية الجديدة .

(٢) ديوان الثورة ٤٠

اذ المرجح ان هذا الشاعر لم يكن – كما لم يكن سواه من الشعراء – في نجوة من التأثر بالنظريات الاجتماعية ، والابحاث القومية التي كانت ومازالت لها الحظوة في نفوس المثقفين . ومما يؤكد ذلك ورود عامل اللغة ثم عامل التاريخ مما في البيت الأخير وهما في نظر الباحثين الاجتماعيين دعامتا القومية .

وقد وعى الشعر المعاصر زبدة التاريخ العربي الحافل واستوحى أروع آياته من أمجاده السالفة التي رأى فيها حافزا قويا على النهوض ..

ويبدو ان هالة محببة الى النفوس ترتسم حول ذكريات الأفراد والأمم كلما اوغلت في المقدم ، وقد وجدت هذه الذكريات المتمثلة في ماضي العرب المجيد صدرا فسيحا في الشعر المعاصر ، اذ تغنى الشعراء بالعهود السالفة ما طاب لهم التغني ، ونفخوا الحياة في السنين الخالية ، وبعثوا الحرارة في الغابر التليد . وبذلك أسهموا اسهاما فعالا في تكوين الوجدان الجماعي المشترك للأمة العربية .

وكان مانظمه الشعراء في هذه الفترة من العصر الحديث شعرا كثيرا ، في مقدمته ماقيل في عظماء العرب وأعلام تاريخهم وعلى رأسهم الرسول محمد عليه السلام ثم خلفاؤه الراشدون ومشاهير خلفاء بني أمية والعباس وكبار القواد والفاتحين وعمالقة الفكر والأدب ..

ومن أبرز هذه القصائد ، النبويات لأحمد شوقي والعمرية لحافظ ابراهيم ، والعلوية لمحمد عبدالمطلب ، والخالدية لعمر أبي ريشة وصقر قريش لخيرالدين الزركلي ...
وكان اهتمام جماهير العرب بأمر هذه القصائد مظهرا من الاهتمام الجديد بفن السيرة بوجه عام ، ومن الحنين الى تلك النماذج البشرية الخالدة . اذ ليس مايهز الروح القومية مثل استعادة سير العظماء ، وكما يقول أنور العطار [(١)]

---

(١) في ظلال الأيام ١٠٠

نشوة الذكريات أفعل في النفس من نشوة ابنة العنقود
والبطولات شعلة الأمل الساطع في ظلمة الليالي السود

وكثيرا ما حرص الشاعر العربي في هذا الصدد على ربط الماضي بحاضر أمته وواقعها بدافع من غيرته القومية كما فعل عمر أبوريشة في قصيدته " محمد " التي جعلها مقدمة لملحمة النبي فهو يعمد ان يبعث في نفوسنا نشوة الماضي العطر بحديثه عن عظمة الرسول وعن غزواته يقول : (١)

يا عروس الصحراء ما نبت المجد — على غير راحة الصحراء
فأعيدي مجد العروبة واسقي — من سناه محاجر الغبراء
قد ترف الحياة بعد ذبول — ويلين الزمان بعد جفاء

وشبيه بذلك أيضا ما نجده في قصيدة لأنور العطار عنوانها " جيش اسامة " فغيها يشيد بأول جيش عربي في الاسلام ، وببطولة قائده الشاب ثم يقول (٢)

ثم دال الزمان من ناسه الغر — فقرت سيوفهم في الغمود
واستكانت الى الورى فعليها — صدأ الدهر من طويل الهجود
صرخ الجرح بالمواجع ثوري — وأهاب الأسى بعيني جودي
ارجعي يا مجادة المفاتح السمح — ويا عزة الأبيين عودي

وهكذا كان الماضي الزاهر في هاتين القصيدتين وفي سواهما من القصائد المشابهة سبيلا ممهدا لمعالجة حاضر الأمة والثورة على واقعها ، ووسيلة فعالة ينطلق منها الشاعر الى الغاية المنشودة التي تتركز في بعث العرب من جديد .

ولم تكن المهرجانات الأدبية التي جرى المعاصرون على اقامتها احياء لذكرى أعلام العرب كالمتنبي والمعري والبارودي والرصافي وشوقي وحافظ ومطران والكواكبي .. سوى مظاهرات شعرية قومية حافلة ، تستلهم الماضي البعيد والقريب لتنفخ روح القوة في الحاضر وتبعث على الثقة بالمستقبل .

---

١)) الديوان ١١٢ ٢)) في ظلال الايام ١٠٠

وثمة قصائد كثيرة لاتكاد تحصى نظمها الشعراء أيضا احياء لذكرى الوقعات الحاسمة في تاريخ العرب من ذلك مانجده في ارجوزة " دول العرب وعظماء الاسلام " وفي " سقوط غرناطة " لأحمد شوقي ، و "الالياذة الاسلامية " لأحمد محرم الذى يتغنى فيها بأمجاد العرب الأولى في ظل الاسلام وفي مقدمتها غزوات الرسول عليه السلام ، وكذلك في قصيدة " ثورة بدر " لمحمود حسن اسماعيل ، و " يوم حطين " لعبد المحسن الكاظمي ، و "طارق زياد " لعلي محمود طه .. الخ

ومما تجدر ملاحظته ان تناول مثل هذه الموضوعات المستمدة من تاريخ العرب لم يكن الغرض منه في أذهان الشعراء مجرد السرد والتسجيل فكتب التاريخ المطولة تغنى عن ذلك وتفوقه دقة وتفصيلا ، ومع أن بعض الشعراء لم يربطوا في قصائدهم بين ماكان عليه العرب في ماضيهم وماهم عليه في حاضرهم ، الا أن روح الاعتزاز كانت تطل باستمرار من خلال قصائدهم ، وتنم عن حنين طاغ الى العهود الزاهية ، وشعور قومي فياض تجاه الماضي المشرق ، ونجد مصداقا لهذا الرأى في قصيدة "الأمة العربية " لمعروف الرصافي اذ يقول فيها : (١)

العرب أكبر أمة مشهورة	بفتوحها وعلومها وبيانها
فالمجد مأثور بكل صراحة	عن قيسها ابدا وعن قحطانها
وهم الألى خضعت لهم امم الورى	من تركها طرا الى اسبانها
والروم قد نزلت لهم عن ملكها	والفرس عما شيد من ايوانها

ومن هذا القبيل قول مصطفى الغلاييني مشيدا بآبائه العرب (٢)

سل الركن عنهم والحطيم زمزما	وأرض بني قحطان ان هي تنطق
وسائل بهم مصرا لمعالي وتونسا	وبغداد تصدقك الأحاديث جلق
وسل ان جهلت العرب انه لساوما	اقاموا من الأمجاد فيها ونمقوا

---

(١) الديوان ١٣٩ (٢) الديوان ١٠٥

ولانستطيع الا ان نزهو مع أمين ناصر الدين اذ يقول (١)

كفى العرب فخرا ان منهم محمدا — وأن له الشأو والذى ليس يلحق

وان نهتز طربا مع بدوى الجبل بنشوه الماضي التليد وصفحات تاريخنا المجيد (٢)

قف على اليرموك واخشع جاثيا — وتيمم من صعيد المقاد سبية
ها هنا مثوى الصناديد الألى — دوخوا الأرض ببيض المشرفية
دوخوا الروم وثلوا عرشها — وطووا عمر الجنود الفارسية
وقضوا بين العوالي والظبى — هكذا تقضى الأسود العربية
يا قبورا حييت واندرست — انت تبرا من الهدى والوطنية

وتتمثل روح الاعتزاز بأمجاد العرب السالفة قوية في قصيدة طويلة للشاعر العراقي محمد حبيب العبيدى وهو يستعرض من خلالها أبرز معالم السيادة العربية المقدسة بنشوة وزهو بالغين ، ومن ذلك قوله (٣)

ونحن أباة الضيم من عهد تبع — اذا الناس غربان ونحن نسورها
بدا النور من بطحاء مكة ساطعا — وضاءت به من ارض يثرب دورها
فمزق ايوانا لكسرى مشيدا — وأخمد نيرانا شديدا زفيرها
وأجفل منه قيصر فوق عرشه — وذلت له بصرى ودكت قصورها
عبرنا لافريقاء وهي منيعة — يعز على قوم سوانا عبورها
فقرطبة في الغرب تزهو نجومها — وفي الشرق بغداد تضئ بدورها
خلقنا بسيف العدل سيف حضارة — يشعشع حتى الآن في الكون نورها
سلوا أمما سارت على ضوء رشدنا — الم تك قبلا مظلمات عصورها

والشاعر اذ يفخر بقومه منذ عهد تبع في اليمن السعيدة وبانطلاقهم بعد ذلك برسالتهم الى خارج الجزيرة وحملهم شعلة الحضارة الزاهرة قرونا ، لايكتفي بأن ينظر لهذه الأمجاد الغابرة نظرته الى أحداث مضت وانقضت فحسب ، فالماضي لديه وثيق الصلة بحاضر العرب وهو تواق الى ان يعيد قومه

---

(١) الألهام ٢٠٠ (٢) الديوان ١٠٥ ـ ١١١

(٣) أنيس المقدسي : العواطف القومية في الشعر الحديث نصوص مخطوطة ٢٤

سيرتهم الأولى لذلك يقول بعد تلك الأبيات :

أما آن ان تحيا معالم مجدنا وتنشر موتانا وينفخ صورها

وكان كل ظفر يحققه العرب في صراعهم مع الطغيان والاستعمار يجد التهليل والاستبشار لدى الشعراء الذين يرون فيه اقترابا من أمجاد العرب السالفة وبعثا لمكانتهم السامية . وهذا حبيب اسطفان يعكس لنا موجة التفاؤل التي تملكت العرب باستعادة الماضي المجيد عندما قام الحكم العربي المستقل في دمشق لأول مرة بعد تسلط تركي دام اربعة قرون (١)

دمشق بها ذكرى أمية خلدت وبغداد ذكرى للرشيد مخلد

وفي المقدس أنوار المسيح مضيئة تنار بها أقصى الشعوب وترشد

وأم القرى بيت الأعارب مكة لها الشرف العالي القديم الموطد

أقام لها التوحيد دينا مشرفا وأنبت مجد العرب فيها محمد

ويعبر أبو المفضل الوليد عن نشوته البالغة تجاه سحر ماضي العرب وروعة أمجادهم فيقول (٢)

أنا فتى عربي بين أضلعه تاريخ قوم هو الأنوار والسحب

قد رنحته احاديث الحمى طربا كما تثنى لهبات الصبا القصب

نفسي تلظت بحب العرب فاشتعلت بها نفوس الى العلياء تصطحب

وكم ازدهى الشعراء المعاصرون بالخصال السامية التي تحلى بها أجدادهم العرب كما فعل بشارة الخوري اذ قال (٣)

سائل العلياء عنا والزمانا هل خفرنا ذمة مذ عرفانا

المروءات التي عاشت بنا لم تزل تجري سعيرا في دمانا

واذا ما استقرينا الأناشيد الوطنية التي سارت على ألسنة الجماهير العربية وألهبت فيهم الحماسة ، فاننا نجد التغني بالماضي وسحره عنصرا فعالا في مضمونها من ذلك مثلا النشيد الذي نظمه خليل مردم وقد غدا النشيد القومي في سورية ومما جاء في أحد مقاطعه قوله :

---

(١) صبري الأشتر - المختار ٥ (٢) الأنفاس الملهبة ٩١

(٣) الهوى والشباب ١٦٥

نفوس أباة ومـاض مجيد   وروح الأضاحي رقيب عتيد

فمنا الوليد ومنا الرشيد   فلم لا نسود ولم لا نشيد

وقد وجدنا أحمد شوقي كثيرا ما يلوذ بالماضي يستمد منه القوة ويستخلص من أحداثه العبرة ، من ذلك ما قاله في نكبة دمشق على أيدي الفرنسيين ابان الثورة السورية (١)

بنو أمية للأنباء ما فتحوا   وللأحاديث ما سادوا وما دانوا

كانوا ملوكا سريرا لشرق تحتهم   فهل سألت سرير الغرب ما كانوا

وقد نحا أمير الشعراء هذا النحو في كثير من قصائده التاريخية والوطنية منذ مطلع شبابه من ذلك قصيدته المشهورة " كبار الحوادث في وادي النيل " ثم أرجوزته المطولة " دول العرب وعظماء الاسلام " وهو في " أندلسيته " التي نسج أبياتها على منوال ابن زيدون ، يتغنى بأمجاد الأندلس ويذكر المعتمد ابن عباد ويترحم على تلك العهود الخالية . الا أن شوقي مفتون باستخلاص العبرة والمغزى من احداث التاريخ وتجارب الماضي فقد كنا نتوقع منه في أرجوزته المطولة " دول العرب وعظماء الاسلام ان يستغل العنصر التاريخي الغالب عليها لأثارة الشعور القومي وبخاصة بعد ما وجدناه يضع أصبعه على نقطة الانطلاق في هذا الشأن حين خص التاريخ بأبيات عديدة بعد أن خص اللغة بمثل ذلك في أول مطولته . اي انه سار مع النظرية القومية السائدة التي تجعل التاريخ العنصر الثاني من عناصر القومية بعد عنصر اللغة ، وكأن كل ما يشغل ذهن أمير الشعراء التفكير في مصير البشر الزائل ونهايتهم المحتومة وكقوله مثلا (٢)

فالروح في التاريخ الاعتبار   وحكمة تودعها الأخبار

ومعظم الشعراء لم يكتفوا بالعبرة والحكمة من تاريخهم

---

١)- الشوقيات ٢ : ١٢٢

٢)- ص ١٢

بل اتخذوا من احداثه ووقائعه حافزا للنهوض وباعثا على النضال .
وتاريخ العرب حافل فيه حدة وفيه ثورة . وأبيات محمد رضا
الشبيبي التي تندد باحتلال الحلفاء بلاد الشام والعراق ، تصور
بجلاء وعي العرب لماضيهم وتمردهم على واقعهم وذلك في قوله (١)

هجن طردن من الرجال كرائما	عربية فكأنهن جياد
خنا ذمام المفاتحين وعهدهم	ما هكذا تستنجب الأولاد
انا بما تجني وهم فيما جنوا	بئس البنون ونعمت الأجداد
انى يذكرني الشهامة عنتر	فينا ووالد عنتر شداد
ويهزني عصر العراق تسوسه	لخم وآل محرق وإياد

ويلوذ عمر يحيي بالأجداد الفطارفة يستمد منهم البأس لوطنه
المقهور حيث يقول (٢)

ايها الناشد مجدا تالدا	هل تمشيت على شط السوار
هل ذكرت الفاتق الندب الذى	هام بالعليا وغنى واستطار
عنمنات الغرب لاتحفل بها	فابن عبد الله للعرب شعار
ما تعلمنا وهذا خالد	رافع المجد بأن نرضى الصغار

كما يجد الشاعر القروي في جهاد أحرار فلسطين صورة
من بطولات العرب في فجر تاريخهم تبعث في نفسه الزهو حيث
يقول (٣) :

فكل فتاة في فلسطين خولة ، وكل غلام في فلسطين عنتر

وقد أخذ يستقر في روع عدد من الشعراء ان في تذكر أمجاد
الماضي مايعين على علاج واقع العرب المحزن وأن التاريخ وتجاربه
خير مايشير السبيل الى الحاضر والمستقبل . وهذا محمد
الفراتي يقول في قصيدته " تلفت نحو ماضيك " (٤)

أطبق الجفن على الجفن مليا وتفكر
وتلفت نحو ماضيك طويلا وتذكر

---

١)) الديوان ٣٣ ٢)) البراعم ١١٢
٣)) الديوان ٣٦٢ ٤)) الديوان ٢١٢

فعسى أن تهتاك الذكرى حجاب الظلمات
فترى ماضيك جدلان جميل النشوات
باسما يرنو الى آمالك الغر العذاب

= ٢ =

ولم يعد تاريخ العرب مجرد أحداث ووقائع يتغنى بها الشعراء فحسب بل أصبح رسالة يرفعون رايتها ويبشرون بها بأيمان واخلاص ويرون فيها قوة دافعة الى الأمام تزيدهم ثقة وايمانا ، وهذا محمود غنيم ينعى على بعض العرب جهلهم بماضيهم واعراضهم عنه ويرى ذلك من اهم اسباب تأخرهم ، وأن الغربيين انفسهم انما أقاموا نهضتهم على أساس من ذلك الماضي العريق المشرق (١)

استرشد الغرب بالماضي فارشده ، ونحن كان لنا ماض نسيناه
انا مشينا وراء الغرب نقبس من ضيائه فأصابتنا شظاياه
بالله سل خلف بحر الروم عن عرب بالأمس كانوا هنا واليوم قد تاهوا
اين الرشيد وقد طاف الغمام به فحين جاوز بغداد تحداه
ماض نعيش على أنقاضه أمم ونستمد القوى من وحي ذكراه

ويبدو أن المعارك التي خاضها العرب ضد المستعمرين كانت تزيدهم وعيا لقضيتهم واعتدادا بماضيهم وثقة بمستقبلهم وبهذه الروح المتوثبة نرى نمطا آخر من الشعر التأم فيه الماضي والحاضر بعنفوان وابباء نجدهما في قول الياس قنصل (٢)

أنرضى بالهوان ونحن قوم ملأنا صفحة التاريخ فخرا
أيرهبنا الحديد وقد بنينا بحد السيف مجدا مشمخرا

وقد أصبح تاريخ العرب ماثلا بروعته في واقع المجتمع العربي الحديث وأخذ يؤثر تأثيرا فعالا في حياتهم القومية ، حتى غدا الحديث عن بعث الأمة العربية ديدن الشعراء .

---

(١) الديوان ٧٨ ـ ٨٢ (٢) السهام ٤١

وقد عبر أمجد الطرابلسي عن هذا الشعور المتفائل بقوله (١)

تلكم جزيرتكم ياعرب باسمة ترنو اليكم وتحنو أي تحنان

سيروا اليها نعيد البعث ثانية ونملأ الأرض من عدل وعمران

أليس منا الألى قادوا جحافلهم وأخضعوا الأرض من فرس وروسان

كما نرى الشاعر نفسه يعبر عن هذه الظاهرة أيضا في قصيدة أخرى عنوانها "أمية تبعث" (٢) وقد بلغ ايمان بعض الشعراء وتفاؤلهم بازدهار المجتمع العربي حدا جعلهم لايشكون في استعادة المكانة التي كان عليها أجدادهم . وهذا أحمد محرم يتحدث عن فلسطين بلهجة الواثق المطمئن (٣)

يا آل يعرب من يريغي خالدا يزجي الخميس ويستحث المقنبا

من شاء منكم فليكنه ولايقل ذهب القديم فإنه لن يذهبا

السر باق والزمان مجدد والسيف ما فقد المضاء ولانبا

ونجد هذا الاتجاه ابرز مايكون في القول القاطع الجازم لمحمد الفراتي في قصيدته " ايها الأحفاد " (٤)

ياد هر ما التاريخ غير رواية بالرغم منا فصولها ستعاد

واذ يغدو تراث العرب ماثلا في الأذهان ، حيا في النفوس الى هذا الحد الذي تجلى في الشعر المعاصر ، فأن الشعور القومي يكتسب عمقا ومضاء في معركة التحرر ويحدوه في ذلك ذخر لاينضب وقوة دافعة لاترد من روح الماضي والأيمان بالمستقبل .

ومما تجدر ملاحظته ان الاتجاه الى الماضي والتغني بأمجاده صادف بالأجمال هوى في نفوس العرب ، وكان مرحلة طبيعية في فترة نمو تكوين كيانهم القومي . ولكن الأمر كان يختلف في المجال الاجتماعي اذ دارت حول القديم والجديد معركة بل معارك ظهر صداها في الشعر أيضا ، ومع ذلك نجد

---

١)) مجلة الرسالة السنة الثالثة ص ٩٠٦

٢)) " " " الرابعة ص ٥٥٠

٣)) الديوان ٢١٠ ـ ٢١٨ ٤)) الديوان ١٨٢

في عدد من المقصائد مظهرا محدودا لهذه المعركة على الصعيد القومي والفكري ، فقد أنشد الشاعر فوزي المعلوف في حفل ادبي اقيم بالمهجر قصيدة مطلعها[1]:

حل البداوة رمحها وحسامها والجاهلية نوقها وخيامها

وفيها انكر كل فضل للقديم ، ثم أنشد الياس فرحات على المنبر نفسه قصيدة عارضه فيها بهذه الأبيات وحامى فيها عن مبدأ الماضي المشترك أحد العناصر الاساسية للقومية (٢)

حي البداوة نوقها وخيامها والجاهلية رمحها وحسامها

حيثاء اشباح القديم وسلمت فمن العدالة ان ترد حسامها

قد تبلغ النفس الطموح أشدها ويظل يذكرها الولاء فطامها

لولا الجذور المطمئنة في الثرى ما كانت الأغصان ترفع هامها

فالشاعر يأبى الانسلاخ من القديم والتبرؤ منه مهما يبد ضئيل الشأن والأثر لأنه الأصل ، والأصل تتبعه الفروع ..

= ٣ =

والواقع ان النزوع الى الماضي قد بلغ لدى عدد من الشعراء مدى أصبح معه خطرا على الاتجاه القومي ذاته بعد أن أخذ يزيد عن حده وينقلب الى ضده . اذ ان استرسال الشعراء في تفاخرهم بالأمجاد السالفة وتغنيهم المتمادي بالأجداد الغطارفة واهمالهم شئون حاضرهم وواقع امتهم ، جعلهم يعيشون في عزلة عن الحاضر وأحداثه . وربما كان ذلك منهم عن وعي أو غير وعي نتيجة هربهم الى زوايا الذكريات الغابرة يأنسون بها ويتميزون عن واقع حياتهم وحياة أمتهم ، حتى غدا الماضي لديهم غاية في ذاته ، في حين أنه لا يعدو في الأصل ان يكون عونا للأمة في نهوضها ، وحافزا على تحررها .

وطبيعي أن يصدر تجاه ذلك رد فعل يستنكر أغراق الشعراء

---

١) الديوان ٢٩

٢) الديوان ٢٥٥

في النزوع الى كهوف الماضي وتعاميهم عن واقع الحياة الراهن وأحداثها الصارخة . وربما كانت صيحة الرصافي اقوى ماقيل في هذا الشأن ، وذلك في قصيدته " نحن والماضي " التي يدعو فيها الى قطع الصلة بالماضي والاهتمام بالمستقبل وحده : (١)

أرى مستقبل الأيام أولى بمطمح من يحاول ان يسودا
فما بلغ المقاصد غير ساع يردد في غد نظرا سديدا
فوجه وجه عزمك نحو آت ولا تلفت الى الماضين جيدا
وهل ان كان حاضرنا شقيا نسود بكون ماضينا سعيدا
تقدم أيها العربي شوطا فأن امامك العيش الرغيدا
واسس في بنائك كل مجد طريف واترك المجد التليدا
فشر العالمين ذوو خمول اذا فاخرتهم ذكروا الجدودا
وخير الناس ذو حسب قديم اقام لنفسه حسبا جديدا
فدعني والفخار بمجد قوم مضى الزمن المقديم بهم حميدا

وهو يندد بحيرة العرب وجمودهم او تلهيهم بأطياف الذكريات فيقول من قصيدة أخرى (٢)

تراهم جميعا بين حيران واجم وآخر يطرى ماضيا من فخاره

وكذلك يعبر محمد رضا الشبيبي عن هذا الشعور المرير تجاه استنامة العرب الى أمجادهم الغابرة فيقول (٣)

قلب يحز به الألم عبس الزمان أو ابتسم
يا أمة من جهلها تأبى مجاراة الأمم
ذلت حديثا أمة ابدا تفاخر بالمقدم
وأحال منها رمة طول التباهي بالرمم

وشبيه بذلك أيضا ما يقوله حسين البحيري اذ ينكر على قومه تلك الغفلة ، والزمن يسير حثيثا بالأمم (٤) :

---

١)) الديوان ٣٤   ٢)) الديوان ٣٦
٣)) الديوان ٩٤   ٤)) ابتسام الضحى ١١٧

اين نحن اليوم من سير الزمن   اين منا نور عصر حاضر
نحن من ماضي الليالي في الدجن   نتغنى بحياة الغابر
شاقنا من عيشنا حلم الوسن   فغفونا عن عدو ساهر

ونجد مظهرا آخر لرد الفعل العنيف الذي أخذ يفتح عيون الشعراء على واقع امتهم المرير في قول محمود غنيم الذي طالما اعتز هو نفسه بالأمجاد السالفة (١)

لا در در امرئ يطري اوائله   فخرا ويطرق ان ساءلته ما هو

وفي قصيدة محمد عبد الغني حسن التي نظمها اثر قيام جامعة الدول العربية (٢)

يا شرق قد دام الزمان ولم يعد   للمرء فخر في فخار المولد
قل للمفاخر في الحياة بأصله   فيم افتخارك بالقديم الأبعد
ما قيمة الماضي الدفين ومجده   ان لم يتصل بالحاضر المتولد
هذا زمان لاتقام كرامة   فيه لماض غائب لم يشهد

ومهما يكن من أمر ، فأن رد فعل كهذا كان لابد منه في سبيل تقويم انحراف بعض مقومات القومية العربية عن طريقها السوي وفي سبيل الحد من طغيان الماضي على الحاضر والذكريات على الواقع .

" ومما ينبغي ادراكه أن من أبرز سمات الثقافة الحية تأصلها بماضيها الايجابي ، فحري بها ان تظل واعية لماضيها مستمدة من هذا الماضي القوة والأيمان ، ومنمية الأرث الذي يتناقله مجتمعنا جيلا بعد جيل ، على ان ايمانها هذا لايؤدي بها الى الانخداع لأن ايمانها بالعقل اشد وأقوى ... ولأن الثقافة الحية ثقافة متطلعة الى الأمام ، جوابة للآفاق مغامرة في ميادين العقل والروح لاتأخذ من الماضي الا مايوحي ويسند "(٣) ونحن نريد من شعرائنا ان يجعلوا من تراثنا

---

١)- الديوان ٧٨   ٢)- من نبع الحياة ٥٧
٣)- انظر قسطنطين زريق : مجلة الآداب نيسان ١٩٥٤

العريقة، وأمجادنا الغابرة ذخرا نركن اليه ، وشعلة نهتدى بنورها واساسا وطيدا نشيد فوقه مستقبلا باسما . ولن نرضى لهذا التراث وتلك الأمجاد ان تكون لنا قوقعة ندور في داخلها ، وأن تغدو لدينا وزرا ننوء بأعبائه . نريد ان تكون قوميتنا رحيبة ايجابية تبنى لخير الانسانية وتسهم في تقدم المجتمع البشرى ، ولن نكتفي بعد اليوم بأن يردد شعراؤنا اقوالهم المكرورة بأن أرضنا مهبط النبوات ومصدر الأديان ، أو يتبجحوا بأننا الجسر الذى يصل الشرق بالغرب وتعبر عليه حضارات الأمم .

ان استقراء الشعر القومي المعاصر يسمح لنا بأن نلاحظ بصورة عامة أن ماضي العرب المشرق كان خير نبراس يمشون الى نوره في ابان كفاحهم ، ويسيرون بهديه في احلك أيام نضالهم ، ولم يكن تغني الشعراء بجيش اسامة وأبي عبيدة او بجولة خالد وطارق وصلاح الدين ، او بوقعات بدر واليرموك والقادسية وحطين الا انعكاسا لما استقر في نفوسهم من رغبات عارمة وأمان طاغية ايام الاحتلال في ان يكون لأمتهم جيش قوى يكون لهم درعا حصينة تجاه الطامعين ، ومعركة فاصلة تنجلي عن طرد الغزاة المستعمرين . وهذا التاريخ المشترك هو الذى كان يمد الشعوب العربية بروح الثقة والايمان والتفاؤل التي عبر عنها الشعراء أقوى تعبير ، ولم يكن ماضي الأجداد الا الذاكرة الحية للعرب عاشت في نفوسهم خالدة ، وكانت في حقيقتها مظهرا فعالا لمشاعرهم المتوثبة وركنا هاما في بناء شخصيتهم القومية واقامة مجتمع متقدم متحرر يضاهي ماكان عليه الأجداد من شأن نابه بين الأمم .

على أن الشعر المعاصر لم يتجه بعد الى التاريخ الحديث بمثل القوة التي وجدناها في اتجاهه الى التاريخ القديم . ويبدو أن ذلك يعود الى سببين ، الأول كون العرب يوشكون ان يجتازوا مرحلة البعث التي طال أمرها عليهم ، والثاني ان هذا الماضي القريب مازال يفتقر الى تلك الهالة من القداسة

والتبجيل ، التي وجدناها حول تاريخ العرب القديم والتي لابد ان ترتسم حول كل تاريخ ، وتزداد اتساعا كلما اوغل في القدم ٠

واننا نجد الشعر العربي اليوم يجنح لأبراز التاريخ القريب وتخليد احداثه الحاسمة فهو على قصر أمده وقرب العهد به ينطوي على عناصر الحياة ويعكس وثبة العرب الرائعة ٠ من ذلك مثلا لجوء أحمد زكي أبي شادي الى بعث احدى المناسبات القومية الكبرى حين اعاد الى الأذهان ذكرى انتفاضة مشرفة خاضها المصريون ضد الانكليز وانتصروا عليهم عام ١٨٠٧ في معركة رشيد ، وذلك في محاولته الشعرية التي أخرجها في كتاب مستقل حمل اسم " مفخرة رشيد " ٠ ولسنا بصدد الحكم على مدى توفيق الشاعر في محاولته خلق الجو الملحمي أو مدى ايحاء أبياته في محاولته تلك ، ولكننا نقول انه ميدان جديد اقتحمه أبوشادي بتأثير ملح من الروح القومية التي غمرت الشعر المعاصر بقوة منذ نهاية الحرب العالمية الأولى ٠ ومن هذا القبيل كثير من قصائد الذكرى التي يعمد الى نظمها الشعراء من حين الى آخر في انتفاضات العرب الحديثة وفي أحداثهم القومية البارزة ٠

ومجمل القول ان تيار البعث الشامل قد استفز نفوس العرب في العصر الحديث ، وكان الشعراء في طليعة من حمل رسالته وبشر به ٠ وقد أخذ عنصر الزمان الخالد في هذا الوجود يطوي صفحات النضال العربي الحديث ويغيبها في كهوفه مضيفا اياها بذلك الى السفر العربي العظيم ، وما نضال العرب في عصورهم الحديثة الا رافد حي لذلك التاريخ الحافل ، شارك مشاركة فعالة في تكوين الشعور القومي المعاصر ٠ ولقد وجد الشعراء في ذلك التاريخ الحديث مادة حية ذات أهمية بالغة في التعبير عن الوجدان العربي الراهن ٠

الفصل الخامس

الآلام والآمال المشتركة

اذا كان للماضي المشترك ذلك التأثير البليغ في حياة العرب القومية المعاصرة كما أوضحنا ذلك آنفا من خلال اقوال شعرائهم فمن الطبيعي ان يكون لحاضرهم وواقع حياتهم ووحدة مصيرهم تأثير فعال يسهم الى حد كبير في صهر مشاعرهم القومية ويؤلف بين قلوبهم ويوحد اهدافهم • وليس هذا الحاضر في حقيقته الا امتدادا لذلك الماضي ، وحلقة أخيرة من سلسلته الطويلة • كما أن هذا الحاضر ليس الا جزءا من ذلك الماضي المتطاول الذى يمتد اليه بجذوره •

ومن الطبيعي أن يكون الشاعر وأى فنان شديد الارتباط بواقعه وبمجتمعه وحياة أمته • ولهذا نجد الشعر المعاصر يعبر بقوة وحرارة عن حياة العرب الحاضرة الحافلة بالأحداث لأن الشعراء اصبحوا يحيون واقع امتهم ويعيشون تجربتها الحية ، وكأن الأمر كما يقول احد النقاد الفرنسيين " ان الآلام القديمة تغنى أما الحديثة فتصرخ " •

وقد مرت بالعرب في حياتهم الحديثة ظروف متشابهة من الآلام المشتركة التي تتمثل في ابتلائهم بالاستبداد والاستعمار والجوع والفقر ، كما جمعتهم الأقدار حول اهداف مشتركة واحدة تتركز في نشدان العدالة الاجتماعية والرخاء الاقتصادى والتحرر والديمقراطية والوحدة ••

وكل ما نطق به الشعراء حول ثورات العرب وانتفاضاتهم المعاصرة في مختلف أقطارهم ضد الاستبداد والاستعمار في سبيل التحرر ليس في حقيقته الا التعبير الرائع عن انصهار العرب في بوتقة قومية واحدة •

— ١ —

وليس كالآلام والنوائب ما يضم الشمل المبدد ويلم الشعث المفرق) . وقد عبر الشعراء عن هذا العامل القومي بأسلوب مباشر فضلا عما ذكرناه من تعبيرهم عن حياة أمتهم وحاضرها المكافح .. ولعل اولى درجات هذا التعبير ذلك التجاوب العاطفي العميق الذي نلمسه قويا فيها نظمه الشعراء من قصائد شاطروا فيها كل شعب عربي منكوب آلامه وأحزانه وشاركوه في أمانيه وآماله . ومن اوائل ما يطالعنا من هذا الشعر ابيات حافظ المشهورة التي يقول فيها : (١)

اذا المت بوادى النيل نازلة ... باتت لها راسيات الشام تضطرب

وان دعا في ثرى الأهرام ذو ألم ... أجابه في ذرا لبنان منتحب

وعندما شملت المصائب شعوب العرب ، وعمتها الآلام ، أصبح من الواضح ان الشاعر العربي لم يعد يتغنى مشاعر شعبه فحسب بل أخذ يتغنى مشاعر العرب جميعا . ويعتبر أحمد شوقي خير مثل على ذلك ، اذ ما كادت سحب الحرب الكبرى تنجاب عن العالم حتى تحول عن المقصر والخديوى والسلطان والاتراك ، وبادر الى التعبير عن مصر والشعب ثم عن العرب أجمعين . " ولم ينطق عن الروح الوطنية لمصر وحدها بل حلق بقيثارته في جو العالم العربي كله ... فقبل هذه الحرب كان يذكر العروبة على هامش مدائحه في الترك أو في الرسول الكريم ، أما اليوم وفي هذه الحقبة فانه يتغنى بالنزعات الوطنية والقومية الطارئة على هذه الشعوب .. ويقف من العرب موقفه من مصر فهو يتغنى بأمجادهم الماضية ، وهو يتغنى بثوراتهم الحاضرة ، وهو يحس احساسا قويا بأن مصر والشام والعراق وغيرها من البلاد العربية اسرة واحدة " (٢)

---

(١) الديوان ١ — ٢٦٨ وقد نظمها عام ١٩٠٨

(٢) شوقي ضيف : شوقي شاعر العصر الحديث ١٥٦

وعلى هذا النحو أخذت ربة شعر شوقي تغني العرب أناشيد وطنيتهم وحرياتهم ، وتصور لهم آمالهم في مستقبل مشرق ، " وكان له من القدرة في التعبير ما جعله يبذ معاصريه في كل ناحية لمسها ، بل ما جعل العرب انفسهم يعدون بعض قصائده كأنها مصاحفهم " (١) وفي مقدمة ما نظمه في دمشق منذ عام ١٩٢٥ مصورا مشاعر السوريين ضد الاستعمار الفرنسي قصيدته النونية التي مطلعها :

قم ناج جلق وانشد رسم من بانوا مشت على الرسم احداث وأزمان

وقصيدته القافية التي مطلعها .

سلام من صبا بردى أرق ودمع لا يكفكف يا دمشق

وفضلا عن ان هذه القصائد تعتبر في ذاتها مظهرا فعالا للتجاوب مع آمال السوريين وآلامهم ، فأننا نجد في عدد من أبياتها ما يشير مباشرة وبوضوح الى عامل الألم المشترك الذى اعتبرناه من العناصر المكونة لقومية العرب الحديثة فهو يقول (٢)

ونحن في الشرق والفصحى بنو رحم

ونحن في الجرح والآلام اخوان

أو يقول في قصيدة اخرى (٣)

بني البلد الشقيق عزاء جار اهاب بدمعه شجن فسالا

ومازلنا اذا دهت الرزايا كأرحم ما يكون البيت آلا

وربما كانت قصيدة شوقي التي نظمها بمناسبة تكريم العرب له عام ١٩٢٧ ومبايعته أميرا للشعراء ، في مقدمة قصائده التي اولت عنصر الألم المشترك بين الشعوب العربية اهتماما زائدا بل لاتكاد تضارعها في ذلك قصيدة أخرى . وفيها يقول (٤)

يا عكاظا تألف الشرق فيه من فلسطينه الى بغدانه

رب جار تلفتت مصر توليه سؤال الكريم عن جيرانه

---

١)- المصدر السابق انظر ١٥٩ ـ ١٦٠   ٢)- الشوقيات ٢ ـ ١٢٢

٣)- الشوقيات ٢ ـ ٢٢٧   ٤)- " ٢ ـ ٢٤٠

بعثتني معزيا بمآقـي — وطني او مهنئا بلسانه
كان شعري الغناء في فرح — الشرق وكان العزاء في أحزانه
قد قضى الله ان يؤلفنا الجرح — وان نلتقي على أشجانه
كلما أن بالعراق جريح — لمس الشرق جنبه في عمانه
وعلينا كما عليكم قيود — تشتري الليوث في قضبانه
نحن في المفكر بالديار سواء — كلنا مشفق على أوطانه

ولاريب أن ذلك المهرجان الأدبي كان مظاهرة قومية رائعة وصورة حية لنزوع العرب نحو الألفة والاتحاد ، وارهاصا لفكرة الجامعة العربية التي اشتدت الدعوة اليها بعد عصر أمير الشعراء .

ونجد ظاهرة الألم المشترك بين العرب لدى سائر الشعراء في مختلف أقطارهم من ذلك ابيات لعبدالمحسن الكاظمي يقول فيها (١)

أحن اذا قيل العراق وانحني — وأشهق ان قيل الشام وأزفر
واطرق ان قيل الحجاز على جوى — واعجب اما قيل مصر وأبهر
جميع بلاد العرب في القدر واحد — اذا وزنوا البلدان يوما وقدروا

وكان هذا التعاطف يشتد ابان الأزمات والمحن التي تلم بالعرب من حين الى حين ، فعندما نكبت دمشق بقذائف الفرنسيين على أثر ثورة سورية عام ١٩٢٥ تجلى حزن الشعراء على عاصمة الأمويين وتعاطفهم معها في مأساتها الى مدى لم يبلغه في حدث آخر من قبل ويكفي أن نشير الى أن فاتحة شعر شوقي في الاتجاه العربي انطلقت منذ ذلك الحين على النحو الذي سبق ان رأيناه . وهذا معروف الرصافي يعكس ما اعتلج في نفس العرب تجاه الفيحاء آنذاك من أسى فيقول (٢)

اذا هي مدت في الدجنة صوتها — تميد له في الغوطتين غصون
وتلهب منه في الفضاء شرارة — فتبصرها في الرافدين عيون
وتهبو له في ساحل النيل هبوة — أبو الهول منها واجد وحزين

---

(١) الديوان المجموعة الثانية ٢٠١ (٢) الديوان ٤٥٤

وقد جمع محمود الحبوبي عناصر القومية من لغة ودين ومصاب مشترك على صعيد واحد في قوله (١) .

سواء نحن في لغة ودين كما أنا سواء في المصاب

ونجد لدى محمد مهدي الجواهري تعاطفا كبيرا مع آلام العرب الذين وحدت الجراح مشاعرهم فهو يقول مخاطبا أهل يافا في فلسطين (٢)

ثقوا أنا توحدنا هموم مشاركة ويجمعنا مصاب
تشع كريمة في كل طرف عراقي ، طيوفكم العذاب
وسائلة دما في كل قلب عراقي جروحكم الرغاب
يزكينا من الماضي تراث وفي مستقبل جذل نصاب

وهذا عزيز فهمي يحيي أهل العراق، وقد رأى فيهم اشقاء وفي بلدهم وطنا ثانيا (٣)

أهلا لقيناكم فما حنت ركبا ثبنا على ضجر السى اوطان
انا لتجمعنا بكم أقوى العرا والأمر أبقاها على الأزمان
ويزيدكم حبا الينا أننا في الجرح والآلام مشتركان

والشاعر نفسه يعبر في قصيدة أخرى عن التعاطف الشديد بين العرب على اختلاف ديارهم فيقول : (٤)

ألسنا جميعا أمة وحضارة تفرقنا أرض ويجمعنا عهد
اذا أن شامي تنبه هاجع بمصر وفي بغداد والتفتت نجد
غفونا جميعا وانتبهنا فجاءة كأنا على وعد وقد أنجز الوعد

وهذا البيت الثاني لعزيز فهمي يذكرنا بروح حافظ ابراهيم في بائيته " سورية ومصر " التي سبق ان أوردنا بعض أبياتها في مستهل هذا الفصل ، وقد حظي تعبير حافظ حول تجاوب اقطار العرب في المشاعر ، على بساطته بشهرة ذائعة وغدا محببا الى الجمهور وأثيرا لدى الشعراء لأنه عبر بصدق

---

(١) الديوان ٧٢ (٢) الديوان ١٨٨
(٣) " ٢٩ (٤) " ٧٦

عن عواطف الود والتآخي المتبادل في نفوس الشعوب العربية على اختلاف ديارها ، وعلى هذا المنوال نسج قول علي الجارم عن ظاهرة الألم المشترك الذي صهر أمته حين قامت جامعة الدول العربية : (١)

تذوب حشاشات العواصم حسرة ... اذا دميت من كف بغداد اصبع
ولو صدعت في سفح لبنان صخرة ... لدك ذرا الأهرام هذا التصدع
ولو بردى انت لخطب مياهه ... لسالت بوادي النيل للنيل أدمع

والمعنى نفسه يكاد يمثل أمامنا في قول محمد عبدالغني حسن (٢)

اذا تغنى بمصر بلبل غرد ... سمعت بالشام ألحان المغنينا
وان شكت مصر من سوء ألم بها ... سمعت من سروات القدس شاكينا
بنا من الوجد والالام ما بكم ... فالوجد يشجيكم حينا ويشجينا

- ٢ -

أما عنصر الأمل المشترك فلا نستشفه الا من خلال الآلام والمآسي التي حلت بالشعوب العربية .

فالواقع ان الخطوب الجسام التي نزلت بالعرب منذ قيام الحرب الكبرى الأولى عملت على ازدياد التقارب بينهم ، وأن الاستعمار الذي اصاب كرامتهم ومشاعرهم القومية بجرح بليغ قد ألف بينهم ولم شملهم ووحد آمالهم ، وكان الشعراء قبل الساسة والزعماء ، لسان الشعوب ورسل التقارب والألفة والوحدة وهذا محمد عبدالغني حسن يقول في ذلك أيضا (٣)

قد وحدت بيننا الآلام موجعة ... والفت بيننا الامال والطلب
وجمعتنا الجراح الحمر دامية ... وللجراحات فيما بيننا نسب

ونجد هذه الظاهرة قوية لدى كثير من شعراء سورية الذين كانوا شديدي الأحساس بما يمر بالعرب من أحداث وما ينزل بهم من خطوب ، من ذلك قول أمجد الطرابلسي مستبشرا بالغد المشرق بعد ان ابتلى العرب زمننا بالاستعمار (٤)

---

١) الديوان ٤ ـ ٤١ ٢) من نبع الحياة ٩٦
٣) من نبع الحياة ٩١٥
٤) مجلة الرسالة السنة السابعة ص ١٠٦٠

وحدتنا مواجع المقصيد حينا فارقبوا اليوم وحدة التحرير

كما نجد ما يضاهي هذا الاستبشار أيضا في قول عمر أبي ريشة والاحتلال في أوج طغيانه :(١)

هذه أمتي وهذي مغانيها تجر السواد في الأعياد
كلما لاح بارق في سماها أطفأته ريح الزمان العادي
جمعتها هوج الليالي على الجرح كما تجمع الندامى شوادي
والرزايا كم قربت بين اشتات بداد وأمنيات بداد

وهذا الشاعر يمثل في قصائده المتفوان القومي والأرادة التي لا تقهر فهو متفائل ابدا ينبط النور من الظلام والماء من الصخر واليسر من العسر

وقد ازداد الشعراء ثقة وأملا بمستقبل امتهم وتحررها خلال سني الحرب الأخيرة اذ بدا للشعوب المستضعفة أن الأوان قد حان لتقطف ثمرات نضالها . وكانت سورية أول بلد عربي انتزع حريته من براثن المستعمر اثر انجلاء غيوم الحرب القاتمة .
ونجد أبا ريشة أيضا يعبر عن تلك المنى المعسولة التي ذاق الشعب حلاوتها بعد لهفة شديدة وأيام مريرة ، وهو في أبياته هذه يبلغ حد مباركة الخطوب ويشير الى أنه لولا تلك الآلام لما تحققت هذه الآمال(٢)

لمت الآلام منا شملنا ونمت ما بيننا من سبب
فاذا مصر أغاني جلق واذا بغداد نجوى يثرب
بوركا الخطب فكم لف على سهمه اشتات شعب طيب

وفي أواخر اعوام الحرب الأخيرة حين أهل عام السلام على العالم المعذب قال محمود غنيم أبياته المفعمة بالآمال والمنى(٣)

يا أيها العام المطل تحية من خير حكان بخير متاع
أمل العروبة فياء اعرض جانبا من سؤدد نبكي عليه مضاع
أمل نكاد نحس وقع دبيبه بين القلوب منافذ الأسماع

---

١)) الديوان ١١٢ ٢)) الديوان ١٤٥
٣)) صرخة في واد ٣٥

وبمشيئة الله وارادة الشعوب تحققت هذه الآمال وتقلص ظل الاستعمار البغيض عن قسم كبير من بلاد العرب التي أخذت المقطار تلو القطر ، تنعم بالتحرر .

والملاحظ ان هذا الاتجاه في الشعر القومي الذي ينزع الى تصوير الآلام المشتركة وواقع الأمة العربية حظي باهتمام الجيل الجديد من الشعراء ، اذ أن عنصر الشباب مشدود بقوة الى المجتمع ، يتجاوب مع واقع حياته ويتفاعل مع وجدان أمته . في حين كان الجيل الأسبق ، من أمثال شوقي وحافظ ومحرم وعبد المطلب والزهاوي والكاظمي والوليد والقلاييني وسواهم .. اكثر اهتماما بالماضي المجيد والتاريخ العريق ، أو أنهم كانوا يتأرجحون بين هذين الاتجاهين . وهذا طبيعي في فترة تاريخية معينة من حياة العرب يعتمدون فيها على قوة البعث القومي وأصالته .. وهذا الاتجاه الذي أخذ الشعراء يصدرون عنه بصورة مطردة منذ السنين الأخيرة التي سبقت الحرب العالمية الثانية ومابعدها ، والذي يقيم الشعور القومي على اساس الآلام والآمال المشتركة ووحدة الهدف والمصير أخذ يغلب على الشعر المعاصر تبعا لغلبة الطابع الاجتماعي على الفنون بصورة عامة ، وتبعا لانسجام هذا الاتجاه مع النظريات الحديثة في القومية التي تجعل للعناصر الواقعية مثل وحدة المصير والهدف المشترك ، المقام الأول في تكوين الشعور القومي .

×× ⁂ ××

من خلال ماتقدم من بحث عناصر القومية ومقوماتها في الشعر المعاصر ، نلاحظ ان الشعراء لم يقصدوا في معظم ما نظموه من قصائد ومقطوعات الى ذكر هذه العناصر بشكل مباشر ، ولم يكن هدفهم سردها او حصرها أو توضيحها لأن ذلك من شأن النثر ويتنافى مع طبيعة الشعر وضيق قوافيه وأوزانه . واكثر ما مر بنا من الشواهد يدل على السمة

العفوية التلقائية التي كان يصدر عنها الشعراء في التعبير عن تلك المقومات والعناصر التي تشكل الشعور القومي ، وهذا ما يفسر لنا قلة الأشعار التي عمد فيها أصحابها الى ابراز العناصر القومية مجتمعة في قصيدة أو مقطوعة واحدة .

على أن أثر الدراسات الفكرية والابحاث الاجتماعية أخذ يبدو لدى عدد من الشعراء المعاصرين الذين تسلحوا بالثقافة والمعرفة بعد أن كان من سبقهم من شعراء الجيل الماضي يكتفون بمحاولة اتقان متون اللغة واستيعاب ألفاظها وتنميق عباراتها .

وربما كان عباس محمود العقاد رائد هذا الاتجاه الجديد وهو مع عزوفه عن معالجة الشعر القومي وبعده عن تيار العروبة بصورة عامة ، قد نراه لنا في ديوانه " وحي الأربعين " قصيدة تعتبر فريدة بالنسبة لموضوعنا وقد نظمها في عيد الاستقلال السوري عام ١٩٣٠ ومنها قوله : (١)

انا بنو وطن تقرب بينه	سيناء في قدسية وجلال
الشمس تجمع في المطالع بيننا	والأرض في حرم الجوار الغالي
ومعالم التاريخ في كتب وفي	عقب وفي نسب وفي اطلال
ولسان صدق في اللغات تألفت	فيه القلوب تألف الأقوال
شكواكم شكواى او سلواكم	سلواى أو أشغالكم أشغالي
ومطالب الفائزين في بيدائكم	كمطالبي ومآلكم كمآلي

فقد أتى الشاعر تقريبا على جميع مقومات القومية العربية حين تحدث عن اشتراك العرب في الأرض والتاريخ والنسب والآثار واللغة والعواطف والأفكار والآلام والمصائب والآمال والأهداف والمصير .

ولا يبعد ان يكون العقاد قد وضع تخطيطا مسبقا لقصيدته وعرف ماذا ينبغي عليه قوله قبل ان ينظم أبياته هذه وكأني به في ذلك ، يقبل على نظم قصيدته بروح تماثل اقباله على تدبيج مقالته .

واذا ما انتهينا الى هذه المرحلة من استجلاء مقومات

---

(١) ص ١٤٦

القومية العربية في الشعر المعاصر نكون قد رصدنا عناصر المفهوم القومي لدى الشعراء .

ومن الطبيعي ان يكون الجانب العاطفي من المفهوم القومي اكثر بروزا من العنصر الذهني والواقعي في الشعر لأن الشعر لغة العاطفة والشعور . ونحن لانكاد نجد في الشعر المعاصر اهتماما ببعض العناصر الأخرى للقومية مثل المصالح المادية المشتركة ووحدة الأرض وغير ذلك مما ازور عنه بسبب طابعه العلمي المحض . كما أن الشعراء في تناولهم هذه المقومات استطاعوا ان يمزجوها بحرارة انفعالهم وأصالة شعورهم فخرجت تنبض بالحياة ...

الفصل السادس

الوحدة العربية

— ١ —

كان الوطن العربي واحدا منذ عصر الراشدين ، حاضرته دمشق أو بغداد أو القاهرة ، فالمتنبي مثلا نشأ في الكوفة وقضى حياته متنقلا بين حلب وانطاكية ودمشق والقاهرة ، وابن خلدون عاش شطرا من حياته في المغرب وشطرا آخر في مصر .. (وماعرف العرب التجزئة الا في أحلك عهودهم . ولم تكن تلك الدويلات المتنافرة في الماضي الا نتيجة عوامل سياسية فرضها الزعماء والقواد دون ان يقيموا أي اعتبار لرغبات مجتمعاتهم آنذاك . ومع هذا فقد كانت الحدود مصطنعة تتراوح بين مد وجزر بحسب ازدياد نفوذ الحكام أو ضعفه ، وما اسرع ما كانت تمحى بمجرد انهيار ذلك النفوذ .(وحتى في العهد العثماني الذي دام نحوا من أربعة قرون كانت اقطار العرب وحدة متماسكة يتنقل بينها العربي كيفما شاء . أما الفارق الأردني ولبناني وفلسطيني وسوري .. فلم تعرف الا بعد الحرب العالمية الأولى حين فرض الاستعمار التجزئة على بلاد العرب وأقام بينها حدودا مصطنعة .

ان القومية في جوهرها رابطة تجمع أبناء الأمة الواحدة ، وهي تستلزم قيام دولة مستقلة متحررة ذات شخصية وسيادة تتآلف فيها مختلف عناصرها وطوائفها وأديانها وطبقاتها وأقاليمها ... "فالقومية بذلك سد منيع امام العدوان الخارجي وسياج ضد التفرق الداخلي والنزعات الطفيلية الضيقة"(١)

وان الثورة العربية الكبرى كانت في جوهرها تهدف الى تحرير العرب واقامة دولة واحدة . ولم ينظر العرب آنذاك الى هذا الهدف نظرتهم الى وضع جديد ، وانما كانوا يرون فيه اعادة للأمر الى نصابه ، اذ ان الأمر الطبيعي ان يتحد العرب

---

(١) انظر محمد منيف الرزاز في محاضرة له عن القومية القاها في الكويت

لا أن يتفرقوا ، ولكن هذا الحلم الكبير سرعان ما تبدد بلجوء المستعمرين الى احتلال البلاد وتجزئتها دويلات عديدة منفصلة) .

وقد حز ذلك كثيرا في نفوس العرب وكان شعراؤهم خير مرآة تعكس لنا شعور المرارة والخيبة .(ولعل شعراء الشام كانوا اشد احساسا من سواهم بوطأة هذا التقسيم الذي خطه الحلفاء سرا خلال الحرب الكبرى . ويعتبر خيرالدين الزركلي في مقدمة من ناضلوا في سبيل القضية العربية ، ونافحوا عن وحدتها ، من ذلك قوله حين تكشفت نوايا الحلفاء تجاه بلاده :(١)

فيم الوني وديار الشام تقتسم ... أين العهود التي لم ترع والذمم

مابال بغداد لم تنبس بها شفة ... وما لبيروت لم يخفق بها علم

ويعبر أبوالفضل الوليد من وراء البحار عن شعور الأسى تجاه الوطن الممزق بقوله :(٢)

قلبي تقسم وجدا من تقسمهم ... لكن حبي وحيد غير منقسم

وكانت أبيات خليل مردم من أصدق ما تجلى فيه شعور الاستنكار الذي شمل العرب آنذاك فهو يقول والأسى يملأ قلبه :(٣)

فيم التقاطع والأرحام واشجة ... والدار جامعة والملتقى أمم

الله في قطع ارحام وفصم عرى ... عهدي بها وهي وثقى ليس تنفصم

ماذا عسى انكرت من جلق حلب ... بل ما عسى اهل لبنان . ...

بلادنا ويد التقسيم تقلقها ... كأنها رقعة ينتابها جلم

اكل حاضرة دار لمملكة ... أبعاد ما بينهن المفتر والهصم

كما تندد المياس قنصل أيضا بهذه الحدود التي خطها المستعمر في قلب الوطن العربي فقال :(٤)

---

١)) الديوان ١٥ . ٢)) خيرالدين الزركلي ١٩٩

٣)) جريدة ألف باء الدمشقية السنة الأولى ، العدد ١٧٧

٤)) السهام ٤١

دويلات تفرقها حدود مزيفة أقيمت ثم قسرا
وتجمعها العروبة وهي روح مقدسة بها الخلد استقرا

وقد انعقدت آمال العرب على فيصل بن الحسين بطل الثورة العربية ، في توحيد وطنهم الممزق ولم شعثهم المفرق ، وهذا محمود الحبوبي يخاطبه معبرا عن تلك الأماني العذاب بقوله : (١)

بشرت بالفوز قومي العرب مذ عقدت
عليك يا فخرها آمالها العرب
فانهض لتوحيدها واجمع مواطنها
كما يضم بنيه التائهين أب
حقق كبار أماني انت باعثها الى اتحادهو الآمال والأرب

= ٢ =

لقد غدا العرب بعد ان ابتلوا بالتجزئة اثر دخول المستعمرين بلادهم واقتسامها ، يتلهفون على ضم ما انفرط من عقدهم فكان كل قطر يحسن الى وصال جاره ، وكل شلو ممزق يسنزع الى التقرب من صنوه والاتحاد به ، لأن هذا الاتحاد ان هو الا مرحلة في سبيل الوحدة الكبرى ، وخطوة نحو اقامة الوطن العربي الكبير .

ويعبر بدوي الجبل عن هذه الرغبة الملحة في تلاقي الشقيقتين سورية ولبنان بعد ان حال دون ذلك الدخيل الأجنبي فهو يقول : (٢)

لبنان والغوطة الخضراء ضمهما ما شئته من ادب عال ومن نسب
مافي اتحادهما تالله من عجب هذا الفراق لعمرى منتهى العجب

والواقع أن المهجريين الذين غادروا لبنان واستقر بهم المقام في امريكا لم يكونوا يترددون في اعتبار انفسهم سوريين سواء في احاديثهم او صحفهم او خطبهم او اشعارهم ، وكان تآخيهم في تلك الأرض النائية نموذجا لوحدة القطرين .

---

(١) الديوان ٧٠ (٢) الديوان ١٧٣

ومن جهة أخرى كان ثمة تجاوب مماثل بين شعب الشام وشعب العراق اللذين رسم (سايكس وبيكو) الحدود بينهما أيضا على الورق ، ثم خططتها دولتا الاستعمار فوق رمال عربية كانت الرياح تعصف بها صباح مساء معلنة وحدة القطرين وسائر اقطار العرب ، وقد عبر بدوي الجبل كذلك عن هذه الحقيقة بقوله : (١)

ليس بين العراق والشام حد   هدم الله ما بنوا من حدود

كما ندد محمد مهدي الجواهري بعبث الاستعمار في أرض الوطن وفصله بين الشام والعراق ، في حين أن الطبيعة هي التي أجرت بينهما الفرات العذب وجعلتهما تنهلان من منبع واحد : (٢)

شقي دمشق فلا حد ولا سمة   ولا خطوط كلعب الطفل تبتدع
تقصيك عن أرض بغداد ودجلتها   أما الفرات فنبع بيننا شرع

وما الشام والعراق لدى أبي الفضل الوليد الا اختان ربطت بينهما آصرة العروبة (٣)

الشام أخت للعراق وفيهما   نور العروبة للضليل الناشد
أهلوهما ابناء عم كلهم   عرب بآداب لهم وعوائد

وكذلك يعبر محمد رضا الشبيبي عن شعوره وشعور كل عربي حين يغادر بلده الى بلد عربي مجاور فيقول (٤)

وما أنا في أرض الشآم بمشئم   ولا أنا في أرض العراق بمعرق
هما وطن فرد وقد فرقوهما   رمى الله بالتشتيت شمل المفرق

وبمثل هذا التجاوب كان الشعراء يعبرون عن عاطفة الأخوة بين المصريين والعراقيين . واكثر ما كان ذلك يحدث حين يتزاور أبناء الشعبين ويلتقيان ، اذ تنطلق مشاعر الأخوة الكامنة

---

(١) الديوان ٣٩
(٢) الديوان ٣ ــ ٨٥
(٣) نفحات الصور ٥٦
(٤) الديوان ٤٢

متدفقة نبيلة ، كما تجلى ذلك في أبيات لعزيز فهمي يعرب فيها عن حبه الدفين وحب المصريين جميعا لأخوتهم في بلاد الرافدين (١)

أهلا لمقدمكم فما حنت ركائبنا على شجر الى أوطان
انا لتجمعنا بكم اقوى العرى والأمن ابقاها على الأزمان
ويزيدكم حبا الينا اننا في الحزن والآلام مشتركان
ويكاد من شوق اليكم يلتقي لولا التخوم النيل والنهران
بغداد اني قد رضيتك موطنا مصر وانت اليوم لي وطنان

وقد عزف شعراء مصر والسودان ألحان الاخاء بين شعبيهم ، ونادوا بوحدة وادي النيل في كل مناسبة قومية . وهذا أمير الشعراء شوقي يرى ان القطرين ليسا الا عضوين لجسم واحد فهو يحذر من فصلهما اذ يقول (٢) .

احذروا من قسمة النيل فما . ضيمة الوادي اذا النيل انشطر

أما محمد الأسمر فكان متلهفا على وحدة شعب وادي النيل وهو في ذلك يعكس رغبات الملايين في مصر والسودان ، وقد خص السودان الشقيق بقسم من ديوانه . ومن قصائده في هذا الصدد قوله (٣) .

نحن الشقيقان الوفيان على مر الزمن
ونحن مذ كنا ، له ان لم نكن له فمن
قلوبنا وحدها في السر منا والعلن

وهو يدعو بحرارة الى وحدة القطرين ويناجي أبناء وادي النيل بقوله (٤)

جل ربي عن الشريك فما يجري سوى مايشاؤه ويريد
يابني النيل (منبعا) و (مصبا) وحدوه ، فديننا التوحيد

أما التجاوب بين الشام ومصر وحنين كل شعب فيهما الى وصال الآخر فقد كان قويا وعميقا عبر عنه شعراء القطرين

---

١)) الديوان ٢٩ ٢)) الشوقيات ٢ ـ ٢٠٢
٣)) " ٢١٨ ٤)) الديوان ٢١٦

منذ فجر النهضة الحديثة وتجلى في قول حافظ ابراهيم قبل اكثر من خمسين عاما اذ قال : (١)

لمصر أم لربوع الشام تنتسب ... هنا العلا وهناك المجد والحسب

هذى يدى عن بني مصر تصافحكم ... فصافحوها تصافح نفسها العرب

وعندما زار لبنان شاعر النيل نفح أهله بتحية الأخاء الخالص في قصيدته " تحية الشام " قال فيها (٢)

لي موطن في ربوع النيل اعظمه ... ولي هنا في حماكم موطن ثاني

وقد تملك الشعراء السوريين هوى لاحد له تجاه مصر اذ كان العرب قاطبة وبخاصة السوريون يتطلعون الى أرض الكنانة ويحلونها محل الزعامة في قيادة العرب وتحقيق أمانيهم المنشودة في التحرر والاتحاد ، وهم لم ينسوا انها كانت ملجأ لأحرارهم وسائر أحرار العرب في أيام محنتهم ، ومنبرا حرا لنشر آرائهم المتحررة والتبشير برسالتهم القومية . ولم يكد يتخلف عن الاشادة بروابط الأخاء بين البلدين شاعر عالج الشعر القومي . وكان في مقدمة الذين بشروا بفجر الوحدة في أحلك الأوقات وابان الاحتلال الفرنسي خير الدين الزركلي وشفيق جبري وخليل مردم ومحمد البزم ومحمد الفراتي ومحمد الشريقي وأمجد الطرابلسي وسواهم من الشعراء .

وقد عبر شفيق جبري عن هذا الشعور الفياض منذ أن ثارت مصر ثورتها الشاملة عام ١٩١٩ فقال (٣) :

بين الكنانة والشآم أواصر ... مشدودة كأواصر الارحام

ما هاج في ظل المقطم هائج ... الا سرت اصداؤه في الشام

وحين زار أمير الشعراء دمشق عام ١٩٢٥ تدفقت مشاعر شفيق جبري بصدق وحرارة قل أن نجد لهما نظيرا عند شاعر آخر (٤)

---

(١) الديوان ١ ــ ٢٦٨ (٢) الديوان ١ ــ ١٣٤

(٣) جبري الأشقر : المختار ٤

(٤) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مج ٥ ، ج ٨ ، ص ٣٨٨

تلك الأواصر لم تزل معقولة — من عهد عمرو لم يحل عقالها
كهفان تضطرب العروبة فيهما — حتى تجول على السنين مجالها
واذا الشدائد بالكنانة احدقت — وثبت دمشق فقطعت أوصالها
لوتشتكي مصر اذا بشمالها — بترت ربوع الفوطتين شمالها

ومما يدل على هذا الهوى العميق في نفس الشاعر نحو مصر أنه عاد الى تصوير عواطفه الملحة حين زار حافظ ابراهيم دمشق عام ١٩٢٩ فقال (١)

اذا بكت جنبات النيل من ألم — بكت دمشق بدمع منه هتان
أواصر بيبان العرب محكمة — النيل والشام في الآلام صنوان

ونحن نقع على المشاعر نفسها في قول خليل مردم حتى كأن مصر غادة يتلهف الجميع على وصالها (٢)

مصر العزيزة والشآم على الولا — الفان ضمهما هوى وغرام
من عهد عمرو لم تحل عظيمة — في مصر الا شاركتها الشام

وكذلك يرى محمد الفراتي أن مصر والشام أختان وكأنه يستنكر انشطارهما فيقول (٣)

أمة الشام والشآم قديما — اخت مصر المبارك المعمور

وتعتبر قصيدة محمد الشريقي من أبرز ما قيل في وحدة الشعبين المصري والسوري منذ بضع وثلاثين سنة ومن أبياتها قوله (٤)

أ الى مصر أم الى الشام تصبو — والشقيقان واحد في وصاله
وطن العرب خافه كل عات — أغرق الفاتحين بحر رماله
مصر والشام فرعه الوارف الظل — وأهل المقطرين من أشباله
مصر والشام مشرقان لشمس — ضاء منها الزمان في اقباله
مصر والشام لن تموتا وان جار — علينا الدخيل يوم نزاله
مصر والشام مطلعان لفجر — عربي غطى على آصاله

---

١)) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مجد ٩ ، ج ٦ ، ص ٣٧١
٢)) جريدة الفيحاء الدمشقية عدد ٥ آب ١٩٢٥
٣)) الديوان ١٩ ٤)) ديوان الثورة ٩٢

نهضا يبعثان عصرا قديما — في جديد حاكا على منواله
مصر والشام دوحتان لشعب — صانه الله ، مد في أظلاله

كل هذه المشاعر المفياضة ، والتجاوب المميز تجاه مصر لم تكن في الحقيقة الا ارهاصا بالتيار القومي الجارف الذى شمل الشعبين بعد ذلك ، وآل الى وحدة القطرين كفاتحة مباركة لوحدة العرب الشاملة .

= ٣ =

على أن الوحدة الشاملة والدولة الكبرى كانت هدف العرب الأول وأمنيتهم الغالية وهي رغبة أصيلة في نفوسهم لم تزحزحهم عنها نوائب الدهر ومكائد المستعمرين ، وقد تجلى ذلك اشد ما يكون منهم ابان الحرب الأولى ، في ثورتهم العربية الكبرى ، ثم في غضبتهم المضرية الشاملة على تجزئة بلادهم ، واستنكار اقامة الحدود بينهم كما تبين ذلك من خلال قصائد الشعراء ومقطوعاتهم . والحق ان هؤلاء الشعراء لم يكونوا يتحدثون عن السوري واللبناني والمصري والجزائري والعراقي الا كما يتحدثون عن الحلبي والبيروتي والاسكندري والوهراني والموصلي .. وكما قال حسن البحيري : (١)

لا يعرف العربي في الأحداث — بالمصري والسوري واللبناني
فالشرق تجمعه العروبة عروة — أدنت اقاصي مصر من بغدان

لقد كان اجتماع شمل العرب الممزق حلما يداعب أخيلة الشعراء وهذا ما جعل الحيا من طوحا ت يقول (٢) :

ان مر الموت يحلو — في سبيل الاتحاد

وعندما بلغ أرض البرازيل أول سفير لمصر بادر شكرا للله الجر اليه بسائله بلهفة المشوق المستهام وكأنه يرى فيه نفحة

---

(١) ابتسام الضحى ٧١ (٢) الديوان ١٦٩

من بلاده وقومه : (١)

كيف حال العراق، بل كيف مصر	كيف لبناننا وكيف الشآم
أتراها لدى صروف الليالي	لم يزل دأب أهلها الانقسام
لو تطير الرجوع طرنا اشتياقا	لبلاد هي المنى والمرام

فالشاعر بحنينه الطاغي الى وطنه ينظر الى بلاد العرب المتعددة على أنها وطن واحد أو أعضاء في أسرة واحدة فهو يستفسر عنها الواحد بعد الآخر ويأسى لتقاطعها .

ويؤكد الياس فرحات هذه النظرة الوجدانية الى أوطان العرب بقوله (٢)

انا وان تكن الشآم ديارنا	فقلوبنا للعرب بالأجمال

وهكذا كانت تتجلى لهفة الشاعر العربي على رؤية بلاده متحدة ولو كان في أقاصي الأرض .

ويتوق عبد الغني الخضري من أرض الرافدين الى هذه الوحدة الكبرى المنشودة ويحث قومه على السعي لبلوغها فيقول (٣)

أبناء بغداد الجميلة نهضة	لسلامة الأبناء والأحفاد
فبكم لنا أمل جميل يزدهي	زهو الربيع الطلق بالأوراد
فمتى نحققه على أيديكم	متواصل الأسياد بالأسياد
فمتى نحقق للعروبة وحدة	كبرى تضم شتاتها المتمادي

(ونمة تعبير جميل عن نزوع العرب الى الوحدة الشاملة لدى حليم دموس الذي وفق في تصوير عواطفه القومية من خلال تصويره لطبيعة بلاده الساحرة حيث يقول (٤)

وتقارب الأرواح ليس يضيره	بين الديار تباعد الأجساد
أفما رأيت الشمس وهي بعيدة	تهدي الشعاع لأنجد ووهاد
أنا كيف سرت أرى الأنام أحبتي	والقوم قومي والبلاد بلادي
بردى كدجلة والفرات محبة	والنيل كالأردن طي فؤادي

---

(١) الروافد ١٢ (٢) الديوان ٢٠٣
(٣) الديوان ٩٦ (٤) المثالث والمثاني ١٣٢

وأرى الرصافة في العراق وكرخها كالصالحية مرقد العباد
والغوطتين وكرم وادي زحلة كنخيل مصر في ظلال الوادي
وحفيف هذا الأرز في لبنانه كحفيف ذاك النخل في بغداد

ومع أن مضمون القصيدة لا يخرج في جوهره عما قصد اليه الشاعر في بيته الأول . فأننا نستمتع بوقع هذه الأماكن من بلاد العرب على اسماعنا ، وقد طاب للشاعر العزف على وتر الوحدة العربية والترنم بذكر بلدان العرب وبسحر طبيعتها بعد أن اضفى عليها من روحه وفنه .. وهذا الجانب الشعوري والعاطفي كان السمة البارزة للنزوع نحو الوحدة الشاملة لدى الشعراء العرب بصورة عامة). ونحن نجد هذه الروح أيضا لدى الشاعر القروي الذي كان يعيش تجربة الوحدة العربية بجوارحه ، فهو يعبر عن تعلقه بها بما يشبه لهفة المتصوفة اذ يقول (١) :

هبوني عيدا يجعل العرب أمة وسيروا بجثماني على دين برهم
سلام على كفر يوحد بيننا وأهلا وسهلا بعده بجهنم

وما أروع تصويره لوحدة مشاعر العرب برغم تجزئة بلادهم واختلاف ديارهم حين قال (٢)

وما ضرنا أن لم يك العرب وحدة وقد وحدتنا في الجهاد المقاصد
أصابع كف المرء في العد خمسة ولكنها في مقبض السيف واحد

وقد رأى أمجد الطرابلسي في وحدة النضال بين العرب وفي آلامهم المشتركة بشيرا بالوحدة العربية المنشودة فراح يقول بلهجة الواثق المطمئن (٣) :

وحدة العرب مزقت حجب الليل ـ وشعت ملء الفضاء المنير
ملأت شمسها النهار فمنذا ينكر الشمس غير كل ضرير
عرب نحن ما نذل لباغ مستبيح ولا ندين بنير
وحدتنا مواجع القيد حينا فارقبوا اليوم وحدة التحرير

---

(١) الديوان ٣١٥ (٢) الديوان ٤٣٩
(٣) مجلة الرسالة السنة السابعة ص ١٠٦٠

والحق ان الظاهرة التي يسجلها الشعر العربي باعتزاز أن سياسة الأمر الواقع التي استمر المحتلون في تطبيقها على بلاد العرب واصرارهم على تثبيت الحدود بينهم ، لم تستطع ان تنال شيئا من نفوس أبناء الشعوب العربية ، فقد ظلوا على الدوام يحرون في تجزئة بلادهم تقطيعا لأوصال امتهم .

وقد تجلى هذا الشعور قويا على السنة الشعراء .

وهذا حسن البحيري يقول (١) :

لئن فرقتنا اكف الخطوب   ديارا تقاسمها المقتسم

فأن لنا في طوايا القلوب   لشملا تأصل في كل دم

ولعل فيما قاله محمد مهدي الجواهري في الأبيات التالية تعبيرا صادقا عن الشعور القومي الفياض الذي يشعر به كل عربي يغادر بلده الى بلد آخر شقيق ، فهو يصور مشاعره اثر ارتحاله من العراق الى فلسطين بقوله : (٢)

أقلتني من الزوراء ريح   الى يافا وحلق بي عقاب

وراح البلد منبسطا عليه   من الزهرات يانعة خضاب

وقلت وما أحير سوى عتاب   ولست بعارف لمن العتاب

أحقا بيننا اختلفت حدود   وما اختلف الطريق ولا التراب

ولا افترقت وجوه عن وجوه   ولا الضاد الفصيح ولا الكتاب

لئن حم الوداع فضقت ذرعا   به واشتف مهجتي الذهاب

فمن أهلي الى أهلي رجوع   وعن وطني الى وطني اياب

= ٤ =

أما الدولة العربية الموحدة فقد كانت مشيئة شعوب تؤمن بأنها أمة واحدة ومن حقها أن تعيش في وطن واحد . ويبدو أن صورة الدولة العربية الكبرى التي أقامها العرب في أوج ازدهارهم والتي امتدت من حدود الصين الى شاطيء الأطلسي

---

١)) ابتسام الضحى ٦٢   ٢)) الديوان ١ ـ ١٨٨

لم تكن تبرح مخيلة الشعراء ، وقد انبعثت هذه الفكرة قوية ابان الحرب الكبرى حين تفجر الشعور القومي في نفوس العرب ولم تكن الثورة العربية الكبرى في الواقع الا مظهرا فعالا لهذه الرغبة الملحة . وهذا أبو الفضل الوليد يعبر عن تلك المشاعر التي استمدها من علم الثورة آنذاك قائلا (١)

لك الفتوح التي في الصين آخرها — وفي المحيط شهدت الموج يلتطم

من الحجاز الى أرض الشآم الى — أرض العراق لك الآفاق تبتسم

وقد عبر عبد المحسن الكاظمي عن هذه الأماني بأقامة الوطن الكبير الذي يأمل العربي ان يتنقل في ربوعه أنى أراد فقال (٢)

حبذا يوم يشتم المعرقونا — حبذا يوم يتهم المنجدونا

حبذا يوم يصبح العرب طرا — في جميع البلاد متحدينا

وكان العرب منذ اوائل هذا القرن يرجون الخلاص من نير العثمانيين ويطمحون الى تأسيس دولة عربية تضم الأقطار التي كانت خاضعة لسلطة الآستانة واذا كانت الظروف السياسية قد اقتضت ان يسعى العرب يومئذ الى وحدة تضم عددا معينا من اقطارهم ، فليس معنى ذلك ان الشعراء اعتبروا هذه المرحلة غاية في ذاتها فهم لم يكونوا ليرضوا عن الوحدة الشاملة بديلا ، وحدة تضم العرب قاطبة وتستعيد ايام الأمويين والعباسيين . وكان في طليعة من تغنوا بهذا الأمل أبو الفضل الوليد أيضا فقد عبر من مهجره القصي عن استبشار لاحد له باستعادة عهد المأمون والرشيد اثر نشوب الثورة العربية ابان الحرب العالمية الأولى ، اذ قال في قصيدة اسماها " الدولة العربية " (٣)

الله اكبر عادت دولة العرب — بشرى لهارون والمأمون في الترب

---

(١) الانفاس الملهبة ١٢٠ — (٢) الديوان المجموعة الأولى ١٧٠

(٣) الانفاس الملهبة ٨٥

دمشق حنت الى بغداد واضطربت مصر التي هي دار العلم والطرب
على الثلاثة شاد العرب دولتهم ياحبذا دولة الأسياف والكتب

وفي تسمية الشاعر نفسه احدى قصائده القومية باسم "الأموية" دليل على الحاح صورة تلك الدولة العربية التي شادها الأجداد ، على نفسه فهو يقول (١)

قل للأعاجم والخوارج مهلكم لن تفصلوا ما ليس بالمفصول
فمن العراق الى الشآم الى الحجاز — الى حمى سبأ الى بلاد نخيل
والغرب من مصر الى مراكش مع كل قطر بالهدى مشمول
أغصان جذع او مرازع كرمة وجميعها صلة من الموصول

وفي قصيدة أخرى يعبر ابو الفضل أيضا عن هذا الهوى العميق الذي يكنه نحو العروبة ودولتها المنشودة التي ملكت عليه مشاعره فيقول (٢)

نعم موطني لبنان لكن مولدي به عربي كاللؤلؤ من السحب
فلا قوم الا العرب لي وأنا لهم على الهون والنعماء والسلم والحرب
فأعظم واكرم باتحاد ونسبة الى دولة تمتد في الشرق والغرب
وما هي الا أمة عربية دما ولسانا ليس تفصل بالترب

وكان الشيخ فؤاد الخطيب شاعر الثورة العربية في طليعة الداعين الى توحيد شمل العرب في دولة واحدة مرهوبة الجانب . وقد وجد في هذه الدول الصغيرة التي قامت على اشلاء الوطن الممزق بتدبير من المستعمر أمرا غير مقبول وبخاصة بعد أن اتجه الشبان في كل قطر الى تقديس هذه الحدود الموضوعة في صلب الوطن العربي ، وقد اشار الى ذلك في قوله منذ أوائل عهده بالنضال (٣)

ولقد برثت الياس من وطنية ليست تجاوز موطن الميلاد

وقل ان نجد لمشاعر اليأس فرحات نظيرا في تصويره الرائع لهذا

---

١)= نفحات الصور ٧٥ ٢)= الانفاس الملهبة ص ٢
٣)= الديوان ٦٤

الوطن العربي الكبير الذى يخفق له فؤاده بقوة من وراء البحار حين قال (١)

أرى موطنا كالنسر يبدو خياله — على الأرض ثبتا وهو في الغيب طائر
جناحاه مصر والعراق ، وصدره — الشام ومجموع الجزيرة سائر
يذود جناحاه عن الجسم كله — وتفدى جناحيه الضلوع الحرائر

وفي تشبيه دولة العرب المنشودة بالنسر وأقطارها بأعضائه تعبير رائع عن وحدة العرب في وطنهم الكبير .. وكذلك نستمع من المهجر الى مناجاة نسيب عريضة شاعر الحنين وهو يصور مشاعره تجاه بلاد العرب التي انصهرت اجزاؤها في قلبه فخرجت على لسانه متحدة متآخية (٢)

الأهل اهلي واطلال الحمى وطني — وساكنو الربع اترابي وأقراني
لاحد عندى ان جارت حدود هم — الشام شامي ومصر اخت لبنان
وفي فلسطين اقداسي وعاطفتي — في نجد والقبلة السمحاء ايماني
لي العروبة أمشي في مخارفها — من العراق الى مابعد وهران

وثمة قصيدة تنسب لفخرى البارودى غدت نشيدا حماسيا طالما ترنم بنبراته الشبان العرب ، وانتشوا بألحان الوحدة العربية التي انسابت من مقاطعه ، ومنه

بلاد العرب أوطاني — من الشام لبغدان
ومن مصر الى يمن — الى نجد فتطوان
فلا حد يمزقنا — ولا دين يفرقنا
لسان الضاد يجمعنا — بغسان وعدنان

فقد هز الطلاب بهذه القوافي في مظاهراتهم اللاهبة ضد الفرنسيين في سورية وسارت على لسان كل عربي مناضل حتى غدت نشيدا جماهيريا قوميا .

وفي خلال هذه الحرب الأخيرة يتعاظم الشعور القومي في النفوس ويتحفز العرب لأخذ مكانهم اللائق بين الأمم من

---

(١) الديوان ١٣٢ (٢) الديوان ٢٤٥

جديد ، فقد راحوا يترقبون انتهاء التطاحن الرهيب بين الدول الكبرى بلهفة ، ويرقبون من وراء دخان المعارك ذلك الفجر الجديد الذي أخذت ملامحه في الظهور بجلاء . وقد عبر أحمد الصافي النجفي عن هذا الشعور الصارم خلال سني الحرب بقوله (١)

أوحد سورية بالعراق، واجمع لبنان في بابل
ولي نسب جال في الكائنات ومن عاهل سار في عاهل
سيبقى يطوف الى أن يقيم على ذروة الوطن الكامل

وتكون ولادة الجامعة العربية في أواخر هذه الحرب أولى ثمرات الوعي العربي ، اذ استبشر الشعراء بهذا الحدث وطفقوا يتغنون به ويعتبرونه عيدا قوميا . وهذا أحمد محرم الذي كان أحد شعراء الجامعة الاسلامية يبادر الى احتضان تلك الجامعة ويقول (٢)

أمم العروبة جاء يومك فاعملي والى مكانك فانهضي وتقدمي
ضمي القوى وتجمعي في وحدة عربية تحمي اللواء وتحتمي
أمم العروبة جد جدك فانظمي من عقدك المنثور مالم ينظم
لك ان تسودي تحت رايتك التي خفقت لها الدنيا فسودي واسلمي

كما تغمر هذه العواطف القومية شاعرا مثل علي الجارم كان بعيدا عن تناول مثل هذه الموضوعات في شعره فيهلل لتلك المناسبة القومية بقوله (٣)

لقد كان حلما ان نرى الشرق وحدة
ولكن من الأحلام ما يتوقع
فليست حدود الأرض تفصل بيننا
لنا الشرق حد والعروبة موقع

---

(١) الحسان اللهيب ٢٩

(٢) انظر محمد حسين : الاتجاهات الوطنية عن ديوان مخطوط للشاعر ٢ ـ ١٧٥

(٣) الديوان ٤ ـ ٤١

وبرغم أن العرب كانوا يتوقون الى اتحاد اشد احكاما من جامعة تضم دولهم فحسب ، فقد عم الابتهاج النفوس يوم توقيع الميثاق من قبل الدول السبع يومذاك ورأى فيه العرب خطوة اولى نحو الوحدة المنشودة وفاتحة عهد جديد في حياة العرب ، وقد انعكس ذلك كله جليا في نفوس الشعراء وبدا في قصائدهم بأسمى معانيه ، على نحو ما رأيناه في أبيات محرم والجارم ٠

(ومما لاريب فيه أن هذه الوحدة العربية التي طالما تغنى بها الشعر المعاصر وتاق العرب الى تحقيقها ، لم تكن رغبة شعب واحد في قطر من أقطار الوطن العربي ، وهي ليست أيضا رغبة آنية طارئة تنشط في يوم لتموت بعده وانما هي أمل كل عربي واع يسكن هذا الوطن من اقصاه الى أقصاه ، وكان هذا الشعور يزداد عمقا وقوة كلما ازداد الشعب ادراكا لأهدافه ، وتمرسا بقضيته ٠ وما تعبير الشعراء البليغ عن ترابط اجزاء البلاد العربية الا مظهر بارز لرغبة جماهير العرب الأصيلة وشعورهم المتطلع في النزوع نحو الوحدة الشاملة ٠)

ومع أن العرب كانوا يرسفون في القيد ويصارعون الاستعمار فأن خوضهم معركة التحرر والمصير الضاربة لم يكن ليصرفهم قط عن قضية توحيد أقطارهم بل انهم وجدوا في وحدتهم ضمانا لاستقلالهم وتحررهم وقد رأينا الشعراء ينادون بهذا الهدف المزدوج التحرر والوحدة وهم في احلك ساعات نضال الأمة مع الاحتلال ، حتى اذا ما انحسر طغيانه وتقلص ظله بعد ذلك ، راحوا يبشرون بالوحدة الكبرى بأيمان لاحد له

×× ❋ ××

مما سبق يمكننا ان نخلص الى القول ان سائر المقومات القومية الأخرى لتيار العروبة ، من وحدة في الأصل وفي اللغة واشتراك في التاريخ والذكريات والآمال والآلام ، كانت في الواقع

بمثابة روافد غزيرة للنزوع الى الوحدة العربية الشاملة . لقد كانت هذه الوحدة أمل العرب ومحور حياتهم القومية بعد تحررهم ، كما كانت الدعوة اليها والتبشير بها ديدن شعرائهم المعاصرين في شتى اوطانهم ومهاجرهم . وبذلك ينتهي الكلام على تيار القومية العربية رصدنا سيره ، وسبرنا غوره من خلال النتاج الشعري الحديث .

×× ×× ××

وبعد فأن ماتناولناه بالدراسة في هذا الجزء من البحث كان محاولة لاكتناه الاتجاه العربي في شعرنا القومي باعتباره دعوة صافية متميزة تنزع الى تكوين مجتمع عربي جديد على أسس قومية عربية ، مستقلة عن الاتجاهات والنزعات الأخرى التي كانت تفترق عن العروبة أو تنافيها .

الا أن ثمة جوانب بالغة الخطورة من التيار القومي الشامل بدت جلية من جهة أخرى فيما طرقه الشعراء من موضوعات عبروا فيها عن واقع امتهم ، وما خاضته من معارك ، وما مر بها من أحداث ومحن ، وماتعرضت له من أزمات وهزات . فقد حمل الشعر المعاصر رسالته القومية والاجتماعية وبشر بها بدأب في ميادين متعددة ، فقاوم الاستعمار وناضل الاستبداد ، وحض على التمرد والثورة ، ونادى بالتضامن والأخاء ، وصور آيات البطولة والفداء . وكان في كل ذلك مستجاوبا مع مشاعر العرب وأمانيهم ، يعكس منازعهم واحوالهم ويعبر عن قلقهم واضطرابهم ، وتأرجحهم بين نور الحق ونار القوة ، وبين جزر اليأس ومد الأمل .. وكل هذه الجوانب الحية هي في الواقع جزء لايتجزأ من صورة حياة العرب القومية الحديثة ، التي نطمح الى استجلاء ملامحها متكاملة من خلال الشعر المعاصر .

الباب الثالث

موضوعات الشعر القومي

الفصل الأول	مقاومة الاستعمار
الفصل الثاني	التنديد بالاستبداد وفساد الحكم
الفصل الثالث	استنهاض الهمم والحض على الثورة
الفصل الرابع	التضامن والاخاء .
الفصل الخامس	البطولة والفداء .
الفصل السادس	بين الحق والقوة

الفصل الأول

مناضلة الاستعمار

- ١ -

قصة العرب مع المستعمرين ملحمة دامية تعاقبت احداثها الرهيبة على أرضهم ولما تتم فصولا حتى هذا اليوم . وطبيعي ان يجد موضوع الاستعمار الذي اقتحم حياة العرب قاطبة عشرات السنين ، صداه البالغ في الشعر المعاصر ، ويغدو من أبرز جوانب ادبنا القومي .

(لقد كانت الدولة العثمانية على ضعفها وفساد حكمها الدرع المنيعة التي صانت البلاد العربية من كيد المستعمرين أمدا طويلا . ومع ذلك استطاع الانكليز بمساعدة حكام مصر أن ينفذوا الى أرض الكنانة اثر قمع ثورة عرابي ، وراحوا بعدها يتطلعون الى العراق الغني بالنفط ، وكانت فرنسا لاتخفي مطامعها في بلاد الشام خلال القرن التاسع عشر ، وتدعي انها حامية الكاثوليك في لبنان . ثم وجد الحلفاء في الحرب الكبرى الأولى فرصة لتحقيق اطماعهم المشتركة فاجتمعوا خلالها سرا واقتسموا بينهم الشام والعراق . ثم منحت بريطانيا فلسطين لليهود لتكون وطنا قوميا لهم . كل ذلك والعرب لايدرون من الأمر شيئا . ولم يقف المستعمرون عند هذا الحد بل راحوا يستغلون استياء العرب من استبداد الترك وأخذوا يشجعونهم على الانتفاض ضد الدولة العثمانية ويكيلون لهم أجزل الوعود في التحرر والسيادة ..

ولم تكن الثورة العربية الكبرى التي قامت ضد الترك وتحالفت مع الحلفاء سوى خدعة كبرى ذهب العرب ضحيتها نتيجة " سذاجة زعمائهم وايمانهم الصبياني في تصريحات الساسة الغربيين وبياناتهم " (١) .) وهكذا تسلل المستعمرون الى بلاد العرب

---

(١) نجلاء عزالدين : العالم العربي ٢١٣

من قلب ثورتهم الكبرى . ولكم وجدنا من الشعراء من كان أبعد نظرا من اولئك الساسة المترعمين في فهم حقيقة الاستعمار ، فمنذ أن وطئت اقدام الانكليز أرض العراق في أوائل الحرب العالمية الأولى بدعوى تحريرها من الترك كان معروف الرصافي أول من حذر من وعودهم الخلابة ، ومازعموه من الخلاص للعرب فقال[(١)]

معشر العرب أين أنتم من القوم — اذا ما تم انقلاب الزمان

ليس تلك العهود ياقوم الا — كعهود الذؤبان للحملان

ولقد تم انقلاب الزمان وتكشفت سحب الحرب عن الحقيقة المروعة وحصل ماتوقعه الرصافي فأصبح الحلفاء الشرفاء محتلين ، والأصدقاء الخلص مستعمرين ، وكان جرح لكرامة العرب كبير عبر عنه شعراؤهم أبلغ تعبير .

(ويمكن القول ان شطرا من الشعر القومي الذي قيل في هذا الصدد انما اتجه الى التنديد بأساليب الختل ، وأحابيل الوعود التي كانت ابرز ما ساس به الاستعمار البلاد المستضعفة ، وقد غدا كل شاعر عربي آنذاك يحس في قرارة نفسه بأنه وأمته ضحية الخداع والتضليل وسيتجلى لنا هذا الشعور لدى كثير من الشعراء ، من ذلك ماقاله محبوب الخوري الشرتوني في قصيدته " دمعة على العرب "[(٢)]

قالوا اذا ما الحرب اغمد سيفها — للعرب من دراك المنار قيام

فاذا بأضواء البروق كواذب — واذا بمربد السحاب جهام

يتقاسمون من البلاد عراصها — والمقاطنين كأنهم أنعام

وقد عبر أيضا أمين ناصر الدين عن شعور الخيبة المرير الذي تملك العرب في اعقاب تلك الحرب فقال[(٣)]

ولما بشروا بالصلح قلنا — لكل رزية نزلت زوال

وأملنا النجاة فما رجونا — سوى أمر حقيقته خيال

ومانفع العهود مسطرات — اذا كانت تناقضها الفعال

---

(١) الديوان ٤٧٦ (٢) الديوان ٨٢

(٣) الالهام ٨٣

وحين توفي الحسين بن علي زعيم الثورة العربية تجدد في مراثي الشعراء الشعور المرير تجاه الغدر الاستعماري . وقد أشار خليل مطران الى ذلك ومنّ على الحلفاء بموازرة العرب لهم حيث قال (١)

أين الذى سجلوه في رسائلهم ... ورددوه من الأيمان في الخطب

لولا ممونة ذاك الحلف لانقلبوا ... دون الذى أملوه شر منقلب

ولم يختلف ما قيل في تمجيد فيصل بن الحسين أو في رثائه عن مثل هذا التنديد بوعود المستعمرين وأحابيلهم ، فالشاعر السياسي قنصل يناجيه من وراء البحار ويشير الى تواطؤ فرنسا والانكليز وارسالهم (غورو) الى سورية لاحتلالها والأطاحة بالحكم العربي فيها (٢)

نصت سياستهم على ان يغدروا ... وأبيت رغم خداعهم ان تغدرا

وأغثتهم فنسوا ولو ذكروا لما ... بعثوا الى الفيحاء ذاك الأعسرا

ومن أبرز القصائد التي قيلت في هذا الصدد مرثية الأخطل الصغير التي انشدها في ذكرى فيصل أيضا وهي مفعمة بشعور الأسى والمرارة تجاه الغرب المخاتل حيث يقول معرضا بالحلفاء (٣)

حدثونا عن الحقوق فلما ... كبر النصر أحوجتنا التراجم

نفحتنا بها الحروب سلاما ... ورمانا بها السلام أداهم

بل اننا نلمس لدى الشاعر نفسه بعد سنين أثرا آخر لهذا الجرح البليغ الذى خلفه المستعمرون في قلوب العرب ، وذلك في قصيدته التي نظمها على أثر استفحال الخطبة في فلسطين وقال فيها (٤) .

---

١) الديوان ٤ ـ ٩٢ ٢) السهام ٥٤

٣) أنيس المقدسي : العواطف القومية في الأدب العربي ٣٠٠

٤) الهوى والشباب ١٥٦ ، وكان الشاعر قد أعدها لينشدها في احتفال هيأته مدينة حمص انتصارا لفلسطين ولكن السلطات الفرنسية حالت دون ذلك .

قل (لجونبول) اذا عاتبته ... سوف تدعونا ولكن لاترانا
قد شفينا غلة في صدره ... وعطشنا فانظروا ماذا سقانا
يوم نادانا فلبينا الندا ... وتركنا نهبة الدين ورانا
ذنبنا والدهر في صرعته ... أن وفينا لأخي الود وخانا

وبرغم لهجة الاعتدال في هذه الأبيات فهي تشير الى أن العرب في ثورتهم الكبرى وفي محالفتهم الانكليز قد سلوا سيوفهم في وجه السلطان المسلم وانتقضوا على دولة الخلافة ضاربين برابطة الدين المشتركة عرض الحائط في سبيل تحررهم فاذا هم يجزون جزاء سنمار .

وكان أبو الفضل الوليد في اشارته الى هذا الأمر شديدا على دول الغرب كما كان شأنه في أكثر شعره ، وهو أيضا يشيد بفضل العرب عليهم ويقول (١)

قد حالفوه وظفروه بالعدا ... حتى استبد وكان أضرى آسد
فعليه لعنتهم ولعنة نسلهم ... مادام الكذب واعد ومواعد

أما مبادئ الرئيس الامريكي (ولسون) التي ارتكزت على حق تقرير المصير للأمم المستضعفة فقد حسب فيها العرب الذين أغرقهم طوفان الاستعمار منجاة لهم ، حتى أن عددا غير قليل من الشعراء انتشوا بها فلم يترددوا في مدح امريكا وسياستها ورئيسها وكان منهم عبدالمحسن الكاظمي والياس فرحات ومسعود سماحة وغيرهم (٢) . وسرعان ماتبين العرب أن مابدا لهم مساء لبس الا سرابا . ولذلك كان رد الفعل شديدا لدى الشعراء تجاه هذه الضربة الجديدة ، عبروا عنه بحرارة . وكان مما قاله خيرالدين الزركلي (٣)

وهود ولسن كم اضللت من فئة ... لأنت اشأم ما سميت به الأمم
ايدعون حقوقا في مواطننا ... والدين أقبح ما يطوى عليه فم

---

(١) نفحات الصور ٥٦

(٢) انظر ديوان الكاظمي المجموعة الأولى ٢٢٤ ، وديوان فرحات ١١٧

(٣) الديوان ١٥

وكان طبيعيا ان يكون شعور فؤاد الخطيب شاعر الثورة العربية اشد مرارة بعد أن صحب بنفسه مراحل انتصارات العرب في ثورتهم التي جانب الحلفاء فهو يشير الى مبادئ ولسون بقوله (١)

نسخ (الوصايا العشر) من ألواحها	وحوى (الكتاب) وزاحم (التنزيلا)
وأتى بأربع عشرة انتظمت ممــا	وحيا يرتل بكثرة وأصيــلا
مشت الشعوب الى الشعوب واكبرت	ما كان منه وهللت تهليــلا
وتوسمت فيه المنتبع وأبصرت	في قوله (التوراة) والانجيــلا
حتى اذا انكشف المقناع تحققت	ان السياسة لم تنزل تضليــلا
ورأت (متسيلمة) يساوم (أشعبا)	سلب العمالة عرضها والنطولا
فاكتب عهودك بالحسام فانه	خير اليراع مجردا مسلولا

ونجد صدى تكول الرئيس ولسن عن مبادئه واستجابته لهوى حلفائه في أبيات لمعروف الرصافي يعبر فيها عن خيبة العراقيين وسائر العرب، وذلك في قوله (٢)

قال قولا به استحق احترامــا	وتعداه فاستحق ملامــا
رجل قد تنكب الحق قوسا	ومن الباطل ظل يرمي السهاما
قال حرية الأنام هي الغاية	لي في الوغى فغر الأنامــا
فاشرأب الورى اليه وظنوا	انهم سوف يبلغون المرامــا
ثم خابت ظنونهم فيه لمــا	مر في الجو خلبا وجهاما

أما المصريون الذين طال أمد الاستعمار عليهم فقد قاموا بثورتهم عام ١٩١٩ بعد ما تبين لهم اصرار الانكليز على احتلال بلادهم وكانوا يعقدون على وعود ولسن آمالا عراضا وهذا محمد عبد المطلب يخاطب الغربيين والثورة في بلاده على أشدها (٣)

يا ناشري علم السلام ألم تروا	للسلم في أرجاء مصر مجالا
ما العدل ما حرية الأمم التي	سارت رسائلكم بها أرسالا
ما عهد (ولسن) أين ولسن هل درى	أنا بمصر نكابد الأهوالا

وكان من الطبيعي ان يفقد العرب بعد ذلك كل ما تبقى

---

١) الديوان ٥٤٤ ٢) الديوان ٤٣٥

٣) " ١٩٣

لسهم من ثقة بالغرب منذ ذلك الحين . ولذلك نجد أن لهجة الشعراء اخذت تتسم بالحدة وتلوح بالثأر لكرامة العرب المهدرة على نحو مانجده لدى أديب التقي الذي تصدى للمحتلين وندد بغدرهم قائلا (١)

قلبتم لنا ظهر المجن وبعد ما ... ادرنا لكم وجها أدرتم لنا ظهرا
اذا لم تزالوا الشرق فالشرق منذر ... لكم ان تروا صرعى مطامعكم حسرى
ومن أحفظ الآساد في أجماتها ... فلا ينكرن الوثب ثمة والثأرا

ومما يدعو الى الاعتزاز أن الشعراء الذين حملوا لواء مكافحة المستعمرين جهدوا في اداء رسالتهم نحو أمتهم بايمان واخلاص ، ولم يكتف بعضهم بتحذير الأمة من وعود الدخلاء ، بل أخذوا على عاتقهم تبصير الحكام بحقائق الأمور وتحذيرهم من الوقوع في أحابيل السياسة من ذلك مثلا ماذكره الفراتي في هامش ديوانه من أن الملك فيصل اصدر ارادة سنية بتسليم دير الزور الى الانكليز ، فأرسل اليه الشاعر يومئذ قصيدة يقول فيها (٢)

لاتنخدع بأساليب ينمقها ... منهم غوي يحاكي رسمها الحلما
أين العهود وما منوا ومازعموا ... كانت وعودا فأمسى حبلها انصرما
قالوا الشعوب لقد قمنا لننقذها ... من المهاوي فكانت بينهم قسما
بعض الطباع لها من جنسها مثل ... لاتأمن الذئب أن يرعى لك الغنما

وكذلك يتجه الشاعر القروي الى فيصل بن الحسين بقصيدة مماثلة يحذره فيها من كيد المستعمرين وقد ازمع السفر الى عاصمة الانكليز لمفاوضتهم (٣)

نصحتك لاتمدد الى أبرص يدا ... ولو مطرت كفاه درا منضدا
لأمر يلاقيك الفرنجي باسما ... فزد حذرا مازاد ذئب توددا
تراه صحيح الجسم وهو سقيمه ... كما تكسب الحمى الخدود توردا
لئن وعدونا بالجلاء عن الحمى ... فقد ضربوا يوم القيامة موعدا

---

(١) الديوان ١٠١ (٢) الديوان ٦٥
(٣) " ٣٤٣

وقد عرف المصريون من أمر وعود انكلترا ما لا يعرفه سواهم من العرب اذ أنهم ما برحوا منذ عام ١٨٨٢ يتلقون الوعود الكاذبة بالجلاء عن البلاد ، ولذلك نرى حافظ ابراهيم يصور براعة مكر المحتلين ويحذر سعد زغلول من أحابيلهم حين ازمع السفر لمفاوضتهم ، على نحو ما خاطب به الفراتي والمقروي الملك فيصل فهو يقول (١)

لا تقرب التاميز واحذر ورده	مهما بدا لك أنه معسول
الكيد ممزوج بأصفى مائه	والختل فيه مذوب مصقول
كم وارد يا (سعد) قبلك ماءه	قد عاد منه وفي الفؤاد غليل

وقد أشار أحمد شوقي الى أن سورية ومصر كانتا ضحية الاستعمار وأحابيله اذ قال (٢)

وهل نلنا كلانا اليوم الا عراقيب المواعد والمطالا

وكما ان ثورة مصر عام ١٩١٩ كانت ترجع في اسبابها الى نكث الانكليز عهودهم ونقضهم مواثيقهم ، كذلك كان الشأن في العراق اذ قامت ثورتهم الكبرى عام ١٩٢٠ بعد ما تبين لهم عزم المحتلين على ادامة بقائهم في ربوع الرافدين خلافا لما كانوا قد أعلنوه على لسان قائدهم ابان الحرب . وفي ذلك يقول جميل صدقي الزهاوي بحق (٣)

ما كان قبلا لهذا الشعب من خطل حتى اطمأن فغرته المواعيد

وقد عبر محمد الهاشمي عن خيبة العراقيين والعرب جميعا بسياسة الختل والمطل ، في قصيدة اسماها " قد سئمنا الوعود " وقال فيها (٤)

قد سئمنا الوعود وهي خداع	ومللنا الأيعاد والتهديدا
وانجلى الشك وانتهى كل سر	كان بالشك بابه مسدودا
اين تلك الآمال ما بلغوها	يوم شدوا جبيلا بها ممدودا

---

(١) الديوان ١ ـ ١٠٢   (٢) الشوقيات ٢٢٧

(٣) الاوشال ٢٤٩   (٤) عبرات الغريب ١١٧

على أن الشعراء الذين دأبوا على فضح أساليب المستعمر وكشف أحابيله ، عمدوا من ناحية أخرى الى التشهير بأساليب الختل والتضليل التي كان يصطنعها الفرنسيون مع مسيحيي الشام وادعاؤهم أنهم حماة لهم من طغيان المسلمين وتعصبهم ، وكان كثير من المسيحيين العرب في لبنان يثقون بفرنسة ثقة عمياء لأسباب دينية بحتة بعد أن عانوا الويلات في العهد العثماني من جراء التعصب وفساد الحكم ، وكان أن فطن من جهة أخرى معظم الشعراء الى حقيقة الوجه الاستعماري المستتر وراء الصليب . وقد عبر ابو المفضل الوليد عن حقد دفين على فرنسة التي أناخت باستعمارها على كثير من شعوب العرب فقال (١)

هذي العداوة بيننا أبدية | تسكينها يدعو الى التحريك
من عهد من تخذوا الصليب شعارهم | للنهب والتقتيل والتهتيك
حتى اجتياح المغرب الباكي على | أبنائه من ميت ونهيك

وقد انبرى كثيرون من الشعراء المسيحيين في الشام والمهجر الى كشف زيف مزاعم المستعمرين الذين تسللوا من ورائها الى ربوع لبنان وسائر الشرق العربي ، ومن هؤلاء اسكندر الخوري البيتجالي الذي يقول (٢)

أتوا باسم الصليب وهم براء | من اسم لطخوه مجرمينا
وما اتخذوا الصليب لهم شعارا | وما كانوا به مستنصرينا
ولو كان المسيح رسول شر | وتخريب لكنا عاذرينا
هي الأطماع باقومي دعتهم | الى عمل أباه المرسلونا
وباسم الدين قد شهروا حروبا | فخفروا الذين المتدينينا

ويمكن القول ان أكثر الشعراء الذين عاشوا في ظل الاستعمار أو من عاصروه نسجوا اشعارهم من نسيج الشك وسوء الظن في كل مسلك يسلكه ، وكان لهذا الاتجاه أثره في السلبية الشديدة التي تسلح بها العرب في علاقتهم بالمحتلين ، والحذر الدائم

---

(١) نفخات الصور ٩١ (٢) المنقود ٨٣

منهم على نحو مايقوله الزهاوي في احدى رباعياته (١)

الغرب يلقاك من مكره بوجه طليق
يا شرق لا تأتمنه فالغرب غير صديق

أو مايقوله الياس قنصل (٢)

أيادي الغرب تسمى فاحذروها فقد تخذت أديم اللطف مكرا
تصافحكم ولكن عن رياء وتشعل من هشيم الخلف جمرا

وليس بمستغرب بعد كل هذا التاريخ الحافل بالأكاذيب وبعد الذي عاناه العرب من سياسة المطل والتسويف والختل والخداع ان يستقر سوء الظن في نفوس العرب تجاه كل مايصدر عن المستعمر . فعندما نشبت الحرب العالمية الثانية " قال الياس فرحات يتهكم على الانكليز حين دعوا شباب العرب الى التطوع معهم " (٣)

يحلم السكسون في استعدادهم للوغى ان يأخذوا منا جنودا
طمئنوهم اننا من أمة تحفظ الود ولاتنسى العهودا
كيف ننساهم وننسى انهم اخذوا النفط وأعطونا اليهودا

ويوجه علي الجندي خطابه الى اقطاب الغرب الكبار حين اجتمعوا يُعيد هذه الحرب أيضا بقوله (٤)

انا لدغنا قبل ذلك فاعذروا من خاف وثب الافعوان المطرق

واذا كان العرب قد عانوا كثيرا من جراء اضاعيل المستعمرين فقد أكسبهم ذلك أيضا الكثير من صفات الوعي والحذر والتبصر التي بدت جلية على ألسنة شعرائهم ، واختفاظهم بتفاؤلهم وثقتهم بالمستقبل الباسم . وقد عبر عن هذه الروح قبيل الحرب الأخيرة الشاعر محمد مهدي الجواهري فقال (٥)

---

١)- الرباعيات ٨٠ ٢)- السهام ٤١

٣)- جورج صيدح : ادبنا وأدباؤنا في المهاجر ١٤٥

٤)- اغاريد السحر ١٩٦ ٥)- الديوان ٨٥

لئن تكن خدع ساءت **عواقبها** فكم أنارت طريقا مظلما خدع

وبهذه الروح سار السرب قدما وبخطا ثابتة نحو تحررهم المنشود .

— ٢ —

أما الخرافة التي اسهم الشعر المعاصر في تبديدها من الأذهان فهي ان المستعمرين استطاعوا ان يوهموا بعض السذج بما زعموه لأنفسهم من رقي يريدون ان يجعلوه في الشرق المتخلف . وكانت مبادئ الثورة الفرنسية وتاريخ كفاح الفرنسيين مقياسا لدى بعض السوريين قاسوا به سياسة هذه الدولة الباغية ووثقوا بها والى هؤلاء يشير أبو الفضل الوليد بقوله (١)

زعم الذين تعشقوا ضلالة ان الهدى والحق عند بنيك

نظروا الى اقلام كتاب وما نظروا الى اسياف جلاديك

كما يعبر أبو ماضي عن ظاهرة الانسياق وراء ذلك السراب بقوله (٢)

أطربتنا الأقلام لما تغنت بالمساواة بيننا والأخاء

فسكرنا بها فلما صحونا ماوجدنا بها سوى اسماء

ويشير فؤاد الخطيب الى تنكر فرنسة لمبادئها التي كانت منارا للشعوب فيقول (٣)

ان حطموا (الباستيل) فيك تحررا فسلي العروبة كم بنوا (باستيلا)

ويجمع الرصافي الى السخرية بهذه المبادئ المزعومة وبرسالة التمدن التي ادعى الغرب حملها والتبشير بها فيقول (٤)

وكم قد سمعنا ساسة الغرب تدعي بأشياء من بطلانها ضحك الحق

فهم منعوا رق الأسير وانما أجازوا لهم ان يشمل الأمم الرق

---

(١) نفحات الصور ٩١

(٢) زهير ميرزا : ايليا ابو ماضي شاعر المهجر الأكبر ١٢٠

(٣) الديوان ٥٤٢ . (٤) الديوان ٤١٥

وعلى غرار قول أديب اسحق الذى مر بنا في الهواكير يندد بدوى الجبل بالمحتلين فيقول (١)

أيعدون قتل شعب حلالا ويعدون قتل فرد حراما
عبثوا بالنظام جورا وقالوا قد أتيناكم لنحيي النظاما

وربما كانت ابيات مصطفى الغلاييني من أدق ما يصور طبائع المستعمرين واساليبهم في الختل والتضليل، وتشدقهم بالانسانية والحرية والمساواة والعدالة حيث يقول (٢)

يقولون " انسانية وتمدن وتحرير أقوام " وفي العنق الربق
فما وعدهم الا وعيد ولم يكن لهم في ميادين الوفا مرة سبق
فحلفهم خلف ، ووعدهم هبا وقولهم إفك ، وعهدهم خرق

وأما انماط الاستعمار المتعددة التي دأب الأجنبي على تطبيقها في بلاد العرب فقد كانت واحدة في جوهرها لاتعدو اذلال الشعوب وسلب خيراتها ووأد حرياتها . ونظرا لما تحلى به العرب من وعي تحاشى المحتلون وسم وجودهم في بلادهم بأنه احتلال او استعمار ، فقد فزعوا الى اسماء أخرى حسبوها أخف وطأة ، من ذلك نظام الحماية الذى فرضوه على مصر ، ونظام الانتداب الذى ابتدعوه اثناء الحرب الأولى وفرضوه على بلاد الشام والعراق بمرغم انف شعوبها ، مدعين ان مهمتهم توجيهها ولاتعدو ان تكون وصاية الى أمد قصير ريثما يتمرس المواطنون بشئون الحكم .

ومن يستقري دواوين الشعراء والمجموعات الشعرية التي صدرت في الشرق العربي بين الحربين العالميتين يلاحظ أن اكثر ماقيل في التنديد بهذه الألفاظ المتعددة من النظام الاستعماري تكاد تتركز في سورية ، وذلك لأن الانكليز استطاعوا الى حد كبير أن يصرفوا الرأى العام في مصر والعراق عن جوهر قضيته الى قضايا الانتخابات والبرلمانات والأحزاب والمفاوضات .. حيث انجرفت طائفة من الشعراء بتلك الموجة ، وظلت طائفة

---

(١) الديوان ١٥٣   (٢) الديوان ٦٦

أخرى تسهم في عالمها الرومانسي الحالم بعيدة عن واقع أمتها المضطرب . وكان الحاكم الأجنبي في البلدين من وراء ستار ، يعتمد على أسرة حاكمة ونظام ملكي يضمن للمحتلين شيئا من الاطمئنان الذي كانوا يطمحون اليه .

الا أن سورية كانت اشبه ببركان ثائر لايكاد يهدأ حتى يقذف بحممه من جديد وذلك منذ أن وطئت أقدام غورو دمشق الفيحاء . وحينما تمادت فرنسة في غيها وبلغت الذروة في بطشها بقصفها دمشق بنيران مدافعها تفجرت قرائح الشعراء نقمة وغضبا على هذا الانتداب ودولته الباغية وهذا محمد الشريقي يتحدى للمحتلين يومذاك بقوله (١)

رسل التمدن ، والاجرام مثلبة — وليس يصلح للأحكام مجترم
الصخر أكثر عطفا من قيادتكم — منه العيون ومنكم هذه الحمم
(ساراي) اذكرتنا (تيمور) منتقما — بل أنت والله أقسى حين تنتقم

وفي هذه النكبة نفسها يقول خيرالدين الزركلي ساخرا برقي الغرب المزعوم (٢)

الظلم في عرفهم عدل ورحمة — والأمر بالباطل المنبوذ تشريع
ماذا يعدون من فخر أفتكهم — بالطفلات يواريهن تقنيع

كذلك يسخر محمد الفراتي على هذا المنوال بمدنية الدولة المنتدبة بعد أن هالته مأساة دمشق فيقول (٣)

هتكت حرائرها نفت احرارها — لم تبق شبانا هناك وشيبا
هذا تمدنك الحديث فهاته — من قلب باريس لنا مجلوبا

ثم يقول في قصيدة أخرى (٤)

يامرشد الجهال فيما تدعي — افم المدافع يرشد الجهالا

ومن هذا القبيل أيضا قول القروي (٥)

---

١)) ديوان الشورة ٤٠ — ٢)) ديوان الشورة ٣٨
٣)) الديوان ١٤٦ — ٤)) الديوان ١٥٢
٥)) الديوان ٣٠٢

زعموا الشآم بحاجة لمجدد   نعم المجدد مدفع ومسدس

وكان من اجمل ما قيل في تصوير فظائع الفرنسيين ابان الثورة السورية وفي التهكم بدولة الحرية المزعومة وانتدابها البغيض قصيدة لنسيب عريضة اسماها " موكب الجثث " (١)

صليل سلاح وقرع طبول   وجند قساة تسوق الحمول

وفوق النياق حماة القبيل   تدلوا قتيلا بجنب قتيل

دمشق انظري شهداء الفداء   على النوق صرعى ولا من رثاء

لقد فاز ساداتنا الأوصياء   وداس حقوق الورى الأقوياء

فيا لانتداب على قاصر

ونصر على اعزل باثر

ودعوى رقي بلا آخر

وكذلك قال محمد البزم احد شعراء دمشق وقد رأى بعينيه جرائم المفرنسيين (٢)

أبناء (غلية) لا كان انتدابكم   فقد أسال دماء العرب انتهارا [غدرا]

لاترهقوا العرب ، فالعرب الكرام لهم

ان ارهقوا وثبة الضرغام غضبانا

وهكذا سقط قناع الانتداب واتسع نطاق الحملة عليه الى سائر العالم العربي في لبنان وفلسطين والعراق ومصر ..

وهذا مصطفى الغلاييني يخاطب المستعمرين من سفح لبنان بقوله (٣)

لاتخدعونا بألفاظ اذا سمعت   تحلو وان تختبرها مر مطعمها

فما (الحماية) الا السهم يقصدنا   وما (الوصاية) الا النار نصلاها

كما يشير وديع البستاني من ربوع فلسطين المقدسة الى هذه الحقيقة الصارخة وهي ان الحلفاء هم الذين فرضوا انفسهم وصاة او منتدبين او حماة في بلاد العرب (٤)

---

١)- الديوان ١٩٨   ٢)- ديوان الثورة ٣٠

٣)- " ٧٦   ٤)- الفلسطينيات ١٥٣

وانكرنا وصايتهم علينا ... وقد جعلوا بوادرها اغتصابا
ولم ننتدبهم في الأمر فينا ... وقد حكموا وسموه انتدابا
ودسوا السم في الدستور دسا ... فما ذقنا الطعام ولا الشرابا

وفي هذا أيضا يقول ابو المفضل الوليد من مهجره (١)

يا من انيت الى الشآم وصية ... من ذا الذى أوصاه او يوصيه
بئس الوصاية بالحديد وبالظبى ... حيث اليتامى ارثهم يضريه

وكان الكاظمي والرصافي في مقدمة شعراء العراق الذين ناضلوا المستعمرين بلا هوادة ونددوا بانتدابهم في الشام والعراق . ويتساءل عبد المحسن الكاظمي عن معنى هذا الانتداب بقوله (٢)

أذا انتداب ام اغتصاب ... عاد به حقنا هضيما
لا تلزمونا بكم فلسنا ... نرى لكم بيننا لزوما
هل دام في الأرض حكم شعب ... اذا أبى الشعب أن يدوما

أما الرصافي فيحمل بجرأة على الانتداب وكمه أفواه الوطنيين في العراق ، ويقول (٣)

يا أهل لندن ما أرضت سياستكم ... اهل العراقين لا بدوا ولا حضرا
ان انتدابكم في قلب موطننا ... جرح نداويه لكن لم يزل غبرا
لم يكفه أنه للحكم مغتصب ... حتى غدا يقتل الآراء والمفكرا

= ٣ =

ويفضي بنا حديث الوصاية والحماية والانتداب الى ما استتبع ذلك من سياسة المعاهدات والأحلاف الجائرة التي كان المستعمرون حريصين على عقدها مع الحكومات التي ينصبونها . ولم يكن موقف الشعراء تجاه هذه القيود ليغاير موقفهم الثابت تجاه الاستعمار نفسه . الا أن الأمر في هذا المجال كان يتطلب

---

(١) نفخات الصور ٩١ (٢) ديوان الثورة ٥٦
(٣) الديوان ٣٢٤

وعيا وحصافة ونظرا ثاقبا . اذ كثيرا ما استطاعت هذه المعاهدات تضليل الناس وايهامهم بعدول المستعمر عن تسلطه ، ويعتبر الشعراء بحق الطليعة الواعية للشعوب فقد عمدوا الى فضح أساليب الاحتلال وما يعمد اليه ببراعة من حين الى آخر من تمويه الحقائق على العرب في سبيل استمرار بقائه في أرضهم . وهذا علي الجندى يشير الى كثرة تلك المعاهدات ونتائجها المؤلمة على وطنه فيقول (١)

في كل يوم لنا (معاهدة) نعود منها بصفقة الغبن

على أن الذى يلاحظ في العراق ان التنديد بالمعاهدات والأحلاف قد استأثر بجانب كبير من الشعر القومي . فقد كان المستعمر ناعم الملمس ولم يحاول الا في ساعات اليأس ان يستفز مشاعر الشعب خلافا لما كانت تتورط به فرنسة في سورية من طيش وربما كان معروف الرصافي ومحمد مهدى الجواهرى وجميل صدقي الزهاوى أبطال هذا الميدان ، من ذلك قصيدة للرصافي يقول فيها (٢)

خلقتم لنا من كل عهد مموه	قيودا بها استقلالنا يتقيد
الى أن غدا استقلالنا ضحكة لورى	به ساخر كل امرئ ومندد
وهل يستقل الشعب في حكم نفسه	اذا لم يكن في حكمه يتفرد

وهو يشير الى تعدد تلك المعاهدات التي كان الانكليز بارعين في صوغها وتقديمها بمظهر براق الى المصريين والعراقيين فيقول (٣)

في كل يوم لنا منكم معاهدة	نزداد منها على أوطاننا خطرا
أما مواعيدكم فهي التي انكشفت	عن مين من مان اومن غدومن غدرا

وبسخريته اللاذعة يصور لنا الرصافي واحدة من تلك المعاهدات التي كانت تحاول الايقاع بحرية الشعب وكان في طليعة من عارضوها تحت قبة البرلمان العراقي الذى كان عضوا فيه (٤)

---

(١) أغاريد السحر ٩٧ (٣) الديوان ٤٧١

(٢) الديوان ٣٢٤ (٤) الديوان ٥١٢

نشروا المعاهدة التي في طيها ... قيد يمض بأرجل الآمال

قد أبلغونا حبة استعبادنا ... لكن مموهة بالاستقلال

والعهد بين الانكليز وبيننا ... كالعهد بين الشاة والرئبال

وكذلك تتجلى في أبيات الزهاوي مشاعر الضيق بهذه الشراك المنصوبة اذ يقول (١)

الشعب بالقيد الثقيل مكبل ... حتى يكاد اذا تحرك يقعد

تلغى معاهدة وأخرى تعقد ... والشعب يستفتى لها ويهدد

أما الجواهري فكان بارعا في تصوير حالة العرب المؤلمة مع المحتل الماكر في ظل مشاريعه ومعاهداته ومن ذلك قوله (٢)

"وتصريح" بسلطته قوى ... كلوح الطين اذ يدحوه داح

و "حلف" لست ادري من ذهول ... اعن جد يدبر أم مزاح

ولست بعارف ابدا حليفا ... يهدده حليفه باكتساح

" نطوف ما نطوف ثم نأوي ... الى بيت " أقيم على اقتراح

يخرج الف وجه من حديث ... ويخلق الف معنى لاصطلاح

ولكن كل هذه الانماط المبتكرة من الاستعمار في بلاد العرب لم تكن لتبلغ ما كان عليه الأمر في فلسطين من استعمار مركب جثم على صدر البلاد فزعزع كيانها وهد أركانها ، وجعل أهلها يعانون الويلات . وقد حظيت احداث فلسطين باهتمام متزايد على مر السنين من قبل العرب وشعرائهم بلغ أوجه في العالم العربي اثر النكبة بعد الحرب العالمية الثانية . وكان الاستعمار في هذه الديار المقدسة رأس الأفعى وأصل البلاء . وهذا نسيب عريضة يشير من مهجره الى تواطؤ المحتلين الانكليز مع الدخلاء الصهيونيين في أبشع ما عرفته الانسانية من ظلم ، حيث يقول (٣)

ذبحتم فلسطين يا ويحنا ... أبحتم حماها لمسترزقة

أكانت مواعيدهم حكمة ... وكانت مواعيدنا زندقة

---

١)= الاوشال ١١١ ... ٢)= الديوان ١٣٨

٣)= الديوان ٢٦٠

وقد استطاع ابراهيم طوقان أن يبرز هذا التواطؤ اللئيم بين الاستعمار والصهيونية لأبادة العرب اذ قال (١) :

في مصر يطمع اشعب وهنا تبدى اشعبان

ثم قال في قصيدة أخرى (٢)

لنا خصمان ذو حول وطول وآخر ذو احتيال واقتناص
تواصوا بينهم فأتى وبالا واذلالا لنا ذاك التواصي
مناهج للأبادة واضحات وبالحسنى تنفذ والرصاص

أما الجشع الاستعماري الذى كان الدافع الحقيقي لاحتلال بلاد العرب وامتصاص خيراتها فقد فطن اليه بعض الشعراء وان كان كثير منهم لم يعره الاهتمام الذى يستحقه، لأن الشعراء كانوا يثارون بالمشاهد العاطفية والمحسوسة اكثر من أى شيء آخر ، مثل المصادمات والمقتل والجرح والتدمير وما الى ذلك على نحو ماوجدنا من شعر كثير قيل اثر قذف الفرنسيين دمشق بالقنابل .
وفي طليعة من عنوا بابراز البؤس وابتزاز المستعمرين أموال الوطن شاعر فلسطين ابراهيم طوقان الذى فرع بشعره ناقوس الخطر تجاه اساليب اليهود في الاستيلاء على أراضي العرب ومما قاله يخاطب الانكليز (٣)

منذ احتللتم وشؤم العيش يرهقنا فقرا وجورا واتعاسا وافسادا

ويعتبر الرصافي فارس هذا الميدان في العراق، لاتصال موضوع الجشع الاستعماري بموضوع البؤس الاجتماعي الذى برع في معالجته شاعر الرافدين . ففي الأبيات التالية يتصدى للاستعمار ويعمد الى تعرية أربابه مما كانوا يحاولون به ايهام الشعوب من قدرتهم على نشر الرخاء بينها وتحسين حالتها الاقتصادية المتخلفة ، ويضرب لذلك مثلا بارزا فيما كانت تعانيه الهند من فقر وبؤس ويقول (٤) :

---

(١) الديوان ٦٧ (٢) الديوان ٨٧
(٣) " ٨٥ (٤) " ٤٧٠

دع اللوم واسمع ما اقول فانني	قتلت طباع (التيمسيين) بالبحث
كأنهم والناس عث وصوفة	وهل يستقيم الصوف في عيشة العث
زر الهند ان رمت العيان فكم ترى	على الأرض من غبر هناك ومن شعث
وهم سلبوا أرض العراق سمينها	ولم يتركوا فيها سوى الغث

وقد نحا محمد الهفراتي هذا النحو في تصوير جشع المستعمرين فصرض مظاهره في عدد من البلاد المستضعفة على مسامع الملك فيصل الذى كانت ثقته بالانكليز تنم عن سذاجة بالغة : (١)

ماذا على أمة قامت تدافع عن	حق لها كان قبل اليوم مهتضما
رأت عدوا لدودا ملحما قرما	مستقتلا طامعا مستعمرا نهما
لا الهند تشبعه لا الشذ تقنعه	أضحى لنصف بلاد الله ملتهما
سل الفرات وسل بغداد ما فعلت	ايدى الطغاة بأهليها سل الهرما
سل الهنود سل الأفغان سل عدنا	تحطك علما سل الأكراد والعجما
مصائب صوبتها الانكليز على	رؤوسهم تقذف الويلات والحمما
فالأرض لله لا للطامعين وان	داموا ستمسي بها اشلاؤهم رمما
يرون انفسهم فيها ملائكة	مكرمين لذاك استعبدوا الأمما

والحق اننا قلما نجد قصيدة كهذه وفق فيها صاحبها الى تصوير الاستعمار على حقيقته هذا التصوير الشامل ، فهو العدو اللدود الملحم القرم المستقتل الطامع المستعمر النهم ، وهو الذى ابتلع بلادا وأمما وطغى على نصف العالم دون أن يشبع أو يقنع .. وهو أخيرا المتغطرس الصلف ، المتعالى على البشر لا يرى في اذلال الأمم واستعباد الشعوب سوى حق طبيعي له .

وقريب من هذه الأبيات ما نجده لمحمد الأسمر في قصيدة له يصور فيها تكالب الانكليز على ثروات وادى النيل اذ يقول (٢)

تشكو المجاعة بالوادى عشيرته	والأجنبي به يشكو من التخم
لو لم نكن رمما في الناس ما ظفرت	بنا عصائب للغربان والرخم

---

(١) الديوان ٦٥ (٢) الديوان ٣٤

حطت جياعا فلما اتخمت نهضت   كيما تطير فما استطاعت فلم تقم

فهي الغداة بوادى النيل جاثمة   مقيمة اشبه الأشياء بالهرم

وواضح مدى توفيق الأسمر في تصوير جشع المحتلين وتشبثهم بمصر حتى كأنهم شاركوا الهرم في لصوقهم بأرضها وعدم تزحزحهم عنها ٠

وقد أدى تعدد دول الاستعمار وتزاحمها على امتصاص دماء الشعوب الى تباين ظاهرى في أساليب حكمها ، مما ولد في بعض الأذهان فكرة خاطئة كان من مظاهرها اغترار بعض العرب في بيئات المهجر والشام وتحدثهم في أمور المفاضلة بين انواع الاستعمار ، حتى خيل للسذج منهم ان الانكليز يفضلون الفرنسيين في هذا المضمار ٠ الا أن طائفة من الشعراء وبخاصة في المهجر كالقروى وفرحات والوليد كانوا حربا على هذه الأفكار المسمومة على نحو ماحذر منه القروى[1]

لاتبدلوا (أسدا بديله) انه   ان كان ذا نجسا فهذا أنجس

لكليهما في الشرق واستعماره   قلب كموسجة وجلد أملس

فالشاعر يرى طبيعة الاستعمار واحدة مهما تكن الدولة التي تمثله وقد عمد محمود أبوالوفا الى تجسيد الاستعمار نفسه في هذه الصورة اذ قال[2]

فلو صور الشيطان مرآة وجهه   لما اختار الا سحنة استعمار

= ٥ =

أما زبانية الاستعمار من حكام وقواد او مندوبين ومعتمدين ومفوضين فقد كانوا هدفا لنقمة الشعب باستمرار على الرغم من حرص حكوماتهم على تغيير وجوههم من حين الى آخر ، وكان الجنرال غورو أحد غلاة المستعمرين قد احتل لبنان وسورية وافتتح فيهما عهدا أسود من الظلم والارهاب بعد انتصاره على كتائب العرب في ميسلون في معركة غير متكافئة وقد سخر الياس فرحات من هذا القائد المغرور فقال[3]

---

١)) الديوان ٣٠٢   ٢)) اشواق ١٠٤

٣)) " ١٠٦

غورو اذا ذكر المفخار بموقف ـته فالزمان كساك ثوب مفاخر

« أسد علي وفي الحروب نعامة ربداء تجفل من صفير الصافر »

د ست الشرائع والحقوق مبرهنا للشرق ان الغرب امكر ماكر

والشاعر يتوعد غورو وطغيانه ويذكره بأن العاقبة للشعب : (١)

قولوا لغورو كلما لمعت ازراره فاختال وابتسما

ان الذين ذبحتهم تركوا ذكرا يجدد كلما قدما

وقد رمى خيرالدين الزركلي بصواعق شعره زبانية الاستعمار معتمدي بريطانيا ومفوضي فرنسة الذين انتشروا في انحاء الوطن العربي يذيقونه الويلات فقال (٢)

أ (فلبي) هاهنا وهناك (غورو) يقودان البلاد بلا زمام

و (صمويل) له في الطور شأن (كبرسي كوكس) في دار السلام

هنا وهناك تشتيت ونفي وتعذيب يذيب وضرب هام

بكل مدينة (بستيل) ظلم وارهاق على غير اجترام

وكان برسي كوكس المعتمد البريطاني رأس الأفعى في العراق وفي الأردن وقد توعده شاعر الأردن مصطفى وهبي التل بثورة شعبية لاهبة اذ قال (٣)

لاتحسب الجرح فيمن لايضج أسى يا (كوكس) مندملا فالضيم نكاء

وقوة الضعفاء ان جاشت مراجلها تثمرت تججة واستأسدت شاء

وعندما أتى (جورج لويد) مندوبا ساميا الى مصر بادر أحمد محرم الى الهجوم عليه اذ قال (٤)

أتسأل مصر ماحمل العميد وهل عند الرماة لها جديد

هم السهم الذي عرفته قدما وجرب وقعه الشعب الوئيد

عميد الغاصبين نزلت أرضا يبيد الغاصبون ولاتبيد

اتذكر دنشواي وكيف كادت جوانبها بأهليها تميد

---

١)) الديوان ٢٧٢ ٢)) الديوان ٤٩

٣)) عشيات وادي اليابس ٣٩

٤)) عبدالرحمن الرافعي : شعراء الوطنية ٢٠٧

أخا السكسون هل نبئت أنا ... جلاوزة لقومك أو عبيد
لقد كذبوا عليك فليس فينا ... لمن تبغي الهضيمة مستقيد

وكذلك تصدى خيري الهنداوي ، في جرأة بالغة للمعتمد البريطاني الذي نفاه وكثيرا من الأحرار الى جزيرة (هنجام) في أعقاب ثورة العراق الكبرى حيث قال (١)

أيها الضفدع الكبير خلا الجو ـ فأكثر كما تشاء نقيقا
غاب عنك الشجاع لكن خذ الحذر ـ عسى فيك ان يمر طروقا
مرحبا بالخطوب ان هي كانت ... سببا موصلا الينا طريقا

ويصادف ان يزور دمشق عام ١٩٢٥ (بلفور) الذي منح اليهود وعدا بأقامة وطن قومي لهم في فلسطين ، فيقابله أهلها بتظاهرات غاضبة ، يصور الحوماني تأثيرها في نفس الوزير البريطاني بقوله (٢)

سل عن بلفور وقد خفيت ... رجلاه بها لم ترتجف
هزته صواعق آساد ... قلب الأقدار لها يجف
زأروا فحسبت زئيرهم ... في الكون رعودا تنقصف

كما ندد به يومذاك وديع البستاني الذي كان يقيم في فلسطين بقوله (٣)

ايهذا السرحان في جلد شاة ... فاتك الروغ انت في الآجام
ايه بلفور يامذل النصارى ... لن تعز اليهود في الأقوام

ومن الملاحظ ان كثيرا من هذه الأشعار التي نظمت في مقارعة زبانية الاحتلال تنم عن جرأة بالغة ، الا ان طائفة منها نظمت في منأى عن مخالب المستعمرين ولم يكن من اليسير الجهر بها في ظل الأرهاب والتنكيل . وقد كان العنان مطلقا لفرحات والقروي والوليد وسواهم في المهجر ، حيث يلقون بسهامهم من بعيد دون ان تطولهم يد الجور ، والواقع ان ثمة عوامل وظروفا كانت تحول دون استرسال الشعراء في مقارعة الاحتلال ، اهمها وقوعهم تحت طائلة الارهاب والبطش او تعرضهم على الأقل

---

١)) رفائيل بطي : الأدب العصري في العراق العربي ١٦٣

٢)) الديوان ١٨ ٣)) الفلسطينيات ١٦٢

الى الفاقة وضيق العيش . ولعل حافظ ابراهيم خير من تتمثل فيه هذه الظاهرة فقد خفت صوته تجاه المحتلين منذ أن تسلم عملا حكوميا مناسبا بعد فترة من حياة القلق والبؤس ، بدليل أنه ما كاد يحال على المعاش حتى تفجرت نفسه نقمة على الانكليز ، ومع بلوغه سن الشيخوخة نراه في هذه الأبيات يتحلى بروح ثورية عاصفة قل أن صدر عن مثلها في شعره فهو يقول (١)

لم يبق فينا من يمنى نفسه ... بودادكم فودادكم احلام
انا جمعنا للجهاد صفوفنا ... سنموت او نحيا ونحن كرام

وبهذه الروح أيضا يخاطب الانكليز قبل وفاته بشهور وكأنه اراد ان يفرغ ما في نفسه من حقد عليهم منذ شبابه حين كان في السودان فهو يقول (٢)

حولوا النيل واحجبوا الضوء عنا ... واطمسوا النجم واحرمونا النسيما
واملأوا البحر ان أردتم سفينا ... واملأوا الجو ان اردتم رجوما
اننا لن نحول عن عهد مصر ... أو ترونا في الترب عظما رميما
فاتقوا غضبة المواصف اني ... قد رأيت المصير أمس وخيما

= ٦ =

وكما كانت لهجة العنف دأب الشعراء في مخاطبة المستعمرين كانت السخرية المرة لدى من يجيدها منهم اكثر جدوى وتأثيرا في التنديد بهم ، والكشف عن مخازيهم ، وكان حافظ والرصافي وطوقان في طليعة من أوتوا تلك الموهبة من الشعراء ، وتعتبر قصيدة حافظ التي نظمها سرا ابان ثورة ١٩١٩ في مصر من أشهر هذه القصائد فقد ندد فيها بقوات الاحتلال التي تصدت بنيرانها لمظاهرة سلمية قامت بها نساء القاهرة بسخرية لاذعة وبلغ من ذيوع أمرها أن وزعت بالخفاء على الجماهير الثائرة ومنها

---

(١) الديوان ٢ ـ ١٠٥ (٢) الديوان ٢ ـ ١٠٨

قوله (١)

خرج الغواني يحتججن وبت ارقب جمعهنه
يمشين في كنف الوقار وقد أبن شعورهنه
واذا بجيش مقبل ، والخيل مطلقة الأعنة
واذا الجنود سيوفها ، قد صوبت لنحورهنه
واذا المدافع والبنادق والصوارم والأسنة
والخيل والفرسان قد ضربت نطاقا حولهنه
والورد والريحان في ذاك النهار سلاحهنه
فتطاحن الجيشان ساعات تشيب لها الأجنة
فتضعضع النسوان والنسوان ليس لهن منة
ثم انهزمن مشتتات الشمل نحو قصورهنه
فليهنأ الجيش المفخور بنصره وبكسرهنه

هذه القصيدة الساخرة التي لم يجرؤ صاحبها على نسبتها اليه الا بعد مضي عشرة اعوام على نظمها (٢) جمعت السهولة والتدفق في اسلوبها وامتاع بحرها الراقص بالأضافة الى هذه اللهجة الساخرة المبثوثة في أبياتها . وكان التهكم من طبيعة حافظ ومزاجه لجأ اليه في قصيدته بعد ما رأى من اساليب المقمع الرهيبة ، فتفجرت نفسه على الطغيان سخرية مرة لاذعة . والقصيدة بعد ذلك ترتبط بحدث فريد في تاريخ مصر والشرق العربي اذ أن خروج النساء في مظاهرة الى الشارع لأول مرة في حياة العرب الحديثة نقطة تحول في انطلاق المرأة العربية نحو التحرر والنور بعد أن طال عليها الأمد في عزلتها ..

أما طوقان فيضحك بملء شدقيه من رسالة التمدن التي يزعم المستعمر حملها وشر البلية ما يضحك ومما يقوله في ذلك (٣)

قد شهدنا لعهدكم بالعدالة	وختمنا لجندكم بالبسالة
وعرفنا بكم صديقا وفيا	كيف ننسى انتدابه واحتلاله

---

١)) الديوان ٢ ــ ٨٧ ٢)) انظر مقدمة الديوان ص٨ للاستاذ أحمد أمين
٣)) " ٧٦

وخجلنا من لطفكم يوم قلتم ‏ وعد بلفور نافذ لامحالة
كل (أفضالكم) على الرأس والعين ‏ وليست في حاجة لدلالة
ولئن ساء حالنا فكفانا ‏ انكم عندنا بأحسن حالة
غير أن الطريق طالت علينا ‏ وعليكم فما لنا والاطالة
اجلاء عن البلاد تريدون - فنجلو أم محقنا والازالة

وهذا المقالب الساخر اضفى على الأبيات طرافة محببة وبخاصة ما اتصفت به من يسر في عبارتها وسهولة في مأخذها ، وقد أصاب المرمى في عبارته الساخرة التي انتزعها من صميم تعبير الشاميين اذ قال " كل أفضالكم على الرأس والعين .. "

وتعتبر أخيرا قصيدة الرصافي المشهورة " الحرية في نظر المستعمرين " التي ينسج فيها على هذا المنوال الساخر في رأس ما صور به الشعراء حقيقة الاستعمار واساليبه في البلاد المحتلة ومنها قوله : (١)

يا قوم لاتتكلموا ‏ ان الكلام محرم
ناموا ولاتستيقظوا ‏ مافاز الا النوم
وتثبتوا في جهلكم ‏ فالشر أن تتعلموا
اما السياسة فاتركوا ‏ ابدا والا تندموا
من شاء منكم أن يعيـ ‏ ـش اليوم وهو مكرم
فليمس لاسمع ولا ‏ بصر لديه ولا فم
لايستحق كرامة ‏ الا الأصم الأبكم
فارضوا بحكم الدهر ‏ مهما كان فيه تحكم
واذا ظلمتم فاضحكوا ‏ طربا ولاتتظلموا
واذا اهنتم فاشكروا ‏ واذا لطمتم فابسموا
ان قيل هذا شهدكم ‏ مر فقولوا علقم
او قيل ان نهاركم ‏ ليل فقولوا مظلم
أو قيل ان بلادكم ‏ ياقوم سوف تقسم
فتحمدوا وتشكروا ‏ وترنحوا وترنموا

---

(١) الديوان ٤٥٠

والحق ان الرصافي بهذه الأبيات قد بلغ ذروة الفن الرفيع في سخريته اللاذعة وكان من مقومات تجسيده في ذلك انسياب عباراته سهلة متدفقة ، وبحره المجزوء ثم جمله القصيرة المقتضبة التي تعتمد في الغالب على الأمر والنهي ، الا أن هذه البراعة في قلب المعاني والأفكار الى مفاهيمها المعكوسة والباسها ثوبا من الجد الظاهر هو الذى اكسبها بالدرجة الأولى تلك المنزلة الفنية .

×× ×× ××

ومن محصلة ما سبق نخلص الى التنويه عن الدور الفعال الذى قام به الشعراء في المعركة الكبرى التي خاضها العرب ضد الاستعمار ، اذ أن الشعور بالظلم أول مراحل التمرد والثورة ، وليس كرواد الفكر من يوسعه ايقاظ العقول وتنبيه النيام وحث الهمم على النضال . وقد تجلت في قصائد الشعراء الأولى انطباعات غدر المستعمرين وأحابيلهم في نفوس العرب ، ثم انتقلوا من مرحلة الانفعال الى صعيد التبصير والتحذير وتفنيد اساليب الاحتلال وكشف نواياه ، وفضح زيف مدنيته ومدى تسلطه وجشعه ، كما نددوا بزبانيته وعملوا على قادته وكانوا في كل ذلك يؤثرون شدة اللهجة في كثير من الأحيان ويجنحون الى الساخر منها في بعض الأحيان الأخرى .

وقد اسهمت هذه القصائد والمقطوعات وأمثالها في تكوين الوجدان الجماعي العربي عن طريق تركيز الوعي السياسي والأفكار والمفاهيم الاجتماعية في بؤرة واحدة تتجمع فيها الطاقة الشعورية للأمة لتنسلط بعد ذلك بلا هوادة على العدو الماكر .. ولاريب أنه يفضل هذا الوعي السليم الذى عبرت عنه هذه الأشعار وسواها مما كتبه الكتاب من مقالات وما القاه الخطباء من خطب غدا فجر التحرر مرتقبا وكانت العاقبة للعرب .

الفصل الثاني

التنديد بالاستبداد

وفساد الحكم

منذ كان في الحياة خير وشر ونور وظلام كانت حرية وكانت عبودية . وحين اطلق عمر بن الخطاب صيحته المدوية " متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا " غدا في طليعة رواد التحرر واعداء الاستبداد في أمة العرب .

واذا كان الانسان بطبيعته نزوعا الى التحرر نفورا من الاستبداد فان رجل الفكر أو الفن لاغنى له عن نسمات الحرية ، لأنها جزء أصيل من شخصيته المتميزة وما ينبثق عنه من آثار رفيعة وأفكار نيرة . ولهذا كان الأدباء والمفكرون روادا لحرية النفس الانسانية وكرامتها لقوا في سبيل رضالتهم كل عنت وأذى . وكثيرون هم شهداؤها الذين صلبوا على خشبتها وسيقوا الى مذبحها ..

وان كان موضوع التنديد بالخونة والمستبدين والطغاة يعتبر جديدا في الشعر العربي الحديث فأن شاعرا عربيا كبيرا هو أبو العلاء المعري كان بحق الرائد الأول في هذا الموضوع حين ندد في لزومياته بالطغيان والجور ، وبالفاسدين من الرؤساء والحكام ، وفتح بذلك بابا آخر من أبواب خلوده .

ان مبادئ المساواة والديموقراطية متأصلة في نفس العربي منذ القدم فقسوة البيئة الصحراوية ، واضطرار جميع العرب الى الكفاح على قدم المساواة في سبيل العيش ادى الى انعدام الفروق الطبقية بينهم . وقد حافظ العرب بعد الاسلام على هذه الصفات التي غدت جزءا من تقاليدهم فكانوا ينتقدون الحكام والقواد والخلفاء ويخاطبونهم كما يخاطبون افرادا عاديين من بينهم .

ولم تدخل على العرب مظاهر تبجيل الحاكم وتقديسه الا في فترات الضعف حين تفشت لديهم عادات الدخيل من الفرس والروم وأخيرا من العثمانيين .

وما زال المغربي الأصيل في هذا العصر يتسم بشيء من صفات الأجداد ويعتقد بصحة قولهم بأن " سيد القوم خادمهم " فهو يتسقط أخبار الحاكم ويحصي عليه سلوكه وتصرفاته ويؤاخذه على هفواته ولا يطيق انحرافه عن جادة العدل ٠ ومن هنا كان مجتمعنا المغربي في نضال مستمر مع حكامه ٠ وقد تجلى ذلك بأبرز مظاهره في الشعر المعاصر ٠ ويبدو أن شعرائنا في هذا العصر - وأكثرهم كانوا يسيرون على النهج التقليدي - جنحوا الى حوك قصائدهم على غرار ما عرف به الأقدمون في عهدي بني أمية والعباسيين من صراحة وجرأة ونزوع الى التحرر والمساواة وإباء للضيم واستنكار للظلم ٠

- ١ -

ولا ريب أن رائد أحرار الفكر ومناهضي الاستبداد في العصور العربية الحديثة عبد الرحمن الكواكبي الذي كان كتابه (طبائع الاستبداد) الصيحة المدوية التي زعزعت أركان الطغيان ، واللبنة الكبرى في صرح التحرر القومي ٠

وقد عرف العصر الحديث عددا من الطغاة المستبدين في رأسهم السلطان عبد الحميد الثاني ، وكان العرب في ظل حكمه الأسود يعيشون في محنة ٠ وقل من استطاع أن يجهر ضده برأي ، حتى بدا في ذلك الحين أن الشعب أشبه بالمستنقع الآسن أو الشاة الذبيح يتعاقب عليه غاشم اثر غاشم ، ويتداوله جزار بعد جزار ٠ وقد وفق ولي الدين يكن الذي كان في طليعة الثائرين على الاستبداد الى تصوير حالة العرب آنذاك بقوله (١) :

صحا كل شعب فاسترد حقوقه	فيا ليت يصحو شعبك المتناوم
هو الشعب أفنى دهره وهو خادم	وليس له فيمن تولوه خادم
يقلب من عهد لعهد على الأذى	اذا زال عنه غاشم جد غاشم

---

(١)= الديوان ١٩

ثم هبت نسمات الحرية على العرب ولكن الى حين ، في فترة اعلان الدستور ، وغدا من العسير عليهم بعد ذلك أن يحيوا بدونها ، اذ ما كاد الاتحاديون الترك يتسلمون زمام الأمر حتى استبدوا بالعرب وراحوا يعملون على تتريكهم أو ابادتهم .
وكان اندلاع الحرب العالمية الأولى خير فرصة اهتبلها اولئك الطورانيون للبطش بهم . فما كاد جمال باشا يصل الى الشام مطلق اليد في شئونها حتى أخذ ينكل بالأحرار ويفتك بأقرب أعوانه ، ثم ارتكب جريمته الشنعاء بتعليق عشرات من الزعماء العرب على اعواد المشانق في ساحات دمشق وبيروت ، وغدا في صبيحة ذلك اليوم الطاغية الأول والسفاح الأكبر .
وقد أثار هذا العمل الأخرق حفائظ العرب وقيل في صدده شعر كثير طيلة أعوام مديدة بعده . وكانت تند من ثنايا العيون الدامعة ومن خلال القوافي الواجدة أصوات شجية تستنكر الظلم والجور والطغيان . وهذا أمين ناصر الدين يقول (١)

شعب يضام وغاشم لايرحم	ونوائب تغشى الوليد فيهرم
ودم يطل على الثرى ومشانق	بحبالها وصل القضاء المبرم
أجمال لا والله لست بمسلم	كذب الذى قد قال انك مسلم
لم يبرح الاسلام يأمر أهله	بالرفق مذ بعث النبي الأعظم
ونزت بك الأحقاد أفظع نزوة	فبطشت منتقما ولم تك ترحم

وقل أن نجد شاعرا عاش تلك الفترة أو ما بعدها دون أن يدلي بقوافيه في هذا الحدث ويندد بطغيان السفاح ، ويكفي أن نشير الى أن هذه الأرهاب كان السبب المباشر الذى أشعل شرارة الثورة العربية الكبرى ضد الحكم التركي . ونعتبر قصيدة " النائحة " لجميل صدقي الزهاوى من أبرز ما قيل في رثاء الشهداء العرب والتنديد بجمال باشا وطغيانه .

---

(١) الالهام ٥٧

- ٢ -

قد يكون موضوع الاستبداد والطغيان وفساد الحكم الموضوع الأول الذي عرفه الشعر القومي الثائر في هذه الفترة من الحرب الأولى وقبل ابتلاء العرب بالاستعمار . واذا كان العرب قد عرفوا عددا من المستبدين في تاريخهم الحديث فان هؤلاء المستبدين لم يكن لهم في الواقع من سند سوى نفر من حولهم ينصرونهم في طغيانهم ، ولم يكن استمرار حكمهم بسبب من قوتهم بقدر ما كان نتيجة ضعف شعوبهم وضآلة وعيها . وكثيرا ما كانت الانتفاضات الشعبية تطيح بهم وتجعلهم اثرا بعد عين .

الا ان دخول الاستعمار على هذا النطاق الواسع الى سائر بلاد العرب في الحرب الكبرى حمل في ثناياه الظلم والاضطهاد ، وغدا للاستبداد منذ ذلك الحين وجه جديد تجلى في فساد جهاز الحكم كله دون ان يرتكز ذلك الى طغيان فرد واحد ، ويبدو أن المحتلين عمدوا ، امعانا في المكر ، وتطبيقا لبعض نصوص صك الانتداب او المعاهدات الجائرة الى تنصيب بعض الحكام من العرب آملين من ورائهم ان يمكنوا لأقدامهم في البلاد ، ويمهدوا من ثائرة الشعوب .

ويمكن اعتبار بعض أعضاء الأسرة الهاشمية التي حكمت الحجاز ثم سورية والعراق والأردن ، الركيزة الأولى التي اعتمد عليها الاستعمار البريطاني في الشرق العربي . ومع أن الشريف حسين قائد الثورة العربية كان يعتبر بطلا في نظر كثير من العرب أول الأمر ، فان غالبية المصريين وطائفة من الشام نفسها نظروا اليه بمنظار آخر منذ أن ثار على الخلافة التركية وتحالف مع اعدائهم الانكليز . ثم أخذت هالة البطولة تنحسر من حوله بعد ان تكشفت للعرب مطامعه الشخصية . ولئن عز على كثير من العرب الذين تجلت مشاعرهم على ألسنة شعرائهم ان يفجعوا بسياسة زعيمهم وآثروا التماس المعذر له ، ان فئة أخرى من الشعراء صدعت بالحق دون أن تأخذها فيه لومة لائم

ومما لم يرق لهم اصرار الحسين آنذاك على استخلاص الخلافة لنفسه والعرب في أوج صراعهم مع الاحتلال وكان لا يتردد في كسب تأييد الانكليز لبلوغ هذه الغاية . وقد انبرى خير الدين الزركلي الى التنديد بمسلكه هذا بصراحته المعهودة فقال (١)

طال انقيادك للخصوم وأنت أدرى ما الخصوم
الانكليز وما أراك بأمرهم غير العليم
ما في جموعهم وان حدبوا عليك سوى غريم
عجبا لمن طلب الخلافة والخلافة في النجوم
ما كان والله الحسين بالشيخ النؤوم
لكن من خاف الهزيم رمته صاعقة الهزيم
طلب السلامة بالونى فاذا به غير السليم

ومع أن عهد فيصل في الشام كان يعتبر ذهبيا بلغت في أثنائه العواطف القومية أوجها ، فقد تكشفت سياسة ذلك الملك الذي قدر له ان يعيش في ظروف عصيبة عن بعض الأخطاء التي ما زال المؤرخون مختلفين في الرأي تجاهها سواء ابان ملكه في الشام أو في العراق بعد ذلك . ولكن فئات كثيرة من الشعب وفي جملتهم الشعراء كانوا فيما يبدو يشفقون من الأساءة الى ذلك الزعيم العربي ومن تشويه ذلك الرمز القومي . والواقع أن قلة قليلة هم الشعراء الذين استطاعوا التعرض لفيصل ولسياسته بالانتقاد ومنهم الشاعر محمد الفراتي الذي أخذ في تحذيره بلهجة المنذر حين اشيع أنه يزمع تسليم مدينة دير الزور الى الانكليز (٢). كما خاطبه في قصيدة أخرى بجرأة وصراحة عرف بهما سكان تلك المدينة وما حولها من البادية ، حيث قال (٣)

تكلفنا ما لا يطاق احتماله فليس لنا عفوا على حمله صبر
لك الموت ان تلقى علينا عصابة مطالبهم فينا الخيانة والغدر

---

(١) الديوان ٧٢ (٢) انظر ديوانه والهامش فيه ٦٥
(٣) الديوان ٢٩

لئن قادنا شوق لربعك حسبه عفاف ، واقدام ، فما قادنا الأسر
اذا أنت لم تنصف بعد لك بيننا تطاير فيما بين أحقادنا الشرر)

فالفراتي في هذه الأبيات يعبر عن ارادة الشعب الحرة ويأبى أن يساوم رجل على عرش له في سورية ويدفع ثمنه قطعة من وطنهم الغالي . أما التهديد والوعيد فلم يكن بوسع الشاعر ان يصدر عنهما لو لم يستمد البأس من شعبه الواعي يومذاك .

وحين عوض فيصل عن عرشه في الشام عرشا في العراق ظهر من أمره ما ظهر ، وتلقفه شعراء نابهون كان معروف الرصافي في رأسهم ، وفي الرصافي جرأة وفي طبيعته اباء ، ومع اعترافنا بوجود خلاف شخصي بين الرصافي وفيصل زاد الهوة بينهما اتساعا فالرصافي كان مدفوعا أيضا بنزوعه الأصيل الى التحرر اذ لم يرق له هذا الحكم بعد ثورة عراقية لاهبة جرت فيها الدماء انهارا وأزهقت الأرواح آلافا . وقد نظم قصيدة جريئة في ذلك الحين بعث بها الى الأهرام وقال فيها (١)

لنا ملك وليس له رعايا	وأوطان وليس لها حدود
وأجناد وليس لهم سلاح	ومملكة وليس لها نقود
أيكفينا من الدولات أنا	تحلق في الديار لنا البنود
وأنا بعد ذلك في افتقار	الى ما الأجنبي به يجود
كلاب للأجانب هم ولكن	على أبناء جلدتهم اسود

ولاريب أن هذه اللهجة الحادة قد تبدو غريبة بالنسبة لكثير مما عهدناه لدى الشعراء الذين تغاضوا عن أخطاء فيصل وظلوا يعتبرونه بطل الثورة العربية الكبرى ورمزا للوطنية . ولم يكن الشاعر العراقي محمد صالح بحر العلوم ليقل حدة عن الرصافي ، فهو من أشد من عرفهم العراق من الشعراء تصديا لحكامه الطواغيت ، ومن ذلك قوله يخاطب الملك فيصل أيضا في قصيدة أسماها " العبودية والأغلال " (٢)

---

١)) الأهرام عدد ٢٧ نوفمبر ١٩٢٢ ٢)) الديوان ١٢

أبأثواب الرعاء البالية | قد تصوت ارتداء السندس
أم على جانب بئر البادية | كنت تسقي عذب ماء التيمس
أنا قدمت الدماء الزاكية | فتأخرت بتاج الدنس

واذا كان فيصل قد حرص على تحرير العرب ولجأ الى مداراة الانكليز في سبيل انتزاع ما يمكن انتزاعه من الحقوق، ووفاء بالعهود ، فأن أخاه عبدالله بن الحسين أمير الأردن ثم ملكها لم يظهر مثل ذلك الحرص على مصالح العرب في علاقاته مع بريطانيا ، فقد كان أكبر عون لتلك الدولة المستعمرة في بلاده . وربما كان خيرالدين الزركلي الذي اتصل به حينا من الزمن وعرف من أمره ما عرف ، في طليعة من تجرأوا عليه من الشعراء ، فهو يعبر عن خيبة آمال الأحرار فيه بعد أن لاذوا به والتفوا حوله ومن بينهم الشاعر نفسه ، في أعقاب انهيار الحكم الفيصلي في دمشق واضطهاد الفرنسيين لهم ، ومما قاله فيه يومذاك(١)

لا التاج ينفعه ولا استقلاله | ان لم يحل وثاقه وعقاله
ظلموه فاستبقوا الى وكناته | فسهوله محتلة وجباله
وطن تزاحمت الخطوب ببابه | وجفاه من عقدت بهم آماله

ويشير الزركلي في قصيدة أخرى الى مسلك عبدالله ومحاباته لليهود منذ ذلك الحين فيقول مخاطبا الحسين بعد أن ندد به(٢)

هذا وليدك في (الرقيم) يعيث في أهل الرقيم
يحبو (يهوذا) ما حبوت وليس غيرك من ملوم
خسروا رضى (موسى) الكليم فناب عن موسى الكليم
شر الممالك ما يساس سياسة البغي الوخيم
ما في العروش على الجهالة والغباء بمستقيم

ويشتد الزركلي على ذلك الحاكم الذي باع شعبه في سبيل كرسيه فيقول(٣)

---

(١) الديوان ٥٢ (٢) الديوان ٧٢ وأصحاب الرقيم اهل الكهف وقيل كانوا في الأردن .
(٣) الديوان ٤٨

عجائب الأردن ماتنقضي ... تلحق أخراها بأولاهـا

ماكان الا عبد طاغوته ... من حسبوه يعبد اللـه

ثم يحمل على مهزلة الاستقلال المزعوم الذي أتى به الأمير بلاده فيقول (١)

عمان كانت أمس بالهفي على ... آمال أمتي الموئل المرتادا

لاذت بعبد الله فانقادت وما ... حسبته لاذ بغيرها فانقادا

حمل الصفاد لها وقال تخرري ... لو رام تحريرا رمى الأصفادا

من كان اقصى همه (شطرنجه) ... كانت (بيادقه) له أجنادا

ماكان الاستقلال ما آتاهم ... من لندن بل كان الاستعبادا

والى جانب الزركلي كان الشاعر الأردني ~~عبدالله~~ مصطفى وهبي التل أبرز من تصدى للأمير وحكمه الرجعي حتى لقي في سبيل ذلك المفقر والسجن والتشرد والاضطهاد فهو يشير الى ذلك العرش وتلك البطانة بقوله (٢)

أرأيت كيف العرش خف بربه المسترزقون

فاته معرفة الأمين فضل معرفة الخئون

والتاج أضيع مايكون مؤيدا بمنافقين

وغدا التنديد بالملوك وفسادهم ديدن عدد من الشعراء الذين تحلوا بالأخلاص والجرأة . وقد ربط علامة العراق الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء بين مآرب المستعمرين وتصرفات بعض ملوك العرب وكيف كانوا اداة طيعة في أيديهم لتفتيت وحدة شعوبهم فقال (٣)

واستخدموا ملوكنا ... لضربنا ولا عجب

هم نصبوا عرشا لهم ... في كل شعب فانشعب

كما عبر أديب التقي الشاعر الدمشقي عن حنق العرب تجاه

---

(١) الديوان ٦٣ وفي البيت الرابع اشارة الى براعة الملك عبدالله بلعبة الشطرنج .

(٢) عشيات وادي اليابس ١٦

(٣) عبدالكريم الدجيلي : الشعر العراقي الحديث ٦٤

كثرة العروش وفساد من فوقها بحيث أصبح لزاما على الشعوب ان تناضل بلا هوادة في جبهتين وتقاتل عدوين اذ قال(١)

في كل يوم لنا عرش نشيده على المطامع أيد أجنبيات
ماذا تفيد ملوك تحتها عرش جميعها بين أيدي القسوم آلات
اني سئمت صدى الألقاب في بلد يكاد يحوزها ماء وأقوات

وهذا الوصف الذي يصور حالة العرب اثر الاحتلال وظهور المتزعمين فيهم على اشلاء بلادهم الممزقة يذكرنا بأبيات الشاعر العربي في تصوير ما آلت اليه الأندلس من ضعف بالغ اذ قال

مما يزهدني في أرض اندلس ألقاب معتمد فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسد

= ٣ =

ويمكن القول بعد ذلك ان المحتلين حرصوا على اظهار انفسهم بمظهر يختلف عما كان عليه الترك أيام حكمهم للعرب ، من ذلك انهم كانوا يطلقون حرية القول بمقدار عن رغبة حينا وعن رهبة في اكثر الأحيان . وقد عمدوا استكمالا لهذه المظاهر الى اصطناع طائفة من المتزعمين واقامتهم على رأس حكومات ترتدي ثياب الوطنية والحرية والديمقراطية ليكونوا لهم عونا في تمكين استعمارهم ، وقناعا يسترون بهم جرائمهم ، ولم يترددوا في اعلان الدساتير واقامة المجالس التمثيلية واجراء الانتخابات النيابية امعانا منهم في حبك مهزلة الحكم .

وكان على الأحرار ورجال الفكر وحملة القلم ان يبادروا الى كشف الزيف واظهار الحق ، وأن يحاربوا أيضا في جبهتين ويقاوموا عدوين لدودين يسائد احدهما الآخر . وقد اشتدت حملة الشعراء على الأذناب واعوان المستعمرين ، ويجدر بنا ان نحاول رصد المدى الذي بلغه الشعراء في تجريئهم على الحكام في أقطار الشرق العربي ، وبخاصة في مصر والعراق حيث

(١) الديوان ٨١

كان يسود النظام الملكي وتستتر احابيل المستعمرين وراء فئة من الحكام المحليين ، بالأضافة الى كثرة عدد الشعراء في هذين القطرين مما يساعد على استجلاء هذا العنصر في الاتجاه القومي السائد .

وعلى الرغم من التفاف الجماهير الشديد حول سعد زغلول فأن عددا من المصريين الذين كانوا يخاصمونه الرأى نسبوا اليه بعض التهم حين ألقوا عليه تبعات الشقاق بين صفوف الأمة وأخذوا عليه صلفه وغروره تجاه الزعماء والساسة وتهاونه في مقارعة الانكليز بعد أن اطمأن الى قوته ، وزعامته الشعبية ، ويمكن ان نعتبر أحمد محرم المعبر عن وجهة نظر هذه الفئة من المصريين في نحو قوله (١)

جزى الله سعدا انها شهواته طغت ويحها فالشر غاد ورائح

أباح حمى مصر وسودانها معا فأمعن مغتال وأوغل طامح

يسامح اعداء البلاد ويعتدى على قومه شر الحماة المسامح

ولكن هل كانت هذه الأبيات الصريحة ثمرة من ثمرات الحرية في الرأى والاعتقاد ؟ لعل الجواب يكون بالنفي اذا علمنا أن الشاعر لم ينشر ابياته تلك وربما لم يجرؤ على ذلك يومئذ فاحتفظ بها وأبقاها مخطوطة لديه ، ومما يرجح رأينا أننا لانكاد نعثر على أى انتقاد مماثل في دواوين الشعراء الآخرين ، وهذا ما يجعلنا من جهة أخرى نحترس من أمثال هذه الأبيات التي قد يكون وراءها خصومة تنم عن مآرب في النفس واستجابة للهوى .

ونحن نجد لدى حافظ ابراهيم قصيدة رائعة ندد فيها بالاستعمار والاستبداد على السواء ، ولكن متى كان منه ذلك ؟ الواقع أنه بعد أن أحيل على المعاش ، وغدا بمنأى عن أسر الوظيفة ، ولم يبق لديه ما يخشى عليه فهو اذ يخاطب الانكليز بقوله (٢)

---

(١) محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ٢ ـ ٣٩٧ عن ديوان مخطوط الشاعر

(٢) الديوان ٢ ـ ١٠٥

انا جمعنا للجهاد صفوفنا سنموت أو نحيا ونحن كرام

لايلبث أن يقول في رئيس الوزراء يومذاك ، والغيظ الذي ظل كظيما في نفسه أمدا طويلا يملأ قلبه

ودعا عليك الله في محرابه والشيخ والقسيس والحاخام

لاهم أحي ضميره ليذوقها غصصا وتنسف نفسه الآلام

على أن اكثر مانظمه الشعراء في هذا الموضوع لم يكن من اليسير أن يجري على هذا المنوال . وقد مر بنا ان التنديد بعبد الحميد او بجمال باشا وسواهما من الطغاة لم يكن من الممكن صدوره عن النفوس الا في منأى عن يد الظالم . ومن الطبيعي أن تخلي نفوس الشعراء وسائر حملة الأقلام كالمراجل دون ان تستطيع التعبير بحرية تامة عما يختلج في أعماقها من مشاعر النقمة والغضب ، وقد كان التعميم في المقول منفذا تنطلق منه هذه المشاعر دون ان ترتد الى نحور اصحابها .

ومما قاله أحمد زكي أبوشادي في ذلك أيضا بعد انقضاء فترة على خمود ثورة ١٩١٩ في مصر (١)

أسفي على الناجين (الناسين) فسرني وفاتهم يوم الوفاء لخدمة الأوطان

القاعدين على الأرائك ضلة الغافلين الخاسري الوجدان

المومياء اجل في تقديرنا من هذه الأشباح والاكفان

ومن هذا القبيل من التنديد بمبدأ الظلم والاستبداد دون اشارة الى أصحابه قصيدة لمحمود غنيم نظمها خلال الحرب الأخيرة وأسماها " الديمقراطية " وقد ندد فيها بحكم الطغاة بصورة عامة وعبر عن ايمانه بالشعب كما أنذر جلاديه بالعاقبة الوخيمة اذ قال (٢)

يارب ملك بنته كف طاغية تحصي النجوم ولاتحصى ضحاياه

دم الضحايا طلاء في جوانبه وهامهم لبنات في زواياه

لايسلم الحاكم للجبار في وطن الا اذا بات مقصوصا جناحاه

الشعب يبقى ويبقى مجد دولته ودولة المفرد تنعى يوم منعاه

---

(١) مصريات ٢٣ (٢) صرخة في واد ١٠٢

ويعتبر محمد الأسمر في مقدمة الشعراء الذين عنوا بمعالجة أمور الحكم في مصر وكان يتحلى بصراحة وجرأة في شعره فهو يصور تلك الحكومات التي كانت تحكم بمشيئة المحتلين خير تصوير اذ يقول (١)

وزارات يراح بها ويغدى ... فقل للعاملين بها رويدا

دمى خزف ولواح زجاج ... وان لاحت حدائد او أشدا

اذا يد سائد بها اغفلتها ... تهدى أمرها فيما تهدى

هوت فاذا بها متحطمات ... ولو لبست من الفولاذ سردا

وكل سفينة نزلت ببحر ... اطاعت موجه جزرا ومدا

فالاستعمار في رأي الأسمر هو الذي كان يمد الحكومات المصرية المتلاحقة بنسغ الحياة فهي بدونه لاحول لها ولا قوة .

والشاعر نفسه يندد في قصيدة أخرى نظمها قبيل الحرب الأخيرة ، بفوضى الحكم في مصر اذ يقول بلسان شعبه (٢) .

تروح وزارة وتجيء أخرى ... ومصر تقلب النظرات حيرى

تشيم فلا ترى الا بروقا ... كواذب ربما أمطرن جمرا

فيا وزراء مصر بكل عهد ... لقد مل الرواية شعب مصرا

واذا رحنا نلتمس الجرأة في انظمة الحكم الفاسدة لدى شعراء العراق أدهشنا اهتمامهم الشديد بهذا الموضوع واكثارهم من النظم فيه ويكفي أن نشير الى قصائد كثيرة في دواوين جميل صدقي الزهاوي ومعروف الرصافي وصالح بحر العلوم ومحمد مهدي الجواهري ومحمد باقر الشبيبي ومحمد رضا الشبيبي وخيري الهنداوي وغيرهم من شعراء العراق حتى يتجلى لنا ذلك بوضوح وينم عن مبلغ ماكان يعانيه العراق في ظل حكامه البائدين .

من ذلك ماتراه مبثوثا في رباعيات الزهاوي وسائر دواوينه اذ يقول (٣)

ترى الكثيرين صبحا ... شم العرانين شوسا

وفي المساء تراهم ... يطأطئون الرؤوسا

---

١) الديوان ٥٧ ... ٢) الديوان ٤١

٣) الرباعيات ١١٦

أو يقول(١)

قد كنت أرجو في الرؤوس جراءة

فاذا الرؤوس تلوذ بالأذناب

أما الرصافي فكان بحق فارس هذا الميدان ، صدر عنه بفهم عميق . وكان كالطود الأشم لاينحني أمام الطغاة ولاتلين له قناة تجاه المفسدين ولـه من القصائد في هذا الشأن مايعتبر وحده ثورة عاتية على أجهزة الحكم القائم في العراق ، فهو يقول في ادانتها (٢)

واذا تسأل عما هو في بغداد كائن

فهو حكم مشرقي الضرع غربي الملابن

وطني الاسم لكن انكليزي الشناشن

عربي اعجمي معرب اللهجة راطن

فيه للأيماز من لندن بالأمر مساكن

قد ملكنا كل شئ نحن في الظاهر لكن

نحن في الباطن لانملك تحريكا لساكن

وها هو ذا يصور احدى تلك الحكومات التي كانت اشبه شئ بخضراء الدمن وضعت على وجهها قناعا وطنيا أبى الرصافي الا أن ينزعه عنها ليظهر حقيقة أمرها أمام الملأ ، فهو يقول بأسلوبه اللاذع المعهود (٣)

في الكرخ من بغداد مرت بنا	يوما فتاة من ذوات الحجاب
تختلب الناس بأوضاعها	وكل مايصدر منها خلاب
قد وضعت تاجا على رأسها	يلمع في الظاهر لمع الشهاب
قال جليسي يوم مرت بنا	من هذه الغادة ذات الحجاب
قلت له : تلك لأوطاننا	حكومة جاد بها الانتداب
تحسبها حسناء من زيها	وما سوى (جنبول) تحت الثياب
ظاهرها فيه لنا رحمة	والويل في باطنها والعذاب

---

١)) الديوان ٢)) الديوان ٤٣٨

٣)) " ٤٥١

وما نظن شاعرا عربيا آخر بلغ هذا المدى من التوفيق الذي بلغه الرصافي في وصفه احدى هذه الحكومات الصورية . وهو شديد الحرص على الكشف عن الصلة الواشجة بين حكام العراق وبين المستعمرين بجرأة بالغة دون أن تأخذه في الحق لومة لائم ونجده يسم وزارات العهد الهائد بالخيانة السافرة في أبيات أخرى منها قوله(١)

ان الوزارة لا أبا لك عندنا ثوب يفصل في معامل (لندنا)

لا يرتديه سوى امرئ اضحى له طبعا وداد الانكليز وديدنا

وثمة قصيدة أخرى له اطلق عليها اسم " الوزارة المذنبة " التي جاءت لتحكم العراق بعد أحداث دامية وأزمة شديدة وهو يجري فيها على مألوف اسلوبه اللاذع في تصوير الوزراء الجدد تصويرا مفعما بالسخرية المرة فهو يقول(٢)

أهل بغداد افهقوا من كرى هذي الغرارة

ان دياء الدهر قد باض ببغداد وزارة

حببت للوطني الحر ان يهجر داره

فكأن الحكم والعدل بها قسط وضاره

كم وزير هو كالوزر على ظهر الوزارة

ووزير ملحق كالذيل في عجز الحماره

ادركوا الحق فقد شنت على الحق الأغارة

لا تسل عنه وزير المقوم واسأل مستشاره

فوزير المقوم لا يعمل من غير اشارة

وهو لا يملك أمرا غير كرسي الوزارة

يأخذ الراتب امسا بلغ الشهر سراره

ثم لا يعرف من بعد خراب أم عماره

لقد بلغ الرصافي في هذه الصور مستوى فنيا رفيعا . يخيل للقارئ معها أن الشاعر لم يترك في هذا المجال زيادة لمستزيد ، وبخاصة حين يقارن الوزارة ببيضة الدياء امعانا في

---

(١) = الديوان ٤٩٦ (٢) = الديوان ٤٦٦

العجب من أمرها ، ثم تشبيهه الحكم والعدل بالمقسط والمفارة ، وجعله الوزير ذنبا للحمارة الى آخر ذلك من الصور والتشبيهات التي كانت تجعل كل بيت من ابيات القصيدة سهما ينطلق الى نفوس اولئك الحكام فيصمي . "ومن الطبيعي ان يستقبل الرصافي هذا العهد بالسخط والتشاؤم ... اذ أن شاعرا من شعراء الحرية والوطنية كالرصافي ان كان يتطلع الى انقلاب او تغيير في الأوضاع فأن هذا الانقلاب ينبغي ان يهدف الى استبدال الحرية بالعبودية ، والاستقلال بالاحتلال ، لا أن تنجو البلاد من احتلال لتقع بين براثن احتلال شر منه وعدو غريب لا تصله به وشيجة من وشائج العقيدة او التاريخ " (١) ولذلك صدر عن مثل هذه الحماسة والحدة في مهاجمة الحكم السائد آنذاك . وحين زار أمين الريحاني العراق ألقى قصيدة رائعة تطرق فيها الى أوضاع بلاده الفاسدة فقال بحرارة (٢)

من أين يرجى للعراق تقدم ... وسبيل ممتلكيه غير سبيله

والرأى عند طريده والعلم عند ... غريبه والحكم عند دخيله

وقد استبد قليله بكثيره ... ظلما وذل كثيره لقليله

واذا ما انتقلنا الى طائفة أخرى من شعراء العراق فأننا نعيش في أجواء مماثلة لدى شاعر عرف بجرأته البالغة على الفساد والاقطاع وهو محمد صالح بحر العلوم الذى يقول وقد أقذع في بيته الأول (٣)

حكومة واطأها الانتداب ... فأولدت عرشا لعراق البليد

وقام فيها منجل الانتخاب ... يحصد رأس العربي المجيد

فاختلقت مملكة من تراب ... فظن بعض أنها من حديد

وانتهبت من يد الاغتصاب ... ما تركت اذناب (عبدالحميد)

أما باقر الشبيبي أحد العاملين في ثورة العراق اللاهبة عام ١٩٢٠ فقد كان حربا على المستعمرين وأذنابهم ومن مشهور قوله : (٤)

---

١)) بدوى طبانة : معروف الرصافي ١٣٢

٢)) الديوان ٤١٧ ٣)) الديوان ١٠٧

٤)) على الخاقاني : شعراء الغرى

قالوا استقلت في العراق حكومة ... فعجبت اذ قالوا ولم يتأكدوا
احكومة والاستشارة ربها ... وحكومة فيها المشاور يعبد
المستشار هو الذي شرب الطلا ... فعلام يا هذا الوزير تعربد

وفي بيته الأخير طرافة محببة مفادها أن مايوعز به المستشار ينعكس جليا على الوزير ، فاذا ما شرب ذلك المستشار الخمرة وجد الوزير نفسه ملزما بأن يعربد .

وكما ندد الرصافي في قصائده السابقة بالاستعمار والاستبداد دون أن يرى فارقا جوهريا بينهما ، كذلك نسج محمد مهدي الجواهري قصائده على هذا المنوال في تعبيره عن تجربة عرضت له حين ازمع السفر من العراق الى لبنان وحالت السلطات في بيروت بينه وبين الزيارة اذ قال (١)

خلت اني فررت من جو بغداد وطغيان جورها اللهاب
ومن البغي والتعسف والذل فظيعا محكما في الرقاب
خلت اني نجوت من بطشة عات وخائن كذاب
ومن الزاحفين كالدود هونا تحت رجلي مستعمر غلاب
افيبقى الأحرار منا ومنكم بين صوت الضريب والأرهاب

وهكذا أبان الجواهري عن طبيعة الحكم الفاسد الذي كان في كل من لبنان والعراق ، مما يعد دليلا على تماثل الأوضاع الداخلية في ظل الاستعمار سواء أكان بريطانيا ام فرنسيا .

ولم يكن من المتوقع ان تتغير الأمور تغيرا جوهريا في ظل جيوش الاحتلال في سائر بلاد العرب . ففي الأردن ذلك البلد الصغير تصدى لنظام الحكم عدد من الشعراء على قلتهم من نحو ماتجده في أبيات لمصطفى وهبي التل تذكرنا بقصيدة "الوزارة المذنبة" للرصافي التي مرت بنا قبل صفحات قليلة ومما قاله فيها : (٢)

أما البلية فهي في تلك التي تدعى الوزارة
حشروا بها المختار والبغلين ثم ابن الحمارة

---

(١) الديوان ٢ ـ ١٩٠ (٢) عرار : البدوي الملثم ٣٠٩

والله لو بيعوا بسوق الخيل مابيعوا بسبارة
يا شاربين على الأذى والصابرين على المرارة
حتام لاتتململون فلا يقال هم الحجارة
الناس من لو أرهقوا ، شنوا على الارهاق غارة
" العبد يقرع بالعصا والحر تكفيه الاشارة "

فالشاعر الذي عاش حياة بوهيمية مضطربة كان يندفع ثائرا على وضع بلاده المؤسف ولايتردد من أجل ذلك في أن يقذع في القول دون ان يحسب حسابا لنفي أو لسجن .

ومما سبق من استعراض مواقف الشعراء تجاه حكامهم في مصر والعراق نلاحظ ان مصر لم تحظ بطائفة من الشعراء الذين عرفوا بالجرأة كما كان الشأن في العراق . ولم يقيض لها شاعر من هذا الطراز الذي وجدناه في الرصافي .
فقد ابتعدت طائفة من الشعراء عن مثل هذه الموضوعات — كما كان الشأن في اكثر شعراء مدرسة (ابوللو) — كما أن شوقي وحافظ وسواهما كانوا يؤثرون الاعتدال في اكثر مواقفهم ولم يصدروا عن مثل ذلك الالتزام في الرأي والحدة في القول على النحو الذي وجدناه لدى شعراء العراق بصورة عامة .

— ٤ —

وأما البرلمانات الصورية والانتخابات التمثيلية المزيفة التي كان المفوضون السامون او المعتمدون الأجانب حريصين على اقامتها ، والهاء الشعب بما يجري فيها من مهاترات ، فقد لقيت نقدا لاذعا من الشعراء كان جزءا من حملتهم الشاملة على اجهزة الحكم الفاسدة ومظاهر السيادة الكاذبة . وعندما تمخضت مداورات الانكليز ومؤامراتهم عن اقامة أول برلمان في مصر عام ١٩٢٤ انبرى نفر من الشعراء الى اعلان سخطهم على يوم افتتاحه والتنديد بأعضائه وكان في مقدمتهم أحمد محرم الذي يمكن اعتباره من معارضي الحكم القائم آنذاك بزعامة

سعد زغلول ومما قاله يومئذ (١)

سأتبع يوم البعث ماعشت لعنة	يطير بها عاد من الدهر صابح
هو اليوم يوم الشؤم اضحى نذيره	ومر به طير من النحس بارح
رمى مصر بالنكباء وانساب ناجيا	كما انساب عفريت من الجن جامح
يقولون نواب ودار نيابية	ومطاء ود ستور من الحق واضح
وحكام عدل شائع ووزارة	هي الشعب أو روح من الشعب صالح
وساوس اقوام مهاذير مالهم	من الرأي هاد او من اللب ناصح
املك نفسي وهي ولهى من الاسى	اراثاء مطاء ما أرى ام مذابح

ومن أشد مانظمه محمد الأسمر على النواب قوله في الأبيات التالية يخاطبهم على نحو طريف وغريب معا (٢)

حطموا الأغلال عن أعناقكم	وازأروا بالحق فيمن زأرا
لاتعودوا هرة محبوسة	بل اسودا غاضبات للشرى
واخلعوا الأرسان لستم حمرا	واطرحوا النير فلستم بقرا

فهو فيما يبدو يحاول أن يهز بمعنف ضمائر أولئك النواب الذين لايعرفون في اجتماعاتهم سوى رفع الأصبع وهز الرأس دون أن ينبسوا ببنت شفة وهو يعجب من قبولهم عن طيب خاطر تلك الأرسان والأنيار شأنهم شأن الحمر او البقر ... ويبدو ان الشاعر مولع بهذا النمط من الصور التي تعتمد على تشبيه البشر بصفات من عالم الحيوان ، فبالأضافة الى ذكره في المقطوعة السابقة الهرة المحبوسة والأسود الغاضبة والحمر والبقر ، ينحو هذا النحو ايضا في قصيدة أخرى عنوانها " قبل الحكم وبعده " اذ يشبه فيها اولئك النواب أو الحكام بطائفة من الحيوانات ويشير الى انهم يملأون الدنيا جعجعة ثم يعابون بعد ان يبلغوا قاعة المجلس بالبكم (٣)

---

(١) محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ٢ ـ ٢٩٦ عن ديوان مخطوط للشاعر

(٢) الديوان ٣٧ (٣) الديوان ١٢١

ألا ما لضعف الناس أصبح (باقلا) وقد كان قبل اليوم سحبان وائل
أبسمنا زأر الأسود وبنثني فهفهل فصل الصادلات الجوافل
اقلب طرفي حيث كنت فلا ارى سوى قنفذ أو ذئب ليل مخاتل

ويصور عبد الكريم الدجيلي مدى ضعف النائب في برلمان العراق الذي وضعه في اعين الشعب رفع الانكليز له [١]

أيها النائب لاتحفل بمن قال وقيلا
قد هززناك حساما فوجدناك كليلا
وسبرناك عميلا فوجدناك أصيلا

أما أحمد الصافي النجفي فهو يعرض لنا بحوار رشيق منزلة تلك المجالس النيابية في نفوس الشعب اذ يقول [٢]

قال لي صاحبي هل السـ ـمجلس اليوم اعظم الجلسات
قلت بالأمس زرته وفؤادي مفعم منه في أذى الذكريات
قال كرر له الرواح لتلقى لك سلوى عن هذه الأزمات
قلت هيهات لا اعود فحسبي رؤية الموت مرة في حياتي

والحق أن هذا التأفف من مهازل الحكم كان على كل لسان في الشرق العربي ، فقد كانت الانتخابات في رأس تلك المهازل ، تقيم البلاد وتقعدها ثم تتمخض بعد ذلك عن :

تماثيل ينحتها الانتداب وتعرض في قاعة المجلس

كما يقول محمد علي اليعقوبي [٣] ، أو كما يقول ناجي القشطيني ساخرا [٤]

قلنا لكم الف مرة الانتخابات حسرة

ويشير قسطاكي الحمصي الى اولئك النواب في سورية الذين كانوا يتصدرون قاعة المجلس تحت حراب الفرنسيين فيقول [٥]

---

(١) عبد الكريم الدجيلي : الشعر العراقي الحديث عن ديوان له مخطوط ١١٧

(٢) الهواجس ١٣٢ (٣) الديوان ٧٠

(٤) عبد الكريم الدجيلي : الشعر العراقي الحديث ١٨

(٥) الديوان ١١٥

نوابنا نوائب كلهم   على لحس منتخبيهم قد نشأوا

ثمة ميزانية ليس من   تصديقها بد أبوا أو رضوا

على أن أبيات خليل مردم تبقى من أطرف ما وصفت به هيئة اولئك النواب من الذلة والمسكنة وهم في طريقهم الى تسنم مقاعدهم في قاعة المجلس،ومنها قوله (١)

البرلمان وهل أتاك حديثه   وحديث من فيه من النوام

نقلوا اليه ناكسين رؤوسهم   نقل الجبان لساحة الأعدام

ملء الحياة عليهم أبصارهم   فعيونهم بمواطئ الاقدام

ومع ان شعراء المهجر اتيح لهم في غربتهم من حرية القول مالم يتح لأخوانهم في مواطنهم من انتقاد وتنديد بأحوال البلاد السياسية الا أننا لانجد لهم في هذا الموضوع الا اليسير نظرا لطابعه المحلي،على خلاف ماكان الأمر لديهم تجاه الاستعمار ، وثمة أبيات للشاعر القروي نظمها في مجلس نيابي اصطنعه الفرنسيون وزوروا فيه ارادة شعب لبنان يقول فيها (٢)

وطن تحيرت العبيد لذله   وأذل منه رئيسه والمجلس

جاد العفوف بالعليق فحمحموا   وثنى عليهم بالشكيم فأسلسوا

لا تسلقوهم بالملام فأنهم   جلسوا وهل ندبوا لكيلا يجلسوا

في كل كرسي تسند نائب   متكتف اعمى أصم أخرس

ومما يؤكد تجاوب جماهير الشعب مع أمثال هذه القصائد وأنها تنطق بلسانهم وتعبر عن مكنون انفسهم أن هذه الأبيات ، وسواها للقروي "كانت تصل في رسائل خصوصية لبعض أصدقائه في بيروت ، وهؤلاء يطبعونها سرا في نشرات ويعطونها لباعة الصحف لكي يبيعوها في غفلة من رجال الشرطة" (٣)

---

(١) جريدة العمران الدمشقية عدد ٨٥٦

(٢) الديوان ٣٠٥

(٣) جورج صيدح : ادبنا وأدباؤنا في المهاجر ١٤٣

- ٥ -

على ان الوعي المتنامي في نفوس الشعراء وفهمهم القومي الصحيح بشكل متزايد وبخاصة في أعقاب الثورات القومية التي قامت بها شعوبهم وأخضعها المستعمرون بعد ذلك ، جعلهم يركزون حملتهم بشدة على الطبقة الجديدة الحاكمة التي اصطنعها المستعمرون من أهل البلاد تمويها للحقائق وتجنبا لغضبة الشعوب . واستقر في النفوس نتيجة ذلك أنه لولا الذين يمكنون للاستعمار في وطنهم ويكونون له عونا على قومهم لكان بوسع الأمة ان تتجه بقوتها كاملة الى المحتلين وتتخلص منهم . وقد فطنت طائفة من اولئك الشعراء الى الصلة الوثقى بين المستبدين والمستعمرين والى التلازم بين فساد الحكم والاحتلال حتى كأنهما طرفان في عصا او وجهان لقطعة من النقود .

وهذا الشاعر القروى يشهر بخساسة الدور الذى قام به بعض المترعمين في لبنان حين يسروا على جيوش فرنسة أمر احتلال بلادهم اثناء الحرب العالمية الأولى وقد خاطبهم بقوله (١)

ويا ناعمين بذل القيود ويا سادة في هوان العبيد
أمن أجل تقبيل رجل العميد وبرى الذقون لفرط السجود
غدرتم بشعب وبعتم وطن

وحين اقتطع الفرنسيون جزءا من سورية وهو لواء اسكندرون وقدموه لقمة سائغة الى تركيا ، أعلن الشعب غضبته على الاحتلال ودولة الانتداب ، وقل من فطن يومذاك الى تهاون الزعماء في تلك القضية وتقصيرهم في كشف ما كان يدبر في الخفاء ، ومع هذا نرى عمر يحيى يتجه بشدة الى لوم هؤلاء الحكام المستعمرين فيقول (٢)

---

(١) الديوان ٢٩٥

(٢) صبرى الاشتر : المختار من الشعر في سورية ٢٦

بكوا فقد اللواء لنا رياء ‏ ‏ ‏ ‏ وهم طعنوا البلاد وضيعوه

أضاعوه لكي تبقى الكراسي ‏ ‏ ‏ ‏ فبالدم يضمنه ذووه

فصفق للرئيس ولا تمارى ‏ ‏ ‏ ‏ وان ينطق فقل : لافض فوه

وقد نحا علي الجندي هذا النحو اذ وجد أن علة الشرق المزمنة حمقى ساسته وأنه لا لوم على الذئب ان وجد الرعاة أنفسهم لاهين عن أرضهم (١)

زمانة الشرق حمقى ساسته ‏ ‏ ‏ ‏ وأعيت الطب آفة الزمن

لاتلم الليث ان رأى ابلا ‏ ‏ ‏ ‏ رعاته غارقون في الوسن

فأعمل الناب في فرائسه ‏ ‏ ‏ ‏ أحق باللوم حارس الوطن

ومن هذا القبيل مانظمه خيري الهنداوى الشاعر العراقي حين القى اللوم في سوء حالة البلاد على الحكام المفاسدين قبل ان يلقيه على المحتلين فقال يخاطب الشعب (٢)

ما الغرب أول ظالم لك بالذى

يأتيه بل ابناؤك الظلام

قد اهملوك وانت معقل عزهم

فاستهونتك بوطئه الأقدام

وكما قال عمر أبوريشة

لايلام الذئب في عدوانه ‏ ‏ ‏ ‏ ان يك الراعي عدو الغنم

ورأى عمر بهاء الأميرى ان أصل الداء في هذه الطائفة المتزعمة وكأنه يدعو الى محقها اذ قال (٣)

هل شعب يسوسه غير كفء ‏ ‏ ‏ ‏ ويقود المنافقون زمامه

كيف تحيا البلاد والحكم فوضى ‏ ‏ ‏ ‏ ورؤوس البلاد صرعى زعامه

ومع كل ماوجدناه من سوء الظن في قادة العرب السابقين ، فأن ايمان الشعراء بالشعب كان وطيدا ، وحين يزهى عمر

---

(١) اغاريد السحر ٩٧

(٢) رفائيل بطي : الأدب العصرى في العراق ١٧٣

(٣) من : " رجال واشباه " ديوان مخطوط للشاعر

أبوريشة بأمجاد العرب يناجي خالد بن الوليد بقوله (١)

قم تلفت تر الجنود كما كانوا – مثار الإباء والعنفوان
ما تخلوا عن الجهاد ولكن قادهم كل خائن وجبان

فالخير في نظر الشاعر مازال موجودا في الآخرين كما كان في الأولين .

ولم يكن ثمة مفر أمام الاقلام الحرة من أن تشتد على هذه الطبقة الحاكمة الجديدة التي عمل المستعمر على خلقها ودعمها .(فقد استفحل أمر الحكام الذين كانوا حربا على قومهم وشؤما على وطنهم ، وأخذ الجيل المتحفز يرى في مثل هؤلاء خطرا كبيرا على قضية البلاد ، وينسب اليهم كثيرا مما يحيق بالوطن من نكبات ، وقد تجلى هذا الشعور الحاد لدى فئة من الشعراء الشبان كان منهم وجيه البارودي الذي يعبر عما يجيش في صدور الشاميين من حقد على تلك الزمرة المتواطئة مع الأجنبي فهو يقول (٢)

يقولون هذا أمير البلاد جميع العباد له خاضعون
اراه ومن حوله في النعيم يروغ العدو وهم غافلون
تجوع البلاد وهم متخمون ويبكي الفقير وهم يضحكون
هم الناكثون هم الخائنون هم الآثمون هم المجرمون
وكل جريء أتى مخلصا يناضل حامت عليه الظنون

ولاريب ان هذه الأبيات زفرة لاهبة من نفوس الشبان الثائرين الذين كان يحز في نفوسهم ان تحتكر الوطنية طائفة من محترفي السياسة وتحرص على ابعاد كل مخلص وشريف عن دفة الحكم ..)

والحق أن الزعامة المخلصة والقيادة الحكيمة كانت في الشرق العربي أندر من الكبريت الأحمر ، حتى غدا كثير من المقالات والخطب يحرص على ذكر صفة الأخلاص الى جانب اسماء الساسة امعانا في تقريظهم والى هذه الظاهرة

---

(١) الديوان ٢٣١ (٢) بيني وبين الغواني ١٨

المتفشية في ظل الاحتلال يشير فؤاد الخطيب بقوله (١)

يقال زعيم ثم يدعت مخلصا	فهل أصبح الأخلاص احدى العجائب
وهل لمدرت تلك السجية أو عفت	فتذكر في التاريخ ضربة لازب

وهكذا بدا واضحا للطليعة الواعية في بلاد العرب ان النكبات التي تحل بأمتهم لايمكن ان تكون جميعا من صنع الاستعمار بمفرده ، اذ كان لأعوانه دور فعال في انجاح خططهم وتنفيذ مآربهم ولذلك فطن اكثر من عرفنا من الشعراء في هذا البحث الى هذا الشر المزدوج .

— ٦ —

والواقع أن اتجاها جديدا أخذ يظهر بصورة متنامية في الشعر العاصر في فترة متأخرة نسبيا ، حين أخذت طائفة من الشعراء تتوجه باللوم الى الشعب نفسه مصدر القوة ، وتحصر فيه بصراحة وجرأة تبعات فساد الحكم الذي ضرب اطنابه في بلاد العرب طويلا . وكأن الشعراء يؤمنون بالمقول المأثور " كما تكونوا يولى عليكم " . ولعل من اسبق الشعراء الى هذا الاتجاه خليل مداران في مطولته (نيرون) ، ففي أبياتها تنديد غير مباشر بحكم الفرد وتقريع للشعب الذي حمله الى سدة الحكم من ذلك قوله (٢)

ذلك الشعب الذي آتاه نصرا	هو بالسبة من نيرون أحرى
قزمة هم نصبوه عاليا	وجثوا بين يديه فاشمخرا
منحوه من قواهم ما به	صار طاغوتا عليهم أو أضرا
انما يبطش ذو الأمر اذا	لم يخف بطش الألى ولوه أمرا
من يلم نيرون انى لائم	أمة لو كهرته ارتد كهرا
كل قوم خالقو نيرونهم	قيصر قيل لـه أم قيل كسرى

---

١)) الديوان ٦١٨

٢)) الديوان ٣ ـ ٥٠ ألقاها في بيروت ١٩٢٤

فهذه الأبيات الرائعة لمطران تنطوي على روح ثورية متمردة ، وكأنها تحض الشعب على الانتقاض على الطغاة لأنه هو الذي مكنهم منه حين رفعهم وهو الذي بوسعه ان يطيح بهم .

غير أن الصراحة كانت طابع اكثر مانظمه الشعراء في هذا الصدد اذ أخذوا يصدعون بالحق، ويجنحون للأسلوب المباشر بعد أن لم يعد التلميح مجديا . وأكثر هؤلاء الشعراء كانوا من الشبان الذين قيض لهم أن يعيشوا في غمرة الأحداث ويكونوا من طلائع الجيل العربي الثائر من نحو ابراهيم طوقان الذي يقول في هذا الصدد : (١)

فالى متى يا ابن البلاد وانت تؤخذ بالسياسة
والى متى زعماء قومك يخلبونك بالكياسة
ولكم احطنا خائنا منهم بهالات القداسة
ولكم أضاع حقوقنا الرجل الموكل بالحراسة
والله ليس هناك الا كل قناص الرئاسة

ويعبر عباس محمود العقاد عن هذه المسقهقة المؤلمة حين جعل نفسه أحد من تقع عليهم تبعات الحكم الفاسد وكأنه يرمز بذلك لأفراد الأمة قاطبة اذ يقول : (٢)

وقد أسأمتنا رعاة نساق	فأين الرعاة وأين الغنم
فماذا أقول لهذا الجبين	وماعابه عائب أو وصم
وماذا أقول لهذا اليمين	واني بها قد صنعت الصنم

وقد نحا أحمد زكي أبوشادي هذا النحو أيضا اذ قال (٣) .

شكوت كما تشكون من زعمائنا	وقد كثروا لكن مآثرهم قلت
فهلا شكونا من تهاون أمة	وهل هي خافقيا لمصارع أم ملت
أينتقد المقواد والجند محجم	عن الحرب أم هذي موازيننا اختلت

وينتقد مسعود سماحة من مهجره المقصي خضوع قومه لتلك

---

(١) الديوان ٥٧ (٢) عابر سبيل ٧٣
(٣) فوق العباب ٦

الفئة الباغية من الحكام وينكر عليها خنوعها وذلك اثر زيارته الشام حيث قال (١)

مشت المتترون وكل شعب قد مشى معها وقوماء واقفون ونسوم
يحنون عن صفر لكل زعامة الموت تحت السوط منها أرحم
لم ترتفع كف لصفعة غاشم فيهم ولم ينطق بتهديد فم

أما عمر بهاء الأميرى فيلقي كذلك اللوم على الأمة في أنها لم تضرب على أيدى حكامها ولهذا استبدوا بها فهو يقول (٢)

لاتلوموا غير كفء وسد الأمر اليه
لا أرى في الناس من يطوى عن الضيم يديه

ويقول أيضا في قصيدة أخرى (٣)

ضيع العلاء في الزمان دراكا نومة الشعب عن هوى الرؤساء

ولعل عمر أبا ريشة الذى عرف بجرأته في الحق وفي مواجهته واقع الأمة من أبرز الشعراء الذين ساروا في هذا الاتجاه وأبياته التالية في هذا الشأن من أجمل الشعر فهو يخاطب الشعب الذى يئن تحت وطأة الخيانة والتآمر بقوله (٤)

يا شعب لاتشك الأذاة ولاتطل فيها نواحك
لو لم تكن بيديك مجروحا لضمدنا جراحك
انت انتقيت رجال أمرك وارتقبت بهم صلاحك
فاذا بهم يرخون فوق خسيس دنياهم وشاحك
أيسيل صدرك من جراحتهم وتطايهم سلاحك

بهذه الروح استطاع الشعراء ان يخوضوا المعركة ضد من باعوا انفسهم للأجنبي واتبعوا شهواتهم . وليس ما مر بنا من اشعار في الواقع سوى نمط جديد من الشعر فجرته المآسي التي عاناها العرب في ظل حكامهم .

×× ×× ××

---

١) الديوان ٢٠ ٢) " في بلادى " ديوان مخطوط للشاعر
٣) "رجال واشباك " ديوان مخطوط ٤) الديوان ٢٤٧

ومما سبق يتبين لنا ان أكثر من عالجوا موضوع الاستبداد وفساد الحكم من الشعراء كانوا في مصر والعراق والأردن ، وذلك تبعا لوجود النظام الملكي في هذه البلاد وما كان يستتبعه من بطانة فاسدة في الغالب ، اذ أن قصر مهمة حكم البلاد وتصريف شئونها على ملك واحد مدى الحياة وامتداد هذا الحق في أسرته الحاكمة كان يساعد على استفحال الفساد وانتقاله بالتالي الى سائر اجهزة الحكم ، بالاضافة الى ان اكثر هؤلاء الملوك انما أجلسوا على عروش أقامها لهم المستعمر ، وطبيعي ان يكونوا مدينين لهم بها ، وأن يدفعوا لهم الثمن من كرامتهم وحرية شعوبهم .

ومن جهة أخرى فاننا نلاحظ قلة ما نظمه شعراء المهجر في هذا الموضوع على الرغم من اهتمام طائفة كبيرة منهم بمعالجة الشعر القومي بصورة عامة . ولعل ذلك يرجع الى ابتعادهم عن العيش في غمرة الجو الداخلي ، وعن رائحة الفساد فيه ، يضاف الى هذا السبب قلة احتفال الصحف عادة بنشر أنباء الأحداث المحلية وتفصيلاتها ، بالنسبة لما كانت عليه من اهتمامها بالقضايا المباشرة ذات الطابع الخارجي والتي تنطوي على أصداء عنيفة ، ومن هنا كانت حملة المهجريين على الاحتلال تستأثر بمعظم اهتمامهم ..

والواقع أن اساليب الشعراء لم تكن تجري دائما على النمط الذي رأيناه فيما مر بنا من قصائد ومقطوعات . ولاريب ان كثيرين من الشعراء اضطروا الى التزام الصمت ايثارا لسلامتهم من بطش الطغاة وبخاصة في بعض الفترات كفترة الحرب العالمية الأولى التي عاش العرب خلالها في ظل الأحكام العرفية سواء في مصر ام في الشام والعراق حتى " أن أحدا من الشعراء (خارج الحجاز) لم يجرؤ على أن يندب احرار العرب الذين شنقهم جمال باشا الا بعد جلاء الترك عن بلادهم" (١) وكثيرون هم الشعراء الذين

---

(١) انيس المقدسي : العواطف القومية في الأدب العربي الحديث محاضرات مخطوطة .

كبحوا جماح قرائحهم في فترات أخرى .

وثمة طائفة من الشعراء احتالت للأمر فلجأت الى تنكير عواطفها وتمويه مقاصدها في اساليب غير مباشرة أقرب الى الرمز او الطابع القصصي ، على نحو مامر بنا في أبيات الشاعر خليل مطران المستمدة من مطولته " نيرون " اذ " اختار القصص التاريخي أو الخيالي وسيلة للتغني بالحرية والبطولة والتمرد على الظلم والظهار قحة الاستبداد "(١)

كما نجد لجميل صدقي الزهاوي قصيدة مشابهة اسمها " ثورة في الجحيم " نظمها في استبداد الحكام وندد بهم خلالها تنديدا غير مباشر وهي أشبه بملحمة بلغت أبياتها (٤٣٥) بيتا . وقد أجرى على ألسنة الفلاسفة والشعراء والكتاب الذين كانوا في الجحيم عبارات الثورة والتبرم والسخط تجاه مايلقون من معاملة وذلك في نحو قوله على لسان احد اولئك الساخطين يحث رفاقه على الثورة(٢)

قال ياقوم اننا قد ظلمنا ... شر ظلم فما لنا لانثور

قال ياقوم لاتخافوا فمنا ... فوق شرور تكابدون شرور

على ان أكثر مامر بنا خلال هذا الفصل من أشعار اتخذ التعبير المباشر وسيلة الى طرق هذا الموضوع ، وكانت سمة الوضوح والصراحة بارزة فيه . ومع ذلك فأن شطرا كبيرا من تلك الأشعار تعمد فيه اصحابه اغفال الأسماء والوقائع وجنحوا للتعميم وعدم الاشارة الى حدود الزمان والمكان والمناسبة او القاء ضوء على الملابسات التي دعت الشاعر الى بث أفكاره في قصيدته . وربما كان ذلك منهم ابتعادا عن سطحية الحياة اليومية وايثارا لشمول الفكرة ، وتجنبا لما يلحقه التخصيص في القصيدة من أذى بالشاعر

كل ذلك يشير الى ان الشاعر العربي لم يكن بوسعه دائما ان يتكلم بملء ارادته ويعبر بانطلاق عن كل مايعن له . فقد كانت حرية الفكر في الشرق العربي عرضة لمحن شتى في كل حين .

---

(١) محمد مندور خليل مطران ٢٤ .

(٢) انظر الأبيات في القسم الأخير من ديوان الثمالة للشاعر .

وجملة القول ان هذا الشعور الحاد الذي غمر جماهير العرب في شتى أقطارهم تجاه الطغيان والاستبداد وفساد الحكم وسوء الادارة ، وتجلى بقوة على ألسنة شعرائها لم يكن الا ايذانا بالانتفاضة الحاسمة في سبيل التحرر من الاستعمار وأذنابه ، وتطهير الوطن من رجسه وبقاياه من المرتزقة وأصنام السياسة وعبيد الكرسي .

وكما أيقن الشعراء من انبثاق فجر النصر من الاستعمار آمنوا باقتراب أجل الاستبداد وفوضى الحكم وتفاءلوا بالحرية والازدهار في احلال عهود الظلام ، وكأنهم قد عبروا على لسان الجواهري عن الثقة بمستقبل العرب والاطمئنان اليه حين قال [1] :

لابد أن يشب الزمان وينثني ... حكم الطغاة مقلم الأظفار

والنصر أبدا للشعوب .

---

(١) الديوان ١ ـ ١٢٠

الفصل الثالث

استنهاض الهمم والحض على الثورة

- ١ -

لعل من أبرز ظواهر الأدب المعاصر اتسامه بالواقعية والالتزام .
فقد أخذ الأديب العربي منذ انبثاق فجر النهضة الحديثة يحس بأن ثمة مايربطه وأدبه بمجتمعه المقبلة المتحفز ، ومازال هذا الاحساس ينمو، ويقوى حتى آل آخر الأمر الى شعور واع في نفس الأديب بأن أدبه جزء من مجموع النشاط الفكري لمجتمعه ، وأنه ليس بوسع هذا الأديب ان يكون بمعزل عما يحيق بقومه ويهدد كيان وطنه . وبذلك غدا الاديب مسئولا تجاه أمته يعبر عن نوازعها ، ويتجاوب مع أحداثها . ولم يكن ازدهار الشعر القومي في هذا العصر الا نتيجة لأيمان الشعراء العرب برسالتهم نحو أمتهم ويقينهم بأن لها عليهم حقا .

ومن هنا حمل كثير من الشعراء تبعات هذه الرسالة ، وكان ايقاظ الغافلين وتنبيه النيام ، واستنهاض الهمم والحض على الثورة من أبرز موضوعات الشعر القومي المعاصر .

واذا كان الشاعر العربي قد صدر في شعره عن هذا الاتجاه منذ العصر الجاهلي في استنفار قبيلته من اجل الحفاظ على شرفها والذود عن حياضها فأن الشاعر اليوم أخذ يؤثر السير في هذا الطريق من جديد . وقد كان الشيخ ابراهيم اليازجي رائد الشعراء المعاصرين في قصائده المشهورة التي كانت الصيحة المدوية في آذان العرب .

لكن الارهاب الحميدي من جهة وضعف الوعي القومي في نفوس شعراء القرن الماضي من جهة أخرى وسم كثيرا من الأشعار آنذاك بطابع التزلف والولاء .

وما أن هبت على العرب نسمات الحرية اثر اعلان الدستور العثماني حتى عادت الثقة الى نفوسهم وبدوا كأنهم وجدوا ذاتهم من جديد بعد ان افتقدوها قرونا .

الا ان محاولة الترك الاستئثار بالحكم واساليبهم الجائرة ،

أثارت حفيظة احرار العرب فأخذوا يعلنون على السنة فئة من كتابهم وشعرائهم تذمرهم وسخطهم ويستهيبون بقومهم الى النهوض في سبيل انتزاع حقوقهم ، وصون لغتهم ووطنهم وقوميتهم .

وكانت مهمة الشعر شاقة ، لأن شطرا كبيرا من العرب لم يكن آنذاك ليتقبل فكرة التصدى للأتراك بله الثورة عليهم ، اذ كانت الرابطة العثمانية ماتزال تلقى تأييدهم ، كما كانت الجامعة الاسلامية تحظى باحترام كبير . وغدا تبعا لذلك من العسير استبدال الرابطة القومية بهذه المشاعر . ومع ذلك أخذ بعض الأدباء يصدعون بما تمليه عليهم قوميتهم دون وجل ، وبخاصة في المهاجر الامريكية بفضل الآفاق الجديدة المتحررة التي عاش في أجوائها عدد من الشعراء العرب . وكثير منهم كان في شعره ينطوى على الثورة والتمرد تجاه الحكم العثماني واساليبه البالية . ومما قوى هذا الاتجاه لديهم كون الكثيرين منهم من المسيحيين الذين وجدوا في خضوع قومهم وبخاصة في لبنان لسلطة دولة تغايرهم في العقيدة وفي القومية أمرا شاذا وغريبا لايجوز السكوت عنه . وكان جورج عساف من رواد هذه الطائفة الثائرة من الشعراء وقد اطلق صرخته المدوية في قصيدة له يحض فيها على الثورة ويقول[1] :

جف المداد فكم انادى أمة ... معصوبة العينين كالعميان

هبوا فقد طالت ليالي بؤسكم ... والشمس مشرقة على الأكوان

لولا تخاذلكم لما بتم بلا ... عز ولا ملك ولا سلطان

وفي مقدمة الأصوات التي ارتفعت في المهاجر أيضا صوت أبي الفضل الوليد وايليا أبي ماضي وقد اكثرا من القول في هذا الموضوع . وكان الوليد عنيفا في ثورته حين دعا الى امتشاق الحسام ضد الأتراك وانتزاع الحقوق منهم في انتفاضة قومية عاصفة :[2]

---

(١) جورج صيدح : ادبنا وأدباؤنا في المهاجر الامريكية ١٢٧

(٢) الانفاس الملتهبة ٣٨

هبوا بني أمي وصيحوا صيحة يمحو الهراة لها ويمحو الشام
والله لا عدل ولا حرية حتى يجرد بيننا الصمصام
كونوا اسودا فالذئاب عداتنا حتام انتم عند هم اغنام
وقفوا نمزق بالسيوف حجابهم حتام تعبد عندنا الاصنام
ما حرر الأقوام الا ثورة فيها تعانقت الظبى والهام

وقد كان أبو ماضي حديث عهد بالهجرة الى العالم الجديد وما يزال قلبه رهين وطنه ، فهو يتشوف الأمل من خلال الحرب الكبرى ، ويحث قومه على الانتفاض في وجه الترك وقد عيل صبره : (١)

يا لقومي بلغ السيل الزبى واستطال الهض واستشرى الفساد
فاجعلوا اقلامكم بيض الظبى واستعيروا من دم الباغي المداد .
كتب السيف اقرأوا ما كتبا لاينال المجد الا بالجهاد

وقد أرادها أبو ماضي ثورة قومية حاسمة على غرار ثورات شعوب البلقان التي لم يكن كثير من الترك والعرب يرون فيها سوى حركات هدامة وغير مشروعة . وكان مما قاله آنئذ يناشد قومه الثورة (٢)

لو تعقلون عملتم لخلاصكم من دولة القينات والخصيان
ثوروا عليهم واطلبوا استقلالكم وتشبهوا بالصرب واليونان

ومع أن معروف الرصافي كان من دعاة الجامعة الاسلامية الحريصين على ادامة عرى الأخاء والمودة بين الترك والعرب ، والأبقاء على الدولة العثمانية عزيزة الجانب تجاه مطامع الغرب ، فهو لم يجد بدا من التحول عن موقفه الى التنديد بهم وزرع بذور الثورة في نفوس العراقيين وسائر العرب ضدهم ، فقد نفض يديه من عودة الاتحاديين عن مسلكهم ، ولم يكن وحيدا في هذا التحول وانما شاركه فيه كثيرون من شعراء الشام والعراق منهم جميل صدقي الزهاوي وفؤاد الخطيب وعبد الحميد الرافعي وأمين ناصر الدين وسواهم .. وكما كان الرصافي يحرض قومه

---

(١) زهير ميرزا : ايليا ابو ماضي شاعر المهجر الاكبر ١٥٦
(٢) المصدر السابق ١٩٣

ضد الطغيان الحميدي ويعمل على الاطاحة به نراه يستأنف القول في أولئك المستبدين الجدد (١)

كأنا لهم شاء فهم يحلبوننا — وكم مخضوا اوطاننا مخضة الزق

فما نحن الا كالظماء وانهم — كساق يرينا الماء عذبا ولا يسقي

سنطلب هذا الحق بالسيف والقنا — وشيب وشبان على ضمر بلق

وانطلق في الشام صوت الشيخ عبد الحميد الرافعي الذي انقلب على الترك أيضا فقال يحث قومه على النهوض (٢)

لاتصلح الدنيا ولا ناسها — مالم يسل الأقوام أجناسها

هبوا بني العرب الام الكرى — وقد دهى الآمال داماسها

وكان ثمة شاعر شاب الترم في حياته وفي شعره النضال من أجل تحرير قومه من البطش والاستبداد ذلك هو الشهيد عمر حمد ومما قاله مستنفرا قومه للجهاد (٣)

بني العرب كم أدعو ولم ألق بينكم — صدى لدعائي او مجيبا لتسآلي

انادي بني قومي الى المجد والعلا — وأدعوهم دهري صباحي وآصالي

مضى ذلك العهد المعزز وانقضى — ولسنا نرى في عهدنا غير اذلال

خذوا بيد الأوطان ياخير فتية — وردوا لها ماكان من مجدها الخالي

وكان مما قاله أيضا في ديوانه الصغير (٤)

ياعرب قام المقاعون ومابرحتم نائمينا

يا أيها العرب انتبهوا حسبكم تتغافلونا

اشبهتم شعراءكم في كل واد هائمينا

لهفي على شعب له خضع الاكاسر صاغرينا

لهفي على ابناء من ساقوا الملوك مصفدينا

وهذه الأبيات تنم عن روح المرارة التي كانت تملأ نفس الشاعر تجاه ماكان عليه قومه من ضعة وتقاعس وغفلة .. ثم كانت المفاضلة

---

(١) الديوان ٣٩٩ (٢)

(٣) " ٢٤ (٤) الديوان ١٨

الأولى من شهداء الحرية وفي جملتهم الشاعر نفسه ، واذا هي مأساة أخرى تنزل بالقوم الى جانب اهوال الحرب .. ويصحو العرب جميعا على صيحة الجسن ، ومنذ ذلك اليوم أي السادس من أيار (مايو) عام ١٩١٦ شملت الدعوة الى النهوض والحض على الثورة والثأر الجانب الأكبر من الشعر القومي .

والواقع ان كثيرا من هذا الشعر الثائر الذي كان يحض على الانتفاض في وجه الترك مبثوث في القصائد التي قيلت رثاء لأولئك الشهداء وتفجعا عليهم ، فقد ثارت ثائرة الشاعر القروي على قومه حين بلغته أنباء اعدام الأحرار فراح يقول بعد ان بكاهم (١)

ياللجبانة بل يا للخيانة من	شعب بمال الغاشم ارتصدا
يا شعب لبنان بات الصبر مفضحة	ألا نفاذ لصبر أجره نفدا
هل علقواعن بلاداصين فاضطربت	وانت لانام (صين) ولا قعدا
اين الحماسة يالبنان قد بردت	كالثلج والدم يالبستان قد جمدا

كما كان ارتداد المفعل عنيفا لدى أمين ناصر الدين تجاه الفاجعة في قصيدته (جزار سورية) فهو يحض قومه على الثأر ويهيب بهم ان يثوروا في وجه الطغاة بقوله (٢)

شعب يضام وغاشم لايرحم	ونوائب تنضى الوليد فيهرم
ودم يطل على الثرى ومشانق	بحبالها وصل القضاء المبرم
هل بعد ذلك للتجلد موضع	ان كان فيكم من يحس ويفهم
والله لو ناب الذي قد نابكم	بعض السوائم لانثنت تتظلم
لو أنكم حقا سلالة يعرب	لم تضرعوا جبنا لمن يتهضم
هذى دماء بنيكم مسفوكة	أفليس يجرى في عروقكم دم

فالشاعر ثائر حانق تفجرت نفسه غيظا على تقاعس العرب تجاه الظلم حتى بلغ في مخاطبتهم هذا المدى .

وهكذا حمل الشعر القومي يومئذ بذور انتفاضة العرب في ثورتهم الكبرى عام ١٩١٦ .

---

١)) الديوان ٢٧٥ ٢)) الالهام ٥٧

ولكن الحرب العالمية الأولى تكشفت عن خدعة كبرى كان العرب ضحيتها ومازالوا يعانون من جرائها حتى اليوم . واذا وجدنا طائفة من الشعراء قد أغضت عما ارتكبه الترك من مظالم تجاه العرب خشية التصدع في صفوف المسلمين واشفاقا على الامبراطورية العثمانية من الانهيار فأنهم منذ ذلك اليوم قد واجهوا عدوا اجنبيا جشعا يحتل ارضهم ويذل قومهم ، ويختلف عنهم في الدين والقومية واللغة والطباع ، ولهذا قصدوا لمحاربته والتنديد به بكل قواهم .

وبوقوع الشام والعراق في قبضة الحلفاء التأمت قضايا البلاد العربية في قضية واحدة وغدا الشعراء لايفرقون في قصائدهم بين مستعمر وآخر . وهذا معروف الرصافي ينبه قومه الى الخطر الجديد ويقول[1]

لك الخير هل للشرق يقظة ناهض فقد طال نوم القوم بين ديارهِ
ألم تر أن الغرب اصلت سيفه عليهم وهم لاهون تحت غرارهِ
أما آن للساهين أن يأبهوا له وقد اصبحوا في قبضة من اسارهِ

كذلك يتجه عبد المحسن الكاظمي وهو في مصر الى العرب جميعا يستنهضهم لقتال المستعمر مهما يكن وجهه واسمه فيقول[2]

سيروا نذب عن الحمى ونرد عنه المستبدا
نحمي حمى اوطاننا ونصونها غورا ونجدا
ونرد عنها من عدا ظلما عليها او تعدى
سيروا قواصد للمنى او نبلغ الاوطان قصدا
ان لم تكن تجدي الحياة _ بعزنا فالموت أجدى

ومع أن خير الدين الزركلي كان ينعم وقومه بالاستقلال خلال فترة قصيرة بعد انتهاء الحرب الأولى وثورة العرب الكبرى ، فقد حز في نفسه ان يكون سائر الوطن العربي فريسة بين مخالب المحتلين فلم يهنأ بما هو فيه وراح يحث اهل العراق

---

١)) الديوان ٣٦

٢)) الديوان _ المجموعة الأولى ٢٢٣

ولبنان على طرد الغاصبين ويعلن سخطه على مشروعاتهم الآثمة بقوله : (١)

فهم الونى وديار الشام تقتسم ... اين العهود التي لم ترع والذمم
مابال بغداد لم تنبهن بها شفة ... وما لبيروت لم يخفق بها علم

ويأبى شفيق جبري على شعب العراق ان يكون دون مصر حمية بعد ثورتها على الاحتلال عام ١٩١٩ ، فيحفز همته على الكفاح ويحضه على الثورة ويقول (٢)

ما للعراق خوت عزائم اهله ... فاستسلموا لمشيئة الحكام
هلا أتاه حديث ثورة أمة ... في مصر قد انفت من الأحجام
ثارت شعوب الارض بعد خضوعها ... ان الخنوع نقيصة الأنام

ولكن العراق لم ينم وانما كان يقظان يترقب اذ لم تمض شهور حتى اندلعت فيه ثورة شعبية عاصفة وانطلقت اصوات شعرائه تحض على الجهاد ومنهم عبد الغني الخضري الذي قال مستنفرا : (٣)

الجهاد الجهاد ابناء قحطان ـ وأحفاد يعرب واياد
حفزت ونبة العراق شعوبا ... ركنت للقيود والأصفاد

وقد اتيح لعبد المحسن الكاظمي ان يندد بمن يحتلون بلاده وهو في مصر فقال يستنهض قومه : (٤)

ايها السيف قولا اليوم فصل ... ارهم كيف يحكم الحاكمونا
ارهم فعلا الذي ان رأوه ... طأطأوا هامهم له مرغمينا

وكان محمد مهدي الجواهري الذي حمل لواء الشعر القومي في العراق بعد قيام ثورته الأولى دائبا على حث قومه على الثورة من جديد ضد الاستعمار الذي كان يغرس جذوره يوما بعد يوم في البلاد ، ومما قاله في خلال تلك الفترة ـ فترة اليأس ـ أبيات يعلن فيها سخطه على اخلاد قومه الى التخاذل ويستنهضهم

---

(١) الديوان ١٥
(٢) صبري الاشتر : المختار من الشعر في سورية ٤
(٣) رفائيل بطي : الشعر العصري في العراق العربي ١٢
(٤) الديوان ، المجموعة الاولى ١٦٣

للجهاد (١)

أقر على الضيم الشباب ولم يثر ... وأخلد لايسدى النصيحة أشيب

كأن لم يكن في الرافدين مغامر ... وحتى كأن لم يبق فيه مجرب

أعقما وأمات البلاد ولودة ... واناه يا أم المفراتين أنجب

كما صاح محمد صالح بحر العلوم بأبناء وطنه للذود عن استقلالهم فقال (٢)

بني وطني هبوا لأسعاد أمة ... عليها رواق الانتداب مخيم

بني وطني جدوا لأسعاد أمة ... مخاصمها في حقها يتنعم

وكان موقف شعراء الشام من قوات الاحتلال لايختلف في جوهره عن موقف شعراء العراق أو مصر لأنهم جميعا يصدرون في نتاجهم عن ضمير أمتهم الحي وعن نزوعها نحو التحرر فكان الاستنهاض والحث على الجهاد دأبهم منذ ان وطئت جحافل (غورو) أرض لبنان وسورية ، من ذلك ماقاله الشيخ مصطفى الغلاييني يومئذ (٣)

ماقيمة المرء يحيا وهو مهتضم ... تبا لعيش بموج الذل يلتطم

الى النهوض الى كسر القيود الى ... رفع البنود الى مايطلب الشمم

هبوا الى الموت فالأخطار محدقة ... واستحقروا الموت ان المجد في الألم

هبوا فأمتكم أمست على خطر ... جارت عليها الأعادى جور منتقم

وذمة العرب والأيام شاهدة ... لتضرمن الوغى في السهل والظلم

حتى يخلوا بلاد العرب اجمعها ... من ساحل الروم حتى ساحل العجم

والملاحظ أن الشاعر يستنفر قومه الى الجهاد لتحرير الوطن العربي الكبير الذى استباحه المستعمرون دون ان يشير الى اجتياح غورو أرض لبنان ، فنظرة الشاملة راشده ، وبلاد العرب لديه وحدة من حيث قضيتها ومصيرها ، وهي عنده أيضا تواجه عدوا واحدا مهما تختلف اسماؤه . وبرغم أن بيروت غدت محتلة فالغلاييني لايستنهض أهل لبنان بل يستنهض العرب

---

(١) الديوان ١٤٥   (٢) الديوان ٧٩

(٣) الديوان ٥٧

كافة لأن لبنان او ساحل سوريا آنذاك انما هو عضو في جسد العرب . ويمثل هذه العروق الشاملة والنظرة القومية الصحيحة يحفز أيضا همم العرب ضد المستعمر الذى يعيث فسادا في بلادهم فهو يعدد شعوبهم واحدا اثر واحد وكأنه يستنفر افراد اسرة واحدة للذود عن كرامتها فيقول (١)

مالي أرى العرب في نجد وفي يمن — وفي الشآم بلا سمع ولا بصر
اين العصابيت في أرض العراق وفي — رحب الجزيرة من قحطان أو مضر
ان الغزاة استباحت أرضنا طمعا — والبحر في يدها والبر والمقل

وقد أمدت الثورة الكبرى التي اندلعت في سورية عام ١٩٢٥ الشعراء بوقودها فتأججت المشاعر القومية في النفوس ، وكان على الشعراء ان يخوضوا المعركة بأشعارهم يذكون بها الهمم ويحفزون العزائم ، وعندما أصبحت دمشق طعاما لنيران الفرنسيين هب الشعر القومي كالليث زاده الجرح ضراوة يستنهض الشعب الى الجهاد . ونمثل لتلك الظاهرة الأدبية بأبيات لعز الدين التنوخي يقول فيها (٢)

ياعرب حتام القرار على الأذى — وديار كم قد غالها ماغالها
أو تجبنون عن الفرنجة بعد ما — سامتكم ارهاقها ونكالها
لستم لقحطان اذا لم تثأروا — لبلادكم وتقتلوا قتالها

والملاحظ ان التنوخي شأنه شأن الغلاييني وكثير من الشعراء ، لم يبق في نطاق الأحداث المحلية بل تناولها على الصعيد القومي العام وراح يستنفر العرب كافة .

وفي الوقت نفسه كان المهجريون العرب يعيشون أحداث وطنهم بقلوبهم ويتلهفون على تحرره ، فقد دأب أبو الفضل الوليد وايليا أبو ماضي ورشيد سليم الخوري والياس فرحات وسواهم على استنهاض قومهم في كل مناسبة ، وكثيرا ماعمدوا الى استثارة حمية لبنان الذى كان ينهمك بحزازاته الطائفية وخلافاته السياسية ، ويغفل عن عدوه الحقيقي ومما قاله القروي في هذا الصدد قصيدته

---

(١) الديوان ١٣٠ (٢) ديوان الثورة ٧٣

(شبول الأرز) ومنها قوله (١)

وما شرف الجبال لساكنيها	وشم ابائهم خسفت وهادا
اهيب بهم فلا المقى سميعا	كأنني المنادي والمنادى
شبول الأرز بات الحلم عجزا	وبعض الصبر موت ان تمادى
فكونوا النار تحرق أو قذى في	عيون المحتل ان كنتم رمادا

وحين اقتطع المستعمر لواء اسكندرون من سورية في غفلة من أهلها ورؤسائها وسلمه الى تركيا ثار الشعراء في جملة من ثاروا آنذاك وكان الحض على استعادة الجزء السليب قويا يومذاك ولكن انقضاء الأمر بسرعة وبتكتم ثم انهماك السوريين وسائر الشعوب العربية بمكافحة الاحتلال كل في بلده جعل نطاق القول محدودا حول هذا الحدث اذا قيس بسواه من الأحداث المقومية الأخرى . ولأبيات عمر يحيى في اقتطاع ذلك اللواء العربي مغزى بعيد لأنها قرعت يومئذ ناقوس الخطر ونبهت النيام على مايراد بهم . من ذلك قوله (٢)

أبعد الثورة الحمراء يرضى	بنونا ان يفارقهم بنوه
افيقوا ان يضع فلسوف يأتي	زمان فيه يتلوه أخوه

وكأن هذا المقول الذى حذر فيه الشاعر قومه كان تنبؤا بما يخبئه المستعمر من شر للعرب تجسد في أبرز صوره في مأساة فلسطين بعد ذلك . .

على أنه مامن قضية عرفها العرب في عصرهم هذا وأثارت معاني الاستنهاض والحفز في الشعر المعاصر مثل قضية فلسطين التي أثارت احداثها اهتمام العرب جميعا . وقد تجلى ذلك بوضوح على السنة شعرائهم في مختلف ديارهم . وهذه الظاهرة الأدبية تعكس بجلاء ، الوجدان الجماعي للعرب قاطبة في تجاوبهم المشترك تجاه مايعانيه اخوانهم في تلك البقعة المقدسة . فأبو الأقبال اليعقوبي أحد شعراء فلسطين يستنهض العرب في كل

---

١)- الديوان ٣١٧

٢)- صبرى الأشتر : المختار من الشعر في سورية ٢٦

مكان ويثير فيهم الحمية لأنقاذ فلسطين والثورة على الطغيان فيقول[١]

استفزى عرب نجد والشآم ... وبني مصر وأبناء العراق

انهم من قبل واليوم كرام ... وكرام العرب للعرب رفاق

وتصبح احداث فلسطين الدامية ملء دنيا العرب وشغلهم الشاغل ، وينظم فيها الشعراء ما ينظمون ، ويكتب حولها الكتاب ما يكتبون ، غير أن طابع الاستنفار الشامل والروح العربية البارزة كانا السمة الأولى التي عرف بها ذلك النتاج الأدبي بصورة عامة . ويكفي ان نمثل لهذه الظاهرة الهامة بما نظمه شعراء العراق في هذا الشأن فنشير الى ديوان حمل اسم (الفلسطينيات) وحوى مختارات من قصائد اقتصرت على موضوع فلسطين وحده ، نذكر من بينهم محمود الحبوبي وعبدالغني الخضري وأحمد رضا الهندي وعلي الهاشمي وعبدالمنعم الفرطوسي وعلي البازي وعلي الشرقي ومحمد باقر سماكة ومحمد مهدي الجواهري وغيرهم ، ومن ذلك مثلا قول احمد رضا الهندي :[٢]

يا لقحطان اين تلك الحمية ... أين آثار روحنا العربية

اين ذاك الحماس والشرف الباذخ ... مجدا لهاشم وأمية

اين عرب الحجاز اين العراق ... ألا أين الشهامة السورية

اين عيسى المسيح يرأف بالناس ... وأين المواقف الأحمدية

فالشاعر يستثير حمية العرب ويستغيث بجدهم الأول قحطان ، كما يفتقد فيهم حماسة بني هاشم وبني أمية ، ويرى واجب الذود عن فلسطين يشمل شعوب العرب جميعا في الحجاز والعراق والشام وفي كل أرض عربية بل انه يعدو ذلك الى الاستغاثة برأفة أتباع المسيح وحمية اشياع محمد وكأنه يستنهض البشر كافة ويلوذ بعاطفتهم الأنسانية .

ويضم محمود الحبوبي صوته الى تلك النداءات الحارة ، ويحث قومه على مساعدة المجاهدين في فلسطين فيقول[٣]

---

١)) النظرات السبع ١٤ ٢)) الفلسطينيات ٣١

٣)) الفلسطينيات ٦٢

لبوا نداء فلسطين فقد بعثت ... صوت استغاثتها دون الورى لكم

هذى فلسطينكم هل تهدأون اذا ... أمست برغم أنوف العرب نقتسم

حمية العرب لاترضى وعزتها ... بأن يحل مكان السادة الخدم

ولم يكن نشر كثير من هذه القصائد في الجرائد اليومية والمجلات الدورية سوى تعبير آني عن تلك الحمية اللاهبة في نفوس العرب تجلت على ألسنة شعرائهم في نداءات شعرية صادقة على نحو ماتجده في قصيدة لأمجد الطرابلسي يقول فيها على صفحات مجلة الرسالة (١)

ياعرب هيا فانصروا موطننا ... للعرب هاج الحقد أفراده

هناك شعب عربي الهوى ... يحاول الغاصب انفاده

يسومه الخسف وأغلاله ... ويدعي بالنار ارشاده

فالشاعر يستنهض العرب ويحضهم على نصرة شعب عربي، وهو لايعدد اسماء الشعوب العربية بما فيها شعب فلسطين، فالوطن فرد والأمة واحدة وجوهر الاستعمار والصهيونية واحد أيضا أشار الشاعر اليه بكلمة الغاصب . وحين بلغت احداث فلسطين اوج احتدامها ينظم خليل مردم قصيدة على صفحات (القبس) يعبر فيها باستجابته الآنية عن دوافع الاستنهاض مشوبة بروح مريرة من الخيبة والسخط والتقريع ومما قاله يومذاك (٢)

بني العروبة كم من صيحة ذهبت ... لو يستثار بها الموتى اذن ثاروا

هنتم على كل شعب من تخاذلكم ... شأن العبيد وباقي الناس أحرار

اخواتكم في فلسطين تنالهم ... بالسوء والعسف انياب وأظفار

وهكذا كان اكثر ماقيل في احداث فلسطين متسما بروح الاستنفار والاستنهاض وبث الحمية والنخوة في النفوس ، كما لم يكن من جهة أخرى يخاطب فلسطين وحدها أو شعبا آخر بعينه وانما كان يتجه الى الأمة العربية وشعوبها قاطبة ..

---

(١) السنة الثالثة ص ١٢٣٢ دمشق

(٢) جريدة القبس الدمشقية العدد ١٤٢١ سنة ١٩٣٨

أما مصر التي كانت أسبق بلاد الشرق العربي وقوعا في قبضة المحتلين فقد عمد شعراؤها منذ اواخر القرن التاسع عشر الى التنديد بالمحتلين بلهجة تشتد حينا وتضعف حينا آخر ٠ واذا حاولنا استقصاء مانظموه قبيل الثورة ١٩١٩ التي كانت في حقيقتها امتدادا لثورة عرابي فأننا لانكاد نقع على الكثير من قصائد الحث والاستنهاض في التمهيد لتلك الانتفاضة الشعبية ، في حين أن شعرا غير قليل نظمه شعراء العرب في الشام والعراق قبيل الثورة العربية الكبرى والثورة السورية وثورات فلسطين في حث العرب على الجهاد واستنهاض هممهم وعزائمهم ٠ ومرد ذلك الى اسباب متعددة منها أن الأفواه قد كممت خلال سني الحرب الأولى وهي التي سبقت عام الثورة فلم يعد من يستطيع التعبير عن رأيه في ظل الادارة العرفية وسيف الارهاب المصلت ٠ كما أنه لم يتهيأ لمصر كما تهيأ للشام جالية أدبية كبيرة في أرض المهجر بوسع قرائحها ان تنطلق بما لم يكن في وسع شعراء الوطن ان يقولوه ، وكان أحمد شوقي في منفاه بعيدا عن الوطن حتى اندلاع ثورة عام ١٩١٩ ٠ ومن هنا كان اكثر ماقيل من شعر في مصر آنذاك شعرا منفعلا قبل ان يكون فاعلا يتأثر اكثر مما يؤثر ٠ وتعتبر قصائد محمد عبدالمطلب مثلا التي يصف فيها فظائع الانكليز في بعض انحاء الريف المصري وقراه[١] وقصيدة حافظ ابراهيم النونية وبعض مانظمه محمد الأسمر وسواه خير مثال على ذلك ٠ وعلى هذا يمكن القول ان دور الشعراء المباشر في مصر كان ضئيلا في التمهيد لثورتها وأن تلك الانتفاضة كانت من صنع الشعب قبل كل شيء ٠

ومما قاله محمد الأسمر في غمرة الصراع بين الشعب المصري والاستعمار في اعقاب الحرب الأولى[٢]

فتى الشرق ان الغرب ادلى بمخلب	وناب فلا تهتز بمنهما جنبنا
خذوا حذركم ان الخطوب روابض	وشيدوا لكم ركنين ان هدمت ركنا

---

١)= انظر الديوان ص ١٩٣ و ص٢٨٣

٢)= تغريدات الصباح ٢٠

والواقع أن المحتلين في مصر استطاعوا بدهائهم أن يصرفوا الشعب بعد ذلك عن جوهر قضيته وجعلوه يولي تناحر الزعماء والأحزاب اهتمامه الأول . وقد انعكس ذلك بجلاء في الأدب ونجم عنه مايمكن ان يقارب الشعر السياسي . ثم طغى التيار الرومانسي فانعزل كثير من الشعراء عن واقع امتهم وآثروا معالجة الشعر الوجداني .

وكانت مدرسة (أبوللو) مظهرا لهذا التيار في مصر . وبوفاة شوقي وحافظ وعبد المطلب حدث مايشبه الفراغ في الشعر بصورة عامة وفي الشعر القومي والاجتماعي بوجه خاص ؛ فلم يستطع احد من الشعراء بعدهم أن يتغنى بمشاعر قومه ويتجاوب مع آمالهم وآلامهم ويسدي اليهم الرأي والنصح بمثل ما كانوا عليه .. وتبعا لذلك قل شعر الاستنهاض والحض على الكفاح .

ومن العجيب ان نرى عددا من القصائد المفعمة بروح الثورة والنضال تصدر عن طائفة من الشعراء الذين عرفوا بانتمائهم مع التيار الرومانسي مثل محمود أبي الوفا في احدى قصائده التي اسماها "الأسد السجين" (١)

ألا ياليت لست أقول صبرا فقد جربت هذا الصبر دهرا

فلم ينفع وزاد العيش مرا ولكن ان قدرت وكنت حرا

فحطم كل هاتيك القيود

ففي ثنايا هذه الأشطر القليلة تضطرب جمرات الثورة ويلتمع لهيب التمرد . وقد تلفع نداء أبي الوفا بثوب ضبابي رمزي في عنوان قصيدته وفي مناجاته لليث ، ومن وراء ذلك كله يلوح شبح الارهاب وكبت الحرية في نفوس المصريين في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأخيرة ، وفي هذه الفترة نفسها وابان انتفاضات الشعب عام ١٩٣٥ طلع علينا حسن كامل الصيرفي بقصيدة تكاد تكون يتيمة في ديوانه قال فيها (٢)

تحرك من سباتك يافتاها وأرجع عزمها وأعد قواها

فقد طغت الخطوب على حماها فواها للأبي اذا تلاهى

---

١))- اشواق ٥٦ ٢))- الشروق ٨٩

تحرك يا أبي الضيم وانهض ... فحقك في بلادك بات يرفض
وأي جفون مسلوبين تغمض ... اذا ما الأسد ديس على حماها
بلادك لقمة في عين جائع ... وحقك نهبة في كف طامع
وانت مع المذلة جد قانع ... فقم وأنزع عن النيل السفاها

ولا تقل السيوف سيوف خصمي ... ولا تقل المدافع فوق عزمي
فأن النصر معقود لقوم ... نفوسهم ترى الجلى هواها

تقدم بالأماني الصفوفا ... ولا تخف الصواعق والحتوفا
وأوجد من عزائمك السيوفا ... وأشعل نارها وأثر لظاها

هذه القصيدة التي نظمها الصيرفي وأسماها " نشيد الثورة " والتي حالت السلطات دون نشرها يومئذ قبل أن تضارعها قصيدة أخرى في بعث روح الثورة والتمرد وشحذ الهمم والعزائم ، فالشاعر يريدها ثورة عاصفة لاتبقي ولاتذر • والقصيدة بعد ذلك تعكس تطورا كبيرا في مفهوم الشعر عند شاعر رومانسي " بعد أن انطلقت نفسه من سجنها واصبحت قادرة على ان تنفعل بما هو خارج عنها • ففي هذا النشيد نحس بحرارة الروح الثورية التي اشتعلت في ذلك العام في مصر واستطاعت ان تنفذ الى روح الشاعر "(١)

- ٣ -

وكثيرا ماكان شعر المناسبات طريقا الى معالجة القضايا الأساسية للوطن وبخاصة مايتصل منها بالتاريخ العربي الزاهر ، اذ يلجأ الشاعر في الغالب الى ربط ماضي العرب بحاضرهم والمقارنة بينهما ، ثم يعمد الى استنفار الشعب للذود عن كرامته وحثه على ادراك مجد آبائه ••• حتى ان الشاعر المعاصر قد يتعمد أحيانا الابتعاد بمضمون أبياته عن اصل موضوعه في

---

(١) محمد مندور : الشعر المصري بعد شوقي ، الحلقة الثانية

سبيل هذا الهدف . ونحن نجد هذه الظاهرة أبرز ماتكون في مناسبات دخول عام جديد أو حلول عيد ، او مصادفة ذكرى قومية او دينية . ومن هذا القبيل ماتقوله أنور العطار في " ذكرى المولد " (١)

ياصحابي ومعشرى وقبيلي	آن ان تستفيق تلك الصوارم
فامنحوها غمودها وكراها	واستثيروا بها دفين العزائم
وانفضوا عنكم الرقاد وهبوا	لم تكن هذه الحياة لنائم
قد ضججنا من البكاء كأنا	قد سلبنا النواح هذى الحمائم

ويبدو ان الشاعر لم يشف كل مافي نفسه من حرقة على استكانة قومه ، فتراه يعود بعد مناجاته الرسول وافتقاده مجد العرب الى الهاب نيران الثورة في النفوس بقوله :

اوقدوها حمراء تلتهم الأفق —	فتشوى بها اللظى والسمائم
وامنحوها دماءكم تتنزى	وامهروها ارواحكم والجماجم
واملكوا الأرض انتم سادة الأرض —	وأنتم بنو الليوث الضراغم

وكثيرة أمثال هذه الصيحات التي كانت تنطلق من حناجر الشعراء في كل حين ومناسبة ، والتي تذكرنا في كثير من الأحيان بقصائد ابراهيم اليازجي الرائدة ..

وهكذا كان جانب من الشعر القومي المعاصر يبشر بالرسالة القومية على درجات تتفاوت بين الشدة واللين تبعا للظروف السياسية التي كان يحيا في ظلها الشعراء وبحسب أمزجتهم ومدى تجاوبها مع الأحداث . وكان من الشعر ما اقتصر على التنبيه والتحذير ، او تعدى ذلك الى الحث والاستنهاض أو مابلغ أخيرا حد التمرد والثورة .

وقد ظل موضوع استنفار العرب وحضهم على الثورة والثأر يحظى باهتمام شعراء الشرق العربي طيلة العهد الاستعماري . وهذه الظاهرة في الشعر المعاصر تشير الى ريادة الشعر المعاصر للوجدان الجماعي في نفوس العرب ، واسهامه

---

(١) الديوان ٩٤

في زرع بذور الوعي القومي والتمهيد للانتفاضات الشعبية في العالم العربي . ولئن اختلفت الآراء حول مدى تأثير الشعر في توجيه ضمير الأمة واثارة مشاعرها القومية ، ليس بوسع أحد ان ينكر الدور القيادي للأدب في هذا المجال . ولاريب ان المستوى الفني للقصيدة هو الذي يحدد مدى هذا التأثير ، اذ أن شعرا غير قليل مما نظم في موضوع الاستنهاض والاستنفار كان يعتمد على صيغ الأمر والنهي والاسلوب المباشر مما يقربه أحيانا من الوعظ والارشاد ويفقده الكثير من روحه

الفصل الرابع

التضامن والأخاء

لم يكن الأجنبي يأمل في التمكين لجيوشه في بلاد العرب الا عن طريق بذر الشقاق والتعصب في النفوس ، واتخاذه من مبدأ " فرق تسد " محورا لسياسته في اضعاف عناصر الأمة وتفتيت مقاومتها للاستعمار .

وقد طرأت على العرب في تاريخهم الحديث آفات الشقاق والخلاف والتعصب الأعمى في السياسة والدين . واذا كانت العصبية القبلية لدى العرب في الماضي والتطاحن على الحكم بعد ذلك في طليعة العوامل التي اطمعت فيهم الفرنج وأدت الى تصدع اركان الدولة العربية ، فأن التعصب الديني والتحزب السياسي كان لهما في تاريخ العرب الحديث اسوأ الأثر في سيرهم الحثيث نحو التحرر والاتحاد .

أما الشعر المعاصر الذي أخذ يبدي اهتماما متزايدا بأوضاع العرب القومية والاجتماعية فقد أخذ يعبر بقوة عن وجدانهم الجماعي ويعكس على صفحته الجميلة منازعهم المتعددة حية نابضة .

وثمة عنصران في هذا الموضوع : الشقاق السياسي ، والتعصب الديني ، وهما يرتدان في الواقع الى جوهر واحد هو التفرقة التي كانت تنخر كالسوس في كيان الأمة وتفت في عضدها بلا هوادة ..

\- ١ -

واذا بادرنا الى استجلاء مظاهر الشقاق والخلاف في أمر السياسة وحول شئون الحكم من خلال الشعر المعاصر ، وبدأنا مثلا بتاريخ مصر في هذه الحقبة الحديثة " نجد أنه يدعو الى الرثاء حقا . فلم يستطع المصريون في احلك الأوقات ان يتحدوا ، وظل بأسهم بينهم شديدا ، وظلوا في كل حال رحماء على الأعداء متباغضين بينهم .. كانوا قبل الحرب الأولى

شيئا وكذلك كانوا خلال الحرب ، وكذلك ظلوا من بعدها .
ولم يتحدوا الا عند بدء ثورة ١٩١٩ ولم يدم اتحادهم الا قليلا .
فلقد دب اليهم الخلاف والشقاق قبل ان تنتهي الثورة "(١) ولم
يقر للشعب المصري قرار بعد جلاء المستعمر الذي استطاع ان
يطيل أمد بقائه عن طريق نجاحه في اشاعة الفرقة والشقاق
في صفوف الأمة .

وقد انبرى الشعر يقرع ناقوس الخطر وينعى على القوم
خلفهم وتناحرهم حتى كثر القول في هذا الشأن . ومن ذلك
ما قاله خلال الحرب الأولى أحمد محرم (٢) :

أرى الناس في مصر شتى القلوب ... وان جمعتهم عوادي النوب
فكل له وجهة تستراد ... وكل له شأنه والأدب
وبعض يعد حبال الرجاء ... وبعض يرى اليأس حقا وجب

ثم انقضت اعوام الحرب وعرفت مصر في اعقابها ثورة شاملة
تجلى فيها التضامن بأروع مظاهره واسماها في صفوف الشعب.
ولكن الأمر لم يلبث على هذه الحال طويلا حتى أخذ في
التدهور ، اذ اتسمت الحياة الحزبية بعد تلك الثورة بحدة
ومهاترات مؤسفة بين قادتها . وقد انعكس ذلك الأمر لدى
طائفة من الشعراء فانساقت في تيار الخلف والتنابذ ، الا أن
سائر الشعراء لم يترددوا - تجاه الحالة السائدة في البلاد -
في اعلان سخطهم واستنكارهم فيما تلمسوه من قصائد
آنذاك . وهذا احمد محرم يعود الى الموضوع نفسه
والألم يحز في قلبه فيقول (٣)

ايه بني مصر من صم وعميان ... ضج اللهيف وهبت صيحة العاني
ايه بني مصر جاز الأمر غايته ... وذاع سر الليالي بعد كتمان
دعوا اللجاج وسدوا كل منفرج ... واجمعوا الرأي من شيب وشبان
هل تحملون لمصر في جوانحكم ... الا براكين احقاد وأضغان

---

(١) محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ٢ - ٣٦٣
(٢) المصدر السابق ٢ - ١٠ عن ديوان مخطوط للشاعر
(٣) " " ٢ - ٣٧٤ عن ديوان " "

أما أحمد شوقي فقد دعا بحرارة الى نبذ التنافر والخصام وحث على التضامن والأخاء في عدد من قصائده ، ومن مشهور ما قاله آنئذ قصيدته التي نظمها في ذكرى مصطفى كامل وندد فيها بالتفرقة والتطاحن الحزبي وقال : (١)

الام الخلف بينكم الاما	وهذى الضجة الكبرى علاما
وفيم يكيد بعضكم لبعض	وتبدون العداوة والخصاما
شببتم بينكم في القطر نارا	على محتله كانت سلاما
ولينا الأمر حزبا بعد حزب	فلم نك مصلحين ولاكراما
وسسنا الأمر حين خلا الينا	بأهواء النفوس فما استقاما
تراميتم فقال الناس : قوم	الى الخذلان أمرهم ترامى
وكانت مصر اول من أصبتم	فلم تحص الجراح ولا الكلاما
أبعد العروة الوثقى وصف	لأنياب الغضنفر لن يراما
تباغيتم كأنكم خلايا	من السرطان لاتجد الضماما

وما هذه الأبيات الا زفرة صادقة انطلقت من فم أمير الشعراء مفعمة بالأسى والمرارة لما كان عليه قومه ، وهي تنقل لنا صدى ذلك الجو المشحون بالكراهية والانقسام بين صفوف الأمة وزعمائها على حد سواء . وكان في الدساتير والمعاهدات والانتخابات وما الى ذلك من الأمور التي يحسن المستعمر الماكر طبخها وتقديمها ، مبعث خلافات وانقسامات كبيرة . من ذلك ان الدستور الذى أمل فيه المصريون الخير لم يكن الا سرابا لم يصيبوا من ورائه سوى الشر ، ومع ذلك استطاع أن يوجد شفرة في نفوسهم حين راحوا تجاهه بين مادح وقادح . وقد انعكس هذا الأمر في نفس شوقي فاتجه بالمقول الى قومه يتحدث عن أمر ذلك الدستور والأسى يملأ قلبه (٢)

لاتجعلوه هوى وخلفا بينكم	ومجر دنيا للنفوس ومتجرا
قد كان وجه الرأى ان نبقى يدا	ونرى وراء جنودها انكلترا
فاذا تسننا بالصفوف كثيرة	جئنا بصف واحد لن يكسرا
حظ رجونا الخير من اقباله	عاث الصغرة فيه حتى أدبرا

---

١)) الشوقيات ١ ـ ٢٦٢ ٢)) الشوقيات ١ ـ ١٨١

وعلى هذا المنوال رأينا عددا آخر من الشعراء ينسج قصائده من ذلك ابيات لأحمد زكي ابي شادي يحث فيها على التضامن والتصافي :[1]

وما الثورة الكبرى الدماء وانما تضامنكم قبلها وحسا مكرما

وقوله[2]

حكمة المصر أن تمسك اخاء وجنون الاحزاب ان تتحكم

قل على دولة الشقاق عفاء ان داء الشقاق موت محتم

أمتي أمتي كفاك اختصاما لهنيك الألى أذاقوك علقم

وعلام النزاع والحكم شورى والامام المقتال والروح في المغنم

وقد كثر المقول خلال تلك الفترة من حياة مصر السياسية حول الخصومات والاختلافات التي استفحل أمرها بين الزعماء حتى سرت عنيفة حادة الى صفوف الأمة ، ونجد صدى هذه الحال في قول أحمد محرم عام ١٩٢٥ وهي في مضمونها قريبة الشبه بأبيات شوقي السابقة :[3]

دع الزعماء ان لهم لدينا يدين بغيره الشعب الرشيد

اذا ذكروا الزعامة فهي دعوى يكيد بها الكنانة من يكيد

لمن تتألب الأحزاب شتى وما هذى الصواعق والرعود

تداعوا للوغى فهوى صريعا على ايديهم الوطن الشهيد

ومن مظاهر هذا السخط الذى عم الشعب تجاه احزاب مصر ومتزعميها وما أورثوه اياه من شقاق قول محمد الأسمر[4]

خصام وصلح كل يوم وحالة الى عبث الأطفال واللهو أقرب

نعمتم باشمال الخصومة بينكم ومصر على نيرانها تتعذب

بني وطني ان البرية كلها تجد وأحزاب الكنانة تلعب

والواقع أن حدة الخلف كانت تخف حينا لتشتد حينا آخر ولكن

---

١)) مصريات ٢٠ ٢)) علويات ٧٢

٣)) عبد الرحمن الرافعي : شعراء الوطنية ٢٠٧

٤)) الديوان ٤١

حالة البلاد وأزمات الحكم وتناحر القادة على خسيس المغنم ..
كل ذلك كان يضرب أطنابه في مصر ولذلك لم تكن معاني الشعراء لتتغير كثيرا في هذا المجال برغم تعاقب السنين . وكما وجدنا ابيات محرم وشوقي تعلن تبرمها بالمفرقة والخصام في اثناء الحرب الأولى أو بعدها نجد الشعراء فيما بعد ظلوا ينسجون على هذا المنوال حتى رأينا علي الجندي مثلا يقول في أواخر الحرب العالمية الثانية(١)

وأحزاب تريد الحكم –	لولا الحكم لم تكن
واشياع منافقة	تثير عواصف الفتن
ومحتل يلاعبنا	لعاب الموج للسفن
وموتى لايميزهم	من الموتى سوى الكفن

ومن خلال هذه الصيحات المفعمة غيرة على الوطن واشفاقا على الأمة يمكن القول ان المستعمر قد افلح الى حد كبير في بلوغ أهدافه بعد أن اشاع الانقسام في صفوف الأمة وجعلها تتلهى عن جوهر قضيتها بتوافه الأمور وقشور الحكم .

وهذا الشعور الساخط الذي تجلى بصورته الواعية على السنة الكتاب والشعراء والذي كان أمره يتفاقم باطراد غدا في طليعة الأسباب التي اطاحت بالنظام الرجعي آخر الأمر في مصر .

أما في العراق فلم يبلغ التطاحن والانقسام هذا المدى الذي بلغه في مصر تبعا لالتفاف الناس حول فيصل أول الأمر ثم حول ابنه غازي ، ومن جهة أخرى فأن ضعف الصحافة بصورة عامة وفقدان حرية التعبير في اكثر الأحيان جعل نطاق الخلاف محدودا دون ان تذكي ناره الصحف على نحو ماكان يحدث في مصر ، وبالتالي بقي صدى ذلك في الشعر ضئيلا . والواقع ان هذا الاعتدال النسبي في الجو السياسي بصورة عامة كان يخفي وراءه ما هو أدهى وأمر اذ كممت الأفواه وأخذ المعارضون بالشدة والتقى المتزعمون على صعيد المغانم . وبرغم ذلك كانت ارض الرافدين تميد بحكامها من حين الى آخر ، ثم ينقلب

---

١)- أغاريد السحر

الناس شيعا وأحزابا وتغدو الأمة مشتتة الأهواء ، اذ حيثما حل المستعمر حلت معه الفرقة والأرزاء . وقد أشار جميل صدقي الزهاوي الى تلك الحال فقال (١)

ويل لمملكة قضى اعمالها	من أهلها ان يفشل استقلالها
ولأمة بعد الوفاق تخالفت	فتقطعت لخلافها اوصالها
من كل عاصمة الرشيد واهلها	لم يبق الا طيفها وخيالها

كما أعلن معروف الرصافي سخطه على ما كان عليه العراقيون وساستهم من فوضى وشقاق وندد بالأحزاب المفاسدة التي ملأت البلاد جدلا واصطخابا (٢)

متى نرجو لفتنتنا انكشافا	وقد أمسى الشقاق لنا مطافا
ملأنا الجو بالجدل اصطخابا	وكنا قبل نملأه هتافا
ومازلنا نهيم بكل واد	من الأقوال نرسلها جزافا
تباكينا على الوطن اتحادا	فأنبتنا بأدمعنا الخلافا
قد اختلف البرية واختلفنا	فكنا نحن اسوأها اختلافا
فلا تغررك احزاب شداد	بأن لهم اقاويلا لطافا
أرى الأحزاب من طمع وحرص	قد اخترقوا الى المغتن السجافا

ولاريب ان هذه الابيات ان هي الا ردة فعل متطرفة تجاه الحياة السياسية التي فسدت في العراق ففسد معها كل شيء

وكان الأمر اكثر تعقيدا في فلسطين حيث الاستعمار المركب يعيث في الأرض فسادا ، وعدوان لدودان يتواطآن ، والعرب عن كل ذلك لاهون بأمور الزعامة . وقد صور تلك الحال اسكندر الخوري البيتجالي في قصيدته " احتراب الأحزاب " فقال : (٣)

كل يسير الى الأمام	—	ونحن نمشي القهقرى
زيد على عمرو ومحمود	—	يقاوم جعفرا
لافي سبيل بلادهم		بل للحصول على البشرى

---

١) الثمالة ١٠

٢) الديوان ٤١١

٣) المنقود ١٠٧

ويعبر ابراهيم طوقان عن شعور مرير مفعم بالأسى تجاه تفتت طاقات الأمة وتلهي قادتها بالعرض الزائل وخصيصا المغنم ، فهو بصدد رثائه موسى كاظم الحسيني احد زعماء فلسطين يلتفت الى مخاطبة قومه بلهجة مفعمة بالغيرة والاخلاص (١)

والله لا يرجى الخلاص وأمركم	فوضى وشمل العاملين ممزق
اين الصفوف تنسقت فكأنما	هي حائط دون الهوان وخندق
اين القلوب تألفت فتدافعت	تخشى اللهيب وكل قلب يخفق
اين الأكف تصافحت وتساجلت	تبني وتصنع للخلاص وتنفق

فالشاعر يفتقد اتفاق الشمل ويتوق الى وحدة الصفوف في كثير من اللوعة والحسرة ، وانه لمما يدمي القلب أن يرى شاعر مرهف الحس بلاده نهبا مقسما بين الاستعمار والصهيونية وقومه سادرون في غيهم وتناحرهم .

وكانت الانقسامات في سورية ولبنان تزداد استفحالا في ظل الحكم الفرنسي نتيجة لظروف طائفية معينة تطغى في كثير من الأحيان على الخلافات السياسية . وقد ابتلى السوريون كسائر العرب في هذه الفترة من حياتهم القومية بداء التفرقة وانقسم حكامهم منذ انتهاء الحرب الأولى بين مذعن لأنذار (غورو) باحتلال البلاد ومصمم على القتال حتى النهاية ، كما ذر الخلاف بعد ذلك قرنه في حياة البلاد السياسية واستحكم التحزب الأعمى بين الأفراد والأحزاب وكانت الحال على ماوصفها خيرالدين الزركلي بقوله : (٢)

ترى كلا له أمل ومسعى	وما لاثنين حولك من وئام
وأحزابا ان التأمت فليست	تدور بها الأمور على التئام
وتجتمع الجسوم على تراض	فتفترق القلوب على خصام
لكل جماعة فينا امام	ولكن الجميع بلا امام

وهو في قصيدة أخرى يعبر بأسى ولوعة عما كان يسود العرب في كل مكان من شقاق واختلاف اذ يقول (٣)

---

(١) الديوان ١٦٣ (٢) الديوان ٣٩

(٣) الديوان ٨

واشقوه العرب اللباب بمالهم ورجالهم وفواضل الألباب
نزلوا بكل تنوفة وتفرقوا شيعا وأحزابا على أحزاب

ومن الطبيعي ان تكون نظرة شعراء المهجر الى هذا الأمر متسمة بالشمول وألا يقتصروا في كثير من الأحيان على مايعانيه قطر بعينه . فقد كانوا في تلك البلاد المقصية شديدي الأحساس بحالة قومهم ، دائمي الترقب لما يحدث في وطنهم وكم كان يحز في أنفسهم ان تلهو أمتهم عن عدوها ، وتنام عن ثعالب الاحتلال في أرضها . وهذا الياس قنصل يناجي قومه من وراء البحار ويوصيهم بالاتحاد قائلا (١) :

يا آل يعرب هل تنسون انكم بالاتحاد بلغتم في العلا الاوجا
لئن تفرقتم فالدهر يفصلكم ولا نجاح لمن بين الورى انفلجا

وقد صدر الياس فرحات عن مثل هذه النظرة الشاملة نحو العرب أيضا وعبر عن سخطه على ماكانوا عليه حين اعتبر الساسة والمتزعمين اصل البلاء (٢)

عليكم سلام الله يا آل يعرب متى ينتهي منكم التناحر
لقد وحد العلم المجيد وانتم قبائل تفني بعضها وعشائر
اليس لكم ياقوم بعد محمد نبي لأصنام السياسة كاسر

ومن الطبيعي ان يكون الشعراء وهم من الطلائع الواعية في الأمم رسل الاتحاد والوئام ، وان يكونوا في شعرهم حربا على الشقاق والانقسام يدفعهم الى ذلك ايمان عميق برسالتهم السامية .

— ٢ —

واذ ننتهي من استجلاء هذا الجانب من حياة العرب القومية المعاصرة يجدر بنا ان نحاول استجلاء أمر التعصب الديني والدعوة الى التسامح والوئام بين ملل الأمة وطوائفها ..

---

١)) على مذبح الوطنية ٥ ٢)) الديوان ٣٢

لم يكثر المقول في الشرق حول التضامن والأخاء الا عندما استفحل خطر التفرقة والتعصب . واذا كان الشعراء قد أولوا هذا الموضوع اهتماما بالغا في هذا العصر ومنذ فجر النهضة العربية الحديثة ، فأن شاعرا عربيا كبيرا هو أبو العلاء المعري كان رائدهم الى ذلك قبل نحو الف من السنين ، وبدا في شعره حر الفكر رحيب النفس متسامحا في عقيدته . وقد وضع في الميزان دين أحمد والمسيح ، وسلط نور العقل على الدين وجرده من قشوره ، كما فضح تجار العقائد ودعاة التفرقة .

وأبرز من فطن في عصرنا الى هذه العلة المزمنة وخطرها على الأمة الشيخ محمد عبده رائد هذا الاتجاه في التفكير الشرقي الحديث . ومن مشهور قوله في هذا الصدد بيتاه السائران على ندرة قرضه للشعر :

ولست أبالي ان يقال محمد أبل أو اكتظت عليه المآتم
ولكن دينا قد اردت فلاحه مخافة ان تنقض عليه العمائم

والحق ان آفة الشرق في عصوره الحديثة كانت في تعصب أبنائه واشتداد الخلف بين اهله ، والى ذلك يشير حافظ ابراهيم وكأنه يعتبر زوال هذا الداء الوبيل حلما بعيد المنال (١)

متى أرى الشرق أدناه وأبعده عن مطمع الغرب خير وسنان
لافرق بين بوذي يعيش به ومسلم ويهودي ونصراني

وبدافع من هذا الشعور اشتدت دعوة الائتلام الحرة في العهد الاستعماري الى نبذ التعصب والخلاف اللذين كانا يزدادان اشتعالا بسبب تفشي الجهل من جهة وبتشجيع من المحتلين من جهة أخرى . ولم يكن الاستعمار في سبيل تثبيت اقدامه في البلاد يحيد عن بذر الشقاق والتعصب في النفوس بعد أن اتخذ من مبدأ " فرق تسد " محورا لسياسته .

وكان من الطبيعي ألا يطمئن المسيحيون في بلاد العرب بصورة عامة الى كل نظام من شأنه ان يجعلهم أقلية ضئيلة في

---

(١) الديوان ١ ـ ١٣٤

ظل دولة اسلامية كبرى بعد ما عانوه من أهوال التعصب الديني خلال عهود العثمانيين . ومن هنا كان كثير منهم ينظر بعين الريب الى فكرة الجامعة الاسلامية ، ويتلهف على اقامة دولة حديثة على أسس قومية تجمع بين أبنائها رابطة العروبة على اختلاف عقائدهم ، وينتفي فيها التعصب الطائفي وتسلط رجال الدين على الحكم .

وقد رأى بعض الشعراء بحق أن تفشي التعصب الطائفي بين العرب كان في طليعة الأسباب التي أطمعت فيهم العدو . ومما بادروا الى نظمه منذ وطئت اقدام المحتل أرض الشام والعراق قصيدة لمحبوب الخوري الشرتوني اسماها " دمعة على العرب " وقد أشار فيها الى العلة التي كانت تنخر في كيانهم اذ قال (١)

يا أمة العرب استباحك معشر ما ان عليهم بل عليك سلام
لم تجن اسيافهم عليك وانما العيسوية شياك والاسلام
هاتيك تبسط للفرنجة باعها هربا وذاك جواره اسلام

الا أن دول الاحتلال ما فتئت منذ دخلت بلاد العرب تثير نيران الحقد والتعصب وتستفز النفوس بطيشها وحماقتها من ذلك ما صدر عن الجنرال غورو أحد زبانية الاستعمار بعد أن اقتحمت جيوشه سوريا ولبنان . فقد ألقى خطبة في بيروت تشدق فيها بالحملات الصليبية واعتبر انتصاره متمما لها وكان الصلف والزهو يملآن نفسه والحقد والكراهية يسيلان من فمه . وقد أثارت هذه الخطبة مشاعر العرب وتصدى لصاحبها الشعراء والكتاب نذكر من بينهم الرصافي الذي نظم بهذه المناسبة قصيدة اسماها " مظاهر التعصب في عصر المدنية " وكان منها قوله (٢)

ذكرت لنا الحرب الصليبية التي بها اليوم قد تمت لقومك آمال
وتلك لعمري قرحة قد نكأتها بما قلته فاهتاج بالشرق بلبال

---

(١) الديوان ٨٢ (٢) الديوان ٤٣٣

فيا عجبا من أمة قدت جيشها تشابه كردينالها والجنيرال
ولو أننا قلنا كما انت قائل لأنحى علينا بالتعصب عذال

وقد استغل المستعمرون الأحقاد الماضية التي كانت دفينة في النفوس وبخاصة في لبنان منذ مذبحة الستين فبعثوها ذميمة وعملوا على اشعال فتن طائفية عمياء وتطاحن رهيب بين عناصر الأمة الواحدة . وعمدوا في سبيل هذه الغاية الى استقدام البعثات العلمية والدينية وبخاصة وفود المبشرين ثم تسخيرها لمآربهم الاستعمارية وامعانا منهم في تحدى مشاعر الطوائف الأخرى وفي بث الأحقاد بين صفوف العرب .

ومن دواعي التقدير ان يكون عدد من الشعراء المسيحيين المنصفين قد سموا بمنازعهم القومية وتصدوا لهذه السياسة الخطيرة ونددوا بها ، وفي مقدمتهم السياب فرحات الذى يقول في قصيدته " أيها العرب "(١)

غرست بنا التعصب من قديم فأثمر لوعة وأسى وضرا
بعثت لنا الوفود فمزقتنا كما علمتها شطرا فشطرا
وفود ان تحل بأرض قوم تحل عرا وفاق القوم مكرا
ولو دخلت جنان الخلد يوما لأدخلت الخلاف بهن قسرا
ثياب البر والأرشاد صارت لجسم الشر والأحقاد سترا
خذوا بعثاتكم عنا فأنتم بها من كل أهل الأرض أحرى
ولا تدعوا الى الايمان شعبا يرى الأكراه في الأيمان كفرا

وشبيه بما كان في نفوس بعض المسلمين العرب من تعصب ديني في العهد العثماني كان أيضا ما يماثل ذلك في نفوس بعض المسيحيين العرب الذين وجدوا في الفرنسيين والانجليز حماة لهم وضمانا لحرية عقائدهم حتى بلغ الأمر بفئة منهم في لبنان مثلا حد طلب الانتداب وتحبيذ الاحتلال فكانوا حربا على قومهم .

الا أن الشعور القومي السليم لدى كثير من العرب - مسلمين ومسيحيين - هو الذى نهض بكل قواه على ألسنة

---

(١) الديوان ٩٩

الشعراء والكتاب من اجل استئصال هذه الشأفة . وبذلك حمل الشعر المعاصر رسالته السامية بأيمان وراح يبشر بالأخاء والتضامن ، معلنا حربا لاهوادة فيها على التفرقة البغيضة والتعصب الذميم .

لقد كان الشعور بوطأة التعصب سائدا في سورية ولبنان بحيث كان منى النفوس ان يهل على العرب عهد جديد ينعمون في ظله بالوئام والتسامح والسلام . وكان عهد فيصل في اعقاب الحكم التركي عهدا ذهبيا نعم فيه الناس بالتحرر السياسي والفكري والديني ، كما كان فيصل رائده في الشعارات السائرة التي كان يطلقها من خلال خطابه القومية اللاهبة يومئذ من مثل قوله " الدين لله والوطن للجميع " أو " نحن عرب قبل موسى وعيسى ومحمد " و " أن محمداً لعربي قبل أن يكون مسلما " (١)

لقد كان لهذه الأقوال صدى بعيد في قرائح الشعراء تجلى على ألسنتهم صافيا صادقا على نحو قول اسكندر الخوري البيتجالي معتزا برابطة العروبة التي وسعت مختلف النحل (٢)

قبل المسيح وأحمد — كنا ومازلنا عرب
كانت ومازالت لنا — اوطاننا أما وأب
لادين يجمعنا سوى — دين المحبة والنسب

وكان بطل الثورة العربية يومئذ معقد آمال العرب في بناء مجتمعهم الجديد فلا غرو أن يتجه اليه الساسفرحات كما يتجه المطلبي اليه الآسي قائلا (٣)

طب بحكمتك الشآم فأنها — كادت تموت بعلة الأديان

وفي هذه الفترة من الحكم العربي المستقل طاب للشعراء عزف ألحانهم على أوتار التسامح والوطنية بعد عهود مديدة

---

(١) انظر كتاب : فيصل بن الحسين في خطابه وأقواله ١٧٥ و ١٨٤

(٢) العنقود

(٣) الديوان ٧٣

من التعصب والاستبداد والتبعية من ذلك مانظمه حليم دموس يومئذ فقال(١)

لك دين وله دين ولي آخر والكل دين محترم
فاحسبوا أديانا واحدة واجعلوا قبلتكم هذا العلم

والحق ان شعراء المهجر ومنهم ايليا ابوماضي والياس فرحات ورشيد سليم الخوري ومحبوب الشرتوني وابوالفضل الوليد وغيرهم كانوا رواد هذا الاتجاه السامي في الشعر المعاصر منذ ما قبل الحرب العالمية الأولى . ولعل سبقهم الى ذلك يعود الى ما كانت عليه بيئتهم الاجتماعية المتفتحة من اكبار للحرية وانكار للتعصب . ومن هذا القبيل مانظمه ابوماضي مخاطبا قومه (٢)

نساع احمد والمسيح هوادة ما العهد ان يتنكر الأخوان
الله رب الشرعتين وربكم فالى متى في الدين تختصمان
مهما يكن من فارق فكلاكما ينمى الى قحطان أو غسان
فخذوا بأسباب الوفاق وطهروا اكبادكم من لوثة الأضغان

ويعتبر الياس فرحات بحق فارس هذا الميدان في المهجر غير مدافع . اذ أنه من الشعراء المتلائل الذين التزموا في شعرهم بالدعوة الى التحرر القومي والتسامح الديني . ومما قاله في هذا الصدد مشفقا على وقوع بلاده في براثن التعصب الطائفي(٣)

يعز علينا ان نرى الشرق هاويا الى المقعر مابين ناب ومخلب
تثير به الأديان موج عواصف فيركب من أهوالها شر مركب
سلام على قطر الشآم بأسره سلام على اهليه من كل مذهب

وقد جعل دأبه التنديد بتلك الفئة الضالة التي استشرى التعصب في نفوسها ، فمقت آباءها الحرب وتنكرت لأصولها حتى ارتمت

---

١)) ديوان حليم ٢٧٧
٢)) زهير ميرزا : ايليا ابوماضي شاعر المهجر الاكبر ١٩١
٣)) الديوان ١١١

في أحضان فرنسا ، ووجدت فيها أماً حنونا (١)

قلتم أباكم وحولتم — الى نعشه تلثرا جامدا

وقلتم فرنسة ام حنون — فلا بأس ان تقتل الوالدا

وقلتم تجيء بشكل الوصي — فتجعل هابطنا صاعدا

ولكنها أوقدت للتعصب — ما كان من جمره خامدا

كما يصف تلك الزمرة المتمسحة بأذيال المحتل بقوله (٢)

متعصبين تذلهم وتضلهم — ويرون كل الحسن في نياتها

كالمعز تحسن ظنها برعاتها — ودم الجداء على ثوب رعاتها

ومن جهة أخرى يمكن القول ان تدخل رجال الدين في شئون السياسة وتسلطهم على الحكم بالاضافة الى ما عرفوا به من تزمت ، كل ذلك كان له أسوأ الأثر في نفوس أحرار الفكر وأولي النزعة القومية . ولهذا كانت الحملة عليهم شديدة سواء في الشعر أم في النثر وبخاصة في المهجر حيث امحى التعصب الديني وتسلطه على الحكم ، ويقول شكرالله الجر (٣)

وطن تدعي العمائم فيه الفضل — دعوى المقلانس الكذابة

ان شعبا قواده رؤساء الدين — كمثَّعب لاهلة ناح خرابه

ووجدنا الياس فرحات يشير عليهم الحرب بقوله (٤)

لا يفهمون الدين الا جبة — وعمامة وتنطعا وهراء

ان يخسر الوطن (اللواء) وأخته — وسواهما فالأمر ليس بلاء

أما اذا نقض الوضوء فنكبة — تذري الجبال وتغمر الأوداء

كما وجدنا سائر الشعراء في الوطن أيضا ينسجون على هذا المنوال وقد عاشوا في حمأة الصراع الطائفي ، من ذلك أبيات لمحمد صالح بحر العلوم اشتد فيها أيضا على رجال الدين لما كانوا يسببونه من شقاق في صفوف الأمة اذ قال (٥)

---

١) = الديوان ١٢١ — ٢) = الديوان ١٩

٣) = الروافد ١٨

٤) = جورج صيدح : ادبنا وادباؤنا في المهاجر ٧٠

٥) = الديوان ٦٥

ورجال الأديان أصنام شـــراة ... باسم تدليسها المسخر تعـــبد

بعث الدين للوئـام بشــيرا ... فاستغلوه للخصــــام المؤبـــد

ويعتبر خير الدين الزركلي في طليعة من تصدى لتجار العقائد ودعاة الشقاق، ومما قاله في هذا الصدد (١)

ياعابثين بأمـــة نهضـــــت ... للمجد تغنى او تــوطـــــده

جنت السياسة وهي خالبـــة ... فأضلت الظمآن مــــورده

قادته باسم الدين موربـــة ... للشر لا للخير أزنـــــده

ياحاملي علم الشقاق بـــه ... لاتحملوا للشـــرة أصفـــده

ألناس أبصر في عقائدهـم ... كل امرئ ينتـــاب معبـــده

لاتمشوها فتنـــة عـمـيـا ... تؤذى كنيستـه ومسجـــده

لا كان لي وطـن تمـزقـــه ... ذكراه عيســـاه وأحمـــده

والواقع ان نار التعصب الطائفي في لبنان بلغت خلال بعض العهود حدا خطيرا ضج منه العقلاء واستنكره الكتاب والشعراء . حتى بدا للجميع أن عودة الوئام والتسامح الى النفوس أمنية بعيدة المنال . وهذا نقولا فياض ينطلق بأنبل المشاعر واسمى العواطف من بلد استحكمت في أهله الطائفية الذميمة فهو يتطلع الى ذلك اليوم المنشود ويناجيه بقوله (٢)

يافجر يوم اليه منتهى أملي ... ونوره مالئ قلبي ووجـــداني

غداة يجمع داعي الحب شملكم ... على تسابيح انجيـل وقــرآن

وفي القلوب وفي الآذان قاطبـــة ... صوت المؤذن والناقوس سيـــان

غداة تمحى حزازات الصدور فلا ... يثيرها الدين حربا بين اخـــوان

ولا يفضل مخلوق لمذهبـــه ... من مسلم ويهودي ونصرانـــي

الطائفية ياربــاه مغفـرة ... بلية الشرق هذي منذ أزمـــان

هذا دمي ان تنادوني وذا قلمي ... كلاهما عربي الأصل لبنـاني

ونستشف هذا التطلع الى اليوم المنشود وهذه اللهفة على الوئام والتسامح لدى ايليا ابي ماضي وكأني به يهفو الى أمنية عزيزة ولايرجو تحققها الا على يد بطل ينبثق عن العرب كما ينبثق

---

١)) الديـــوان ١ ... ٢)) رفيف الأقحوان ١٠٢

المهدي المنتظر فهو يقول (١)

ما كان أحوج سوريا الى بطل | يرد بالسيف عنها كل مفترس
ويجعل الحب دين القاطنين بها | دين يقرب بين (البيت والمقدس)
حتى أرى ضارب الناقوس يطربه | صوت الأذين وهذا رنة الجرس

ومن مظاهر هذا التشوف نحو تلك المنى ، مشوبا بكثير من اليأس قول الهاشمي فرحات الذي يلوذ بالسيد المسيح " السوري الأعظم " عله يتمكن من انقاذ قومه السوريين مما هم فيه من فرقة ذميمة : (٢)

محي الرميم بقوة الايمان | أحي الأباء الميت في لبنان
وافتح بصائر ساكنيه فطالما | فتحت يداك بصائر العميان
فاقتل تعصبهم وأبعد شرهم | واغسل جوانحهم من الأضغان
وابعث بخيط من شعاعك يفهموا | أن المحبة جوهر الأديان

وهذه الأبيات تنم عن نفسية شاعر استبد به اليأس تجاه أمته حتى خيل اليه أن شفاءها لن يتم الا بمعجزة من خوارق الرسل ٠

أما الظاهرة السامية التي تجلت في الشعر القومي في هذا المجال فهي أن ظلمات التعصب الذميم والتفرقة والشقاق ، كانت تضمحل او تتوارى ابان الأزمات الوطنية والمحن القومية التي تعصف بالبلاد) ٠ وكان اندلاع الثورات القومية في أنحاء الوطن العربي خير ما يبعث على التضامن والاتحاد ويشيع الألفة والوئام ٠ ولعل أبرز ما نجم عن ثورة ١٩١٩ التي قام بها المصريون ضد الاحتلال الانكليزي ذلك الالتفاف الرائع حول الوطن وحول زعيمه سعد زغلول ٠ فقد صهرت تلك الثورة جميع عناصر الأمة بلهيب الوطنية فحل التسامح محل التعصب وطغى الشعور القومي على النعرات الطائفية وتعانق الصليب والهلال في معركة الكفاح بأسمى معاني الأخاء ٠ وقد تجلى هذا الشعور الغامر على السنة الشعراء الذين انتشوا بهذا المظهر الرائع في وحدة صفوف

---

(١) زهير ميرزا : ايليا ابوماضي شاعر المهجر الاكبر ٢٣٤
(٢) الديوان ١٢٣

الأمة ، على نحو ما قاله محمد عبدالمطلب آنذاك [١]

بنينا على آداب عيسى وأحمد ... منازل عز دونها يقع النسر
فنحن على الانجيل والذكر أمة ... يؤيدها الانجيل بالحق والذكر
كلانا على دين به هو مؤمن ... ولكن خذلان البلاد هو الكفر
اذا ما دعت مصرا بنيها نهض ابنها ... لنجدتها سيان مرقس أو عمرو

ويعتبر أحمد شوقي في رأس من بشر بالتسامح ودعا الى نبذ التعصب والمفرقة . وقد أوتي براعة فائقة في تناول الأمور الدينية في شعره وكان حريصا على كسب ثقة المسلمين والمسيحيين على السواء ولذلك نراه كثيرا ما يعزف ألحانه الشعرية على أوتار المحبة والوئام ونبذ التعصب والخصام . وهو في الأبيات التالية يزهى بذلك التضامن الرائع بين الطوائف الدينية في مصر ويقول [٢]

انما نحن مسلمين وقبطا ... أمة وحدت على الأجيال
سبق النيل بالأبوة فينا ... فهو أصل وآدم الجد تالي
والى الله من مشى بصليب ... في يديه ومن مشى بهلال

ونراه يستعذب هذه النغمة في شعره كلما سنحت له فرص القول حتى انه يرتفع الى مستوى انساني رفيع في بعض أبياته ، كما يتجلى ذلك في رثاء بطرس غالي الذي كاد اغتياله يودي بوحدة الأمة [٣]

تعلي تعاليم المسيح لأجلهم ... ويوقرون لأجلنا الاسلاما
الدين للديان جل جلاله ... لو شاء ربك وحد الأقواما
هذي قبورهم وتلك قبورنا ... متجاورين جماجما وعظاما

ومن اجمل ما قاله في هذا الموضوع ابيات خاطب بها أقباط مصر داعيا اياهم الى التعايش بسلام وعلى صعيد قومي مع المسلمين [٤]

---

١)) الديوان ١٠٥ ... ٢)) الشوقيات ١ _ ٢٢٨
٣)) الشوقيات ٣ _ ١٤٤ ... ٤)) الشوقيات ٤ _ ٥٥

تعالوا عسى نطوي الجفاء وعهده ... وننبذ اسباب الشقاق نواحيا

الم تك من قبل المسيح بن مريم ... وموسى وطه نعبد النيل جاريا

فهلا تساقينا على حبه الهوى ... وهلا فديناه ضفافا وواديا

ومازال منكم اهل ود ورحمة ... وفي المسلمين الخير مازال باقيا

وقد ارتبط اسم سعد زغلول بالاتحاد والتضامن ووحدة الصفوف . وأكثر من توجه اليه بالقول من الشعراء في حياته او بعد مماته الح على هذا الأمر . وقد خاطب علي الجارم الزعيم المصري في أعقاب الثورة بقوله (١)

ألفت بين المنصرين وكنت للرحمن حزبا

نبذوا الشجار وأبدلوه لمصر اخلاصا وحبا

وسعى الهلال الى الصليب وأقبلا جنبا فجنبا

ومن هذا المقبيل مانظمه محمد الأسمر آنذاك مشيرا الى التفاف الشعب من جميع عناصره حول سعد اذ قال (٢)

أرى الشعب آلى ان تكون زعيمه ... واعطى لك الميثاق دير ومسجد

وأنت الذي لايعرف الشعب غيره ... وانت الذي حياه عيسى وأحمد

ولم يكن اندلاع الثورة في سوريا عام ١٩٢٥ مغايرا في تأثيره لما حدث في مصر من تناس للأحقاد ونبذ للتعصب ، اذ أن حمم المستعمرين فوق دمشق لم تكن لتميز بين المسلم والمسيحي وقد لقي الجميع من كيد الطغاة أهوالا . والحق ان ائتلاف عنصري الشعب في سورية كان خير عزاء للبلاد في محنتها القاسية ابان تلك الثورة لأن هذه الظاهرة التي انبثقت قوية لدى الجماهير آنذاك كانت كسبا كبيرا لدفع الوعي القومي الى الأمام وتعميق جذوره في النفوس . وقد أشارت أبيات خليل مردم في صدد رثائه دمشق المنكوبة الى ذلك اذ قال (٣)

بلت دمشق بنيها يوم محنتها ... فلم تجد غير من صحت عقائده

ترى الحنيفي يوم الروع مبتدرا ... الى المسيحي في البلوى يساعده

الحمد لله اني في حمى وطن ... تحمي كنائسه فيه مساجده

---

١)) الديوان ٢ ـ ٨٣ . ٢)) الديوان ٢٢ .

٣)) ديوان الثورة ١٠٤

ولم يقتصر هذا التجاوب مع وحدة الطوائف على شعراء دمشق او سورية بل رن صداه لدى كثير من شعراء العرب في مصر والعراق والمهجر ، وقد اشار شوقي في قصيدته النونية التي ناجى فيها دمشق الى أهمية التقاء عناصر الشعب على صعيد الثورة الوطنية اذ قال (١)

الملاء ان تلاقوا في هوى وطن تفرقت فيه اجناس وأديان

الا أن معروف الرصافي كان اكثر تفهما لمعضلة الطائفية في الشام ولهذا جاءت قصيدته التي نظمها اثر نكبة دمشق بقذائف الفرنسيين راشحة من حيث روحها القومية ودعوتها الصادقة الى التسامح والوئام فيما قاله فيها يومذاك (٢)

أما آن تنسى حقود وأضغان فيبنى على أس المؤاخاة بنيان
علام التعادي لاختلاف ديانة وان التعادي في الديانة عدوان
وما ضر لو كان التعاون ديننا فتعمر بلدان وتأمن قطان
اذا جمعتنا وحدة وطنية فماذا علينا ان تعدد أوطان
اذا القوم عمتهم امور ثلاثة لسان واوطان وبالله ايمان
فأي اعتقاد مانع من أخوة بها قال انجيل كما قال قرآن
كتابان لم ينزلهما الله ربنا على رسله الا ليسعد انسان
فمن قام باسم الدين يدعو مفرقا فدعواه في أصل الديانة بهتان
أنشقى بأمر الدين وهو سعادة اذن فاتباع الدين ياقوم خسران
نمتكم الى المجد المؤثل (تغلب) كما قد نمتكم للمكارم (غسان)
فلا تنكروا عهد الأخاء وقد أتت تصافحكم فيه نزار وعدنان

والحق أنه بنتيجة التجارب المريرة التي عاناها العرب وبلوا فيها أخطار الشقاق والتعصب السياسي والطائفي أخذ يقر في الأذهان ان الصراع مع المحتلين لم يكن مجديا الا حين تضافرت الجهود وتصافحت القلوب . وقد تجلى هذا الاتجاه اوضح مايكون في الشعر القومي الذي كان ينطق عن ضمير

---

(١) الشوقيات ٢ ـ ١٩٦ .

(٢) ديوان الثورة ٥٣ ، ديوان الرصافي ١٣١

الأمة ومشاعرها القومية ، فقد رأى الشعراء يحضون على الوئام ويدعون الى التسامح ويعملون قضية الوطن والتحرر على كل النعرات والحزازات . وهذا عباس محمود العقاد يأسى على ما فيه السوريون من صراع طائفي فيناجيهم بقوله : (١)

ما في المدامع من شعار كنيسة يوم الحنين ولا شعار هلال
فيم اختلاف مصفدين تضمهم قيد الوثاق سلاسل الأغلال
أمنازعون على السماء وأرضكم نهب لكل منازع ومصوال
من بعلها خذوا المنال لرأيكم يوم الخلاف وتلك خير مثال
فيها لموسى والمسيح وأحمد أثر ، وللوثن القديم البالي

وبهذه الروح السمحاء صدر الشعراء قاطبة وأخذوا يبشرون برسالة المحبة والسلام بين عناصر الأمة وطلوا ئفها بصدق على نحو ما وجدناه لدى أمير الشعراء شوقي او ما نجده في أبيات لخير الدين الزركلي تتضوع من ثناياها نفحة انسانية تذكرنا بروح أبي العلاء في لزومياته ، يقول فيها (٢)

يكفر فينا معشر معشرا على الحق والانسان قد يتبصر
دع الناس لاتبغ الذين تهودوا بشر ولا تبغ الذين تنصروا
عجبت لأمر الناس ابناء واحد يفرقهم دين وجنس وعنصر

وقد رأى فؤاد الخطيب شاعر الثورة العربية أن العاطفة القومية تسع الناس على اختلاف معتقداتهم فقال (٣)

ان العروبة لا مفرق بينها بعد التآلف قبلة او هيكل
أينالهم ضيم وبين صفوفهم عيسى المخلص والنبي المرسل

كما تجلت هذه الروح السامية التي تتفهم جوهر الأديان بعمق في قول الياس قنصل واصما بالمروق ومخالفة الدين نفسه كل من يفرق باسم الدين (٤)

ولا الانجيل يأمر بالتقالي ولا القرآن بالبغضاء أغرى
وعيسى عن تنافرنا تناءى وأحمد من تنازعنا تبرا

---

(١) وحي الأربعين ١٤٦ (٢) الديوان ٨٥
(٣) الديوان ٢٨٦ (٤) الديوان ٣٧

وقد بشر حسن البحيري بوحدة طوائف الأمة ودعا الى ابعاد المعتقدات الدينية عن المجال القومي أو بعبارة أدق نادى بانصهار معتنقيها من المذهبين في بوتقة القومية اذ قال [١]

واذا تنادينا لدفع كريهة	عن مهبط الانجيل والفرقان
سرنا لها وهلالنا وصليبنا	في سيد الأعلام يعتنقان
مابيننا عند التنادى مسلم	كلا وفي جمعنا نصراني
فالشرق موطننا ونحن حماته	بنفوسنا ، والدين للديان

ومن هنا استنكر كل شاعر قومي بل كل مواطن حر تفاني الشعوب فيما بينها واتخاذ الدين ذريعة لزيادة الشقاق وبث الأحقاد بين أبناء الوطن الواحد على نحو مانرى في قول خليل مردم [٢]

فيم التقاطع والأرحام واشجة	والدار جامعة والملتقى أمم
الله في قطع ارحام وفصم عرى	عهدى بها وهي وثقى ليس تنفصم
قالوا وفي الدين بون دون وحدتنا	الى متى باسم هذا الدين نقتسم

وبنتيجة تتبع جوانب وجدان الأمة المشترك ورصد مشاعرها الجماعية يمكن القول تبعا لاطراد نمو الوعي القومي في النفوس ان حدة الصراع الطائفي قد خفت وأخذت تسير نحو التلاشي أمام نور الوعي القومي كما تطرد النار الخبث من الحديد. وبمرالسنين وتعاقب الأيام عم التسامح واشتدت أواصر الأخاء وازدادت المحبة والألفة ، وكان مافاضت به قرائح الشعراء في هذا المجال يعبر عن اسمى المشاعر وانبل العواطف . فمن لبنان هذا البلد الصغير الذى عانى من وطأة ادواء التفرقة والتعصب الطائفي مالم يعانه قطر آخر كانت تنطلق نداءات المحبة والوئام ويتغنى الشعراء بالتسامح والسلام على نحو ما انطلق به نقولا فياض اذ قال [٣]

لي في هوى وطني كتاب خالد	يبقى على المكتوب من أيامي
سجلت نصرانيتي في متنه	ونشرت فوق سطوره اسلامي
شمس العروبة في لبنان ماغربت	يوما ولاغاب عنها نورها الفاني

---

(١) ابتسام الضحى ٧١

(٢) جريدة ألف باء الدمشقية السنة الأولى ، العدد ١٧٧

(٣) رفيف الاقحوان ١٠٣

والجدير بالذكر ان الشاعر ألقى هذه الأبيات في مهرجان منظمة (الكتائب) وهي ذات طابع طائفي ، عدا أنها لاتقيم في مبادئها كبير وزن للقومية العربية وهذا دليل على تغلغل الاتجاه القومي الى أبعد مدى محمولا على اجنحة الوئام والسلام ، وكذلك نجد شاعرا مسيحيا آخر أبى الا أن يغتنم فرصة زيارة حافظ ابراهيم لربوع لبنان عام ١٩٢٩ ليحييه تلك التحية القومية الخالصة ، وليعبر من خلال ترحيبه به عن ذلك المفجر الجديد الذى أخذ يلوح في أفق الوطن العربي مبشرا بوحدة طوائفه وتحرره القومي وقد آثر لقصيدته عنوانا هو " وحدة انجيل وقرآن " قال فيها (١)

دمشق ياجنة الدنيا وبهجتها	اليك قلبي وفيه سر ايماني
ومارضيت بأن القاك زاهية	بشاعر بل تجلى عندك اثنان
بحافظ وخليل من اذا ذكرا	نادى بنو الضاد يانعم الأميران
هما الشقيقان في اوطاننا وهما	عنوان وحدة انجيل وقرآن

وهذا أيضا شاعر مسيحي هو اسكندر الخوري البيتجالي من الديار المقدسة في فلسطين أرض النبوات ومهد المسيح ومسرى محمد يعلن تمسكه بالعروبة ووحدة عناصر الأمة بثقة وطيدة اذ يقول (٢)

لا لن تنال من اتحاد الملتين يد المفتن
كلا ولن تصدع مابينهما هذي المحن

وذاك وديع البستاني يتغنى منتشيا بما كان من تماسك اهل فلسطين في الأزمات ويقول (٣)

المسلمون مع النصارى كبروا	ومهللين مع النصارى رحبوا
والمهد للأقصى انثنى وتعانقا	وانظر فحولك بيت لحم ويثرب

ولعل تحول أحمد شوقي الى الاتجاه الوطني الصرف اثر عودته من منفاه في الأندلس وهو شاعر الجامعة الاسلامية أبرز مثال على تدفق المشاعر القومية في نفوس الأمة وشعرائها ،

---

١)- الديوان ٢ ـ ٢٤٧   ٢)- المنقود ٦٢

٣)- الفلسطينيات ، ١٨٦

وطغيانها على كل نزعة أخرى قد تحد من انطلاق العرب نحو تحررهم المنشود ، فمما قاله يومئذ مناجيا وطنه [١]

اديرُ اليّ قبل البيت وجهي اذا فُهِمْتُ الشهادةَ والمتابا

أو حين قال [٢]

وجه الكنانة ليس يغضب ربكم ان تجعلوه كوجهه معبودا

فقد غدا الوطن في منزلة اسمى من البيت الحرام عند أمير الشعراء ، كما غدت عبادة الوطن تضارع عبادة الله ..

ثم تملك هذا الهوى نفوس الشعراء حتى جعلوا العروبة دينهم والوطن معبودهم ، وكان الشاعر القروي أبرز هؤلاء اذ يقول [٣]

اني على دين العروبة واقف قلبي على سبحاتها ولساني

انجيلي الحب المقيم لأهلها والذود عن حرماتها فرقاني

وما كان أحلى قوله في التعبير عن هذه المنازع السامية حين نظم قصيدته تمجيدا لذكرى محمد الرسول العربي وقال [٤]

اكرم هذا العيد تكريم شاعر يتيه بآيات النبي المعظم

ولكنني اصبو الى عيد أمة محررة الأعناق من رق أجنبي

الى علم من نسج عيسى وأحمد وآمنة في ظله اخت مريم

هبوني عيدا يجعل العرب أمة وسيروا بجثماني على دين برهم

سلام على كفر يوحد بيننا وأهلا وسهلا بعده بجهنم

وعلى هذا المنوال من اعتناق العقيدة الوطنية واتخاذها دينا نسج سائر الشعراء فقال الياس فرحات [٥]

أنا العربي خلقا وانتسابا وان الله لست بالعربي دينا

ولو أوصى بكره العرب دين لكنت امام الملحدينا

حتى ان الياس قنصل الذي اسمى ديوانه على " مذبح الوطنية " آثر أن يفتتحه بقوله :

---

(١) الشوقيات ١ ـ ٢٩٨ (٢) الشوقيات ١ ـ ١٣١

(٣) الديوان ٤٢١ (٤) الديوان ٣١٥

(٥) " ١٧١

اذا كان ديني من تحرر موطني   يمينا فقد طلقت ديني وايماني

وسرت هذه الروح السمحاء التي بلغت لدى طائفة من شعراء المهجر أوج سموها الى سائر الشعر المعاصر وأصبحت تشكل ظاهرة بارزة من ظواهره . وقد زهي بدوي الجبل بالدين الجديد الذي يجمع شمل المسلمين والمسيحيين على الصعيد القومي فراح يدين به على مذهب رابعة العدوية ويقول (١)

تنبه هذا الشرق حتى تصافحت   قلانسة محمودة والعمائم

ندين بدين الحب شيبا وفتية   وأنف الذي يهوى التفرق راغم

لقد ألفت مابين عيسى وأحمد   مغانم نلقاها معا ومغارم

كما يقول .

الدين دين الحب فهو عقيدتي   ولو أنه في الشرق قل دعاته

بيت العروبة قبلتي ومحجتي   لا طوره قصدى ولا عرفاته

وهكذا رسخت العقيدة القومية في النفوس ونافست في منزلتها العقيدة الدينية بل طغت عليها وغشتها بمرداء التسامح والأخاء .

ومن الملاحظ أخيرا أن شعراء المهجر - كما اتضح لنا من اشعار القروى وفرحات وأبي ماضي وقنصل والشرتوني وسواهم - قد اولوا عناية بالغة موضوع التضامن والوئام بين عناصر الأمة العربية . وهذا أمر طبيعي نتوقعه من شعراء يمكن اعتبارهم ادرى الناس بأخطار التعصب الطائفي الذميم الذى عانوا منه الأهوال في وطنهم قبل رحيلهم عنه الى العالم الجديد . بل كانوا هم انفسهم من ضحاياه . وفي مقدمة العوامل التي دفعت بهم الى الهجرة . وثمة سبب آخر لايمكن انكاره وهو ان بروز هذا الاتجاه في ادب المهجريين شعره ونثره كان في الواقع نتيجة تأثرهم بتحرر الفكر الغربي الحديث وماوجدوه في بيئتهم الجديدة من احترام للعقائد الفردية وشيوع التسامح الديني في المجتمعات الغربية وعلمانية الدول الحديثة .

---

(١) الديوان ١٣٢

ومن جهة أخرى فأن شعراء لبنان الذين عاشوا في حمأة الأحداث كانوا اسبق من بشروا بالتسامح الطائفي على نطاق واسع . وان انبثاق مثل تلك الأشعار التي مرت بنا عن شعراء مسيحيين بالدرجة الأولى ، مفعمة بالنفحات النبيلة الصادقة ، لمما يبعث على الفخار في حياة العرب الحديثة ، ويتضمن من جهة أخرى مغزى هاما ودلالة كبرى على اشراق النفس العربية وتحررها من بقايا التعصب والهوى .

لقد كان الشعر العربي المعاصر - بصورة عامة - عامل خير ووئام ورائدا للعرب في نزوعهم الأصيل الى التسامح والتضامن والسلام .

الفصل الخامس

البطولة والفداء

ليس شعر البطولة والفداء بالغرض المستحدث في ادبنا المعاصر . فهو من اعرق الموضوعات التي عرفها الأدب العربي وسائر الآداب الأخرى ، كما كان محور شعر الملاحم في العصور الغابرة . ولم يكن شعر الحماسة عند العرب في اروع آياته سوى شعر البطولة والفداء والتضحية والاقدام مستوحاة من خلال حياتهم وواقع مجتمعهم . ولعل أبرز ما قيل في هذا الموضوع صدر أول الأمر عن عدد من الشعراء الجاهليين ثم تجلى بأسمى معانيه على السنة شعراء الخوارج .

وقد ورث العرب اليوم عن اجدادهم حب البطولة وتقديس التضحية ، وراح شعراؤهم يتغنون بأعمال البسالة والاقدام التي اكبروها في معاصريهم وفي أجدادهم على السواء .

واذا كان الجود بالنفس أقصى غاية الجود كما قال شاعرنا العربي ، فمن الطبيعي ان يهز سقوط الشهداء في ساحات الجهاد وجدان الأمة ويلهب قرائح شعرائها . ومن هنا لم يكد يخلو اي ديوان شعري او مجموعة شعرية خلال هذه الفترة الحافلة بالأحداث من قصائد تمجد بطولات الشهداء وتخلد مواقفهم الرائعة .

– ١ –

ونبعا لارتباط الأدب المتزايد بمواقف الأمة فان جانبا كبيرا من شعر الرثاء أخذ يشكل ظاهرة قومية بارزة في الشعر المعاصر . ولعل اكبر حدث قدمت فيه الضحايا على مذبح القومية منذ قامت الحرب الكبرى كان اقدام جمال باشا التركي على اعدام عدد كبير من احرار الشام في ساحات دمشق وبيروت . فقد تركت تلك المجزرة الأليمة جرحا بليغا في نفوس العرب ظل يدمى على كر السنين ويهيج قرائح الشعراء حتى يومنا هذا ، ففي تلك القصائد امتزجت صيحات الثأر والثورة بدموع الحزن والأسى .

وقد احتفظ لنا رجال الرعيل الأول، ومؤرخو الثورة العربية بشذور قليلة من الشعر الحماسي الذي نظمه او تمثل به اولئك الشهداء في لحظاتهم الأخيرة . من ذلك ما تمثل به باترو باولي وهو يعتلي منصة الاعدام (١)

ومن لم يمت بالسيف مات (بحبلة) تنوعت الأسباب والموت واحد

وفي الطريق من سجن (عالية) حين سيق الأحرار الى ساحة الاعدام كان الشهداء يرددون هذين البيتين من سيارتهم المقفلة (٢)

نحن أبناء الألى شادوا مجدا وعلا
نسل قحطان الأبي جد كل العرب

كما رددوهما أيضا امام أعواد الموت بصوت جماعي (٣) والمرجح انهما يشكلان المطلع او اللازمة من انشودة حماسية قدر لهما أن تصحب المجاهدين حتى لحظاتهم الأخيرة . وقد ذكر مؤرخ الثورة العربية أمين سعيد أن الشاعر عمر حمد كتب على الطاولة قبل خروجه من دائرة البوليس ثلاثة أبيات حماسية من الشعر جعل يرددها وهو صاعد الى المشنقة (٤)، ولكن مايؤسف له ان المؤرخ لم يذكر لنا تلك الأبيات .

ولكن هل نجد من الشعر العربي في تلك الفترة مايتناسب مع هول هذا الحدث الكبير وينفس الغليل ؟ الواقع أنه من الصعب كما يقول الأستاذ المقدسي (٥) "أن يصف كاتب ماخالج قلوب السكان يومئذ من الهلع والنقمة ، وها نحن نعيد ذكرى تلك الأيام المؤلمة فيعود الى نفوسنا ماكنا نشعر به من الضغط والرهبة ، شعور مخيف كان يخيم على البلاد حتى لم يكن أحد يجسر على التكلم او البحث في الشئون السياسية واظهار الأسف على شهداء العربية " . ومن الطبيعي ان يظل الشعر في هذه الفترة حبيسا في النفوس وان يطأطيء

---

(١) أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى ١ ــ ٨٧
(٢) المصدر السابق ١ ــ ٨٦
(٣) الدكتور أحمد قدري : مذكراتي عن الثورة العربية ٥٥
(٤) ١ ــ ٨٨ (٥) الاتجاهات الأدبية ١ ــ ١٠٨

الناس ها ماتهم تحت سيف الارهاب المصلت وقوانين الحرب الصارمة وان يلجم الشعراء السنتهم على مضض وهم يتميزون من الغيظ .

وعلى هذا فأن علينا ان نلتمس ما قيل في شهداء الحرب من تخليد لذكراهم وتمجيد لبطولتهم ، بعد أن انجابت الكربة عن الوطن العربي وداعبت نسائم الحرية وجوه الأحرار ، وبعد ان استؤصلت شأفة الترك من البلاد .

وتعتبر القصيدة المطولة " النائحة " التي نظمها جميل صدقي الزهاوي في شهداء أيار ونضجيع فيهما عليهم من أهم ما يسجل مواقف الشهداء الرائعة ويصور بطولتهم الفذة وهم يعتلون اعواد المشانق : (١)

دنوا فرقوها واحدا بعد واحد ... وقالوا وجيزا ليس فيه فضول

فمن سابق كيلا يقال محاذر ... ومستعجل كيلا يقال كسول

وقد أشار الزهاوي الى كثير من اولئك الشهداء بأسمائهم واشاد برباطة جأشهم تجاه الموت الزؤام فقال :

وهل (للعريسي) الجريء و (عارف) ... اذا عد اقطاب اليراع عديل

و (عبد الكريم) الندب ماضاع رشده ... اذا الدهر يسقيه الردى ويغول

تمثل فوق العود قبل وفاته ... ببيت يؤسي الشعب وهو يقول

" اذا مات منا سيد قام سيد ... قؤول بما قال الكرام فعول "

أما أبو المفضل الوليد فقد عمد بأسلوبه الحماسي والمفاظه الجزلة الى تخليد ذلك الموقف في عدد من قصائده دون أن تبدو منه بادرة ضعف امام القدر واستسلام للدموع فهو يناجي أرواح الشهداء بقوله : (٢)

مشيتم باسلين الى المنايا ... وكان لكم على النطع ابتسام

ليحيى العرب قد صحتم ومتم ... فصيحتكم لخدلتكم دوام

على اعواد مرقية رفعتم ... منارات بها يهدى الأنام

ورب ضحية أحييت شعوبا ... فكان لها انتشار واقتحام

---

١)- انظر نص القصيدة كاملا في رفائيل بطي : الأدب العصري في العراق العربي ص ١٨ ـ ٢٧

٢)- الأنفاس الملتهبة ٧٢

وأكثر من رثوا هذه القافلة الأولى من قوافل شهداء العرب اتجهوا الى ابراز عظم التضحية التي قدموها وروعة البطولة التي تحلوا بها ، ولم تجد نغمات اليأس بصورة عامة مكانا في تلك القصائد . وما كان الشعراء آنذاك الا صدى واعيا لما يجيش به وجدان الأمة . ويعتبر قيام الثورة العربية الكبرى بعد شهر من هذه المجزرة الدامية دليلا حيا على ما بلغته نفسية المجتمع العربي في بلاد الشام من غضب ونقمة . ومن هنا غلب التفاؤل والاستبشار على كثير من تلك القصائد على نحو ما نجده لدى محمد رضا الشبيبي اذ يناجي اولئك الشهداء ويشيد ببطولتهم (١)

هذي الديار سررتم امواتها	بجهادكم وحرستم أحياءها
قالوا تكون فداءهم اوطانهم	فتجاوبوا كلا نكون فداءها
ان الضمائر والقلوب اذا دجت	دخل الأسى أعماقها فأضاءها

كما يستمد محمد الشريقي العزيمة ممن جعلوا انفسهم روادا للتضحية والفداء فيقول (٢)

يتقدمون الى الردى بتبسم	لا يرهبون الموت وهو محقق
ليكل لنا الأوغاد ما شاءوا أذى	لابد أن الظلم يوما يمحق

ولم يكن سائر ما نظمه الشعراء في هؤلاء الأبطال يختلف كثيرا عن هذا الاتجاه المتمرد الثائر الذي ينبط النار من الدم . وفيما نظمه خير الدين الزركلي وابراهيم طوقان ومصطفى الغلاييني وشفيق جبري وعمر يحيى وحليم دموس ومحمد العدناني ونصرة سعيد وعشرات الشعراء سواهم خير مثل على ما قدمه الشهداء الأول الى ادبنا الحديث من اسمى معاني البطولة واروع آيات الفداء كانت خير زاد قومي للجيل العربي الصاعد .

على أن شهداء أيار لم يكونوا الا الطليعة لقوافل الشهداء المتتابعة فوق اديم هذا الوطن . اذ ما كاد الأجنبي يطأ سائر

---

(١) = الديوان ١٨٣

(٢) = مجلة الرابطة الأدبية ، دمشق ، السنة الأولى ج ٥ ، ص ٢٨٢

أرضها لصرب حتى أخذ الأحرار يتساقطون صرعى أمام قوات البغي .
وكانت معركة ميسلون واستبسال حاميتها مع قائدهم حتى الرمق الأخير مثلا أعلى للبطولة خلد اصحابها في سفر نضال الشعوب وجعل منهم منارا للنفوس المتحفزة نحو التحرر .

ولم يكن كثير من الشعر الذي قيل في يوسف العظمة بطل ميسلون وصحبه شعر رثاء وتفجع بمقدار ما كان شعر حماسة وثورة تهيب من ثناياه نفحات البسالة والاقدام . ومن هذا القبيل ما قاله الياس فرحات يومئذ (١)

كأن الحق اسكرهم فثاروا	وساروا بالعصي مقاتلونا
كأنهم رأوا في الفر عارا	فكروا بالمنية يحتمونا
رأوا في ميسلون الموت مجدا	فماتوا دونها مستبسلينا

أما يوسف العظمة وزير الحربية السورية وقائد المدافعين عن دمشق ضد جحافل غورو الفرنسية ، فقد غدا في نظر الشعراء وسائر الناس بطلا خالدا فتحت له القلوب وانطلقت بتمجيده الحناجر . فهو أول سد أقيم في وجه الاستعمار ، كما أنه رائد الشهداء في ساحة الجهاد . وما اكثر تلك القصائد التي تصور وقفته الملحمية الخالدة من مثل قصيدة أمير الشعراء شوقي التي يناجي فيها " بطل ميسلون " بقوله (٢)

شهيد الحق في شبح الصحارى	تخاف العاصفات له ذيولا
مقيم ما اقامت ميسلون	يذكر مصرع الأسد الشبالا
مشى ومشت فيالق من فرنسا	تجر مطارف الظفر اختيالا
فكفن بالصوارم والعوالي	وغيب حيث جال وحيث صالا

وقد صور الياس فرحات هذه البطولة في موشح له قال فيه (٣)

شرب المجد بأكواب المنون	مات حرا قابضا قبض الضنين
فبيسراه على الحق المبين	وبيمناه على السيف السنين
هائجا كالليث وثبا واقتحاما	دافعا عن مدخل الغيل الطغاما

---

(١) الديوان ١٧١ (٢) الشوقيات ٢ ـ ٢٢٧

(٣) " ٢١٠

ومما يشير الى المدى الذي أثاره استشهاد بطل ميسلون في قرائح الشعراء أن أبا المفضل الوليد صعق بالنبأ فور سماعه بالمفاجئة ، فانكب على نظم قصيدته المطولة التي أسماها "الشهادية" في جلسة واحدة لم يدع خلالها القلم من يده الا بعد ان أنجزها وكانت قد بلغت ١٦٨ بيتا (١) ومما قاله فيها (٢)

هوى القائد الأعلى فتى الحرب الذي حكى أنجد القواد بل كان امهرا

سلام على الأبطال ان دماءهم ستحيي شعورا لن يموت ويقبرا

وما بسقت حريـة وتأصلت بغير الذي يجرى من القلب مهدرا

تمنيت مع فتيان قومي شهادتي ولكنني اهوى الحياة لأثأرا

وهكذا غدا شهيد ميسلون موضوعا بطوليا ساميا نسج حوله الشعراء هالة ملحمية من معاني التضحية والفداء والخلود ..

= ٢ =

ولم ينجل غبار الثورات القومية المتعددة في الشرق العربي الا عن اشلاء الضحايا الممزقة وجثث الشهداء المبعثرة في مصر والعراق وسورية وفلسطين وفي كل شبر من الوطن العربي .

وقد تجلى ذلك في أروع الشعر وأصدقه ، من ذلك ما نظمه محمد مهدي الجواهري في احدى البطولات التي تكشفت عنها الثورة العراقية الأولى ضد الانكليز اذ قال (٣)

كمي مشى بين الكماة وحوله نجوم بليل من عجاج طوالع

يطلعهم فوز الأماني ولم تكن لتجهله لكن ليزداد طامع

وما كان حب الثورة اقتاد جمعهم الى الموت لولا أن تخيب الذرائع

هم استسلموا للموت والموت جازف وهم عرضوا للسيف والسيف قاطع

كما وصف محمد جواد الصماري بطولة نفر من العراقيين ابان تلك

---

(١) روى هذا الخبر الدكتور اسحق موسى الحسيني عن اسعد طعمة احد أقارب الشاعر .

(٢) نفحات الصور ١٢٢ (٣) ديوانه ٣٠ : ٢/١٦

الثورة في موقعة (المزرعة) فقال (١)

وتألقت حول المزرعة فتية ... مثل البدور يزينهم ابتراق
خاضوا المعارك ثائرين وما بهم ... الا الجسور الى الردى سباق
فتلألأت في الرافدين رماحهم ... حتى استقل وبنده خفاق

وربما كان موضوع أبطال الثورة السورية وشهدائها من أهم الموضوعات التي حظيت بعناية الشعراء سواء ما كان منهم في الشام نفسها أو في سائر اقطار العرب . ومما " ديوان الثورة " الذي ضم كثيرا من هذه القصائد الا جزءا يسيرا مما قيل في هذا الصدد . فقد انبثقت الثورة السورية عام ١٩٢٥ عن بطولات فذة أذهلت الأعداء وكانت خير وقود للشعور القومي النازع نحو التحرر ، ومما انتزع الاعجاب آنذاك تصدى سلطان الأطرش وجماعته من الدروز لمصفحات الفرنسيين بوثبة جريئة شلت حركتها وكان ذلك في وقعة (ميشو) المظفرة التي تغنى بها الشعراء . وقد صور الياس قنصل وثبة سلطان المهتورية بقوله (٢)

وأرعد(ذلك) الغاصبين مهددا ... فما زدت الا جرأة حين أرعدا
وقابلته والنار فيه مكافحا ... الى ان غدا سبط الحديد مجمدا

وقد تناول الشاعر المقروى الموقف البطولي الذى وصفه قنصل واستطاع ان يسمو به الى جو ملحمي رائع ارتسمت حوله هالة من البطولة الخارقة لم يستوح روعتها من خياله وانما أمده بها الواقع ذاته فراح يخلد موقف " فتى الهيجاء " في معركة (ميشو) بوصف رائع يذكر بقصائد المتنبي في معارك سيف الدولة (٣)

خففت لنجدة العاني سريعا ... غضوبا لو رآك الليث ريعا
ألم يلبس عداك التناك درعا ... فسلهم هل وقى لهم ضلوعا
أغرت عليه تلقى النار بردا ... ويرميها الذى يرمي هلوعا
فطاشت عنك جازعة ولو لم ... تهش لها لحاولت الرجوعا
ولما صرت من مهج الأعادى ... بحيث تذيقها السم النقيعا

---

(١) الأدب المعمارى
(٢) السهام ٥٧
(٣) ديوان الثورة ٨١

وثبت الى سنام الثناء وثبا عجيبا علم النسر الوقوعا
فخروا فوق ظهر الثناء صرعى وخر الثناء تحتهم صريعا

ثم تعددت الوقعات وتساقط معها الشهداء . وكان مصرع كل شهيد حافزا على قول اصدق الشعر واشده حماسة . وحين سقط فؤاد سليم شهيدا في يوم (مجدل شمس) ابان ثورة السوريين على فرنسا ايضا ، رثاه عدد من الشعراء بينهم خيرالدين الزركلي اذ قال (١)

أليت ميتة حر وقد تحمل بند اء
قضيت حق العوالي وانت تقتاد جند اء
عملت للمجد حتى ادركت بالموت مجد اء

كما أشاد ببسالته عبدالمحسن الكاظمي في قوله (٢)

مثل ابن المنون لايبالي رأى صبا أم رأى سموما
جاهد دون الاوطان حتى أصبح شلوا بها حطيما

ومن آيات البطولة التي انبثقت من صميم الجماهير في سورية من خلال جمرات تلك الثورة رجل لم يعرفه الناس الا باستشهاده وهو حسن الخراط الذى ضرب لقومه مثلا خالدا في الأقدام وقد خصه محمد البزم بمطولة قال فيها (٣)

يامؤثر الموت في انقاذ موطنه ركبت صعبا فلا لاقيت خذلانا
سيرت ذكراه في الآفاق تحمله جوانب الجو أفراحا وأحزانا
وليس عنداه من مال ولا عدد الا العزائم قد مثلن ايمانا

وكان استشهاد احمد مريود باعثا على نظم قصائد كثيرة نسجت من واقع ملحمته ، اذ أنه حسين بوغت بالجند من حوله وهو في أحمد بيوت "المقرية" أبى اهلها ان يسلموه ، فما كان من جيش الاحتلال الا أن هدد المقرية كلها بالتدمير فوق أهلها وحينئذ لم يجد الأسد بدا من أن يخرج من عرينه مع نفر ضئيل ليلقوا وجه ربهم . ومن عجب ان الفرنسيين ازدهاهم

---

(١) ديوان الثورة ٦٧ (٢) ديوان الثورة ٥٦
(٣) " " ٣٠

هذا النصر فحملوا يعرضون جثة الشهيد في دمشق ليرهبوا اهلها وفي ذلك يقول خيرالدين الزركلي (١)

اقبلوا يحملون أحمد وضاح المحيا مضرج السربال

شهد الله انهم حملوا موئل مستصرخ وليث صيال

ثم يشير الى خروجه لملاقاة المفرنسيين :

شق جنح الظلام يمشي اليهم	رابط الجأش مشية الرئبال
قائلا للحياة غيرى غرى	قائلا للنعيم غيرى و ال

ومن هذا القبيل ما نجده لعمر يحيى في شهيد (حماة) صالح قنباز كما نجد لمحمد الفراتي وبدرالدين الحامد وبدوى الجبل وعمر أبي ريشة قصائد مماثلة في كثير من الشهداء الذين ضربوا أمثلة البسالة والتضحية في دمشق وحلب وحماة ودير الزور ونذروا انفسهم لطرد الغزاة . وبهذه البطولات التي قام بها السوريون ابان ثورتهم والضحايا الغالية التي قدموها على مذبح الوطنية أشاد أمير الشعراء في قصيدته الرائعة اذ قال (٢)

دم الثوار تعرفه فرنسا	وتعلم أنه نور وحق
جرى في أرضها فيه حياة	كمنهل السماء وفيه رزق
بلاد مات فتيتها لتحيا	وزالوا دون قومهم ليبقوا
وللأوطان في دم كل حر	يد سلفت ودين مستحق

ومازالت ابيات شوقي التي تصور آيات التضحية والبطولة في مقاومة المستعمرين على لسان كل سوري وفي طليعة الشعر القومي الحديث.

أما فلسطين مهد عيسى ومسرى محمد ومبعث سائر النبوات فقد كانت ارضها الطاهرة موئل الجهاد الدائب والصراع الدامي . وكم سقط في أتون معاركها من شهداء ونبت في ثراها المقدس من بطولات . من ذلك ما شهدته تلك الديار في أحد ايام حزيران (يونيو) ١٩٣٠ الذي كان يوما أغر في

---

١)) ديوان الثورة ٨٥ ٢)) الشوقيات ٢ ــ ٨٨

سفر التضحية والفداء ، اذ صدر حكم الاعدام على ثلاثة من احرار فلسطين على أثر ثورة ١٩٢٩ " فكان التكبير على المآذن وقرع النواقيس في الكنائس يتجاوب صداهما في أرجاء فلسطين قاطبة . اذ في ذلك النهار نفذ حكم الاعدام بالشهداء الثلاثة في ثلاث ساعات متوالية ، وكان من المقرر رسميا ان يكون الشهيد (عطا الزير) ثانيهم ولكن (جمجوما) حطم قيده وزاحم رفيقه على الدور حتى فاز بِبُغيته ..

وهنا يأخذ الشاعر ابراهيم طوقان ريشته ليصور هذا اليوم المخضب بالدماء اروع تصوير وليسجل في شعره الوطني الخالد مصارع اولئك الشهداء ، فتكون قصيدة " الثلاثاء الحمراء " التي القاها في حفل حاشد ، فذهل عن الجمهور ، وشعر كأنما خرج من لحمه ودمه فكان يلقي بروحه واعصابه ، وما انتهى، حتى كان بكاء الناس يملأ نشيجه "(١) . وقد أنطق الشاعر عن طريق الرمز الساعات الثلاث الرهيبة التي نفذ خلالها اعدام الأبطال متتابعين ، فكان مما قالته الساعة الأولى(٢)

أنا ساعة النفس الأبية ، الفضل لي بالأسبقية
أنا بكر ساعات ثلاث كلها رمز الحمية
أودعت في مهج الشبيبة نفحة الروح الوفية
لابد من يوم لهم ، يسقى العدا كأس المنية
قسما بروح (فؤاد) تصعد من جوانحه الزكية
ما نال مرتبة الخلود بغير تضحية رضية
عاشت نفوس في سبيل بلادها ذهبت ضحية

أما الساعة الثانية ساعة اعدام محمد جمجوم فقد قالت

أنا ساعة الرجل العتيد ، أنا ساعة البأس
أنا ساعة الموت المشرف - كل ذي فعل مجيد
بطلي يحطم قيده رمزا لتحطيم القيود

---

(١) انظر مقدمة الديوان بقلم فدوى طوقان شقيقة الشاعر ص ٢١

(٢) الديوان ٣٨

زاحمت من قبلي لأسبقها الى شرف الخلود
وقدحت في مهج الشباب شرارة العزم الوطيد

وأما الساعة الثالثة فقد قالت عن بطلها

أنا ساعة الرجل الصبور   انا ساعة القلب الكبير
رمز الثبات الى النهاية في الخطير من الأمور
بطلي أشد على لقاء الموت من صم الصخور
جذلان يرتقب الردى   فاعجب لموت في سرور

لم تكن قصيدة "الثلاثاء الحمراء" هذه سوى اثر رائع أحكم طوقان تخطيطه فجعله في مقدمة وثلاث مراحل ثم خاتمة ، انها من الشعر القصصي الملحمي ، عمد فيها الشاعر الى نوع من الرمز الجلي الموحي . وهي لم تكن قصيدة رثاء وبكاء ، وتفجع ونواح كعهدنا بمألوف الشعر في هذه المناسبات في كثير من الشعر التقليدي . فالساعات الثلاث رمز الحمية ، اودعت في مهج الشباب نفحة الروح الوطنية وجزمت بأنه لابد من يوم يبقى الصدا العنية وأنه لاخلود بلا تضحية ، وفي القصيدة نلمس روح اليأس ونرى البطل يحطم القيد ويلهب في مهج الشباب شرارة العزم الوطيد ونجده تجاه الموت اشد من صم الصخور يستقبله في جذل وسرور . ان الثلاثاء الحمراء صيحة البطولة المدوية وصرخة الحق المبين وصوت الأحرار الخالد .

ثم يسقط سعيد العاص في تلك الأرض الطاهرة ويقول فيه شعراء العرب في مختلف ديارهم شعرا كثيرا ، وتكون آية أخرى من آيات البطولة في فلسطين عبر عنها عمر أبوريشة بقوله (١)

يا دماء النسور تجرى سخاء   بغرام البطولة المفضاح
اى برد خلعته احمر اللون على كاهل الجهاد الصراح
وكأني اراه في زحمة الهول على سرج ضمضم طواح
وأخواه الجسور في المقحم السود مطل على الروابي المفساح

---

(١) الديوان ١٩٩

لوحت كفه بمنديله الأحمر شوقا الى اللقاء المتاح
فحسبت الأجبال تهتف يا (خالد) جاهد في فيلق الجراح

كما اهتز احمد محرم لمصرع هذا البطل فقال فيه (١)

نظم المجد لأبطال الحمى ونظمت الشعر نارا ودما
بطل أبصرت مجرى دمه في جبين الشرق لما وجما
صخرة صماء تحمي صخرة علمتها كيف تشفى الصمما

ولم يكن شعراء الشرق العربي بمعزل عن نضال اخوانهم في المغرب الذي كان يقاوم شر انواع الاستعمار بضراوة . وحين وقع عبدالكريم الريفي في قبضة الغزاة وكان ممن ملأوا الأسماع بسالة ناجاه محمد الفراتي بقوله (٢)

ان يأسروك فانهم لم يأسروا الا الهزبر الأغلب المرهوبا
ماكنت أول ثائر مستظلم بالحديد مكبلا محروبا
لاتأس فالتاريخ يحلف جاهدا بالله أنك لم تكن مغلوبا

كما وقع عمر المختار في قبضة الطليان وكان شيخ السنوسيين ورأس المجاهدين في طرابلس الغرب ، فلم يكن من احداثه الا أن بادروا الى شنقه بعد تعذيب مرير،وقد هز مصرعه القاصي والداني وهاج قرائح الشعراء في كل مكان . وكانت قصيدة احمد شوقي فيه درة تلك القصائد ، فهو لم يذرف الدموع عليه وانما وجد فيه مثلا اعلى للبطولة ومنارا هاديا للشعوب : (٣)

ركزوا رفاتك في الرمال لواء يستنهض الوادي صباح مساء
ياويحهم نصبوا منارا من دم توحي الى جيل الغد البغضاء
جرح يصيح على المدى وضحية تتلمس الحرية الحمراء
بطل البداوة لم يكن يغزو على (تنك) ولم يك يركب الأجواء
لكن أخو خيل حمى صهواتها وأدار من اعرافها الهيجاء

---

١)= محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ٢ ـ ١٥٥ عن ديوان مخطوط للشاعر .
٢)= الديوان ١٥١ ٣)= الشوقيات ٣ ـ ١٧

ومصر التي كانت تغلي كالبركان تثور حينا وتهدأ حينا آخر انتفضت عام ١٩٣٥ في جملة انتفاضاتها وسقط بعض ابنائها شهداء برصاص زبانية الطغيان . وقد لقي محمد عبد الحكيم الجراحي آنذاك وجه ربه فاذا هو رمز التضحية والفداء في نظر الشعب وتهتم جماعة (ابوللو) من الشعراء بهذا الحدث فتقيم لذكراه احتفالا تجلت فيه اصدق المشاعر عبرت عنها قصيدة " الشاعر الشهيد " لحسن كامل الصيرفي واخرى لابراهيم ناجي (٢) وغيرهما لسائر الشعراء وكان ذلك منهم التفاتة قومية قل ان حفل بها بعضهم بعد أن طغى عليهم تيار الرومانسية .

- ٣ -

على أن شعر البطولة والفداء لم يكن يبقى دائما في نطاق شهيد بعينه ، او بطولة فرد في ذاته ، فهناك قصائد كثيرة كان ينزع فيها اصحابها الى التعميم كأن يبرزوا ملامح الاقدام وعناصر التضحية في جملة الذين سقطوا في فلسطين أو سوريا أو مصر او العراق او المغرب او في شهداء العرب كافة . وطبيعي أن تغلب على هذا النمط من القصائد الروح القومية المتمردة وأن تخفت فيها رنة البكاء والأسى ، لأن الشاعر يجنح فيها بصورة عامة الى التعبير عن عواطف الجماعة قبل عواطفه او عن عاطفته من خلال عواطف مجتمعه . فهذه قصيدة للأخطل الصغير يقول فيها (١)

كتلة من لهب ... في سماء العرب
ولواء من هدى ... وشعاع من نبي
يا شهيدا دمه ... قال يا أرض اشربي
انت ان لم ترتوى ... من دم الحر الأبي
ذل فيها العربي ... واستبد الأجنبي

فقد نظمها تمجيدا لشهداء أيار الذين اعدمهم جمال باشا في

---

(١) ادهم الجندي : اعلام الأدب والفن ١٥
(٢) انظر الشروق ٩٢ .

الحرب الأولى . ولكن ما من شيء يدل فيها على ذلك لأن الشاعر استمد من أولئك الشهداء رمزا للتضحية والفداء . وهذه قصيدة لأنور العطار ينطلق فيها الى هذا الجو العام برغم اشارته في أولها الى شهداء فلسطين اذ يقول (١)

يا دما على فلسطين سالت	من شباب زكية اعواده
من جريح يود لو يرزئ الجرح	فخاض الوغى نديا ضماده
وطعين على الثرى يتلوى	غاب عن نفسه وضاع رشاده
هكذا المجد ان تموت شهيدا	يا شهيدا يلذه استشهاده

وكان بوسع الشاعر ان يستبدل الجزائر او الكنانة بكلمة فلسطين مثلا ولكنه اتخذ من موضوع فلسطين منطلقا الى تمجيد البطولة العربية . ومن هذا القبيل ابيات لعمر يحيى يصور فيها استبسال الأحرار ذودا عن وطنهم وأثر تضحياتهم الجسيمة في الهاب المشاعر القومية في نفوس شعوبهم اذ يقول (٢)

أثر على كر الزمان مثول	مهج الشباب على الصليب تسيل
تلك الضحايا لم تكن الا صوى	فيها لطلاب الحياة دليل
لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى	حتى تروع قذائف وصليل
ولكم شهيد بالدماء مضرج	لبى فسار على هداه قبيل

ولولا ان الشاعر وضع لها عنوانا هو شهداء فلسطين لشق علينا معرفة مناسبتها . وعلى هذا الصعيد الشامل يصور أمجد الطرابلسي بأس قومه وصمودهم كالطود تجاه جور الفرنسيين أثناء الاضراب الخمسيني في سورية اذ يقول : (٣)

كل يسير الى الأمام مشمرا	وقد استعد لأن يعود شهيدا
وعتاده قطع الصفا لكن في	ايمانه ما يصدع الجلمودا
وفؤاده بين الأضالع شعلة	حرى تشع عزيمة ووقودا
شهداء مثل الزهر في أكمامه	كانوا على ظلم المقوى شهودا
سقطوا أمام بيوتهم وسط الحمى	صرعى فما حفظوا لظى وحديدا

---

(١) في ظلال الأيام ١٣٢ (٢) البراعم ٣٢

(٣) مجلة الرسالة سنة ١٩٣٦ ص ٥٥٠

فمع أن المناسبة خاصة في حدود الزمان والمكان استطاع الشاعر أن يرتفع بها الى هذا الصعيد الحماسي السامي .

وثمة أبيات رائعة لشفيق جبري يصور فيها دور الشهداء وأثر تضحياتهم في بناء مجد الأمة فيقول(١)

وطن كأن على اشلائه	درا على تاج الحمى منضودا
المقبلين الى سود المنايا ربعه	فتقحموا فيه المنايا السودا
ملأت مهاد هم الربوع مكارما	واليوم قد ملأوا الثراء لحودا
صحف بأحمر قانئ مكتوبة	ضمن الزمان لأهلها التخليدا
عظة الشعوب على ظلال لحودهم	درجت مع الصبح المبين عمودا
ذكرى الدفين وان تقادم عهده	تحي الدفين وتبعث الموءودا

فمن العسير ان تعرف شيئا من خلال هذه القصيدة عن ظروف نظمها ومناسبتها ان لم يتقدم لنا الشاعر نفسه ذلك . ومن الطبيعي أن ترجع بواعث نظم هذه الأبيات الى مناسبة خاصة وأحداث محددة ولكن الشاعر استطاع ان يسمو الى آفاق أبعد وأجواء ارحب حين جرد من احداث طارئة وبطولات فردية نموذجا للكفاح والبطولة متمثلين في ضمير الأمة كلها .

وهذه الظاهرة في الشعر القومي المعاصر تشير الى ان الشاعر العربي أخذ يجنح في قصائده الى التجريد والنظرة الى موضوع البطل او الشهيد من زاوية شاملة ، وذلك نتيجة ازدياد شأن الجماهير ودور الشعوب الفعال في صنع التاريخ ولهذا لم يعد يكتفي بما كان يكتفي به الشاعر قديما من تفجع على المفقيد وعد لمناقبه وتمجيد لذكره ، اذ ارتبط المفرد بمجتمعه ارتباطا لا انفصام له وغدت بسالته جزءا من بسالة شعبه ورمزا لها . ولعل قصيدة " الشهيد " لابراهيم طوقان فريدة في هذا الموضوع فقد حظيت بمكانة لاتدانى في الشعر القومي المعاصر وفيما يلي نصها(٢)

---

١)) صبري الأشتر : المختار من الشعر في سورية ٢٢

٢)) الديوان ٣٦

عبس الخطب فابتسم — وطغى الهول فاقتحم
رابط الجأش والنهى — ثابت القلب والقدم
لم يبال الأذى ولم — يثنه طارئ الألم
نفسه طوع همة — وجمت دونها الهمم
تلتقي في مزاجها — بالأعاصير والحمم
تجمع الهائج الخضم — الى الراسخ الأشم
وهي من عنصر الفدا — ومن جوهر الكرم
ومن الحق جذوة — لفحها عزر الأمم

سار في منهج العلا — يطرق الخلد منزلا
لايبالي مكبلا — ناله أم مجدلا
فهو رهن بما عزم

ربما غاله الردى — وهو بالسجن مرتهن
لم يشيع بدمعة — من حبيب ولا سكن
ربما أدرج الترا — ب سليبا من الكفن
لست تدري بطاحها — غيبته أم القنن
لاتقل اين جسمه — واسمه في فم الزمن
انه كوكب الهدى — لاح في غيهب المحن
أرسل النور في العيو — ن فما تعرف الوسن
ورمى النار في القلو — ب فما تعرف الضغن

أي وجه تهللا — يرد الموت مقبلا
صعد الروح مرسلا — لحنه ينشد الملا
أنا لله والوطن

فالقصيدة رائعة قل ان يجود بمثلها شاعر • وقد عاش ابراهيم تجربتها حية حارة في فلسطين فكانت كالجذوة الملتهبة استمد ها من نضال قومه الدامي • ومع أن الديوان يشير الى مناسبة نظمها وأنها كانت بصدد الذكرى الرابعة للشهداء الثلاثة (حجازي وجمجوم والزير) فان القصيدة بنصها لاتشير الى ذلك من قريب او بعيد • وكل من اعجب بهذه الأبيات وترنم بنبراتها

القومية لم يحرص كثيرا على ربطها بأصل مناسبتها واكتفى منها بأن تعالج موضوع الشهيد اى شهيد بهذا الابداع ، وبخاصة اذا كان الشاعر نفسه لم يأبه لهذا الربط في نظمه لأبياتها . فهذا النمط من الشعر الذى يرتفع من الخاص الضيق الى الجو العام الشامل ليرفرف في عالم المثل يذكرنا بدالية المعرى المشهورة التي نظمها في رثاء أبي حمزة الفقيه وتخطى فيها نطاق المفرد ليحلق في جو انساني رحيب قوامه فكرة الوجود والعدم وفلسفة الحياة والموت في الكون ، أما ابو حمزة نفسه فلم يكن الا منطلق المعرى نحو هذا الأفق البعيد كما كان شأن شهداء فلسطين الثلاثة بالنسبة لطوقان .

ولايضارع هذه القصيدة في مضمار المحاولة والفداء الا قصيدة أخرى للشاعر نفسه تعتبر صنواً لها ، وبلغت من الشهرة مابلغتها تلك هي قصيدة " الفدائي " وفيها يقول(1)

لاتسل عن سلامته	روحه فوق راحته
بدلته همومه	كفنا من وسادته
يرقب الساعة التي	بعدها هول ساعته
شاغل فكر من يرا	ه بإطراق هامته
بين جنبيه خافق	يتلظى بغايته
من رأى فحمة الدجى	أضرمت من شرارته
حمّلته جهنم	طرفا من رسالته

هو بالباب واقف	والردى منه خائف
فاهدئي ياعواصف	خجلا من شجاعته

صامت لو تكلما	لفظ النار والدما
قل لمن عاب صمته	خلق الحزم ابكما
وأخو الحزم لم يزل	يده تسبق الفما
لاتلوموه قد رأى	منهج الحق مظلما

---

(1) الديوان ٦٥

وبلادا أحببهـا ركنها قد تسهد مـا
وخصوصا ببغيهـم ضجت الأرض والسما
مرحين فكاد يقتله ـ اليـأس انمـا

هو بالباب واقف والردى منه خائف
فاهدني يا عواصف خجلا من شجاعته

وربما تعود مكانة هذه القصيدة المرموقة في الشعر المعاصر الى اسباب كثيرة في رأسها طرافة موضوعها ، اذ قلما عثرنا على قصائد أخرى عالجت موضوع الفدائي ، ولاريب ان الشاعر استمد هذا الموضوع أيضا من بيئة فلسطين ومن واقع احداثها ، فكانت تجربته أصيلة عميقة حية . ومن جهة أخرى نلمس في الفدائي مالمسناه في الشهيد أيضا من انطلاق الى الجو البطولي الشامل برغم ان المناسبة نفسها شديدة التخصيص والتفرد فهي ترتكز الى أن أحد احرار فلسطين المتحمسين صمم على اغتيال يهودي بريطاني سام العرب الأهوال فكمن له واطلق النار عليه . فمن ثنايا هذا الحدث الطارئ الذي يقع مايشابهه في كل حين استمد طوقان جوهر البطولة والفداء.

وهكذا كانت قوافل الشهداء ومواكب الأبطال تتدافع في كل أرض عربية حيث تنطلق السنة الشعراء مع تدفق الدماء الزكية وخفقات القلوب المتحفزة ورفرفة الأرواح الطاهرة لتسجل آيات البطولة والاقدام في سفر التحرر والخلود . وأصبح تساقط الأحرار صرعى في كل يوم موضوعا يهز مشاعر الأمة ويفرض نفسه على الأدب . ومن هنا كثرت مراثي الشهداء كثرة تفوق الحصر ، كما اضيفت اليها موضوعات البطولة والتضحية عامة منطلقة من نطاق الأحداث ومن حدود الزمان والمكان لتكون رمزا شاملا ونبراسا وهاجا للأجيال المتطلعة الى الحرية . ولسنا نطالب الشاعر في هذا الشأن ان يتسم في قصيدته بالاحاطة والتقصي وأن يعرف دائما اسم الشهيد او البطل وكيف، ومتى كان مصرعه وفي أى أرض سقط ولكن عليه ان يستشعر استشهاده وينفعل به ويعيش مغزاه ثم يشيد به على أنه الشهيد

المجهول الذي احتسب دمه في سبيل وطنه .

- ٤ -

واذا حاولنا ان نستقري ماتظمه الشعراء المعاصرون من قصائد في موضوع البطولة والأقدام فأننا نلمس عنايتهم باستيحاء البطولات الخالدة من خلال تاريخ العرب الحافل . ومثلما وجدوا في الشهداء والابطال المعاصرين مادة غزيرة يغذون بها الشعر القومي وجدوا أيضا في بطولات الأجداد من الخلفاء والقواد والفاتحين معينا لاينضب . من ذلك القصائد التي نظمت تمجيدا لأسامة ابن زيد وخالد بن الوليد وطارق بن زياد وصلاح الدين الأيوبي وسواهم من الابطال الصناديد . ونمثل لذلك بقصيدة " خالد " لعمر أبي ريشة التي يقول فيها على لسان الرسول مخاطبا صحبه يوم (أحد) (١)

أعلمتم من الفتى المتثني بوشاح البطولة الأرجواني
انه ابن الوليد زغردة النصر وأنشودة الجهاد الباني
مر في خاطري طيفا بعيدا عبقري النضال ثبت الجنان
وكأني أراه يضرب شرق الأرض بالغرب مشرق الايمان

ثم يصف بطولته يوم وقعة اليرموك بعد اسلامه فيقول

وبدا الروم في ضلال مناهم شوكة في محاجر الأجفان
فأتاهم بحفنة من رجال عنده ا المجد والردى سيان
ورماهم بها وماهي الا جولة ، فالتراب احمر قاني
وضلوع اليرموك تجري نعوشا حاملات هوامد الأبدان

وهذه البطولات العريقة التي استمد آياتها من أمجاد العرب السالفة حملت في ثناياها هالة كبرى من ملامح الجو الملحمي الذي ونق الشاعر الى خلقه ورسم خطوطه في قصيدته .

فقد كانت بطولات الأجداد أبدا رائد المجاهدين العرب ومثلهم لـ

---

(١) الديوان ١٣٢

الأعلى في نضالهم المرير ضد الطغيان والاستعمار ، كما كان الشعراء يجدون فيما حولهم من البطولات صورة رائعة من جهاد العرب التليد الذي أصبح أعلامه رمزا خالدا في ضمير كل عربي وعلى هذا النحو نظر الشاعر المقروي الى بطولات العرب في فلسطين اذ قال (١)

فكل فتاة في فلسطين (خولة) وكل غلام في فلسطين (عنتر)

لقد كانت شعوب العرب تزهو على السنة شعرائها بتلك البطولات الرائعة ، المقديم منها والحديث وتجد فيها وجهين ناصعين لمجد واحد في طارفه وتليده .

= ٥ =

وثمة مظهر آخر لشعر البطولة والفداء في ادبنا المعاصر نجده في عدد قليل من القصائد ولكنه يدل على ظاهرة ايجابية انسانية . فمع أن حياة العرب في حاضرها وماضيها حافلة بالبطولات الفذة والأمجاد المخضبة بدماء الضحايا ، فأن استغراقهم فيها لم يقعد بهم عن تحسس البطولة واستجلاء آياتها اينما وجدت ولو كانت في قوم غير قومهم وأرض غير أرضهم . فقد لجأ خير الدين الزركلي الى تعريب قصيدة عن الفرنسية تحت اسم (الديدبان) أي الحارس وصور فيها بطولة جندي يضحي بنفسه خلال الحرب الأولى لينقذ جيش قومه . والقصيدة طويلة تمتاز بطابع قصصي شيق ومنها قوله (٢)

بات يرعى الدجى وحيدا فريدا	حاضر القلب مصغيا يتفكر
لم يرعه في ظلمة الليل الا	وقع اقدام داهم يتحدر
فيلق اثر فيلق جاء يسعى	في ظلام الليل البهيم تنكر
نبه القوم فاستطاروا خفافا	صاح فيهم فاستقبلوه فأنذر
قال ياقوم يمموا النهر الأدنى	فأن العدو ان حل دمر

---

(١) الديوان ٣٦٢ (٢) الديوان ٢٧

فاذا بالخيام لا حي فيها — واذا الديدبان لم يتقهقر
ويد كالحديد حلت عليه — ثم قادته صاغرا فتصبر
سألوه عن جمعه اين ولى — فأضل المقوم السبيل وحير
كذبوه وأبصروا النهر فانهالوا — عليه ضربا وجلدا فأنكر
حاولوا خوضه فقالوا هلم — انزل اليه فالخوض بالخوض يسبر
همسوا بينهم لئن فاز خضناه (م) — والا فنحن بالعود أجدر

وقف الحارس الأمين وقد فكر — في أمر قومه وتدبر
ثم ألقى بنفسه يوهم القوم — بأن السبوح في النهر يغمر
فاختفى عنهم وقد خفض الرأس — وظلت آثار كفيه تبصر
خاطب النفس وهو في لجج الماء — وفي قلبه اللظى يتسعر
ان اردت البقاء خاضوا الينا — وابتغوا معشرى بكل مضمر
او اردت الفناء هالهم الماء — فكفوا وتابعوا المسير في البر
حبذا الموت في سبيل قبيلي — انما المرء من يموت فيذكر

وشبيه بهذا الموقف الايجابي من بطولات سائر الشعوب وتطلع الشعراء العرب الى المثل الأعلى للفداء ماذكره كل من الشاعرين خليل مردم وبدوى الجبل عن (شهيد ايرلندا) وقد اشرنا اليهما من قبل وكلتاهما تحكي قصة فتى ارلندى مكافح آلى على نفسه الا يذوق طعاما او شرابا طالما بقي في وطنه احتلال أجنبي وقد صور بطولته خليل مردم اذ قال (١)

أبى رق الحياة فمات حرا — وأبلغ نفسه في ذاك عذرا
وأقسم لايكون حماه نهبا — مباحا او يموت طوى وقهرا
بميتته رأى احياء شعب — فأيقن ان بعد العسر يسرا
اذا كلحت له زرق المنايا — تهلل وجهه وازداد بشرا

وقد صور بطولته أيضا بدوى الجبل اذ قال فيه (٢)

بسطت يداه بسطة اريحي — فكانت من عطاياه الحياة
ولم تبخل بنفساه وهي علق — متى بخلت بأنفسها الكماة
علوت بها عن الأعراض حتى — تساوى الموت عنده والحياة

---

(١) جريدة البرق البيروتية عدد ١١٢٧ (٢) الديوان ١٨٥

وحين وقف البشر يرقبون مايكون من أمر تلك الحرب الأخيرة الطاحنة وقلوبهم واجفة من الهلع كانت معركة (ستالنجراد) نموذجا رائعا لبطولة الشعوب وصمودها ضد الطغيان . وقد اهتزت نفوس عدد من الشعراء العرب لضروب البسالة والاقدام ، حتى أن شاعرا مثل علي محمود طه عرف بعزوفه عن كل ما لا يتصل بالغزل ينظم قصيدة في هذا الحدث البطولي ويجعلها في ديوانه " زهر وخمر " وفيها يخاطب " المدينة الباسلة " بقوله : (١)

كم من (أخيل) فيهم لكنه	رد المصير به وفاه حصار
لم تجر ملحمة بوصف كفاحه	لكن جرت بدمائه الأنهار
هو مهجة فنيت بأرض مهادها	ليتم غرس او يطيب ثمار
هو موجة ذابت ببحر وجودها	كيما يثور بروحها التيار
انى رفعت بكم مثالا رائعا	يوما اليه في العلا ويشار
لشباب مصر وهم بناة حياتها	وحماتها ان حاقت الأخطار
هذى مدينتكم وذاك صراعها	رمز لكل بطولة وشعار

كل هذه القصائد التي اوردناها للزركلي ومردم والجبل وعلي طه انما عبرت عن مضمون البطولة والفداء الذي استمده هؤلاء الشعراء من معين نداء عن الوطن العربي . ولهذا الأمر دلالته اذ أن معالجة هذا الموضوع في ذاته ينم عن نزوع ملح في ضمير الشعراء نحو استجلاء آيات البطولة وتصويرها مما يصادف هوى في نفوس الشعوب العربية المتطلعة في معركة المصير نحو البطولات المثلى . ومن المرجح ان الزركلي لم يصرب قصيدته تلك لمجرد التلهي او لمقصده وجه الفن فحسب ، واكثر ديوانه في الشعر القومي . كما أنه ليس من قبيل الصدفة ان يتسع شاعران معا على موضوع جزئي واحد نداء عن حياتهما وبيئتهما لولا عامل القصد والاختيار ، بل ان في ابياتهما مايشير الى الربط والتجاوب بين كفاح الايرلندي وكفاح العرب ، ومن جهة أخرى فأن علي محمود طه حرص على عرض بطولة ستالنغراد وتمني

---

(١) زهر وخمر ٦٣

على قومه التحلي بمثلها ، ولم يفته ان يكبر بسالة فتيان (المفولفا) ليجعل منهم مثلا حيا لشبان النيل ، وليسمى للبطولة وطن .

أما مفهوم الاستشهاد فهو يتسم في الأصل بطابع ديني كان يكتسبه المسلم بجهاده في سبيل الله .. ولكنه اكتسب طابعا قوميا في العصور الحديثة وأخذ يستحقه كل حر يقضي في سبيل وطنه ، ومن هنا رأينا كلا الشاعرين مردم والبدوي يكبران بطولة ذلك المفتي الايرلندي ويعتبرانه شهيدا وكأنهما يريان في تضحيته الرائعة ارضاء لله والوطن والضمير . وهذا الأمر يشير الى ان النظرة الجديدة التي غلبت على الشعراء المعاصرين انما هي نظرة القومية الصحيحة المتفتحة التي ترى في كل قومية مناضلة حليفة لها ، وفي كل محاولة أو تضحية تصدر عنها انتصارا لها وشدا لأزرها .

** ** **

ولكن هل اقتصر الشعراء في تصويرهم آيات البطولة والفداء على اولئك الشهداء الذين لقوا ربهم او من كانوا يسعون الى لقائه ؟

(الواقع أن ثمة جانبا آخر من الشعر المعاصر برزت فيه الروح القومية وتضوعت منه رائحة البطولة ذلك هو مانظمه الشعراء من قصائد الرثاء في عدد من زعماء العرب الذين ماتوا على فراشهم وكان لهم في حياتهم اثر كبير في حياة شعوبهم من أمثال الشريف حسين والملك فيصل وغازي وسعد زغلول وسلطان الأطرش وابراهيم هنانو وسواهم .. ممن وجد فيهم الشعراء أبطالا كبارا .

" وقد شغلت مراثي الزعماء والعظماء حيزا كبيرا من دواوين الشعراء . واذا كان الشاعر القديم يرثي الفقيد مرة أو مرتين اثر وفاته فان الشاعر الحديث قد اتخذ لنفسه سنة جديدة وهي رثاء الفقيد في يوم ذكراه من كل عام ، وانما جاءته هذه السنة من محاكاته للصحف .. فقد كانت الحركة الوطنية بحاجة دائما الى من يلقي في أتونها الوقود بين الحين والحين ليزداد

الأتسون لهما فتزداد المشاعر قوة . وكان موت عالم أو زعيم يقع من النفوس موقعا أليما ، ويزيدها بالوطن تعلقا ، واليه تلهفا وحنينا "(١)

ولهذا كثرت قصائد الرثاء كثرة بالغة لدى الشعراء المعاصرين ذوي النزعة الاجتماعية وفيهم حافظ ابراهيم الذي قال

اذا تصفحت ديواني لتقرأه   وجدت شعر المراثي نصف ديواني

ومنا ازدياد شأن هذا النمط من الرثاء الا نتيجة لارتباط الأدب المتزايد بحياة الحرب ، بحيث أن جانبا كبيرا منه أخذ يشكل ظاهرة قومية بارزة في ادبنا الحديث . وطبيعي ان يبقى كثير من شعر الرثاء الطافح بالنواح بعيدا عن هذا الطابع القومي ، وأن يتحلى أيضا بهذه الروح القومية كثير من الشعر الذي تمثل تمجيدا لمآثر الأحياء وبطولاتهم ..))

ومما يلاحظ في هذا المجال ان عامل الزمان المتقادم باطراد على اعمال اولئك الأفذاذ كان يساعد على ارتسام هالة واسعة حولهم من البطولة والاجلال والتضحية ربما كان مبعثها الوفاء لذكراهم والاعتراف بفضلهم ، وقد يكون الباعث على ذلك أيضا ميل الفنان بصورة عامة الى اكمال الصورة الواقعية التي يسعى الى رسم ملامحها ، من فيض قريحته وذوب مشاعره ، ولعل الشعر من اكثر الفنون قبولا لهذه الظاهرة واتساما بها . كل هذا بالأضافة الى الباعث الأصيل على تصوير هذه النماذج المثلى في الشخصية والفداء وهو تعطش الوجدان القومي الى مثل هذا الوقود الروحي لمشاعره القومية المتنامية ..

ولعل من أبرز ظواهر اهتمام الشعراء بموضوع رثاء القوميين البواسل والشهداء الأبطال حرص الكثيرين منهم على تصدير دواوينهم بأهداء حار وصادق يزجونه الى تلك الدماء الزكية والأرواح الطاهرة والبطولات الخالدة . وكأنهم في ذلك انما كانوا يردون ذوب مشاعرهم وزبدة قرائحهم الى من أوحى اليهم بأسمى العواطف النبيلة ، ومن ألهمهم آيات الفن الرفيع ..

---

(١) عبداللطيف حمزة : الصحافة والأدب في مصر ٩٢

الفصل السادس

بين الحق والقوة

– ١ –

مازال الحق منذ الأزل في صراع رهيب مع القوة عانت من جرائه الانسانية اهوالا . وكأن قانون الغاب الذي يتحكم في عالم الحيوان القانون المفضل لدى الانسان حتى هذه الساعة التي يدعي فيها بلوغ أوج درجات الرقي .

ومنذ أن غزا الاستعماريون الشرق اتسمت سياسة القوة بطابع فلسفي يهدف الى تبرير العدوان واضفاء الصفة الشرعية عليه . وكانت الشعوب المستضعفة ، وفي جملتها الأمة العربية فريسة لذلك الجشع الاستعماري الذي أذاقها الويلات . وكم اريق في سبيل حق العرب في الحرية والاستقلال من دماء ، وكم ازهق من أرواح !

ان الشعوب المستضعفة كانت على شيء من السذاجة اذ آمنت في بادئ الأمر بقدسية الحق، ووثقت بعهود الأقوياء . ولقد هلل العرب كثيرا لبنود حقوق الانسان ثم لمبادئ ولسون . وكانت تقرع آذانهم كل يوم مبادئ الحرية والعدالة والمساواة والديمقراطية وحق تقرير المصير . خدع العرب بكل ذلك فتحالفوا مع الغرب ووثقوا به بل طالب بعضهم بانتدابه عليهم لينقذهم من هاوية الجمود والبؤس والتأخر . واذا كل هذه المبادئ لا تعني في قاموس المستعمر الا الاستغلال والارهاب والتحكم فقد لدغ العرب مرات واذا هم بعد حين يدينون بمبدأ القوة لحماية حقوقهم وانتزاع حريتهم . واستقر في نفوسهم بعد تجارب مريرة أنه لا تعايش بين الذئب والحمل .

ومن هنا ارتبط مفهوم الحق، ومفهوم القوة بكيان العرب الحديث. وغدا في طليعة الموضوعات التي أولاها العرب اهتمامهم في حياتهم القومية الحديثة . وقد تجلى ذلك بوضوح في فنون القول من شعر ومقالة وخطابة . .

أما الشعر القومي المعاصر فقد جعل فكرة الحق والقوة ،

والعلاقة بينهما من أهم ما عالجه في معانيه ومضمونه ، لا نكاد نستثني شعر شاعر . وغني عن القول ان كل ما نظمه الشعراء في ذلك انما صدر عن صميم واقعهم وعميق وجدان أمتهم .

والانسان بطبيعته يعجب بالقوة والسلطان . وما شعر الحماسة في أدب العرب الا مظهر لأكبارهم عناصر البأس والفروسية والبطولة في الحياة . غير ان هذا الأمر تعدى النطاق الفردي والقبلي ليرتبط قويا بواقع العرب وحاضرهم ، ولذلك نجد لأبيات شكيب ارسلان جذورا في شعرنا الحماسي القديم اذ يقول(١)

تأملت في صرف الزمان فلم أجد	سوى الصارم البتار للسلم سلما
فان يك دفع الشر بالرأي حازما	فما زال دفع الشر بالشر أحزما
تجاهل اهل الغرب كل قضية	اذا لم يجيء فيها الحسام مترجما
فما العيش الا ان نموت أعزة	وما الموت الا ان نعيش ونسلما

وما خلود كثير من أبيات المتنبي وأبي تمام وسواهما من الشعراء الذين مازالت اشعارهم في هذا الصدد تتردد على السنتنا سوى دليل على أن هذه المثل الملحمية تلائم حياتنا وتتصل بواقعنا .

ومنذ أن استبد الأتراك الاتحاديون بالحكم وساموا العرب الظلم وأخذت معالم الوعي القومي تتضح في النفوس ، أيقن الأحرار بأن القوة هي الملاذ الوحيد لانتزاع الحق من براثن الطغاة . وهذا عمر حمد شهيد الحق يمثل هذا الاتجاه في قوله (٢)

لا در در فتى يقيم على الأذى	بين الطغاة وحقه مجتاح
والحق ليس يصونه من ظالم	الا سيوف اصلتت ورماح

وكان هذا الموضوع يحظى بعناية جميل صدقي الزهاوي وبخاصة في شعره الفكري والفلسفي ومما يقوله في ذلك (٣)

---

(١) الديوان ٩٩ ، وهي على نمط أبيات للحصين بن حمام المرى .

(٢) الديوان ٣٣

(٣) رفائيل بطي : الأدب العصري في العراق العربي ٥٩ و ٦٢ و ٦٤

الأقوياء بكل أرض قد تنادوا — الا يراعى للضعيف حقوق

أو :

يا حق قد دفنوك حيا في الثرى — يوم القضاء فما لديّ اصطبار

أو :

لقد صح ان الضعف ذل لأهله — وان على الأرض القوي المسيطر

وان اقتحام الهول اقصر مسلك — الى المجد الا أنه متوعر

وربما كان في طليعة الشعراء الذين آمنوا بجدوى القوة في قضايا الشعوب ودعوا اليها بحماسة ، شاعر المهجر ابو الفضل الوليد فهو لم يكن يرى سوى السيف منقذا للعرب من ظلم المستعمر وأنه لا يفل الحديد الا الحديد (١)

فنعم البطش بطش فيه ثأر — لحق او لعرض مستباح

ونعم الفتك بالظلام حتى — يزول الظلم ادراج الرياح

وما فل الحديد سوى حديد — فقد سخر القوي من النواح

= ٢ =

على أنه منذ حلت الفاجعة واحتل المستعمر ما احتل من اراضي العرب خلال الحرب الأولى ، أخذ موضوع الحق والقوة يحظى بمكانة مرموقة بين موضوعات الشعر القومي . ومع ان أكثر ما نظمه الشعراء في هذا الشأن جاء متفرقا خلال القصائد وبحسب استدعاء المناسبات فان عددا غير قليل منها كان يستقل به الشاعر في معالجته ويندرج في الغالب تحت عنوان " الحق والقوة او الحق للقوة او معترك الحياة " . وما الى ذلك على نحو ما نجده في قصيدة لمصطفى الغلاييني عنوانها " الحق والقوة " وقد كانت من أوائل الشعر الذي تصدى للاحتلال الفرنسي ومنها قوله (٢)

ألا قوة يعلو بها الحق — فقد طمت الويلات واتسع الخرق

وما الحق الا قوة الشعب ان يكن — اسيرا بأيدي الذل أعنته الرق

---

١)- الانفاس الملتهبة ٣٨ ٢)- الديوان ٦٦.

ستطلب هذا الحق بالسيف أمة لديها الردى والعيش سيان لافرق
سيطلبه منا شباب وشيب وبيض وسمران ومسنونة زرق

وكذلك نجد مثالا على هذا الاتجاه الذي كان يبرز باطراد في الشعر القومي لدى سائر الشعراء مثل خيري الهنداوي الذي يقول (١)

أطالب ان لم تطلب الحق بالقنا سيبقى برغم المجد وهو مضيع

والملاحظ ان الدعوة الى القوة في سبيل انتزاع الحق وحمايته التي أخذت تنمو بازدياد في ضمير الأمة اثر الاحتلال الأجنبي ، ظهرت اقوى ماتكون ابان الثورات القومية التي اندلعت متعاقبة في الشرق العربي . اذ استقر في نفوس العرب أن كل مطالبة بالحق منفصلة عن القوة عبث لاطائل منه . وبهذا المفهوم الصارم اتجه الشعراء ومعهم شعوبهم الى خوض معركة المصير . بل ان هذه الانتفاضات المتلاحقة في مصر والعراق وسوريا وفلسطين لم تكن في الواقع الا تطبيقا حيا لذلك المفهوم الذي أخذ به العرب في سبيل انتزاع حقوقهم السليبة من براثن الاستعمار .

وبهذا المنظار اخذ الشعراء ينظرون الى قضايا شعوبهم على نحو مانجده لدى شفيق جبري من ابيات نظمها اثر ثورة المصريين على الانكليز عام ١٩١٩ (٢)

عز النصير فليس ينصر في الشدائد والنوازل
الا الأسنة والصوارم والمدافع والقنابل
ابت الطبائع ان يقر الحق في جنب الأعازل

فالشاعر يرسم باقتضاب طريق الخلاص ولايرى منقذا سوى قوة السلاح لأن الحق لن يكون بجانب الأعازل . ونجد هذا الاتجاه أيضا في الفترة نفسها لدى محمد عبدالمطلب اذ يعبر

---

(١) رفائيل بطي : الأدب العصري في العراق ١٧٠
(٢) صبري الاشتر : المختار من الشعر في سوريا ٤

عن هذا التصميم على انتزاع حقوق المصريين بقوله (١)

ملوك الورى لن يترك النيل حقه ... ولو حزتونا بالمشقفة اللدن

ملوك الورى لن يترك النيل حقه ... ولو طحنوه بالمقذفة الدكن

أما قصيدة حافظ ابراهيم التي نظمها ابان ثورة مصر أيضا في مظاهرة النساء السلمية التي تصدى لها جيش الاحتلال وفرقها بالقوة ، فهي في الواقع سخرية مرة بانتصار الباطل المسلح على الحق الأعزل ومنها قوله (٢)

... واذا بجيش مقبل والخيل مطلقة الأعنة

واذا الجنود سيوفها قد صوبت لنحورهنه

واذا المدافع والبنادق والصوارم والأسنة

والخيل والفرسان قد ضربت نطاقا حولهنه

والورد والريحان في ذاك النهار سلاحهنه

فليهنأ الجيش المفخور بنصره وبكسرهنه

وقد دأب الشعراء في مصر على تصوير مأساة الحق في بلادهم على نحو ما فعل محمد الأسمر اثر المظاهرات التي لم تكن لتهدأ (٣)

ملاحم بالغداة وبالعشي ... رعاك الله من شعب أبي

مشى للحق أعزل غير صوت ... يردده كزمجرة الأتي

رماه الظالمون وما رماهم ... فويل للضعيف من القوي

ولم يختلف جوهر القضية في سوريا ابان ثورتها عام ١٩٢٥ عما كانت عليه مصر . فقد قصفت عاصمتها الجميلة بالمدافع وكان ذلك مثلا صارخا للصراع بين قوى الطغيان وحقوق الشعب السليبة . وتساءل كل انسان يومذاك عن مبادئ الغرب التي طالما تبجح بها على نحو قول محمد الشريقي : (٤)

اين الحضارة يحمي (الحق) قائدها ... واين حرية الانسان والذمم

واين (جمعية الأقوام) تنصفنا ... ومن الى عدله في الظلم نحتكم

---

(١) الديوان ص ... (٢) الديوان ٢ ـ ٨٧

(٣) " ٣١ (٤) ديوان الثورة ٤٠

لقد وصف محمد بهجت الأثري الصلاح من أرض الرافدين اذ قال يومئذ (١)

هو السيف فليسلل فأن بحده ليستنزل العالي ويمحق الشر

وما خلق الصمصام الا لجائر على الحق لايلويه نهي ولازجر

ومن طلب استقلاله بلسانه كمن طلب الحسناء ومافقده مهر .

وكذلك عبر محمد الفراتي عن ايمان السوريين بحقهم وعزمهم على انتزاعه من براثن المستعمرين برغم الحديد والنار فقال (٢)

سنطلب حقنا بالسيف نحمي به شرف المواسم أو نبيد

وقد ازداد الحاح الشعراء على موضوع الحق والقوة فيما نظموه من قصائد تجاه الأحداث التي كانت تضطرب بها اوطانهم من غير هوادة ومنها قضية فلسطين بصورة خاصة . وغدا الشعراء نتيجة هذه التجارب المريرة التي عانتها شعوبهم يؤمنون بفلسفة القوة التي استلزمتها ظروف حياتهم القومية . والواقع ان العرب اهدروا جهودا كبيرة في الاعتماد على التفاخر والأدعاء والتظاهرات والاحتجاجات حتى اعياهم الأمر وأيقنوا أن الدنيا لاتؤخذ الا غلابا . ومع أن الشعراء من ذوي العقول فأنهم كادوا يجمعون في تلك الظروف القاسية على ضرورة نبذ القول والأخذ بالعمل ولذلك وجدناهم يفقدون ثقتهم بكل المفاهيم الأخرى من منطق وتعقل ووعود ومواثيق وخطب واقوال ، وتظاهرات واحتجاجات . ويحسن بنا ان نستعرض شيئا من الأشعار حول ذلك عسى ان ترتسم لنا ملامح وجدان الأمة في ظل الاحتلال . يقول ابو المفضل الوليد (٣)

والله لا حرية الا التي كتبت بحد الجيش لا بالأسطر

ويقول علي الجندي (٤)

والحق ليس يفوز طالبه يوما بغير البيض والسمر

وكل عهد أو ميثاق باطل في رأي فؤاد الخطيب اذا لم يكفله الحسام (٥)

---

١)) ديوان الثورة ١٠٥ ٢)) الديوان ١٤٥

٣)) نفحات الصور ٤٣ ٤)) اغاريد السحر ٧١

٥)) الديوان ٥٤٥

اكتب عهودك بالحسام فانه خير اليراع مجردا مسلولا
ان الوثيقة لاتكون وثيقة الا اذا كان الحسام كفيلا

والمنطق ليس بمجد في نظر الشعراء وان كان سليما اذ ليس مايقرع اسماع الصهيونية والاستعمار سوى لغة الحديد والنار على نحو مايعتقد ابراهيم طوقان في قوله (١)

لاتلجأن اذا التمست لمنطق فهناك أضيع مايكون المنطق

وكما يراه أحمد محرم (٢)

هذا زمان ليس يفهم أهله الا حديث النار أو لغة الدم

وهيهات أن يجدي المنطق السليم مع مستعمر لايحترم الا منطق العنف وكما قال شفيق جبري (٣)

فان جادلت في دعواك فاجعل بعزمك لابمنطقك الدليلا
هم هابوا القوي وقدروه وما اعتبروا الضعيف او الكسولا

ويؤكد ذلك محمود غنيم بقوله (٤)

لاخير في حق يقال ومنطق عذب يحد السيف غير مؤيد

وطبيعي أن يحدث في نفوس الشعراء نتيجة هذا الاتجاه ، رد فعل تجاه جدوى الأقلام في هذا العالم المدجج بالسلاح ، حتى أن الأمر بلغ ببعضهم حدا جعله يهيب بالكتاب ورجال الفكر والشعراء والخطباء ان يكفوا عن ذلك العبث على نحو مانجد لدى محمد الأسمر في هذه الأبيات (٥)

فمن حمل الأقلام أصبح خاضعا ومن حمل الأسياف اصبح غالبا
ويبطش من هز العوالي صادقا ويبطش من هز اليراعة كاذبا

كما أنه يزري في قصيدة أخرى بالقلم ويشيد بالسيف قائلا (٦)

---

(١) الديوان ١٦٣

(٢) محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ٢ ـ ١٧٥ عن ديوان مخطوط للشاعر

(٣) صبري الأشتر : المختار من الشعر في سوريا ٢٤

(٤) صرخة في واد ١٠٥ (٥) الديوان ٢٣

(٦) الديوان ٢٤

الحق للأقوى فخض لجج الوغى	واضرب بقسطلها عزيز الهام
واذا الصوارم واليراع تناظرا	فرقت بين الحق والأوهام
اي البلاد قد استقل بصيحة	او نال بالاقلام أي مرام

ويعيد محمود الحبوبي الى أذهاننا مجد العرب ويرينا على هداه سبيل انقاذ فلسطين (١)

مجد العروبة ماشادته محبرة	ولا يراع ولكن مرهف و د م
فتلك اسطره الحمراء ترسمها	في مصحف الزمن الهندية الخذم
البيض أضمن للآمال من كلم	بها يصر يراع أو يفوه فم
فكل حق حماه السيف محترم	وكل حق عداه السيف مهتضم

والخطابة التي تدفقت من أفواه العرب في كل حين لم تعد تجدي نفعا في رأي مصطفى الغلاييني (٢)

لا يدفع الخطب ان ينزل بنا، خطب	ان الخطيب خطيب السيف لا القلم

ومثل ذلك كان الشعر عنده (٣)

لا يدفع الخطب قول الشعر تنشده	ان لم تجبك الظبى والخيل والأسل
قلنا كثيرا وشر القول أكذبه	لا يصدق القول حتى يصدق العمل

وهذا البيت يشير الى السأم الشديد تجاه استرسال العرب في مجال القول.

وكم كان يحز في النفوس لجوء العرب باستمرار الى الشكوى والتظاهر والاحتجاج حتى غدا كل ذلك اسلوبا مكرورا تعافه روح النضال المتحفزة . ويعد ابراهيم طوقان في طليعة من نددوا بهذا الأسلوب البالي في مقاومة الاحتلال اذ قال (٤)

وطن يباع ويشترى	وتصيح فليحي الوطن
لو كنت تبغي خيره	لبذلت من دمك الثمن

وهو يقول أيضا في اولئك الذين كان دأبهم الصراخ والجعجعة والهتاف (٥)

---

١)) = الديوان ٦٢ ٢)) = الديوان ١٢٢

٣)) = " ٩٢ ٤)) = " ٤٦

٥)) = "

انما عدة الضعيف (احتجاج) لم يجاوز حد السطور احتدامه
مغرم بالبلاد صب ولكن بسوى القول لا يفيض غرامه
بطل ان علا المنابر كرار — سريع عند الفعال انهزامه

ويؤيد هذا القول شاعر عراقي هو علي الصغير اذ يقول في قصيدته " المدفع والحسام " التي نظمها بصدد فلسطين أيضا اذ يقول (١)

وأجل من برقية ورسالة منا لحفظك مدفع وحسام

كما يستنكر أبوريشة سذاجة كثير من العرب الذين لا يعرفون سوى الشكوى وسيلة في مخاطبة المستعمر (٢)

ليس تجدي شكوى الضعيف فتيلا ومتى رق للضعيف الجائر

وتبعا لهذا الاتجاه الثائر على مظاهر الضعف واللين انهارت أيضا ثقة العرب بالقوانين الدولية والتشريعات الانسانية ، كما تكشف لهم عبث الأقوياء بالتعاليم السماوية نفسها وتسخيرها في سبيل مآربهم . وقد تجلت هذه الأفكار في ادبنا الحديث شعره ونثره ، وأيقن حملة القلم أن مبدأ القوة الذي كان دعامة سياسة الغرب قد قلب المفاهيم الانسانية السامية وان القول الفصل في هذا العالم أصبح لقانون القوة وشريعة الغاب فلا عدل ولا شرع ولا رحمة ولا سلام . وعلى ذلك وجدنا بدوي الجبل يقول (٣)

وأرى القوى يطاع غير مخالف ويخالف القرآن والانجيل
الشرع ماسن القوى بسيفه فلسيفه التحريم والتحليل
ان قال صدقه الزمان ، فقوله وحي ، وزور حديثه تنزيل

أما السلام في الأرض أمل الشعوب فقد محقته في نظر الشاعر قوى الشر واغتالته أيدي الطامعين الآثمة (٤)

لا تظنوا السلام في الأرض حيا . طمع الأقوياء غال السلاما

---

١)) = الفلسطينيات ٤٤ ٢)) = الديوان ٢١٧
٣)) = الديوان ٧١ ٤)) = " ١٥٩

وكما افتقد (ديو جنس) الحقيقة من قبل في عالمه افتقد الفراتي العدالة في ظل المستعمرين : (١)

يقولون ان العدل في الأرض شائع … وجدك ما للعدل في الأرض مجثم

وما العدل الا حيث يرعد مدفع … ويشهر بتار ويشرع لهذم

وتساءل أيضا ابراهيم طوقان عن وجود الرحمة في قلوب الأعداء فقال (٢)

نبئوني عن القوى متى كان رحيما هيهات من عز تاها

لا يلين القوى حتى يلاقي … مثله عزة وبطشا وجاها

ويمكن ان نرى في قصيدة محمد مهدى الجواهرى التي نظمها قبيل الحرب الأخيرة ذروة السخط تجاه مسلك العرب نحو " فلسطين الدامية " حين كانوا يكتفون من مناصرتها بالخطب والقصائد والتظاهرات والاحتجاجات والعرائض والهتافات فهو يقول : (٣)

أكلما عصفت بالشعب عاصفة … هوجاء تستصرخ القرطاس والقلما

ما سرني ومضاء السيف يعوزني … اني ملكت لسانا نافثا ضرما

يا أمة لخصوم ضدها احتكمت … كيف ارتضيت خصيما ظالما حكما

بالمدفع استشهدي ان كنت ناطقة … أورمت ان تسمعي من يشتكي الصمما

لا تطلبي من يد الجبار مرحمة … ضعي على هامة جبارة قدما

اقسمت بالقوة المعتز جانبها … ولست اعظم منها واجدا قسما

ان التسامح في الاسلام ماحصدت … منه العروبة الا الشوك والألما

اعطت يدا لغريب بات يقطعها … وكان يلثمها لو أنه لطما

فالشاعر في هذه الأبيات جميعا يتبنى مبدأ القوة ويدعو اليه بحرارة ويرى فيه السبيل الوحيد لانتزاع حقوق الشعوب وصون استقلالها . وما هذه القصيدة وما سبقها من مقطوعات سوى صرخات اطلقتها الجراح البالغة في الوطن المنكوب بالاستعمار . وكانت قضية الديار المقدسة في فلسطين اكبر اختبار لمبادىء الغرب الزائفة ومدنيته المزعومة .

---

(١)= الديوان ١٠٦ (٢)= الديوان ٥٦

(٣)= الفلسطينيات

والواقع ان هذا الاتجاه الحاد لدى الشعراء في دعوتهم الدائبة الى اعتناق مبدأ القوة وطرح اساليب اللين لم يكن في جوهره سوى رد فعل شديد تجاه اساليب المستعمر القاهرة وقوته الغاشمة . ومن هنا كان العرب يتحرقون شوقا الى اليوم الذى تكتحل فيه عيونهم بمرأى جيش قومي ينبثق عنهم ليصون كرامتهم ويحمي حريتهم . وهذا شفيق جبرى يعبر عن هذه الأمنية الحبيسة في وجدان الشعوب العربية حين قامت مصر بثورتها عام ١٩١٩ تبغى اجلاء المستعمرين عن أرضها فيقول (١)

لو أن في ظل المقطم جحفلا يحمي المنازل

لجلا الأعاجم عن ضفاف النيل من هول الزلازل

أبت الطبائع أن يقر الحق في جنب الأعازل

والحق معقود باطراف اللهاذم والمناصل

كما يعبر محمد الأسمر عن هذه الرغبة العارمة في نفوس المصريين في قوله : (٢)

أقسمت مارن البلاد طليقة	شيء كجيش للبلاد لهام
لو أن للآرام نابا اصبحت	وكناسها أجم من الآجام

ولم يكن بوسع الشعراء أن يعقدوا قوافيهم بصراحة في اعرابهم عن هذه الأمنية العزيزة في ظل الحكم الأجنبي ، ولذلك كانوا يلجؤون الى التنفيس عما يجيش في نفوسهم بعبارات غير مباشرة على نحو قول عمر أبي ريشة (٣)

يصفع الذئب جبهة الليث صفعا ان تلاشت أنيابه والأظافر

فما الأنياب والأظافر سوى السلاح والجيش وما الليث والذئب الا العرب والمحتلون . .

وليست قصيدة أنور العطار " جيش اسامة " (٤) سوى صيحة دفينة ورغبة عارمة في ان يكون للعرب جيش قوى كذلك الجيش

---

١))= صبرى الأشتر : المختار ٤ ٢))= الديوان ٢٤

٣))= ديوانه الأول ٢١٧ ٤))= فى ظلال الأيام : وانظر البحث ١٦٩

الذي كان لأجدادهم من قبل حين سجل الصفحة الأولى في مجد العرب . والشاعر نفسه يمهد لقصيدته تلك بكلمة ينعت فيها ذلك الجيش بأنه " أول جيش الف في الاسلام ضمن له البقاء والخلود في الأرض ودعم الفكرة بالقوة "(١). ان دعم الفكرة بالقوة على حد قول الشاعر هو في الحقيقة بيت القصيد أملاه عليه حاضر العرب وواقعهم قبل أن يمليه تاريخهم وغابرهم . ومابكاؤه تلك الأيام ولهفته الشديدة عليها وحنينه الطاغي الى أمجاد فجر الاسلام سوى تعبير عن نزوع حاد في نفسه ونفوس أمته الى امتلاك مثل ذلك الجيش ودخول التاريخ من اوسع أبوابه مرة أخرى .

– ٣ –

ولكن هل استسلم الشعراء في تعبيرهم عن وجدان مجتمعهم الى اليأس والتشاؤم بسبب شدة وطأة القوة القاهرة تجاه وطنهم وحرمانهم من وسائلها ، وهل نفضوا أيديهم من انتصار الحق الأعزل على القوة الغاشمة . ان استقراء الشعر القومي المعاصر يسمح لنا بأن نقول ان فترات اليأس والقنوط كانت عارضة على حياة العرب منذ ان وطئت اقدام المحتلين بلادهم . ومما يؤكد ذلك كثرة الثورات التي كانوا يقومون بها ضد الاستعمار من حين الى آخر . والشعراء كانوا يمثلون بالأجمال هذا الجانب المشرق من آمال أمتهم ويعبرون عن تفاؤلها وثقتها بالمستقبل وعلى هذا النحو يقول الزهاوي في احدى رباعياته (٢)

لاتسكت الحق نار ... للقارعات تصوت
يموت للحق خلق ... والحق ليس يموت

كما يعبر علي منصور عن هذا الايمان في قوله يخاطب فرنسا اثر تنكيلها بدمشق فيقول (٣)

---

١))= في ظلال الأيام ١٠٠ ٢))= الرباعيات ١٠٩
٣))= ديوان الثورة ٤٨

ضمي لظلمك حدا　　　فقد تزايد جدا
ولا يغرنك جند　　　فالحق اكثر جندا

وقد وفق محمد عبد المطلب في تصوير ايمانه بقدرة الشعوب واستخلاص حريتها مهما تحل قوى الشر دون تحقيق امانيها اذ قال (١)

يامنذر الدنيا بقوته　　　ان الزمان بأهله انقلبا
صحت الشعوب فلن ترى عجما　　　ترضى الهوان ولن ترى عربا
والقوة الهوجاء يمحقها　　　حق قضى في أهله الغلبا
ان الزمان بأهله دول　　　حق يجيء وباطل ذهبا

وفي ابان الحرب العالمية الثانية يخاطب علي محمود طه الشرق الوادع هضيم الحق ويشير الى اولئك الذين دانوا بفلسفة الحديد والنار فكانوا لها حطبا : (٢)

يا أبا الحكمة لاهان عليك الضعفاء
ناد اوربا فقد ينفعها منك النداء
دنت بالقوة حتى صرعتك الكبرياء
ارقصي في النار انت اليوم للنار غذاء
واشربي في حانة الشيطان مافاز الأنساء
حانة للموت فيها من دم القتلى انتشاء

ففي الأبيات تشف من دعاة القوة وأنصار العنف . وكأن الشاعر يرى فيما أصاب الغرب من دمار وشقاء اندحارا لفلسفته المنحرفة التي أخذ بها الشعوب الآمنة وسامها العذاب .

ولم تكن دعوة الشعراء العرب الى القوة غاية في ذاتها وانما وجدوا فيها وسيلة فعالة حاسمة ، لأحقاق الحق . ونتيجة لاهتمام الجيل العربي بين الحربين العالميتين بأمر العلاقة بين الحق والقوة كان ثمة جدال يحتدم بينهم على صعيد نظري من حين الى آخر حول مفهوم الحق للحق أو الحق للقوة من مظاهره خطب ومقالات وقصائد كانت تعقد في هذا الشأن . ونحن نجد

---

١)= الديوان ٥　　　٢)= زهر وخمر ٨٣

ظلا لهذه الآراء في قصيدة لحليم دموس معروضة بأسلوب قصصي يحكي قصة بلبل ينقض عليه أجدل وسفينة يبتلعها موج وقطيع يسبطش به ليث ، وبلدة آمنة يذله جيش عات الى ان يقول مختتما قصيدته المطولة : (١)

ما النسر الا قوة خاطفة	ما البحر الا قوة ثائرة
ما الجيش الا قوة زاحفة	ما الليث الا قوة زائرة
تصيح والأشلاء من حولها	الحق للقوة ياسيدى
فكن قويا في صفوف الورى	فالعجز شأن الخامل المهمل
كن ثائرا كن مرعدا مبرقا	لكن مع الحق أياسيدى
فعندها يغرد البلبل	ويلثم الموج خدود الرمال
ويرجع السيف الى غمده	ويحرس الليث كناس الغزال
وتهتف الدنيا وسكانها	الحق للحق أياسيدى

فالشاعر الذى بهرته مظاهر القوة والجبروت في الطبيعة والتي تعرب عن ان الحق للقوة يجنح الى ان يتسلح الانسان بسلاح الطبيعة ، ولكنه يشترط ان يكون ذلك في خدمة الحق ووسيلة لصونه واعزاز شأنه . وهذا الاتجاه السليم الذى صدر عنه الشعراء العرب بصورة عامة في فهمهم هذه العلاقة بين الحق والقوة هو الذى قاد الشاعر حليم الى المنى التي تداعب آمال البشرية المعذبة التي تتطلع الى اليوم الذى يرجع فيه السيف الى غمده ويحرس الليث كناس الغزال ويهتف الجميع الحق للحق وعندها ينعمون بحياة ترفرف عليها اعلام السعادة والحرية والسلام .

– ٤ –

ومن الملاحظ أخيرا من خلال ما سبق من الشواهد الشعرية ان موضوع الحق والقوة حظى باهتمام الجيل العربي في ظل الحكم الأجنبي تبعا لمظاهر القوة الهائلة التي امتلكها الغرب وسخرها

---

(١) المثالث والمثاني ١٤٧

في تغيير مجرى الحياة الاجتماعية والسياسية في العالم وكان طبيعيا ان تبدو آثار ذلك في حياة العرب القومية التي كانت عرضة لهزات الاستعمار ، بل ضحية لسياسة القوة .. ولما كان الشعر وبخاصة ما ينزع منه نزعة قومية اجتماعية وثيق الصلة بالحياة فقد انعكس فيه ضمير الأمة ووجدانها وملامح آرائها واتجاهاتها على النحو الذى مر بنا في هذا الفصل .

وقد افتن الشعراء فيما نظموه من قصائد وموضوعات حول هذا الموضوع في تصوير الحق والقوة ومظاهرهما ، وحرصوا في الغالب على تجسيد القوة في مظهر ماديات كالمدفع والحسام والدم والنار والحديد والنسر والأجدل والذئب والجزار والليث والريح والموج كما رمزوا للحق بألفاظ تنم عن الوداعة والرقة والسلم من مثل القلم والقرطاس والفكر والمنطق والرأى والشعر والبلبل والظبي والحمل .

أما العلاقة بين الحق والقوة في الشعر المعاصر فقد تجلت على أنها علاقة تقابل وتلازم معا وأنه لاحياة لحق لاتحميه قوة .

ونحن واجدون لهذا الموضوع الذى انبثق من صميم حياة العرب القومية في النصف الأول من القرن العشرين جذورا في حياة المجتمعات العربية السالفة منذ عهد الجاهليين تجلت في آيات القرآن الكريم وفي الشعر الحماسي بشكل خاص . كما نجد الى جانب ذلك اصداء للنظريات والأفكار الحديثة الوافدة التي صدرت عن نيتشه وشوبنهاور وداروين وسرت الى أذهان المثقفين والشعراء في الشرق العربي على نحو ما سيتضح في فصل خاص .

×× ⁑ ××

تلك هي فصول متعددة حاولنا من خلالها استجلاء الموضوعات الرئيسية التي كانت مدار معالجة الشعر القومي بصورة عامة ·
ولاريب أن ثمة موضوعات أخرى كانت موضع اهتمام الشعراء ، يمكن أن تندرج في هذا الباب وتتناول بالبحث والتحليل ، الا أنها قد تكون فرعية وجزئية تنحصر في نطاق ضيق ولاتسمح برصد الاتجاه العام ، وجلاء التيار السائد ·

لقد حمل الشعر العربي المعاصر رسالته بدأب حين لبى حاجات المجتمع العربي ورغائبه ، وعبر عن اهتماماته ونوازعه ، فكان الصوت المدوي في وجه الغزاة المستعمرين والشوكة الواخزة في جنب الطغاة المستبدين · كما كان الحافز الفعال على النهوض والثورة والتحرر ، وخير بشير بالأخاء والتسامح وداعية الى الاتحاد والتضامن · وهو الى ذلك سفر آيات البطولة والفداء الرائعة خلدها للأجيال · ومرآة صادقة لنضال العرب الذين اتخذوا من مبدأ القوة درعا واقية للحق السليب الذي آمنوا به ولم يحيدوا قيد شعرة عنه ·

الباب الرابع

نقد وتقويم

الفصـــل الاول

بيـن الفـن والسياسـة

- ١ -

. مهما يجهد بعض النقاد في قصر الفن على الجمال وحده وتجريده من الاهداف الخلقية والاجتماعية والسياسية ، وفصله عن جميع القيم الخارجة عنه في الحياة ، فان الذى لاشك فيه أن الاثر الفني يصدر عن فنان هو في الحقيقة انسان يعيش في مجتمع ويصدر عنه فيما ينتج ، مستعملا لغته ومعتمدا على وسائله في العيش وهو بالتالي يخاطب الناس ويؤلف لهم ما يكتب ويعبر عما يجيش في صدره وصدورهم .

ولقد كانت الاحداث الجسام التى مرت بالعالم العربى من القوة بحيث لم يعد بوسع الاديب أن يكون بمعزل عنها . " وقد لاحظ نقاد الادب أن الادباء يولدون بعد الثورات وان اضخم الانتاج الادبى يتكون بعد الانقلابات السياسية والاجتماعية "[١]. ويرى ديدرون Didron " ان عناصر الخطوب والشقاء التى تنزل بالمجتمع وتسبب اضطرابه من العوامل التى تخلق في اعقابها الادباء لأن الذين يعانونها أشد شعورا بها من سواهم . فهم ينسحبون بعد ذلك الى تصويرها ورسم خطوطها .. والاحداث تجمع المشاعر والعواطف في الصدور والادباء هم الذين يعبرون عنها لينفسوا عن النفوس عناءها "[٢].

والواقع أن التطورات العميقة في الحياة الادبية رهينة بالتطورات السياسية والاجتماعية البعيدة المدى . فالادب عامل فعال يسهم في خلق هذه التطورات ويتأثر بها في آن .

وهكذا غدا للسياسة شأن في مضمون العمل الادبى . ومن نافلة القول ان يكون الفن شيئا غير السياسة ، وغير الاخلاق ، وغير العلم ، وان كان يتأثر بها ويتفاعل معها ، اذ لكل من هذه الامور غاية محددة كما أن

---

(١) ابراهيم سلامة : تيارات أدبية بين الشرق والغرب ٣٠٠
(٢) المرجع السابق ٣٠٠

للفن غاية هي التأثير والايحاء • والشعر القومي ليس في جوهره سوى أفكار وآراء لفحتها حرارة العاطفة بحيث يغدو معها الذهن منفعلا • لأن الافكار من حيث هي نتاج العقل المجرد قد تكون أدخل في مجال الفلسفة أو السياسة أو الاجتماع ، ولكنها لا تعد في نطاق الأدب الا اذا غدت انفعالات ذهنية •

ولكن ما حدث في الشعر القومي المعاصر ان العلاقة بين الفن والسياسة لم تكن تفهم دائما على هذا الوجه • ولم يلبث بعض الشعراء ان وجدوا انفسهم في غمرة المعترك السياسي ينافحون عن فئة ويسفهون أخرى ، أو يسبحون بحمد حاكم ويكفرون بآخر • وكان من جراء هذا الأمر أن فقدت هذه القصائد القومية مقوماتها الفنية وتبددت أصالتها وحرارتها في هذا الخضم ، ونجم عن ذلك شعر سياسي كثير قيل معظمه في مديح ذوي الجاه والسلطان وما يستتبع ذلك من قول في المناسبات الكثيرة العابرة •

ومخطيء من يظن أن التيار القومي في الشعر المعاصر تدفق من قرائح الشعراء كالماء الزلال خالصا من الاقذاء والأكدار • اذ لكل أمر آفة ، ونحن لا نقدم على دراسة هذه الاقذاء والأكدار على قلتها الا لأنها جانب واقع في تراثنا الأدبي الحديث لايمكن تجاهله ، بل لابد من اظهاره ورصده كيما يكون التجرد العلمي لا العاطفة وحدها رائدا للابحاث القومية • ومن جهة أخرى لايمكن فهم طبيعة الشعر القومي والوقوف على حقيقة اتجاهه الا بعد التعرف على مختلف نوازعه وألوانه وآفاته ، " وبضدها تتميز الأشياء • "

ونحن نجد في الشعر السياسي وشعر البلاط وفي القصائد التي كانت تساند الاستبداد وتشايع الاستعمار مظاهر متفاوتة الخطورة في مضمار الفن الذي نربأ به أن يكون اداة تهديم للمجتمع وعامل أذى للأمة ، أو يكون وسيلة لتوطيد سلطان حاكم ، ومجلبة لنفع أو تحقيقا لمأرب •

والشعر في جوهره تعبير عن الشعور ، والشعر القومي تعبير عن وجدان الأمة من خلال نفسية الشاعر • فاذا ما حاد الشاعر عن هذه الحقيقة ونأى بشعره عن محور وجدان قومه ليدور في فلك فرد أو زمرة من الناس انقلب بوقا لأولي الأمر والسلطان يؤثر العيش في كنفهم كالهر الأليف الذي يترقب فتات الموائد •

- ٢ -

ان شر ما اعترى الاتجاه القومي في الشعر المعاصر من اعراض المرض والانحراف وجود قصائد معينة فيه قد تكون قليلة اذا قيست ببعض النتاج الشعري الحديث الا أنها تبدو كالبقعة السوداء في آثارنا الأدبية المشرقة . تلك هي الاشعار التي كانت تمكن للاحتلال بدلا من أن تثور عليه ، وتداري زبانيته بدلا من أن تندد بهم.

ولسنا بصدد ما قيل من شعر كهذا قبل الحرب العالمية الأولى من نحو ما نجده في مصر لدى أحمد نسيم من تمجيد للورد كرومر أو لدى ولي الدين يكن من مشايعة للانكليز أو لدى بعض شعراء لبنان والمهجر من لهفة على الفرنسيين وعلى الحلفاء بصورة عامة ..

فعندما فرض الانكليز حمايتهم على مصر اثر اعلان الحرب الأولى اصبحت البلاد في قبضتهم وبخاصة بعدما اعلنوا الادارة العرفية ، وكان أول ما فعلوه انهم خلعوا عباسا ونصبوا مكانه السلطان حسين كامل . وقد اعتبر ذلك تحديا لمشاعر الأمة واستهتارا بكرامتها . وهنا نجد حافظ ابراهيم يتطوع لنصح السلطان الجديد بموالاة الانكليز والاخلاص لهم ويقول [(١)]

ووال القوم انهم كرام	ميامين النقيبة اين حلوا
وليس كقومهم في الغرب قوم	من الأخلاق قد نهلوا وعلوا
فان صادقتهم صدقوك ودا	وليس لهم اذا فتشت مثل
فمادهم حبال الود وانهض	بنا فقيادنا للخير سهل

وحين قصد الى أرض الكنانة أرثر مكماهون أول مندوب لبريطانيا في ظل الحماية أثناء تلك الحرب استقبله حافظ أيضا بقصيدة كال فيها الثناء للانكليز من غير حساب اذ قال [(٢)]

انتم اطباء الشعوب وانبل الأقوام غاية

انى حللتم في البلاد لكم من الاصلاح آية

وعدلتم فملكتم الدنيا وفي العدل الكفاية

ان تنصروا المستضعفين فنحن اضعفهم نكاية

---

(١) الديوان ١ : ٦٧
(٢) الديوان ٢ : ٨٢

هذا عدا قصائده في ادوار السابع وفي كرومر قبل ذلك الحين . وهذه المواقف التي وقفها حافظ من الذين احتلوا بلاده وأذلوا قومه أقل ما يقال فيها انها استخذاء واستكانة تأباهما النفس الحرة . وليته التزم الصمت ولم يصم نفسه وبلده بهذا الهذر ، وبخاصة اذا عرفنا أنه لم يكن هناك ما يشير الى اضطراره الى مثل ذلك القول بل على العكس انه شمر له متطوعا عن طيب خاطر .

" لقد كان مداريا مواربا لا يثبت على رأي صريح واضح في مواقفه السياسية ازاء الانكليز فهو تارة يلين معهم ويجاملهم ، ويتصنع راجيا حسن المراجعة كما يكون التعتب بين الأصدقاء ، وهو تارة أخرى ينظر اليهم نظرة الضعيف الى القوي يبهره سلطانهم حتى يكاد يهنئهم بذلك السلطان وتهوله قوتهم حتى يكاد يرى الخضوع لهذه القوة فرضا واجب الأداء"(١)

ولم ينج أحمد شوقي من هذه الوصمة في عدد من قصائده ومنها (اللـه والعلـم) ، ثم انزلق الى ممالأة الانكليز في مستهل تلك الحرب أيضا على نحو ما فعل حافظ وراح يقول:

حلفاؤنا الأحرار الا انهم   ارقى الشعوب عواطفا وميولا

وبرغم ما يحاوله بعض الباحثين من تبرير لهذا المسلك لدى شوقي(٢) ، فاننا نربأ بأمير الشعراء أن يكون مثل هذا القول منسوبا اليه ، وان ينجرف في تيار السياسة الرسمية الى حد يلغي فيه شخصيته . وفي قصيدة (شكسبير) التي نظمها عام ١٩١٦ اعجاب لا حد له بقوة الانكليز وأخلاقهم وسعة ملكهم . وقد زعم فيها انهم كانوا يمحضون الود للمسلمين وخليفتهم . " واذا كان من حق شوقي الشاعر أن يشيد بعظمة شكسبير الشاعر لأن الشعر والفن والعلم لا تعرف الحدود والفواصل والعداوات الدائرة بين الناس ، فانه قد زل بأن قدم لقصيدته بمقدمة ما كان اغناه عنها .. لقد نظم هذه القصائد والاحتلال جاثم على الصدور وكان من واجبه ألا يصور خصوم بلاده بهذا التصوير الذي ضخمه الخيال والمبالغة .. لأن في اشادته بهم اغراء بالخضوع لهم وتهوينا من حدة العزائم في نضالهم(٣) "

---

(١) أحمد الطاهر : حافظ ابراهيم ٤٢
(٢) انظر مثلا احمد محمد الحوفي : وطنية شوقي ١٥٩
(٣) أحمد محمد الحوفي : وطنية شوقي ١٥٩

أما في العراق فان ما صدر عن جميل صدقي الزهاوي كان أبعد من ذلك فقد والى الانكليز منذ اللحظة الأولى . وهو الذي رأيناه بعد ذلك يتبجح برفضه قبول وظيفة شاعر في بلاط فيصل بن الحسين لأن ذلك يجعل منه - كما زعم - أجيرا في سبيل حبات تلقى اليه (٢) في حين أنه هو نفسه الذي يقول بصراحة لا يحسد عليها (٣) :

أحب الانكليز واصطفيهم	لمرضي الاخاء من الانسام
جلوا في الملك ظلمة كل ظلم	بعدل ضاء كالبدر التمام
تبصر ايها العربي واتسرك	ولاء البعض من قوم لئام
وأول الانكليز رجال عدل	وصدق في الفعال وفي الكلام

حتى انه " استقبل المعتمد البريطاني (برسي كوكس) الذي وصل الى ربوع العراق في اعقاب خمود ثورتها اللاهبة بهذه الأبيات (٤) " :

عد للعراق واصلح منه مافسدا	وابثث به العدل وامنح اهله الرغدا
الشعب فيك عليك اليوم معتمد	فيما يكون كما قد كان معتمدا

ولسنا نود الحديث عن ركاكة هذه الأبيات وتدني أسلوبها ، ولكننا نشير الى أن الشاعر الكبير تطوع بمثل هذا الهراء عن طيب خاطر أيضا ليعلن أن انتفاضة العراق الكبرى يومذاك عاثت في الأرض فسادا وأن أحد زبانية الاحتلال وحده القادر على تثبيت دعائم العدل واعادة الأمور الى نصابها . وقد اتسع عليه الخرق حين زعم أن الشعب - ذلك الشعب نفسه الذي ثار وقمعت ثورته - انما يعتمد ،لاعلى الله في تفريج هذه الكربة أو على نفسه على الأقل وانما على المعتمد البريطاني .

وليس بمستغرب بعد ذلك أن تختفي هذه الأبيات وأمثالها من دواوين الشاعر ، وأن يزور عنه العراقيون لانحيازه الى اعدائهم في ابان محنتهم . وكان أن تجرع من جراء ذلك غصص تأنيب الضمير برغم مواقفه المحمودة الكثيرة ضد الاستبداد التركي من قبل ذلك والاحتلال الأجنبي بعده .

---

(١) انظر الكلم المنظوم ١٤
(٢) انظر مقدمة الرباعيات
(٣) الابيات مستمدة من كتاب شخصيات عراقية لخير الدين العمري ٧٢
(٤) المرجع السابق ٧٤

ومن جهة أخرى نقف على زلة لمعروف الرصافي وهو المئيد في مناضلة المحتلين والطغاة ، في قصيدة يشيد فيها بالانكليز والصهيونيين عنوانها (هربرت صموئيل) ومنها قوله[1] :

ولسنا كما قال الأُلى يتهموننا	نعادي بني اسرائيل في السر والجهر
وكيف وهم اعمامنا واليهم	يمت باسماعيل قدما بنو فهر
واني أرى العربي للعرب ينتمي	قريبا من العبري ينمى الى العبر
هما من ذوي القربى وفي لغتيهما	دليل على صدق القرابة في النجر

وما من ريب في أن هذه الأبيات تبدو خطيرة بمنظار الناقد العربي اليوم بعد أن اسفرت الصهيونية عن وجهها البغيض وكشرت عن انيابها العصل ، الا أنها قد لا تعتبر كذلك قبل نحو أربعين عاما حين كان العرب لا يأبون العيش بسلام مع اليهود باعتبارهم طائفة دينية شأنها في ذلك شأن الطوائف الأخرى . والقصيدة تنم عن رغبة سلمية صادقة في نفوس العرب في معايشة سائر الملل ، والشاعر لا يعدو فيها بعض الأفكار العلمية المعروفة في فقه اللغة والدراسات اللغوية المقارنة .. وقد تنم من جهة أخرى عن منزع الشاعر الانساني في نظرته الى الحياة . ومهما يكن من أمر فقد خدع الرصافي - كما خدع ساسة العرب وشعوبهم - بوعود معسولة لقائد بريطاني وبمحاضرة ألقاها أحد اليهود وأفعمها بمديح العرب والاشادة بدورهم في بناء الحضارة القديمة .

ومما هو جدير بالملاحظة ان ارتباط الشاعر بالبلاط أو القصر كان يقتضيه الدفاع عن سياسته بحق وبدون حق . ولما كان عدد غير قليل من حكام العرب في عهود الاحتلال متواطئين مع الاستعمار يربطون مصيرهم بمصيره آل الأمر بهذه الزمرة المرتزقة من الشعراء الى تأييد المستعمرين أنفسهم . وخير دليل على ذلك مساندة الشاعرين حسن حيدر وجميل الكاظمي للأسرة الهاشمية في العراق ، اذ أن استنكار الكاظمي انتفاضة العراقيين عام ١٩٤١ ونعته اياها بالفتنة العمياء واعتباره قادتها خائنين مجرمين خساسا وزعيمها كلبا أجرد .. الخ كل ذلك قد جره الى أن يدافع بجرأة لا يغبطه أحد

---

(١) الديوان ٤٣١

عليها عن المعاهدة الجائرة وبالتالي الى الاشادة بالانكليز انفسهم والتنديد بمن ثاروا ضدهم وعكروا صفو الصداقة البريطانية العراقية التي لم تكن الا صداقة الذئب للحمل كقوله (١) :

وخانوا حلف من عزت لديه صداقة موطن بالحلف يسعد
وما قد كان ذاك سوى اتفاق عليه مصالح الطرفين تعقد

وهو في قصيدة أخرى يشيد بقلب الاستعمار الممتلئ رحمة لانه لا يهوى البطش والتنكيل (٢) :

(وحليف الود) في ميثاقه صادق الفصل ولا يهوى النكالا

بل بلغ الأمر بهذا الشاعر حدا جعله يتغزل بالنظام الاستعماري اذ يخاطب السفير البريطاني برقة المدله المفتون قائلا (٣) :

أيهذا السفير انك أدري ببلادي ومالها من غرام
بنظام الأحرار يوم استقامت تطلب العز بعد طول المقام

كل هذا وسواه نظمه الشاعر وأودعه ديوانه الذي شاء أن يسميه (آيات الحق والاخلاص).

ونحن نجد ما يماثل هذه الظواهر في الشعر القومي لدى بعض شعراء الشام الذين سلكوا بشعرهم أيضا هذا المسلك الوعر من ذلك قول ايليا أبي ماضي مادحا الجنرال (اللنبي) الذي فتح القدس في أواخر الحرب الأولى (٤)

(ألانبي) لو طبعنا الشمس يوما وقلدناكها سيفا صفيحا
ورصعناه بالشهب الدراري لما زدناك فخرا أو مديحا
لانك اشجع الأبطال طرا وأعظم قادة الدنيا فتوحا
فان يكن المسيح فدى البرايا فانك انت انقذت المسيحا

لاشك أن هذه الأبيات تبعث على الابتسام . ومع أنها قد لا تبدو كذلك قبل أربعين عاما حين كان الانكليز حلفاء للعرب واللنبي قائدا عاما لهم،

---

(١) آيات الحق والاخلاص ١٠٠
(٢) المصدر السابق ٨٠
(٣) المصدر السابق ١١٢
(٤) زهير ميرزا : ايليا أبو ماضي شاعر المهجر الأكبر ٣٤١

وانتصاره يعتبر انتصارا لثورتهم ، الا أن المبالغة فى تمجيد ذلك القائد الأجنبى على هذا النحو دليل على قصر نظر الشاعر وما كان أغناه عنه ٠

على أن أصواتا ناشزة انطلقت فى سوريا ولبنان وكانت تعبر عن انحراف جلى فى الشعور القومى ، من ذلك ما نجده فى ديوان اليان فياض فى قصيدته " ١٤ تموز " عيد الحرية فى فرنسا ويوم تحطيم الباستيل،(١) فالشاعر ينزلق الى الاشادة بتلك الدولة المستعمرة ويطرى مبادئها السامية ، ثم يمدح زوج الجنرال (ويغان) المندوب السامى ويكبر فيهما خصال الديمقراطية والتواضع لأنها نزلت الى السوق تشترى منه بعض ما تحتاج اليه ، وكأنه يفترض فى قرارة نفسه أنها فى مكان اسمى من قومه ٠ وهذه نظرة خطيرة كان يأخذ بها بعض العرب تجاه المستعمرين بعد أن أعماهم التعصب الدينى وأخزاهم الشعور بالنقص فافتتنوا بالمحتلين وانبهروا بمظاهر مدنيتهم الزائفة ، وحقيقة الأمر أن فرنسا استطاعت بفضل دعايتها الدائبة فى الشام وبخاصة فى الساحل وجبل لبنان ، أن تنفذ الى قلوب بعض المسيحيين العرب مستغلة جور الترك وتصرفاتهم الطائشة ضدهم ، وحاولت أن تبدو أمامهم بمظهر المنقذ ٠ وكان تاريخ ثورتها المجيدة الذى وعاه المثقفون فى مقدمة العوامل التى مهدت لها الطريق الى الشرق ٠ حتى أن فئات من موارنة لبنان لم يحجموا عن طلب انتدابها على بلدهم ٠ وفى ذلك يقول المهجرى محبوب الخورى الشرتونى اثر احتلال فرنسا ساحل الشام:(٢)

بزغت فرنسة فى المشارق فافتحوا	ابصاركم لأشعة العمران
" الديك " صاح بكم يبشر بالضحى	والنور مزدحم على الأجفان

حتى أنه يعلن ثقته العمياء بهذه الدولة الغازية ويشيد بوصايتها على بلاده ٠ وليته اكتفى بذلك ولم يستنكر على السوريين وعلى ملكهم فيصل أن يعملوا لاقامة دولة عربية وان يحوقوا جيوش فرنسة الزاحفة الى دمشق :

صبرا دمشق هو الخريف وفى غد	يرد الربيع وتبسم الأكمام
ان (الوصاية) حين اهلك فى دجى	شمس تضىء بنورها الأفهام
ما للأمير يهز عندك سيفه	السيف لو علم الأمير كهام

---

(١) انظر القصيدة فى ديوانه ٨٢

(٢) الديوان ٧٨ ، ويريد بالديك فرنسة وهو شعارها

صافح فرنسة يبق عرشك راسخا	لا جور فى يدها ولا ارغام
الأمن حول ظبى فرنسة لا الردى	والحمد حول صفاتها لا الذام
ما أن تفوز بدولة عربية	لا الصلم يدعمها ولا الصمصام

فقد خمدت فى هذه الأبيات روح النضال ، ولم يجد صاحبها الا الاحتلال منقذا ومحررا .

ولا يبعد أن يكون الشاعر نفسه فى ابياته هذه ـ وقد عرف بمواقف قومية محمودة ـ ضحية تلك الاكذوبة التى عرف أهل لبنان بها من أمرها ما عرفوا بعد حين .

ولاندرى كيف يطلق شاعر آخر مثل مسعود سماحه لخياله العنان من مهجره القصى ليعبر عن فرحته باحتلال (غورو) بلده لبنان حين يخاطب وطنه بقوله (١) :

غمرتك سيدة الشعوب بجودها	فاهنأ بعصر النسور فيك وبشر
فمثلث الألوان يرسل نوره	لأخى الوفاء وناره للمزدرى
علم رفيع يستظل بعدله	ارقى بنى الدنيا واطيب عنصر
أهلا وسهلا فالبلاد تحررت	والقوم بين مهلل ومكبر .
غورو فتحت قلوبنا وحللتها	حملا وانت القائد الفرد الجرى
ما انت فيه فاتح مستعمر	بل أنت خصم الفاتح المستعمر

لاريب أن هذه الأبيات حيكت من مشاعر الحقد على الترك الذين اذاقوا العرب والمسيحيين منهم فى لبنان بصورة خاصة الويلات . ولكن ما هكذا يكون الخلاص وليست ترجى النجاة من غاشم بغاشم ، وليس التغزل بعلم أجنبى أمرا ترضاه النفس المتحررة .

وقد ذهب ادوار مرقص وهو شاعر سورى من اللاذقية الى أبعد من ذلك وكاد يذوب من فرط هيامه بفرنسة وذلك فى أبيات هزيلة لا يعدلها الا سخف مضمونها (٢) :

ان الفرنسيس شعب زاد تمكينا	ونبله رام ارباب الحجى فينا
كم من يد لفرنسا فى مرابعنا	وفى جميع السور تصبى المحبينا

---

(١) الديوان ٧٤
(٢) الديوان ١٣٣

ونحن نقرأ فى ماضى مآثرهـــا ما نستشف به خيرا لآتينـــا
وكيف ننكر فضل الانتداب لهـــم على حمانا ولسنا الصم طاغينـا
وقد عهدنا فرنسا فى مروءتها لا تبخس الود والاخلاص تثمينـا

ولم ينج من هذه المزالق التى اورثتها السياسة وأحابيلها وتقلباتها عدد من الشعراء العرب الذين عرفوا بصدق عروبتهم وصحة اتجاههم القومى من أمثال عبد المحسن الكاظمى والياس فرحات وسواهما من الذين أطنبوا فى مدح الرئيس الاميركى (ولسون) ونحو ذلك من القصائد .

- ٢ -

والآن يجدر بنا بعد ذلك كله أن نضع هذا الشعر فى الميزان ونقوم مضمونه بالمقياس القومى الصحيح .

الحق أنه لا مفر للباحث قبل كل شىء من أن يرى فى هذه القصائد وأمثالها ظاهرة مرضية اصابت الشعر القومى فى هذه الفترة من حياة العرب الحديثة . كما أنه لابد لنا من أن نعتبر الشاعر العربى مسئولا عما يضمنه فى شعره من آراء .

ولكن هل لنا أن نصم لونا من الشعر بالانحراف فى مضمونه ، ونبادر الى اسقاطه من حظيرة الفن لأنّ ما انطوى عليه من آراء لا ينسجم مع تفكيرنا واتجاهاتنا الاجتماعية السائدة يبدو أن الحكم القاطع فى هذا الصدد ليس يسيرا اصداره ، وعلينا فى سبيل ذلك أن ننظر الى الأمر من وجوهه المتعددة ومن خلال ملابساته لنخلص بعد ذلك الى ما له وما عليه . لاننا نظلم أولئك الشعراء ظلما بينا اذا نظرنا الى نتاجهم بمنظارنا الحاضر وحده ، متجاهلين الملابسات والظروف التى احاطت بالشاعر وأشبعته بهذه الآراء .

وأول ما يجب ملاحظته ان أكثر هذه النماذج الطافحة بروح الولاء للأجنبى والثناء عليه يمكن حصرها فى فترة زمنية قصيرة لاتتجاوز فى الغالب سنوات الحرب العالمية الأولى وما بعدها بقليل . أى فى فترة لم تكن فيها خفايا السياسة قد اتضحت والآراء قد قرت بسبب جهل العرب أمر الاتفاقات السرية والوعود السخية التى كانت جيوش الاحتلال تتسلل من ورائها تحت ستار التحالف والصداقة . وكان من جراء ذلك أن عددا غير قليل من الشعراء انزلق فى هذه الهاوية بتأثير الظروف السياسية المضطربة آنذاك ، ولم تكن

فظائع المختلين ومخازيهم قد استبانت بعد على حقيقتها بجلاء . حتى أن عددا من قادة العرب انفسهم انساقوا حينئذ فى ازجاء التبجيل والثناء الى أولئك الاجانب مخدوعين بثوب الحمل الذى ارتدوه واستطاعوا أن يوهموا به السذج اذ ادعوا انهم اعمدة التمدن ورواد الحرية ورسل الديمقراطية. وليس بغريب بعد ذلك أن تضلل فئة من الشعراء وترى فى فرنسا مثلا أما حنونا وتتصورها من خلال الثورة الفرنسية المجيدة أو فى صورة كتابها الاحرار . ألم يكن خليل مطران فى شبابه يناضل الاستبداد العثمانى ويقفز فى احضان الطبيعة مرددا نشيد (المارسييز) الذى كان الناس يرون فيه عنوانا للحرية ورمزا للثورة أو لم يكن الرأى العام العربى الذى تدفقت على أرضه جيوش الاحتلال من كل حدب وصوب يرى فى الدولة الاميركية النائية وفى مبادئ رئيسها ولسون الذى بادر الى دعم قضية الشعوب المستضعفة نصيرا فى بلوغ أمانيها شأن الغريق يتعلق بعود لاح له - فى غمار الموج . وما ذنب شاعر أو شعب شكر يدا امتدت اليه ولوحت له فى محنته ثم اختفت لتترك سائر الأيدى تنهال عليه بالضرب والأذى من حيث كان العرب يرقبون فجر الاستقلال من شعلة تمثال الحرية الجبار .

وعلى ذلك نصل الى نتيجة قد تبدو غريبة بعض الشئ وهى أن من هذه القصائد ما كان منطويا على قدر غير قليل من عنصر الصدق الفنى ، وأن من أصحابها من كانوا منسجمين مع انفسهم ويعنون ما يقولون ، وهم على كل حال يعبرون فى ظل ظروف بعينها وفى فترة زمنية محددة عما كان يجيش فى ضمير كثيرين ممن حولهم . وعلى ذلك لايمكننا فى صدد تقويم قصائدهم وبخاصة مضمونها أن ننظر اليها نظرتنا الى نصوص مجردة منبتة عما حولها من ملابسات الزمان والبيئة .

أما ان اولئك الشعراء كانوا مخدوعين ومنحرفين عن محور الشعور القومى لدى امتهم فهذا لامراء فيه ولكنه أمر آخر فى الفن وهو من هذه الزاوية يتسم بخطورة كبيرة فى المجتمع العربى .

فهل يعنى ذلك ان الشاعر مطلق الحرية فيما يقول ولو كان فى قوله اساءة لقومه وتجرؤ على ما يعتقدون وانتهاك لما يقدسون الحق اننا لا نسعى الى تبرير هذا اللون من الشعر بقدر ما نرثى لأصحابه وما أتوا به فى شعرهم من أفكار فجة تنم عن سذاجة وضيق نظر .

ونحن لا نستطيع أن نعزل مع دعاة الفن للفن مضمون الشعر عن مجال الحكم بحجة أن جمال التعبير وحده هو الأصل بصرف النظر عن القيم الخارجية للمحتوى الشعرى أو أن حرية القول التى يملكها الفنان لا يصح أن تكون موضع تساؤل وجدال بدعوى أن العمدة فى صدق التجربة وجودة العبارة الناقلة لها.

وما من أحد يود أن ينازع الشاعر أو أى فنان فى حرية التعبير لأن هذه الحرية من مقومات العمل الفنى الذى لا يمكن وجوده الا بها. ولكننا نرى أن الفنان حر لأنه مسئول ولأن الحرية تستلزم المسئولية، ولذلك ليس بوسع قاصر أو مجنون ممارسة حريته على أتم وجه تبعا لانتفاء المسئولية عنه. ولهذا وجب على الشاعر ان يتحمل تبعة ما يصدر عنه من قول ورأى. وشأننا معه كشأن من حدثنا عنهم الرسول حين ركبوا فى سفينة حتى اذا أخذ كل منهم مكانا له راح احدهم يضرب موضعه بفأس، فقالوا له ما تصنع، قال هو مكانى أصنع فيه ما أشاء.. فان أخذوا على يده نجا ونجوا وان تركوه هلك وهلكوا.

ولعل أهم مقياس فى المجال القومى لانحراف المواطن فى مسلكه أو الشاعر فى قصيدته أو المفكر فى آرائه أن يصدر عما يتنافى مع رغبات مجتمعه ويصطدم بما يعتقد هذا المجتمع بأن فيه سلامته. ومهما تكن الأمور نسبية والمقاييس مترجرجة فى هذا الشأن ضمن الطبيعى بل من الضرورى أن تكون ثمة حدود للاتجاه القومى الصحيح تفصله عن المفاهيم الفاسدة والاتجاهات الضارة.

ومكمن الخطر فى تلك النماذج الشعرية المنحرفة عن الشعور القومى السوى ما قد يكون لها من التأثير السيئ فى المجتمع الناهض. لأن الفن ومنه الشعر وسيلته التأثير. والأديب هو الذى يملك تلك الأداة الرهيبة اداة التعبير، ومن هنا كان خطره وكانت خطورته. فقد يحمل السم فى الدسم ويبدو كخضراء الدمن له رواء وفى طيه الفساد.

وجملة القول أن شعرا كهذا الذى أوردناه يستدعى منا الحذر باعتباره ظاهرة مرضية فى حياتنا الأدبية والقومية. وهو فى الحقيقة دليل واضح على أن الاتجاه القومى فى الشعر المعاصر لم يخل من أعراض العلة الطارئة التى كانت تنحرف بمضمونه عن الطريق السوى. فقد علقت به شوائب كثيرة كانت تعوق سيره الحثيث فى تأدية رسالته. وليس ذلك أيضا سوى مظهر

لنضال الأمة نفسها التى كثيرا ما تلقى من بعض ابنائها عقوقا • وبموازنة هذه القصائد التى نأت عن بؤرة المفهوم القومى الصحيح بما بلغه مضمون الشعر آخر الشوط يتبين لنا بجلاء عظم المرحلة التى قطعها الاتجاه القومى فى الشعر العربى الحديث •

وهكذا لا يمكن أن نرى فى هذه القصائد وفى أصحابها صورة أمينة لوجدان العرب الجماعى فى خلال الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين الا أنها قد تكون ظلالا قاتمة أو خطوطا سوداء لا غنى عنها فى جعل تلك الصورة كاملة ودقيقة •

(((٤)))

ومن نكد الفن أن نرى فى صعيد آخر أناسا اتخذوا من النظم سلعة يزجونها الى من يقدر على جلب نفع أو جاه أو منح رتبة أو وسام ، فاذا هم قد مسخوا قيثارة الشعر وتاجروا بالفن سعيا وراء مقاصد رخيصة• وكثير من أصحاب هذا النظم السياسى شعراء (امعيون) يصفقون لكل حاكم ويعبدون أى صنم ، لايفهدهم ان ينسخوا اليوم ما قالوه بالأمس• وليس عليهم الا أن يعتلوا المنابر ويطلقوا لقوافيهم البارده العنان •

ان هذا النمط من الشعر السياسى الذى يعبث بقضية الوطن سعيا وراء مصالح ذاتية ويتلون فيه صاحبه تلون الحرباء لينسجم مع كل عهد أو لينافح عن حزب أو طائفة ضد هذا أو تلك انما هو آفة الشعر القومى بل آفة الأدب كله •

وقد عرف العرب وبخاصة فى عهد الأمويين شبيها بهذا الشعر الذى حاد عن اداء رسالته الفنية الأصيلة ليوقد نار الفتن والمهاترات بين رجال الأمة ، ويذكى سعير التعصب والبغضاء بين قبائلها حتى انقلب الى اداة تفرقة وعامل هدم فى كيان الدولة العربية ••

وقد استفحل خلال العهود العثمانية أمر هذا الشعر الرسمى حين لم يكن بوسع سواه أن يرى النور • وظهرت فئة من الشعراء والكتاب وضعت نفسها فى خدمة الحكام الترك وجندت ألسنتها واقلامها للدفاع عن الوضع القائم فى بلاد العرب لا عن عقيدة ورأى وانما بدافع التزلف واجتلاب النفع • وكانت قصائد كثيرة جعلت همها تقديم صورة مزيفة للحالة القومية

كانت تبدو معها الحياة جنة عدن في ظل هؤلاء السادة • وما قيل في السلطان عبد الحميد من تمجيد لحكمه واشادة بعدله يضيق عن الحصر •

وأبرز مثل على تلك الظاهرة بعيد قيام الحرب العالمية الأولى ما نجده من الخطب والقصائد مبثوثا في كتاب (البعثة العلمية الى دار الخلافة الاسلامية)الذى نشر في بيروت بايعاز من جمال باشا التركي وتصدرت فيه صورته • وقد انطوى على قصائد كثيرة محشوة بالتزلف والنفاق القاها عدد من أعضاء الوفد الرسمي الذى شكلته حكومة الأستانة للتجول بين اقطار العرب،والدعوة الى تأييد الترك في حربهم ضد الحلفاء ، من ذلك ما قاله حسين الحبال أحد مؤلفي الكتاب بين يدى ولي العهد[1] :

يارجال الملك انا أمـة	لا ترى عن آل عثمان بديـلا
حرسوا الملك قرونا سبعـة	خدموا القرآن والدين الجليـل

أما عبد الكريم عويضة فقد أفتى بأن طاعة الترك واجبة على العرب اذ قال[2] :

هم ساسوا الأمور بحسن عدل	وحسن ادارة وعلى استقامـة
لهم في ذمة الأوطان حق	على الأهلين ان يرعوا ذمامه

وقد بلغ الأمر ببدر الدين النعساني أنه أنشد جمال باشا قصيدة طافحة بالتزلف والاستخذاء قال فيها[3] :

لئن أكثر المداح فيك القصائدا	فما بلغوا في الألف من ذاك واحدا
وقفت على علياك فيض يراعتي	ونفسي وفكرى والقوافي الشواردا
فان تولني منك القبول فقلما	رأيت على الصلات مثلي حامدا

وغير ذلك كثير في هذا الكتاب لسليم اليعقوبي وعبد الرحمن عزيز وعلي الريماوى وسواهم ..كما نجد ما يشبه هذه القصائد في كثير من دواوين الشعراء من مثل شكيب أرسلان وأحمد شوقي ومحمد حبيب العبيدى ٠٠٠٠٠

---

(١) البعثة العلمية ٦٨

(٢) المرجع السابق ١٨٢

وقد يلتمس بعض الباحثين لهؤلاء الشعراء عذرا يبرر به مسلكهم في قصائدهم .

ويرى في مضمونها ذودا عن حياض الدين والخلافة وغيرة على دولة المسلمين الكبرى التي كانوا يجدون فيها الملاذ الاخير ضد المستعمرين . ومن الطبيعي في مثل تلك الأوضاع ان تختلط المشاعر الدينية والسياسية تبعا لتداخل السلطتين الدنيوية والروحية في نظام الخلافة العثماني .

الا أن شعرا سياسيا كثيرا قيل بعد ذلك في تمجيد الحكام الذين كانوا يحكمون في ظل النفوذ الأجنبي وبخاصة في الاقطار التي قامت فيها الانظمة الملكية . وما أكثر القصائد التي نظمت في كنف الملك فؤاد ثم فاروق في مصر ، وفي ظل عبد الله بن الحسين في الأردن ، وعبد الاله الوصي على عرش العراق وأكثرها طافح بالتزلف والمديح حتى ليخيل الى الباحث أن شعر البلاط قد بعث من مرقده ومسخ في أبشع صورة على يد هؤلاء الشعراء في القرن العشرين .

ويمكن القول أن من ملوك العرب من كانوا يسمون بأنفسهم الى هذا المديح فيوعزون بذلك الى الشعراء ارضاء لغرورهم وسعيا وراء تمجيد حكمهم وستر أخطائهم . وقد يكون من العسير الكشف عن امثال اولئك الشعراء الذين يطلب اليهم فيمتثلون ، وذلك بسبب حرصهم وحرص ممدوحيهم معا على كتمان أمر هذه الرغبة (السامية) . ومع ذلك فثمة اشارات واضحة تؤكد وجود هذه الظاهرة في الشعر الحديث من مثل العبارات المبثوثة في دواوين الشعر أو كتب المختار منه والتي يقول بعضها ممهدا لتلك القصائد : " القاها بنفسه بين يدي جلالة الملك وكان نظمها والقاؤها برغبة من لم تسعه مخالفته "(1) وواضح ان الشاعر العراقي محمد حبيب العبيدي كان حريصا على أن يتوج منظومته بهذه الكلمة دون أن يجد في ذلك حرجا ، بل ان رائحة الزهو تفوح من كلماته .

وقد ذكر جميل صدقي الزهاوي في مقدمة رباعياته ان رئيس الديوان الملكي في العراق عرض عليه بالحاح رغبة الملك في أن يكون شاعرا موظفا

---

(١) انظر رفائيل بطي ١٣٤ بصدد قصيدة للعبيدي

(٢) انظر رباعيات الزهاوي المقدمة ق

لدى جلالته في القصر بمرتب سخي . ولكن الشاعر أجاب " اذا شاهدت جلالته يخدم بلادي أمدحه على خدماته بدون أجرة ، وحينئذ يكون لكلماتي تأثير أكبر مما اذا مدحته وأنا أجير " ثم قال " ومع ذلك فانني لا أزال ذلك العصفور الذي يغرد بمآثر جلالته اعجابا بها لا طمعا بحبات تلقى اليه "[1].

وهذا الرد يشير في الواقع الى تبدل جوهري في مفهوم الفن لدى الشعراء المعاصرين يغاير ما كان عليه أمر الشعر في القرون الوسطى ، وان كان ذلك من جهة أخرى لا ينم عن تبدل كبير في نظرة الملوك والحكام الى الفنون .

وماذا نرى في قصيدة بعث بها عبد المحسن الكاظمي الى عبد الله ابن الحسين أمير الأردن حين يقول[2] :

هل عند رغدان وهو ملتطم	ان موالي رغدان قد ظمئوا
هل مثل رغدان في الورى علم	تأوي اليه الدنيا وتلتجي
لا تكل ربنا الى غدنا	يا ربنا قد أمضنا الظمأ

لاشك في أن هذا الشاعر يستجدي الأمير على استحياء انه ظامئ بل أمضه الظمأ ولن يبل صداه شيء سوى ما يتدفق من قصر رغدان . قد يقال ان هذا شأن من شئون الشاعر الخاصة ، ولكننا نرى أن تعبيره عن ذلك شعرا ثم نشره اياه في ديوان على الملأ ، ينقل الأمر الينا ويجعل من حق المجتمع أو الناقد أو المؤرخ أن يصدر حكما بصدده . فأي رسالة قومية نتوقع من الشاعر أن يحملها ويبشر بها حين يلوذ بأميره على هذا النحو ، وهل يرجى منه تجاه ما قد يراه في الأمير من اعوجاج أو انحراف شعر يصدع بالحق . لا ريب في أن هذا الشعر ينطوي على ابتذال شديد للشعر والأدب وللفن بصورة عامة .

وأي جمال فني يكمن في هذه المبالغات التي جهد محمد حبيب العبيدي في رصفها ليحظى بعطف مليكه فيصل حين قال[3] :

---

(١) انظر رباعيات الزهاوي المقدمة ق

(٢) ديوان الكاظمي ٢ : ٢٤٤

(٣) رفائيل بطي : الشعر العصري في العراق العربي ١٣٩

ربيب الهدى رب الفضائل فيصل | عميم الندى فذ المزايا كثيرها
كأنى بأرجاء العراق وقد شدت | على أثلات العدل شدوا طيورها
كأنى بأرجاء العراق وقد غدت | حدائق لكن العلوم زهورها
كأنى بأرجاء العراق وقد غدت | سماء ولكن الفنون بدورها
جلالة مولانا المعظم فيصل | ليحى كما تحيا بلاد يجيرها

أى شعر هذا الذى يحاول فيه صاحبه أن يقنعنا بأن جنة الله غدت فى أرض العراق ، والشاعر ينسب الى يد الملك السحرية بعث الأمة وخلق نهضة واذا ما ذكر الشعب فلكى يدل على ايادى الملك عليه ، ومن الجلى أن بيت القصيد ومحور اهتمام الناظم فى قوله " جلالة مولانا المعظم فيصل .. " أوليس تمجيد الفرد الى هذا المدى ينبو عن الذوق الحديث بعد أن أصبحت الكلمة فى هذا العصر للشعوب .

ولعل أسوأ مثل على ظاهرة البلاط والمديح السياسى الذى قيل بدافع النفاق والملق ما نجده فى قصائد شاعر عراقى آخر هو جميل أحمد الكاظمى من ذلك قصيدته " عبد الاله المعظم " التى يخاطب بها الأسرة الهاشمية بقوله (١) :

آل الرسول وانتم خير من وطئوا | ترب الحواضر واجتازوا بواديها

فهو لايكاد يجد لهذه الأسرة الحاكمة من مزايا سوى انها من عقب الرسول فيستغل هذا النسب الشريف ليضفى على افرادها هالة من الاجلال والتقديس تغطى آثامهم . وقد بلغ الأمر بشاعر آخر هو حسن حيدر أنه قال فى عبد الاله وفيصل الثانى (٢) :

فمن عادى الوصى وشبل غازى | فقد عادى ـ بلاشك ـ محمد

بمثل هذا الاستخذاء كان عدد من الشعراء يلوكون القوافى ويتشدقون بها امام المحافل ومن فوق المنابر وفى دور الاذاعة .

على أن بعض الدواوين الشعرية حافلة بنماذج أخرى من هذا المديح السياسى المسرف قد تكون أهون شأنا مما رأيناه آنفا . من ذلك مثلا

---

(١) آيات الحق والاخلاص ٦٩
(٢) آيات الحق والاخلاص ٢٠

قصيدة " المستبد العادل " لأحمد زكي ابي شادي في أحد من عرفوا بجورهم من الحكام في مصر وفيها يقول (١) :

ضجت لرحمتك البلاد وأعولت	اين العظيم المستبد العادل
خذ أنت بين يديك كل زمامها	ما كان غيرك في العظائم جائل
شورى الحياة غدت شرور حياتنا	والكل فيها العاجز المتخاذل

" واذا ذكرنا ان الاتجاه الشعبي الساحق كان يدعو في تلك الفترة الى الحياة الدستورية وحياة الشورى وكان ساخطا أشد السخط على فؤاد وصدقي والانجليز سهل أن ندرك كيف ان مثل هذه الآراء التي تشيد بالمستبد العادل وتدعو الى استئثاره بالحكم دون الشعب كانت تلقى أشد الاستياء لدى الأحرار " (٢) ورحم الله البارودي اذ قال :

وأقتل داء رؤية العين ظالما	يسيء ويتلى في المحافل حمده

مثل هذه الأشعار أشبه بالماء الذي يصب على النار المتأججة في النفوس نقمة وغضبا فيخمد جذوة الحماسة فيها ، أو كأنه الأفيون يعمل على تخدير الشعور القومي للأمة ويضع الغشاوة على الأذهان ، ويشيع روح التواكل والتخاذل بين الجماعات . وان تلك القصائد وأمثالها من الشعر المتطفل على الفن لا يعدو أن يكون مجامر بخور تحرق على اعتاب ذوي النفوذ والسلطان وتزول بزوال هذا النفوذ وذاك السلطان ، واذا الأصنام المعبودة من دون الله تضيع في الدرك الأسفل لا تعد آثامها ولا تحصى عيوبها . وكم انقلبت المدائح الغر الى أهاج تتزاحم فيها الفاظ الشتم والتجريح واذا كلام الليل يمحوه النهار.

والملاحظ من خلال ما سبق ان أكثر ما أوردناه من هذه الأشعار انما قيل في ظل الأنظمة الملكية التي استشرى في معظمها الفساد ففسق مترفوها . ومن طبيعة هذه الأنظمة ـ التي يعتبر البذخ والأبهة من مستلزماتها ـ ما يطمع الملوك بالثناء والتقديس ، وما يغري المرتزقة من الشعراء بالهبات والعطايا .

---

(١) الينبوع ٨٠

(٢) محمد مندور : الشعر المصري بعد شوقي ٢ : ٤٦

على أنه من الانصاف أن نقول انه ليس كل ما قيل في هؤلاء الحكام كان بدافع الملق والنفاق وأملا في اجتلاب النفع واستدرار المال • اذ أن عددا من أولئك الحكام والملوك كانوا في الواقع برغم هناتهم ملاذ أمتهم ومعقد رجائها • وقد كان الشعراء يتجهون الى مقامهم مجردا عن شخوصهم• ومن قبل وجدنا الأمير شكيب ارسلان يسوق هذا التبرير في صدد دفاعه عن شعر شوقي في مديح سلاطين العثمانيين حين بين أن ذلك لا يغض من الشعر أو الشاعر في شئ " لأن الكلام انما هو للمقام لا للمقيم وان المقام هو رمز الأمة وعنوان الملة "[1] • وكأن الأمير في ذلك يحاول أن يدفع التهمة عن نفسه أيضا • ولاشك في أن من الشعراء من كانوا ينظمون شعرهم في أولى الأمر عن عقيدة واخلاص ويجدون فيهم رمزا لقوة الدولة وسيادتها ولهيبة الحكم العربي التليد •

وقد حظي الحسين بن علي وفيصل ابنه بأغزر الشعر وأصدقه ، وقريب من ذلك ما قيل أيضا في غازي وفيصل الثاني وفاروق استبشارا بعهدهم•

كل ذلك ترك أثره البين في الأدب المعاصر بصورة عامة وكان له شأن في دواوين الشعراء وبخاصة من كان تقليديا في نظرته الى الحكام يحذو بشعره نحوهم حذو الأخطل وأبي تمام وصفي الدين الحلي وسواهم من شعراء المديح • لقد أفرد بعض هؤلاء أبوابا مستقلة لهذا الموضوع في دواوينهم تحت اسم التاجيات أو الملكيات أو اسماء أخرى كالهاشميات وسواها • كما وجدنا من الدواوين ما اقتصر أو كاد يقتصر على هذا المديح السياسي كديوان (الملك) لمحمود حسن اسماعيل •

وعلى الرغم من أن الباعث الأول على هذا الشعر انما هو تمجيد الحاكم ونيل الحظوة لديه ، لم يخل في كثير من الأحيان من نفحات قومية صادقة كان هؤلاء الشعراء يستطردون اليها ليتحدثوا عن وطنهم وأمانيه وما يجيش في ضميره من آلام وآمال ، وبخاصة في هذا العصر الذي أصبح فيه للجمهور شأن وأي شأن بحيث لم يعد من اليسير على الشاعر تجاهله والاعراض عن مشاعره ورغباته • ونلمس هذا الاتجاه اقوى ما يكون لدى احمد شوقي وجميل صدقي الزهاوي وعلي الجارم ومحمد الأسمر وبدوي الجبل وحسني الكيلاني

---

(١) شكيب أرسلان : شوقي أو صداقة اربعين سنة ٩٠/٢٤

وسواهم من الشعراء الذين امتزج في شعرهم - وجله عشلى النهج التقليدي - المديح السياسي والمنزع القومي . فقد كان في نظرتهم الى الحكام ظل من مفهوم الشعراء القدماء كالمبالغة في تمجيدهم وتجاهل الرعية .

ولاريب انه نتيجة لتضاؤل شأن الافراد وازدياد دور الجماعات وانتشار الروح القومية والمبادئ الديمقراطية لم يعد الذوق العربي الحديث يستسيغ مثلا أن ينسج شاعر اليوم قصيدته على منوال قول أبي تمام في المعتصم:

لو لم يقد جحفلا يوم الوغى لغدا من نفسه وحدها في جحفل لجب

لأن هذا اقلال من شأن المحاربين الذين يقع على عاتقهم عبء الجهاد والتضحية، ولاندري كم كان يبلغ المتنبي من الروعة لو أنه أولى صحب سيف الدولة وجيشه من الاهتمام ما أولاه قائدهم نفسه ..

* ° *

ولكن هل كان شعر البلاط والمديح وحده في هذا المعترك السياسي، الواقع أنه من الطبيعي في مثل تلك الأحوال الاجتماعية والأنظمة السياسية التي مرت بالعالم العربي أن ينتشر أدب سياسي يعكس حدة الصراع الشخصي أو الحزبي تبعا لتناحر القادة وتطاحن الأحزاب ، وأن ينبثق هجاء سياسي ومديح سياسي معا يقومان على التعصب والهوى والتطرف في الرأي على نحو يذكرنا من عدة وجوه بالشعر السياسي الذي ساد في عهد بني أمية وكان قوامه التعصب القبلي .

وربما كان من أبرز اسباب استفحال هذا الشعر أن الشاعر العربي انجرف في تيار السياسة ولم يعد بوسعه أن يعيش لنفسه وانما غدا يعيش لغيره ويلوذ بحاكم أو زعيم ، أو ينطق عن حزب أو طائفة ولذلك كان أشبه بالصدى الحاكي في كثير من الأحيان . ولعل أحمد شوقي أبرز مثال على هذه الظاهرة في المراحل الأولى من حياته وحتى عودته من منفاه . فقد كان لسان القصر ينطق عن هواه ويصدع بسياسته ، وكثيرا ما كان يصدم مشاعر شعبه في مواقف لا يحمد عليها من مثل تنديده في قصائد، متعددة بأحمد عرابي وثورته .. " ولم يخجل ان يرمي البطل وهو صريع" (1)

(1) شوقي ضيف : شوقي شاعر العصر الحديث ٢٠

كذلك لم يتورع جميل الكاظمي الذي كان أحد أبواق قصر الرحاب عن القذف الرخيص في الشهداء الذين قادوا انتفاضة العراق ضد الانكليز عام ١٩٤١ والذين مازالوا ابطالا في أعين العرب ، وذلك في قوله (١) :

بوجه الحق أربعة خساس وخامسهم كليب السوء أجرد

والأربعة هم القادة الذين بطش بهم عبد الاله وعلق جثثهم على مبنى وزارة الدفاع ، أما الأخير فقصد به زعيم الثورة ٠

ومن هذا القبيل شعر كثير أملته الحياة السياسية الفاسدة وما نجم عنها من أوضاع حزبية شائهة في بلاد العرب ٠ وكما كان التمجيد والتسبيح بحمد الحكام ديدن فئة من الشعراء كانت المبالغة في التسفيه والتجريح مقابل ذلك شغلهم الشاغل بحيث كان هؤلاء الشعراء والصحفيون ورجال الأحزاب يتسقطون على السواء هفوات خصومهم ويضخمونها ويجعلون منها وسيلة للتشهير ٠ ولسنا نجد هنا غناء في التمثيل لهذه المواقف التي تتسم بالحدة البالغة ولكننا نكتفي بأن نورد شيئا مما يصح أن يسمى بالهجاء السياسي أيضا في بعض ما نظمه أحمد محرم وتعرض فيه لسعد زغلول ، فقد قال يتهكم به (٢) :

صدق الرئيس وجاء في الاقناع بالعجب العجيب
يا سوء منقلب الرئيس وحزبه الفرح الطروب
اليوم تهنئة العروس وفي غد شق الجيوب

أو قوله أيضا يعرض بسعد ويسخر بمواقفه في البرلمان (٣) :

صدق الرئيس فقدسوه ونزهوه عن المثيل
هو لا يضن بألف مصر في الفداء وألف نيل
نعم الشعار شعاره "دلوا الزعيم على السبيل"

والشطر الأخير تضمين لعبارة كان يلوذ بها سعد زغلول كلما ضايقه بأسئلتهم نواب الحزب الوطني في مجلس الأمة (٤) ٠ وقد يكون تهكم سعد برجال

---

(١) آيات الحق والاخلاص ١٠٠
(٢) محمد حسين : الاتجاهات الوطنية عن ديوان مخطوط ٢ : ٢٨٣
(٣) المرجع السابق ٢ : ٣٨٤
(٤) المرجع السابق ٢ : ٣٨٤

الحزب الوطني واقصا وربما كان هذا ما أثار الشاعر محرم ، ولكن اليست النعرة الحزبية التي كان الشاعر يسم بها نفسه فيما يبدو هي التي أملت عليه هذا القول وجملته يزج بشعره في تلك المهاترات ويضع نفسه في حمأة السياسة . لاريب في أن شعر الهجاء السياسي - وليس النقد المجرد عن الهوى - لايمكن أن يكون عامل تقريب وتوحيد وليس بوسعه أن يؤدي رسالة الوئام والاخاء في المجتمع العربي .

- ٦ -

ولكن هل اقتصر التأثير السيء الذي تركته السياسة في الشعر القومي على هذه المقطوعات والقصائد وما نسج على منوالها . الحق أن الشعر السياسي ونخص هنا مضمونه أيضا لم يكن شرا كله . الا أن الأمر يبدو في الواقع أكثر تعقيدا فيما يتعلق بهذا اللون السوي من الشعر السياسي الذي شاع نظمه وكثر طرقه ثم اختلط بالشعر القومي والوطني وغدا من العسير على الناقد فصله عنه الا من أوتي ملكة نقدية نافذة وباصرة فنية ثاقبة.

فقد تطفل كثير من النظامين بقصائدهم على الفن الصحيح النابع من أعماق صاحبه حتى بات دأب هؤلاء أن يرددوا ما حولهم من آراء ترديد الصدى للصوت ، أو أن يعبروا عن مضمون لا يعتنقونه أو لم يتمكنوا من هضمه ، فاذا هو فج لم تنضجه حرارة التجربة ، ولم تصهره وقدة الانفعال ، ولم تنظمه ضوابط الذهن .

وليس معنى صدور الأديب في آثاره عن واقع مجتمعه وحياة قومه أن يغدو مرآة باردة أو آلة للتصوير تسجل ما أمامها وتعكس ما حولها بدقة وأمانة. لأن الفن الحق ليس مجرد محاكاة بلهاء بدعوى الواقعية اذ المفهوم الحق للواقعية كما يراه (غوركي) " خلق قبل أن يكون محاكاة، وابداع قبل أن يكون تسجيلا .. ومن هذه الواقعية البانية يتكون أدب قادر على أن يرفع الانسان فوق مستوى الحالات الخارجية في الحياة ، ويحرره من اغلال الواقع المتعفن، ويفهمه أنه سيد ذلك الواقع وأنه حر يخلق الحياة ".(١)

ان الفن يقوم على عنصر الاصطفاء. تمتزج فيه العناصر الخارجية للحياة

---

(١) احسان عباس : فن الشعر ١١٧

بنفس صاحبه فتخرج جديدة بديعة . والشاعر الحق من يأخذ الأفكار من حوله كما تأخذ الأرض من السيل أو المطر فترده نبعا صافيا أو نباتا نافعا أو زهرا عاطرا . وكما قال (كانت) " ليس الفن مجرد تمثيل للشئ وانما هو تمثيل جميل له " ،

وما كل من هز الحسام بضارب ولا كل من اجرى اليراع بشاعر

وكم من قصيدة نظمت في حدث عابر ضئيل الشأن أجدر به أن يكون خبرا في جريدة تذهب الأيام بجدواه واهميته من أن يكون موضوعا لقصيدة تحتفظ بجدته وطرافته . لقد شاءت المناسبة السياسية مثلا أن ينظم عبد المحسن الكاظمي قصيدة اثر تولي سعد زغلول الوزارة وتأليف مجلس النواب والشيوخ وان يقول (١) :

نواب مصر انتم وشيوخها نعم العباد
روضوا الصعاب بحكمة وتجنبوا سبل الفساد
والرأي تقليدا لكم غير الذي لكم اجتهاد

فالأبيات لا تعدو أن تكون كلاما منظوما قوامه التهنئة والنصح . ولقد كان الكاظمي يرتجل قصائده في بعض الأحيان ارتجالا أمام الجمهور شأنه في كثير من الحفلات التي أقيمت في القاهرة في مناسبات سياسية متعددة .

ويبدو أن عددا من الشعراء قد فطنوا الى هذه الظاهرة ظاهرة (الوقتية) في قصائدهم السياسية بعد انقضاء أمد عليها ، وذلك اما لانقلاب في أحوال السياسة واما لأن ما قالوه فيها يصم مواقفهم ويشعرهم بقليل أو كثير من الحرج تجاهها . ولذلك عمدوا الى نسخ ما لم يعد لوجوده مبرر حين أعادوا طبع دواوينهم (٢) ، كما فعل شوقي مثلا حين اسقط من ديوانه بائيته التي ندد فيها بعرابي ونعته بالصفار، والزهاوي في عدد من أشعاره وبشارة الخوري في رثائه لفيصل (٢) .

على أن بعض الشعراء لم يجدوا من قوة المبررات ما يدفعهم الى ذلك وعسر عليهم اهدار قصائدهم فآثروا الابقاء عليها وتنكير ظروفها ومعالمها على نحو ما فعله محمد الأسمر في ديوانه الكبير اذ قال في مقدمته " والفت النظر

---

(١) الديوان ٢ : ١٨٧

(٢) اسقط بشارة الخوري ميميته المشهورة في فيصل حين طبع ديوانه حرصا منه على رضى السعوديين وكانوا خصوم الهاشميين .

الى أن بعض القصائد في هذه المجموعة نظم لرجال خاصا بهم ولكني رأيت بعد ذلك أن أجمل هذه القصائد عامة فأبعدت اسماء اصحابها عنها".

انها وسيلة لرفع مستوى الشعر تبعث على الابتسام ، ونحن ننظر في هذا النمط منه الذى وضعه صاحبه ضمن باب اسماه (القوميات) فلا نرى فيها سوى قصائد نظمت في أمور طارئة ووقائع عابرة جردها الشاعر من كل اشارة قد تساعد على كشف مناسبتها أو ظروف نظمها كأن يذكر في التمهيد لاحداها[1] " قيلت حينما الف بعض الزعماء المصريين حزبا سياسيا ، واسس ناديا لهذا الحزب وقد اختير الزعيم المذكور رئيسا للوزارة " أو يقول بصدد قصيدة أخرى " قيلت حينما حل رئيس الحزب المذكور ضيفا على جلالة المغفور له الملك فؤاد الأول في ضحية من ضياع جلالته " أو يقول ممهدا لقصيدة ثالثة " قيلت في قنبلة وضعت في طريق الرئيس المذكور وقد انفجرت قبل ان يمر بها ".

فهل نتوقع أن نقرأ تحت أمثال هذه العبارات سوى كلمات موصوفة لا تعدو التهنئة والتقريظ . وكيف يرتفع شعر كهذا من حدوده الضيقة الى الأجواء العامة كما ذكر الشاعر ثم يعتبره شعرا قوميا. أيحسب أن الثوب الذى فصله لامرئ بعينه يصلح لأن يطابق سواه ويغدو نموذجا للآخرين ، وهل يتحقق ذلك الهدف بطمس ساذج وشطب اعتباطي لملابسات النص الشعرى والصاق الغموض بما اكتنف نظمه دون مبرر لذلك كله . وأى طائل في هذا العمل اذا كان بوسع المرء معرفة ما يخفيه الشاعر بيسر ، وأن ما يجهد في كتمانه ليس بيسر.

ـ ٧ ـ

ان امثال هذه القصائد المستوحاة من الحياة اليومية السياسية من مثل عودة زعيم من مفاوضاته ، وتسلم آخر مقاليد الحكم أو سقوط وزارة أو افتتاح دورة برلمانية أو غير ذلك مما تضيق به دواوين الشعر في هذا العصر ، لا يعدو أن يكون نظما لا طائل منه ، لأن المجال الملائم في مثل هذه الموضوعات أدخل في الجرائد وأروقة السياسة .

---

(١) انظر ديوان الأسمر ٤٣ ، ٤٩

والواقع أن انتشار الصحافة على نطاق واسع بين الجماهير وان يكن قد قدم للشعر بصورة عامة وللشعر القومي بوجه خاص فائدة كبرى الا أنه قد أضر بهذا الفن الذى يقوم على الروية والتأمل والتهذيب والتجويد تبعا لاتسام المادة الصحفية فى الغالب بطابع السرعة والخبر.

" فقد كان الشاعر فى كثير من الأحيان يسير مع الصحافة جنبا الى جنب ويجرى مثلها مع احداث المجتمعات العربية ولا يترك مناسبة من المناسبات حتى يكون له كلمة كما للصحفى كلمة . وكثيرا ما تشترك الكلمتان فى المعانى والافكار ، بل ان الأمر لم يقف بالشعر الى هذا الحد حتى أخذ يحاكى المقال فى اتخاذ العنوان وكان الشاعر القديم اذا أراد أن ينشر شعره فى ديوان وجدناه يقول مثلا ومن شعره فى الغزل كذا ومن شعره فى الفخر والحماسة كذا ...(١)"

ولايبعد أن تكون الشهرة العريضة التى ادركها شوقى وكونه فى نظر كثير من الشعراء رائد الشعر الحديث ، من العوامل التى شجعت عددا منهم على السير فى هذا الدرب " فقد استهدف شوقى لكل المناسبات الحديثة وصاغ فيها اشعاره يريد أن يكون شاعر واقعه وعصره وبيئته . وكنا نتمنى لو أنه لم يلتفت الى ذلك كله فتفنى بنفسه ولم يجعل للخارج كل هذه السيطرة عليه ، فشعره ينبجس كثيرا فى اقفاص ضيقة من حوادث وقتية كان ينبغى ألا يشغل بها نفسه لانه ليس صحفيا كما تصور ولا يقع عليه أى واجب من واجبات الصحفى فى عصرنا (٢) "

ولايمكن أن نغفل أمرا آخر ساعد على استفحال تسلط السياسة على الشعر القومى الحديث وبالتالى اضعاف العنصر الفنى فيه وذلك بأن نلاحظ أن العرب يرون منذ القديم ان الأدب يشمل دائرة المعرفة الانسانية وتبعا لذلك اتسع الشعر لديهم لمعارف شتى من تاريخ وفقه ونحو وغير ذلك مما يشكل فى معظمه الشعر التعليمى . وقد يكون النظم السياسى مظهرا لاستمرار هذا المفهوم بالاضافة الى أنه عرف فى أقوى مظاهره خلال العهد الأموى . ومن جهة أخرى فان شعر المديح السياسى الذى

---

(١) انظر عبد اللطيف حمزة : الصحافة والأدب فى مصر ٩٥

(٢) شوقى ضيف : شوقى شاعر العصر الحديث ١٧٤ .

رأينا طرفا منه خلال هذا الفصل وعرف به أصحاب المذهب التقليدى فى الشعر بصورة عامة (كحافظ وشوقى والزهاوى والصبيدى والكاظمى) كان ظلا ممتدا لشعر البلاط والمديح ، الغرض الأول فى الشعر العربى القديم.

والظاهرة التى لايمكن انكارها أن المجتمع العربى أخذ يمارس فى هذه الفترة من حياة العرب السياسية شيئا من الضغط غير المنظور على أدبائه بحيث كان يترقب منهم النظم فى اعقاب كل حدث سياسى واجتماعى أو إثر كل مناسبة وطنية وقومية . وكان لابد للشاعر العربى من أن يستجيب لهذه الرغبة سواء واتاه الانفعال وعاش التجربة أم لا . وما عليه الا أن يسير فى طريق محددة وشكل مرسوم.

ولا خير فى شعر يقتسره صاحبه ويعالج فيه أمورا معينة ان لم ينفعل بها بشدة ويعشها بعمق وتختلط نفسه بها حتى لتصبح جزءا من شعوره . وافتقار الشعر الى هذه المقومات يجعله نظما باردا هزيلا لا غناء فيه .

وهكذا كانت بعض اسباب تدنى فنية الشعر القومى وعيوبه تعود فى كثير من الأحيان الى تلك المناسبات التى لا تمهل . وهذا ما يفسر لنا غزارة الشعر السياسى الذى تطفل شطر كبير منه على الشعر القومى وأدى بالتالى الى انحدار كثير من القصائد الى أودية النسيان لا تعدو فى قيمتها الدلالة التاريخية ، لأنها لم تكتنز من حرارة التجربة وقوة الانفعال وجلال المضمون ما يكفى لاستمرارها فى الحياة وقدرتها على البقاء.

ولاشك فى أن حرص بعض الشعراء بالدرجة الأولى على ادراك الشهرة العاجلة واعتلاء المنابر واستجداء التصفيق عاد بالمقومات الفنية الى المرتبة الثانية فكانت السمة الغالبة على قصائدهم العقم وقلة الجدوى ، لا تكاد تحوى من خصائص الشعر سوى أنها كلام موزون مقفى لا تلبث قوافيه أن تذهب مع الريح .

ولا يعيب الأدب القومى كثرة المتطفلين عليه من الذين يستسهلون النظم فى كل مناسبة دون تفهم لحقيقة التجربة وجوهر الانفعال وكنه الاثر الفنى. فقد ينظم تلامذة المدارس مثلا فى ثورة تشتعل فى وطنهم أو فى حدث قومى يثير الحماسة فى نفوسهم وهذا من حقهم ، كما أن من حق سواهم أن يرسموا لوحات ويصنعوا تماثيل ويؤلفوا مسرحيات . اذ أن النقد الواعى وعمدته الذوق المرهف والنظر الثاقب هو الذى يقوم هذه الأعمال الفنية

والزمن وحده كفيل بغربلتها . " وأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض "

وفى الوقت نفسه فان شرف الموضوع فى ذاته ليس بقادر وحده على رفع شأن الأثر الفنى وان يكون بمفرده عامل تقويم فى القصيدة . وهذا الاحتراس ضرورى تجاه كل نص أدبى وبخاصة اذا كان يحتوى على مضمون قومى أو اجتماعى . وقد أصاب قدامى النقاد العرب حين لم يشترطوا فى المعنى الا ان يكون صوابا . وعلى ذلك لم يغتفروا لحسان بن ثابت ضعف شعره فى الاسلام ، ولم يرفعوا قصائد الشعر لمجرد انطوائها على مدح الرسول أو احتوائها على مضمون دينى أو خلقى .

قد يكون فى الشعر السياسى الذى كان يقال فى المناسبات الوطنية أو يلقى فى المحافل العامة وينسجم مع عواطف الجمهور ، خير كثير للمشاعر القومية من حيث بث الحماسة فى النفوس وتوحيد الصفوف ونبذ الضغائن ووأد التعصب ، الا أن تأثيره آنى لا يعدو فترة انبثاقه .

والحق ان المناسبة فى ذاتها لا تعيب الشعر اذا استطاع الشاعر أن يخضعها لفنه بقدر ما يحييه عاطفة مفتعلة وتجربة فجة . صحيح أن المناسبة لا تخلق العمل الفنى ولكنها تهيئ له اسباب الظهور وبخاصة اذا استطاع الشاعر أن يستجلى ما وراء الحدث المادى وينفذ بثاقب بصيرته الى اعماق الواقع الظاهرى . وان من روائع الشعر القومى بل الشعر عامة ما تفجر اثر مناسبات بعينها من مثل قصيدة حافظ ابراهيم فى مظاهرة النساء عام ١٩١٩ أو قصيدة الفدائى أو الثلاثاء الحمراء لابراهيم طوقان . وان من آيات التنزيل ما كان وليد المناسبات.

واذا ما جعلنا الناحية الفنية البحتة المقياس الأول فى تقويمنا للنتاج الأدبى فانه لا مفر لنا من أن نضع على صعيد واحد كل قصيدة شعرية تختلف فى مضمونها عن قصيدة سواها ، اذا كانت التجربة فى كلا الحالين لا تنبع من نفس الشاعر ، وسيان عندئذ تملق حاكم أو تملق جمهور . لأن الأديب مهما يعبر عن الجماعة ويصور الواقع فان العنصر الشخصى المتميز يبقى من مقوماته التى لاغنى عنها فى كل أثر أدبى ، والا انقلب دعاية وكان التعبير عن آراء المجتمع آليا . وليس على الشاعر أن يصور الواقع الاجتماعى كما هو بل كما يراه ويعتقده لأنه بذلك يزيدنا معرفة بالواقع وخبرة بالحياة

وفهمها للنفس الانسانية .

قد ينظم الشاعر قصيدته في اطار من التاريخ أو العلم أو الأخلاق أو السياسة ولكنه بعيد عن أن يكون مؤرخا أو عالما أو واعظا أو داعية، لأن جمال الأداء أبرز ما يميز آثاره والشاعر من جهة أخرى، مبتكر يضيف صورا غير مرئية الى صور مرئية ويجمع صورا حية الى صور لا حياة فيها ليهبها الحياة مرة أخرى، ويضيف الى النظرة الخارجية العابرة نظرته الداخلية الأصيلة .

أما عنصر الصدق في الأدب فاننا نعني به " أن يصدق الأديب في التعبير عن عاطفته التي أحس بها فعلا . واعلان عقيدته التي اعتقدها . ولسنا نعني به أن يكون تام المطابقة للواقع في كل حذافيره . فالأديب ليست وظيفته أن يسجل الواقع كما هو في وجوده الموضوعي المستقل بل وظيفته وسر أهميته العظمى ، ان يصور عاطفة الانسان نحو هذا الواقع ، ونظرته الخاصة الشخصية اليه وموقفه منه ورد فعله عليه "(١)

ان الأشعار والقصائد ليست مجموعة أخبار وآراء تلقى في السمع وتخاطب الذهن . وانما هي مصرف متنوع الجوانب لمشاعر الأمة ومنازع النفس . وان سر اعجابنا بالقمر مرده الى أنه لم يكتف بأن يعكس علينا أشعته كما هي عندما اغترفها من الشمس ينبوع الضياء ، بل لأنه اضفى عليها من طبيعته ومزجها بشيء من روحه كما تمزج الماء بالراح .

• وبعد ، اذا رأينا كثيرا من الشعر السياسي قد تطفل على الأدب واختلط به وعكس مضطرب الأهواء ، وكان كالريشة في مهب الريح يتأرجح بين الثناء المسرف والطعن المجحف ثم غدا آخر الأمر ضربا شائها من الفن ،" فهل لنا بعد ذلك أن نجري مع القائلين بأن السياسة ما دخلت في شيء الا أفسدته .

الواقع أنه اذا كانت الأمور بخواتيمها فان الشعر هو الذي كان رابحا نتيجة عيشه في غمرات السياسة . والفصول السابقة خير شاهد على هذه الحقيقة .

---

(١) محمد النويهي : عنصر الصدق في الأدب ٣٨ ـ ٣٩

الفصـــل الـثـانـــــي

بـين الوجـدان الذاتـي والوجـدان الجماعي

اذا لم يكن الفـن مـرآة للحيـاة تتجلـى فيـه بدقـة وأمانـة فهـو على الاقـل متأثـر بهـا . وبرغـم البـذرة الفرديـة التي تتفتـح في أعمـاق الفنـان لا يعقـل وجـود أدب أو فن الا في وسـط اجتماعـي طالمـا أن الفـن تعبـير عن تجربـــة شعوريـة وايصـال لهـا . ان تجـاوب البشـر مع الاثـر الفـني واعجابهم المشـترك بجمالـه ان هو في حقيقتـه الا ظاهـرة اجتماعيـة تشـد مشاعر الأمـة وأفكارهـــا حـول بـؤرة واحـدة .

وهكـذا يبـدو الأدب نفسـه باعتبـاره يرتكـز الى مقومـات الفكر والعاطفة عامـــلا رفيعـا من عوامـل التفاهـم والتقـارب والانسجـام بين أفـراد المجتمع . " ومهما يكـن الأدب وجدانيـا شخصيـا فـانه لا ينحصـر في ذات صاحبـه ويبقى هناك بمعـــزل عن كل الحركـات الفكريـة والاجتماعيـة التي تنشـأ في بيئتـه وتمر حيـاته " (١) وان الأديـب عندمـا يحـاول أن يبـدع المقالـة أو القصـة أو القصيـدة فانـه لا يفعـل ذلـك لمجـرد التعبـير عن انفعالـه وخلجـات نفسـه فحسـب ، بل يدرك أيضـــا أنـه في عملـه الأدبـي يخاطـب النـاس ويحـرص على نقـل تجربتـه اليهم ، وعلـى مشـاركتهم ايـاه في مشـاعره ، والا اكتفـى بنسخـة واحـدة من ديوانه . وهـــذه الثنائيـة من سمـات العمـل الأدبـي بصـورة عامـة .

كان الشاعـر الجاهلـي حريصـا على صـوغ عواطـف قومـه حرصـه على التغـــني بمشـاعره ، وكان يجهـد في أن يقـع منهـم الموقـع الـذي يريـدون . ولعـــل هـذا شـأن كل صاحـب فـن .

وقـد جنح الشاعـر العربـي الحديـث للاهتمـام بواقـع أمتـه وحرص في كثـــير من الاحيـان على التعبـير عن منازعهـا وتصويـر آلامهـا وآمالهـا من خلال نفســه ، لانـه جـزء من هـذه الامـة وعواطفـه منبثقـة من عواطفهـا ومتفاعلة معها ، وشعره القومـي أو الاجتماعـي ليـس الا تعبـيرا حيـا صـادقـا عن مشاعره وعن مشاعر قومـه معـا .

---

(١) أنيس المقدسـي : الاتجاهـات الأدبيـة، المقدمـة ١ : ٩

ويمكن القول أن الحرب العالمية الأولى تمخضت عن ظهور تيارين بارزين في الأدب العربي الحديث هما التيار الوجداني ، والتيار القومي الاجتماعي. وقد كانا يسيران متصاحبين متوازيين ، يتعانقان حينا ويتجافيان أحيانا. ولذلك كان لابد للباحث في سبيل فهم احدهما من فهم التيار الآخر ، لأنهما كليهما يمثلان وجهين متقابلين وقطاعين مضطربين لحياة عربية واحدة .

والواقع " ان الرومانسية تعتبر حالة نفسية وتعبيرا عن تلك الحالة أكثر من كونها مذهبا أدبيا أحل اصولا فنية محل أصول أخرى[1] " وهكذا فاننا نرى أن الوجدان الفردي أو التيار الرومانسي لا يخلو من دلالة اجتماعية وان كان الأمر يبدو على خلاف ذلك.

فقد نجمت الرومانسية في فرنسة عن شعور الخيبة المرير اثر انهيار الأمجاد التي توسمها الفرنسيون في نابليون حتى خيل الى شبانهم كما قال (موسيه) ان كل باب من أبواب قراهم يقود الى عاصمة من عواصم أوروبا. ولايكاد يختلف عن ذلك ما حصل في الشرق العربي في أعقاب الثورة العربية الكبرى التي نشبت في ظل أهوال الحرب العالمية الأولى ، والتي لم تلبث حتى آل أمرها الى الاخفاق . فعلى تلك الثورة علق العرب آمالا عراضا بعد تحكم تركي دام قرونا مديدة كانوا يرجون بعدها التحرر والخلاص. وهكذا انهارت تلك الآمال وتبددت تلك الأحلام تحت وطأة نعال المستعمرين وسنابك خيلهم. فانطوى الشعراء على أنفسهم وراحوا يلتمسون السبل للتنفيس عن عواطفهم وبخاصة بعد أن ضاقت بهم منافذ القول في ظل الاحتلال والارهاب .

لقد وجد كثير من الشعراء في الرومانسية ضالتهم واتخذوا منها بدافع شعوري أو لاشعوري منفذا يمررون منه آلامهم المكبوتة التي كان لابد لها ان تنطلق من النفوس الشاعرة الساخطة ، فكان شعر كثير مفعم بالنواح والأسى ، واليأس والشكوى . وان منهم من أسرف في ذلك حتى تقطعت الأسباب بينه وبين واقع أمته فهام في عالمه الخاص عالم الطبيعة والرؤى والأحلام.

وقد انطوى الكثير من هذا الشعر برغم ذاتيته على دلالة اجتماعية ذات شأن كبير وبخاصة ما نظمه أول الأمر وفي خلال الحرب الأولى عدد

---

(١) محمد مندور : الأدب ومذاهبه ٤٠

من شعراء مصر من قصائد تنم عن روح المرارة والأسى حين كان شعب الكنانة يلقى من جيوش الاحتلال عنتا ورهقا . وبرغم جنوح الشعراء في هذه الفترة الحالكة للصمت ، كان ما نظمه شوقي وحافظ ومحرم وعبد المطلب ينم عن ضعف في النفوس وخور في العزائم حتى ليخيل الى الباحث أن جذوة النضال قد خمدت أو كادت . وهذا أحمد محرم يقول آنذاك[١] :

يا رب زلزل خصمك المناديا ولقه منك الجزاء الوافيا
هيئ لنا أمنا وعيشا راضيا ولا ترد اليوم منا داعيا

كما يقول محمد عبد المطلب بعيد تلك الحرب[٢]:

يا رب مصر بالاستجار ضعيفها في عبرة تذرى الدموع سجالا
فأذق عدوك سوء ما مكروا به واجعل عواقبه عليه وبالا

ففي هذه الأبيات استسلام الرومانسيين ولجوءهم الى الله وايمانهم بالقدر، وفيها أيضا شيء من الاتكالية والجبرية التي تفشت في كثير من المسلمين في عهود الانحطاط ، اذ ليس بالدعاء وحده تدفع جيوش الظلم . ولاريب أن هذه الروح ان هي الا صدى لما استقر في نفوس المصريين آنئذ من سأم وضيق بعد أن طال أمد الاحتلال في أرضهم ولم يجدوا أي بارقة للخلاص .

على أن هذه الظاهرة تبدو أشد وضوحا في الشام حيث كانت الخيبة مريرة والنفوس في يأس عميق اثر وقوع البلاد في قبضة المحتلين . ولعل فيما تغنى به آنذاك خليل مردم وشفيق جبري وخير الدين الزركلي وعمر يحيى وسواهم خير ما يعكس الوجدان الفردي والجماعي على حد سواء . من ذلك موشح لمردم اسماه (المحزون) وقال فيه[٣] :

ألف الحزن فلو فارقه الحزن بكاه
وجفا اللهو فلو واصله اللهو شكاه

---

(١) محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ، عن ديوان مخطوط للشاعر ٢ : ١١
(٢) الديوان ١٩٦
(٣) جريدة البرق العدد ٢١٣١

نفسه ليس لها غير الأسى من سكن

ورأى الظالم لا يرقب في المظلوم ذمه

فبكى حزنا لمن عرى من عدل ورحمه

وعلى من بشديد الجور والظالم منى

ما أحب العرب الا منذ لاقوا المحنا

فهم قد زرعوا لكن سواهم قد جنى

كم لقوا سوءا بصنع قدموه حسن

فالشاعر المحزون انما يئن في هذه الأبيات المفعمة أسى وحنانا ، متألما من الجرح البليغ الذي أصاب وطنه ، فهو يصور الآم قومه من خلال آلام نفسه . حتى اننا نجد الى جانب ذلك في المقطع الأول من القصيدة ما نجده عادة لدى الرومانسيين من ضيق بالمسرات وتلذذ بالآلام .

وبين عشية وضحاها أديلت دولة ودك عرش حين انهار الحكم العربي في دمشق وهو في عمر الورود ، فانقلب العرس الى مأتم شملت فيه الحسرة النفوس وكانت زفرة لاهبة من خير الدين الزركلي الذي نجا بنفسه الى ربوع النيل يندب ذلك الملك الضائع (١) .

أبكي ديارا خلقت للجمال	أبهى مثال
أبكي تراث العز والعز غال	صعب المنال
أبكي نفوسا قصدت بالرجال	عن النضال
أبكي جلال الملك كيف استحال	الى خيال

بهذه العبارات التي بللها الدمع يناجي الشاعر طيف السعادة الذي ما كاد يلامس تراب الوطن حتى انحسر عنه وتركه مقفرا كئيبا .

وبهذه العاطفة الحزينة كان عمر يحيى يعبر عن أسى بلاده من ضفاف الماضي (٢) :

يالأسى نبكي على جنة كآدم يبكي على جنته

---

(١) الديوان ٢٤

(٢) البراعم ١٣٢

فرحمـة اللـه على أمـة كانـت تصيـد الليث عن وثبتـه

ومـا أعـذب هـذا المزج العاطفى بـين الم الشاعـر وألـم وطنـه وما أبعـد دلالتـه على وجـدان قومـه فى ذلك الحـين اذ يقـول (١) :

عندليـب الروض فى فننـه	مستطـار القلـب من شجنـه
لم يرقـه العيش فى مـدن	ليس غير الظلـم فى مدنـه
فاستطـاب العيش منفـردا	دائـم التغريـد فى وطنـه
" شفـه ما شفنى فبكـى	كلنـا يبكـى علـى وطنـه "

أليس هـذا العندليـب الـذى هـرب من الظلـم الى حيث الانطـلاق والحرية سوى صـورة لنفس الشاعـر المعذبـة ورمـز لمأسـاة وطنـه .

ويزيدنـا شاعـر دمشـق شفيـق جـبرى ايضاحـا لحقيقـة مشاعـر الشعراء فـى تلك الفـترة القاتمـة التى ران خلالهـا على الشـرق العربـى ما يشبـه الذهـول فيقـول معلـقـا على قصيدتـه " حمام الزيزفـون " التى من أبياتهـا (٢) :

شتـان ما قلبـى وقلبـك يا حمـام الزيـزفـون
أنـت الطليـق فمـا تـزال من السهـول الى الحزون
وأنـا المبرح بالسـلاسـل مثـل تبريـح السجـون

" لجأت الى الطبيعـة لعلـى أجـد فى آفاقهـا المديـدة ما يغنينى على التنفس فلم أجـد فى فاتحـة الأمـر الا الحمـام ، وليسـت غايـتى هديـل الحمام وانمـا كانت غايـتى هـذا التناسـب بين نـوحـه ونـوح البـلاد "

ولنستمـع الى الشاعـر نفسـه يناجـى لبنـان بقولـه (٣) :

لبنان أيتهـا الريـاح فانـه	اشقـى لقلـب دائـم الخفقـان
بالله جوزى أرضـه وتـزودى	من دوحهـا متـأرج الريحـان
ومراتـع الغـزلان هجن صبابتـى	هيهـات أيـن مراتـع الغـزلان

---

(١) البـراعـم ٣١
(٢) شفيـق جـبرى : أنـا والشعـر ٢١
(٣) المرجـع السـابـق ٢١

أيمكن أن يكون لشعر كهذا صلة بالوجدان الجماعي وبالعصر والحياة المريبين . ان من تمم البحث أن يوضح الشاعر نفسه أيضا ما استتر خلف أبياته من ثورة حبيسة مضطرمة اذ يقول " لم يكن التغنى بلبنان الا اسلوبا فى التعبير عن ألم البلاد بعد نكبتها " وهو يؤكد هذه الظاهرة فى مكان آخر بصدد وصفه للبحر على هذا النحو أيضا فيقول[1] " لم أر من البحر الا هيجانه وعواصفه وحنقه وبوادره ، وهكذا فان حالة الوطن النفسية ترجع الى ذهنى فى كل مشهد من مشاهد الطبيعة ، وانما الطبيعة فى بعض شعرى كانت سبيلا الى تصوير الشعر الوطنى ".

وكذلك يستلذ هذا الشاعر العيش منطويا على آلامه فى عالم الطبيعة الذى يأنس اليه ولو كان هذا العالم من صنع خياله فيقول[2] :

ياظبية عرضت لنا بالــــوادى	حيراء تحذر وثبة الأرصاد
نفرت من الوراد حين تفيأوا	شجر الأرائك خشية الـــوراد

أهى ظبية الفلوات عنت للشاعر بين الروابى الخضر ، أم انها كانت من نوع ظبية الشريف الرضى التى ترعى القلوب . ان الشاعر يكفينا مئونة التأويل اذ يقول " أية ظبية هذه وأى واد هذا . لم اقصد فى هذه الأبيات القليلة الا ديار الشام وحدها ، لم اقصد الا الوطن وحده ".

وعندما نستمع الى قول محمد عبد المطلب[3] :

نوحى بنات الروض أو فاسجعى	ما أنت بالعانى ولا الموجع
لم تجدى كربى ولم تحملى	نارا عليها تنطوى أضلعى

فاننا لا نكاد نستشف منه سوى ما يبدو لنا من وجدانه الذاتى ولكن الشاعر نفسه وهو المعروف بالصراحة والوضوح آثر فى شعره الآن بطريقة الرومانسيين بعد أن ذكر لنا ان الرقابة اشتدت على الشعر فعدل من التصريح الى التلميح فى اعقاب الثورة المصرية عام ١٩١٩. وكان البيتان من قصيدة نظمها على لسان غزال فى قفص يناجى طائرا فوق شجرة " واذا عدنا الى تلاوة الأبيات من جديد على هذا الضوء انجلت لنا أمور لم تكن مجلوة من قبل.

---

(١) المرجع السابق ٣٤
(٢) المرجع السابق ٢٤
(٣) الديــــوان ١٣٠

كل هذه القصائد والمقطوعات تنهل من منبع واحد هو الطبيعة الحية التى فزع اليها الشعراء بمشاعرهم على نحو ما كان يفعل شعراء فرنسة فى القرن التاسع عشر . لقد كانت المنادل والحمائم والظباء ، كما كانت البحار والأشجار والجبال رموزا حية فى نفوس الشعراء جنحوا لتصوير وجدان أمتهم من خلالها فى شعر رقيق امتزجت فيه العاطفة الذاتية والجماعية مزيجا عذبا رائقا .

أما المهجريون الذين كانوا يعيشون احداث وطنهم بقلوب واجفة ونفوس لاهفة فقد كان التيار الرومانسى لديهم أكثر عمقا وشمولا بسبب ما كانوا فيه من وحشة النفس وألم الغربة واخفاق الحياة . وقد تمثل ذلك بأجلى معانيه فى شعر الحنين المفعم بالشوق الى الوطن واللهفة على لقاء الأهل .

لقد استشف نسيب عريضة فى قصيدته " سلة الفواكه "[1] طيف بلده الحبيب من خلال ثمرات تين ورمان ، وكذلك اطل ايليا أبو ماضى على أهله بعين الخيال من بين المناقيد والدوالى فى قصيدته " الشاعر فى السماء "[2] ، كما أن رؤية الثلج ذكرت رشيد أيوب بربوع دياره وفجرت عواطف الشوق الى أهله[3] ، والشأن نفسه فى قصيدة ميخائيل نعيمة " صدى الأجراس "[4] .

لاشك أننا قد لا نستشف من خلال هذا الشعر الحالم سوى أطياف باهتة لملامح الوطن وحالته التى كان يعانيها ، بسبب طغيان العنصر الذاتى عليه . فقد اتحدت روح هؤلاء الشعراء بوطنهم اتحادا صوفيا لا انفصام له .

ولعلنا واجدون مظهرا آخر للرومانسية المتولدة من آلام الشاعر متحدة بآلام الوطن فى قصيدة لايليا أبى ماضى آثرت فيها نفسه المرهفة الهروب من الواقع الأليم ولم تجد سبيلا الى ذلك غير الكأس[5] :

---

(١) انظر القصيدة فى ديوان الأرواح الحائرة ٩١
(٢) انظر الخمائل ٦٧
(٣) قصيدة فى ديوانه أغانى الدرويش ٧٠
(٤) انظر همس الجفون ٤٠
(٥) الجداول ١١٣

لم يبق ما يسليك غير الكأس	فاشرب ودع للناس ما للناس
الحس مجلبة الكآبة والأسى	قم ننطلق من عالم الاحساس
نرجو الخلاص بغاشم من غاشم	لا ينقذ النخاس من نخاس
ونكاد نفترش الثرى وبأرضنا	للأجنبي موائد وكراسي

نظر الشاعر الى بلاده فلم ير فيها الا واحة قد صوحت • أقام الأجنبي فوق ربوعها الخربة كما يقيم البوم ، وتصرق لحمها فلم يبق فيها سوى العظم والجلد • رأى الشاعر ذلك كله وشعر في قرارة نفسه أن وطنه ضعيف مثله وأنه لا يقوى على دفع الأذى عنه • لقد عجز عن معالجة معضلة وطنه ونفسه معا فاستسلم أمامها الى اليأس وداواها بالهرب• ولم يكن لوذه بالخمرة سوى مظهر آخر للنأى بالنفس عن وعورة الحياة• وكما قال لانسون[1] " ان المذهب الرومانسي في الأدب كان ملجئا لاذ به الشعراء والفنانون فرارا من تعب العيش في كنف الذكاء والتعقل "•

لقد اضطرمت نفوس الشعراء الذاتيين ثورة على الحياة وعلى النفس وعلى الوطن ، ولكنها كانت ثورة اليائسين الذين أدركوا حقيقة عجزهم عن مواجهة الواقع القاهر• ألقى نسيب عريضة شاعر الألم والشقاء بصره الى " وطنه الذى ابتلى بالحرب والمجاعة والضعف فاستطاع أن يغمر كونه النفسي في تيار من الوطنية ، ولكنه لم يجد في صورة وطنه الا صورة نفسه المحملة بالألم • نظر الى وطنه فثار على ضعفه ،كان هو والوطن حينئذ صورتين متشابهتين، وفي قصيدة " النهاية[2] " تبلغ هذه الثورة ذروة حدتها[3] "

كفنوه وادفنوه اسكنوه
هوة اللحد العميق
واذهبوا لا تندبوه
فهو شعب ميت ليس يفيق

هتك عرض نهب أرض شنق بعض
لم تحرك غضبه
فلماذا نذرف الدمع جزافا
ليس تحيا الحطبة

---

(١) انظر ابراهيم سلامة : تيارات من الشرق والغرب عن كتاب تاريخ الأدب الفرنسي بالفرنسية •
(٢) الأرواح الحائرة ٦٥
(٣) احسان عباس ، محمد يوسف نجم : الشعر العربي في المهجر ١٩٧

لا وربي ما لشعب دون قلب
غير موت من هبه
فدعوا التاريخ يطوى
سفر ضعف ويصفي كتبه

" فالقصيدة روح ملتهبة حطمت التفاعيل الرتيبة وانطلقت كالقذائف تقع هنا وهناك " ولكن هذا الانطلاق الفائر المزمجر كالنيزك الهاوي ما يلبث أن يصير الى رماد ... " (١)

- ٢ -

وقد قوى النزوع الرومانسي في مصر وارتفع لواء الشعر الوجداني بظهور جماعة " الديوان " في أعقاب الحرب الأولى حين ثار العقاد والمازني وشكري على الشعر التقليدي سواء في الشكل أو المضمون . وقد آتت هذه الدعوة أكلها بعد ذلك اذ تبنتها جماعة (أبولو) وبخاصة اثر وفاة حافظ وشوقي . ولم يكن لهذا التيار الوجداني الرومانسي أن يسود في مصر كما كان الشأن في الشام والمهجر لولا عوامل اجتماعية وسياسية ونفسية كان يحياها المجتمع المصري في ظل الاستبداد والاستعمار اذ " من الطبيعي أن يطغى في تلك الفترة التيار الرومانسي العاطفي الذاتي حين كان من المستحيل أن يظهر أدب غير أدب الشكوى والانين . فالشاعر لا يستطيع أن يتحدث الا عن نفسه وأحلامه وغرامه وأشواق روحه ، أو أن يهرب من الجحيم الذي يحيط به الى الطبيعة ومناظرها وملاهيها يتعزى بها عن آلامه وآلام قومه دون أن يستطيع الافصاح عن مصدر هذه الآلام أو يدعو الى التخلص منها " (٢) ولايبعد أن يكون في كثير من هذا الشعر ما ينم عن الوجدان الجماعي مما يتعذر الكشف عنه الا من قبل الشاعر نفسه على نحو ما رأينا في قصائد شفيق جبري المماثلة .

وليس جنوح عدد من شعراء الشرق العربي من جهة أخرى للتعلق بالماضي وبكاء السلف الغابر والترحم على المجد الزائل الا مظهرا آخر من مظاهر

---

(١) احسان عباس ، محمد يوسف نجم : الشعر العربي في المهجر ١٩٧ - ٢٠٠
(٢) محمد مندور : الشعر المصري بعد شوقي ٢ : ٤

الوجدان الجماعي العربي تجلى أيضا في الهرب من الحاضر المؤلم ولم يكن ذلك يختلف في جوهره عن اللوذ بالخمرة أو الطبيعة والسكون اليهما من وطأة الواقع المرير.[1] وظاهرة البكاء والتفجع تتجلى في أعقاب النكبات والخطوب اذ تتشح فنون القول بالسواد على نحو يذكرنا بأدب الشيعة في العهد العباسي حين انطوى الشعراء على أنفسهم يجترون ذكرياتهم ويندبون سالف عزهم ، أو يذكرنا بعدد من شعراء الاندلس الذين بكوا غابر أمجادهم.

وقد احتفظ التيار الوجداني بكثير من مقوماته في الشعر العربي المعاصر لأنه متأصل في النفوس عميق الجذور بذاتيتها . وظل كثير من الشعراء يؤثرون هذا المزج المحبب بين الذاتية والموضوعية على نحو ما وجدناه لدى خليل مردم وخير الدين الزركلي ونسيب عريضة وايليا أبي ماضي وسواهم.. الا أن الجو الضبابي الذي كان يلف كثيرا من الشعر الرومانسي ويسمه ببعض الغموض أخذ يتقشع شيئا بعد شيء وغدا بعض الشعر أكثر جلاء في الدلالة على الوجدان الجماعي الى جانب مقدار غير قليل من المشاعر الذاتية ، من مثل ما نجده في قول عمر بهاء الأميري في ديوانه القومي[2] :

أنا في أمتي غريب معنى	أنا في موطني سجين برمس
كيف اسلو والخطب خطب بلادي	والفقيد العزيز ريحان نفسي

فمن العسير الفصل في مثل هذا الشعر، برغم وضوح المقصد فيه ، بين أسى البلاد وأسى الشاعر.

لقد جنح كثير من الشعراء لتصوير حالة قومهم من خلال نفوسهم فيما يشبه الحلول المتبادل الذي أشار اليه (بودلير) في أن العالم الخارجي يحل في نفس الشاعر وتحل هذه النفس بدورها في العالم على نحو يشبه وحدة الوجود لدى المتصوفة .

وهكذا فان خيطا مشتركا كان ينتظم نفوس الشعراء كما كان ينتظم وطنهم على السواء . اتحدت آلامه بآلامهم ووجدوا في شقائها خير ما يتجاوب مع شقائهم . والرومانسية في طبيعتها حدة وسخط ، وتمرد وثورة . ولكنه

---

(١) راجع فصل " الماضي المشترك " في أواخره من هذه الدراسة

(٢) ديوان " في بلادي " مخطوط

السخط الذي لا يدري الهدف والثورة التي لا تتبين معالم الطريق .

لقد كان هؤلاء الشعراء في شعرهم الذاتي يعيشون بعض حياة مجتمعهم وان لم يكونوا يعيشون في صميمها ، يتألمون دون أن يفصحوا ويحجمون دون أن يبينوا ، حتى بدا لنا الواحد منهم في احيان كثيرة أنه يعيش لنفسه في حين أنه كان كما قال أبو ماضي :

هو من يعيش لغيره ويظنه   من ليس يفهمه يعيش لذاته

وهكذا فاننا بجانب الصواب اذا رحنا نلتمس طغيان هذه الموجة القاتمة من خلال العوامل الذاتية النابعة من نفوس الشعراء فحسب مهما تبد لاعيننا انها تنم عن منزع ذاتي محض ، اذا لم نأخذ بعين الاعتبار واقع العرب ووجدانهم الجماعي في ظل تلك الظروف السياسية والاجتماعية . ولم يكن تيار الرومانسية بما ينطوي عليه من تشاؤم وخيبة ومرارة واتجاه الى العزلة ، ليطغى على الشعر المعاصر في فترة من حياة العرب لولا ملاءمة الظروف الاجتماعية له .

وقد تبين لنا على ضوء ذلك أيضا أن الشعر الرومانسي والشعر الثائر كثيرا ما انبثقا معا في القصيدة الواحدة على نحو ما وجدنا في شعر جبري ومردم وعريضة وغيرهم من دلالة اجتماعية وذاتية معا .

والظاهرة الطريفة أن كثيرين من الشعراء الرومانسيين كانوا في الوقت ذاته في طليعة من مارس الشعر القومي من مثل الشاعر القروي والياس فرحات وأحمد زكي ابي شادي وأبي القاسم الشابي والأخطل الصغير وابراهيم طوقان ومحمد مهدي الجواهري وعمر أبي ريشة وأنور العطار ومحمد العدناني وعمر الأميري ونصرة سعيد وسواهم ممن استشهدنا بنماذج من شعرهم القومي في ثنايا هذا البحث . فقد جعلوا شعرهم موزعا بين خفقات قلوبهم ونداءات بلادهم وقدموا لنا اصفى الشعر القومي والوجداني على السواء . وكانت دواوينهم في الغالب تعكس هذه الظاهرة بجلاء ، حتى اننا نجد من بينهم من كان يقصر بعض دواوينه على الشعر الوجداني ، ويقصر بعضها الآخر على الشعر القومي . بل انه مر بنا في الفصول المتقدمة قصائد تلتهب بالثورة والحماسة لأشد الشعراء اغراقا في الرومانسية كقصيدة " الأسد السجين " لمحمود أبي الوفا (١) ، أو قصيدة " نشيد الثورة "

(١) اشواق ٥٦ وانظر في ص   من البحث

و " الشاعر الشهيد " لحسن كامل الصيرفي (١) .

فماذا يعني ذلك وهل ينسنى لغرضين من الشعر يبدوان متباعدين متنافرين أن يجتمعا في شاعر .

ان الاجابة على هذا التساؤل تقتضي أن نلاحظ أنه في طبيعة الرومانسية ثورة وسخط وانطلاق ، وان عددا من اعلام الرومانسية في اوربا جعلوا من شعرهم بل ومن أنفسهم وقودا للمبادئ التي اعتنقوها بقسوة وعمق من امثال بايرون وبيتوفي ومسكيفتش . تطوع بايرون للذود عن استقلال اليونان وسقط في تلك الحرب شهيد عاطفته الانسانية ومبادئه المثالية . والكسندر بيتوفي شاعر المجر في القرن الماضي سقط في ساحة المعركة دفاعا عن حريبة وطنه ضد الغزو النمسوي ، كما سيم معاصره الشاعر البولوني آدم ميسكيفتش النفي والتشرد لوقوفه ضد حكام روسيا وتصديه لاستبدادهم في بلاده . ولايكاد يختلف عن ذلك مواقف عدد من شعراء العرب في هذا العصر مثل محمد سعيد الحبوبي رائد الشعر العراقي الحديث الذي انتضى سيفه ابان الحرب الاولى لمناضلة الانكليز وعمر حمد الذي علقه الترك على عود المشنقة وسواهم ممن استشهدوا أو اضطهدوا أو شردوا أو صدرت عليهم احكام السجن والاعدام ... اذ أن الحساسية المفرطة التي يتسم بها الشاعر الوجداني وما جبل عليه من تفهم عميق لطبيعة الألم كانت تدفعه ـ وبخاصة اذا كان يتحلى بشيء من الايجابية الاجتماعية في مواقفه ـ الى التجاوب مع آلام الآخرين والنزول الى أودية الشقاء ليمسح دموع البائسين .

ومن جهة أخرى فان حدود الوجدان الفردي والجماعي كثيرا ما تتداخل في نفس الشاعر وبالتالي في الأثر الأدبي بحيث يبدو من العسير تمييز أحدهما عن الآخر . وهذا يعني اننا ننفي ما يأخذ به بعض النقاد من تقسيم الشعر الى ذاتي وموضوعي لأن هذا التشطير الصارم يغاير طبيعة العمل الفني ، ويقتضي بالتالي فصل الذات عن الواقع فصلا تاما .

والحق أنه لابد في كل أثر أدبي من عنصر ذاتي هو بالضرورة متن مقومات ذلك الأثر ، الا أن هذا العنصر الذي يبدو ذاتيا ينطوي في الوقت

---

(١) الشروق ٨٩، ٩٦ وانظر في ص ٣١٧ من هذا البحث

نفسه على قدر من الموضوعية التى يستمدها الأديب مما حوله باعتباره انسانا يعيش فى مجتمع وليس بوسعه الانفصام عنه بصورة مطلقة. والعمل الفنى يعتمد على الايصال قبل كل شئ ، وهذا الايصال يقتضى اشتراك الشاعر مع الآخرين فى المشاعر وصدوره فى شعره عن قدر مشترك من مؤثرات الحياة الخارجية وانطباعها فى نفسه ونفوسهم على السواء. ولا وجود لأدب موضوعى محض برغم ما يبدو من تصوير القاص أو المسرحى لأبطاله الذين يتباينون فى السمات والأمزجة عن طبيعته ذاتها ، وبرغم ما يبدو أيضا من تعبير الشاعر عن مشاعر قومه. لأن هذا العنصر الموضوعى الخارجى يغدو ذاتيا داخليا فى نفس الشاعر عندما تلفحه حرارة العاطفة وتصهره جذوة الانفعال.

وعلى ذلك فان عنصرى الذاتية والموضوعية أمران لا غنى عن وجودهما معا فى العمل الأدبى ، الا اذا أمكن وجود عصا ذات طرف واحد أو نسبنا القطع الى احدى شفرتى المقص دون الأخرى. وقد يطغى احدهما على الآخر فى القصيدة مثلا ويضمحل ولكنه لا يستقل بوجوده ولا يتلاشى.

وهكذا لايمكن ان نفصل فصلا تاما بين الجانب الوجدانى والجانب الجماعى فى الشعر القومى ، كمالم نستطيع ذلك فيما عرضنا له من الشعر الرومانسى ، ذلك لأن جوهرهما واحد وهو الانفعال. والفرق الأول بينهما يعود الى تميز المضمون واختلاف الموضوع.

ولعل أبرز مثال على ذلك ما مر بنا من قصائد ومقطوعات فى رثاء الشهداء أو الاشادة بالبطولات أو التغنى بالاتحاد وبالاخاء أو غير ذلك.....

وان من الشعر القومى ما كان شديد الشبه بالشعر الحماسى القديم الذى يتسم بالطابع الذاتى الغنائى وتتجلى فيه أيضا مشاعر الجماعة على السواء. وما الشعر الحى الا عصارة العالم الخارجى ممتزجة بحرارة انفاس الشاعر.

- ٣ -

على أن التيار الرومانسى الذى ظهرت بوادره قوية فى الجيل الذى نشأ وترعرع فى أعقاب الحرب الأولى وعب كثيرا من أشعار بايرون وشللى ولامارتين وموسيه ، بلغ حدا من الطغيان جرف معه عددا من الشعراء بعيدا

عن قضايا المجتمع وكاد يقطع في كثير من الأحيان ذلك الخيط الواهي الذى يشده الى الحياة ، وكان ذلك نتيجة لانعزال رهط من الشعراء عن مجتمعهم ، وايمانهم الضعيف غير المستقر بهذا المجتمع فقد غمرتهم ـ وبخاصة في مصر ـ موجة قاتمة من المشاعر تجلت أحيانا في اسماء دواوينهم من نحو الشفق الباكى والانفاس المحترقة والألحان الضائعة أو في أسماء قصائدهم كالوتر المحطم والنارنجة الذابلة وزهرة في كفن وما الى ذلك... بحيث يخيل للناقد أن مرض العصر قد انتقل الى الشرق العربي واشتمل بسوداه الشعر والقصة والموسيقى والغناء وغيرها من مظاهر النشاط الانسانى.

وهكذا بدأت الرومانسية في الادب العربي الحديث ثورة كشأنها في الآداب الأخرى ، وأمست آخر الأمر مرضا ، واذا بهذا الأدب المسرف في رومانسيته أدب الرجل المريض كما نعته (غوته)[1]. وما غدا مريضا الا لأنه كاد ينقلب الى وساوس وأوهام أو رؤى وأحلام من عالم غريب، وذاتية ضيقة تختفي معهما معالم المشاعر المشتركة المألوفة بين الناس. وبذلك لم يعد يمثل في كثير من نماذجه أدب الحياة بشكلها الطبيعى بعد أن اقتصر على تصوير وجهها القاتم غير الصحيح.

وكان لابد من ثورة جديدة على تلك التى كانت ثورة في أول أمرها. لقد فطن الشاعر العربي الحديث آخر الأمر أن عليه أن يهبط من برجه العاجى ويزهد في اصطياد الفراشات الملونة ومناجاة الأطياف الحالمة ، وبدأ يدرك أن الأديب ليس كدودة الحرير تدور حول نفسها وتصنع سجنها بيديها وانما هو من يحس بمشاعر الآخرين ويشعر أنه خلية فعالة في جسم أمته النابض بالحياة ، يعيش بين الناس ويبتسم للحياة ويؤمن بالمستقبل.

وبدا جليا في الحياة الأدبية المعاصرة أن الدعوة الى ارتباط الأديب ارتباطا أوثق بمجتمعه وصدوره عن واقع الحياة اخذت تقوى ويتنبه شأنها ويشتد أزرها . واذا هذه الدوحة الرومانسية الوارفة الظلال التى عاشت زمنا في وادى الفن متلفعة بضبابه قد صوحت نضرتها وجف نسغها وادركها الهرم والذبول . فلم تعد تقوى على الثبات طويلا بعد أن أخذت تهب عليها في هذا العصر عواصف الواقعية الجديدة . ولم يستيقظ الشعراء

---

(1) انظر Jean Giraud : L'école romantique francaise P 17

الصادرون من شطحات تهويمهم آخر الأمر الا على دوى مدافع الحرب العالمية الأخيرة حين أخذ الشعر القومي والاجتماعي يزحف الى قرائح أبعد الشعراء اغراقا فى الرومانسية . لقد أشرقت شمس الواقعية ساطعة تبدد حجب الضباب وتنير زوايا الحياة .

الا أن هذه العواصف على قوتها لم تستطع أن تقتلع تلك الدوحة من جذورها بسبب عمق النزعة الوجدانية وتأصلها فى النفوس ولأنها كانت وستبقى على الدوام تلبى حاجات غلابة فى النفس الانسانية .

الفصل الثالث

الفن للحياة

" ا "

لعل تعريف " ماتيو ارنولد " بأن " الشعر نقد للحياة " افضل ما يحدد ماهية هذا الفن ومهمته . فهو يقتضي من الشاعر أن يدرك العالم ويفهم الحياة بصحة ودقة وعمق وشمول ، ليكون ذلك كله خير غذاء لفنه الذي لابد له من أن يكون متأثرا بالواقع ، لانه يحيا في نطاقه وينبثق عنه .

لقد تعلق البشر في طور طفولتهم الانسانية قديما بالشعر الملحمي ثم اولعوا بشعر المديح والهجاء والفخر ، وبعد ذلك آثروا الشعر الوجداني أو الشعر القومي والانساني ، الى جانب ايثارهم الأدب الروائي .

وعلى هذا فان ذوق العصر قد لا يستسيغ اليوم مثلا شعر الزهد والتصوف لأنه يغاير حاجات نفسه وطرز حياته ، كما أن الجيل المقبل قد لا يجد غناء في شعرنا القومي والاجتماعي بعد أن يقطف ثمرة تحرره الكامل ، وينعم بالاطمئنان والرخاء . ولكن مما لاشك فيه أنه في هذا العصر ، وفي هذه المرحلة التاريخية يحظى الشعر القومي باهتمام المجتمع العربي ويتجاوب مع تطوره وواقع حياته .

وقد يكون من اليسير أن تتجنب بعض الفنون المضمون الاجتماعي وتتعلق بالعنصر الجماعي المحض كما هو الحال في الموسيقى مثلا . لكن الأدب بطبيعته لون من النشاط الذهني والنفسي وللافكار والمعاني والآراء والمعتقدات أهمية كبيرة في تكوينه . وما الشعر مجرد لفظ وايقاع وطيف خيال ، وليس بوسع الأديب أن ينفلت بصورة مطلقة من واقعه . وان جنح لذلك هام في بيداء الوهم وكذب على نفسه وعلى جمهوره . انه كالنبت مشدود أبدا الى الأرض مهما خيل اليه انه سما وعلا . وقد عبر ايليا أبو ماضي عن هذه الحقيقة أجمل تعبير حين قال :

علمتني الحياة في القفر أني	اينما كنت ، ساكن في التراب
خلت أني في القفر اصبحت وحدي	فاذا الناس كلهم في ثيابي

وما جدوى النغم العذب اذا كان الآخرون لا ينصتون بصداه ، والنور الساطع اذا لم يكن فيه هدى للناس .

لقد كان الشعر العربي في بعض أطواره القديمة سجلا حافلا لحياة أمة عريقة عاشت حقبا متطاولة من الزمان " ولو اننا عدنا الى المصطلح التقليدي للشعر العربي لوجدنا أنه قد نشأ أصلا للخطابة في الجماهير حين كان الشعر ينشد حول الكعبة أو في الأسواق أو في قصور الملوك والأمراء على مسمع من الناس ليؤدي غرضا ويعالج مشكلة ، ومن هنا كان الشعر شديد الارتباط بالقبيلة تذوب فيه عاطفة الفرد في عواطف المجموع " (١) . لقد ذكر ابن رشيق ان القبيلة العربية كانت (٢) " اذا نبغ فيها شاعر أتت فهنأتها وصنعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعون في الأعراس ، ويتباشر الرجال والولدان لأنه حماية لأعراضهم وذب عن احسابهم وتخليد لمآثرهم واشادة بذكرهم " وهذا يعني أن العرب كانوا يرون في الشاعر فردا ممتازا وأنه ايضا سلاح فعال في صون كيان قبيلتهم — مجتمعهم الصغير . وما حماية الأعراض والذب عن الاحساب وتخليد المآثر التي ذكرها ابن رشيق الا تحديد لرسالة الشاعر العربي في القديم وتأكيد لدوره الايجابي في قومه . ولايكاد ذلك يختلف في مفهومنا اليوم عما نعنيه في المجتمع العربي الكبير من حماية لحقوق البلاد واستقلالها وذب عن حرية المواطنين وكرامتهم وتخليد لمآثر العرب وأمجادهم . فالأدب الجاهلي كان يمثل الى حد كبير حياة العربي وقبيلته وناقته وترحله ونزواته وصحراءه وصيده . وأتى الاسلام فجند الشعر في معركة الدعوة الجديدة وبناء مجتمع قويم ، وفطن الى دور الشاعر الايجابي ورسالته نحو مجتمعه . ثم خاض الخوارج والشيعة بشعرهم معركة الرأي والعقيدة والسياسة وكانوا صادقين في التعبير عن منازع عصرهم وخوالج نفسهم على السواء .

ان هانئ بن مسعود كان هادفا في خطبته يوم ذي قار حين وقف مع قبيلته في وجه اعتداء الفرس ، وكذلك كان امرؤ القيس في موقفه ضد

---

(١) محمد مندور عن جريدة الشعب عدد ٥٩٥ السنة الثانية

(٢) العمدة ١ : ٣٧

قتلة أبيه ، وعنترة المناضل في سبيل تحرره من العبودية الاجتماعية، وأبو فراس في صراعه وقومه مع الروم ، والمعرى الذى التزم في لزومياته بالدعوة الى ما يعتقد فيه الحق والصدق واصلاح النفس والعدالة الاجتماعية.

ولئن حاد الشعر العربي بعد ذلك عن هذا الطريق ، فانه لم يخل من دلالة اجتماعية في العصر العباسي بما اتسم به من لهو وجسد ، وعبث وزهد .

= ٢ =

وكما شاع في عصور أجدادنا شعر ماجن ، شاع في عصرنا أيضا أدب عابث مكشوف ، وتعايشت بذلك نزعات شتى جنبا الى جنب لم تخل العلاقة بينهما من الصراع في كثير من الأحيان .

ومما ساعد على ازدهار التيار القومي والاجتماعي في الشعر الحديث ، وتوجه الشاعر المعاصر نحو المجتمع انتشار الطباعة " وذيوع الصحف وتنوع وسائل النشر ، وهذا ما صرف الشاعر عن البلاط وعن الحاكم ودفعه الى الجمهور ، وصار لزاما عليه في هذا الطور الجديد أن يتجاوب مع عامة الشعراء ويستوحي مادته من المجتمع وأحداثه وأوضاعه ، وأصبح أكثر ما يفكر فيه الشاعر أن ديوانه سيقرأه كثير من الناس وأن قصيدته ستنشر في الصحف وسيقرأها جمهور ضخم ، وهو حريص على ارضاء هذا الجمهور يتغنى له بما يهمه في حياته العامة من أفكار وآراء . وبذلك أخذت تختفي حياة الشاعر الخاصة وعواطفه واهواؤه بينما أخذت تتضح حياة الجمهور وعواطفه واهواؤه "(١) وقد وجهت الفلسفة السياسية الجديدة التي اعتنقها العرب في حياتهم المكافحة وجدانات الشاعر الضيقة المنعزلة عن الحياة والواقع الى تبنى قضية الأمة أيضا ومصيرها ، دون أن يكتفي بخواطره المتناثرة وعواطفه المنسابة .

ومع أن التيار الوجداني مازال يحتفظ بمكانة مرموقة في الأدب الحديث باعتبار العاطفة من مقومات الفن ، فإن من الواضح أن شعر الوجدان الجماعي

---

(١) شوقي ضيف : الأدب العربي المعاصر ٤٠

بدأ يزاحم الشعر الذاتي المحض. على أن هذا الأمر لا يعني أن الغلبة لأحدهما تعني القضاء على الآخر فلكل حاجات غلابة في النفس والحياة ستبقى خالدة ما بقي الانسان في هذا الكون .

ولاريب أن من عوامل هذا الاتجاه الجديد الذي عبر عنه الشعر القومي الحديث تضاؤل دور الأفراد في حياة المجتمعات الحديثة ، وبروز ارادة الشعوب في صنع التاريخ .

وهكذا غدا الشعر العربي في اتجاهه القومي والاجتماعي شعرا ايجابيا يؤدي دوره في المجتمع حاملا رسالة الكفاح من أجل تحرر العرب واسعادهم . وعلى ذلك كان الشعر القومي كل عمل فني يصدر عن شاعر يتحسس خلاله بمشاعر أمته ووجدان مجتمعه .

" وليس من الضروري أن يكون الشعر في الدفاع الصارخ عن القومية حتى نسميه قوميا ، لأن قومية الأدب هي قبل كل شيء في تمثيله المجتمع الذي يحيط به والشروط التي يجب توافرها في الأدب ليكون قوميا هي نزاهة الاحساس وصدق التعبير عنه والقدرة على النقل والايحاء ، والبقاء في محور الأمة فكريا وعاطفيا ولغويا "(١)

ولما كان المجتمع العربي يعيش احداثا جساما لا يستطيع الأدب معها أن يبقى بمعزل تام عنها ، أخذ الأدباء منذ فجر النهضة يعبرون عن واقعهم ، حتى أصبح للأدب قضية آخر الأمر ، وغدا الشعر القومي ركنا أساسيا من حياتنا الأدبية المعاصرة .

وعندما يجنح الأديب العربي للتعبير عن منازع مجتمعه باعتباره واحدا من أعضائه ، ويحدد موقفه تجاه قضيته ، ويبشر بأهداف يعتقد أن فيها خيره وسعادته ، ثم يحمل في كل ذلك تبعات ما يصدر عنه من رأي في عمله الفني ... حينئذ يغدو أديبا واقعيا هادفا ملتزما .

قد يكون الالتزام بمفهومه المذهبي سرى الى الفنون على نطاق

---

(١) أمجد الطرابلسي : انظر محاضرات دار الكتب الوطنية بحلب لعام ١٩٥٢ ص ١٨٢ محاضرة الأدب العربي بين الأدب القومي والأدب الانساني .

واسع فى اثر الحرب العالمية الثانية نتيجة حتمية لتطورات وأحداث عصفت بالعالم حينا واجتاحت عقول مفكريه وقرائح فنانيه . ولكن جذور هذا المذهب وبذوره وجدت منذ أصبح للانسان قضية يتبناها ويعمل فى سبيلها ، وعقيدة يعتنقها ويجاهد من أجلها.)

وقد ظهرت بوادر الالتزام قوية لدى عدد من الشعراء المعاصرين فى الوطن العربى وفى المهجر ، جعلوا قضية الوطن وتحريره محور شعرهم. وهم فى ذلك لم يصدروا عن مذهب الالتزام بأصوله وقواعده التى عرفها الغرب أخيرا ، وانما اتسم شعرهم بهذه الظاهرة الهادفة نتيجة لاحساسهم القوى بتبعاتهم الجسيمة نحو مجتمعهم المضطرب . وكل ما صدر عنهم فى هذا الاتجاه — على نحو ما مر بنا فى الفصول السابقة ، كان عفو الخاطر ، يستمدونه من وقائع مجتمعهم الملهمة ، ومن طبيعة نفسهم الأصيلة.

وثمة شعراء استعاروا — على طريقة المتصوفة — لغة الغزل فى مناجاة وطنهم ، هذا الوطن الذى لم يدع فى قلبهم مكانا لحب سواه ، وكأنهم بذلك يشيرون الى عزوف الشاعر العربى عن تصوير الوجدان الفردى وتحوله الى التعبير عن منازع الوجدان الجماعى ، أو اتساع دائرة الغزل من نطاق الذات الضيقة الى نطاق الوطن الرحيب .

(فالشاعر المهجرى أبو الفضل الوليد الذى قصر دواوينه على الشعر القومى وحده ، يعتبر رائد الملتزمين فى أدبنا المعاصر . وهو فى ذلك انما يهيم — على طريقته — بأرض بلاده ، ويتغزل بسحر جمالها ، بل انه يهيم بفتيات من بنات خياله ويجعل العروبة صفة ملازمة لحسنهن الجمال الذى يسبيه جمال العربية ، جمال البدوية التى تعبق فيها رائحة دمشق وبغداد والجزيرة ؛ حتى ليحار القارئ فى كثير من الأحيان فى مقصد الشاعر ويختلط عليه الأمر دون أن يميز بيسر بين افتتانه ببلاده، أو بفتاته بعد أن امتزجا فى شعره امتزاج الماء بالراح فهو يقول[1] :

بغداد لائحة على عطفيك ودمشق قائمة على خديك

---

(1) الأنفاس الملهبة ٩٧

أو يقـــول[1]:

فديتك يا من الهب الحب قلبها	فبرده الطهر الذى يترقـــــون
دعيني أنل مجدا أزين به الهوى	لعل أماني الصبا تتحقـــــق
لعلي أرى الوطـن الـــذى	عليه دمى والدمع والحبر يهرق

وكأنـه أحـد الشعراء المذربـين يناجـى طيف حبيبتـه ·

وشبيـه بهـذا اللـون من الالـتزام نحـو محبـة الوطـن وأهلـه ما نجـده لـدى الشاعـر القـروى فى قولـه يخاطـب فتـاة انكليزيـة يبـدو أن جمالها الساحر حـرك أوتـار قلبـه ولكنـه صحـا الى أمـره وأقصـر عن الاسترسـال فيما هـو فيـه حين راح يقـول[2]:

ولو لم تكونـى فرنجيـــة	لكنـت سعـادى قبل سعـاد
ولكنـنى عربـى المـنى —	عربى الهوى عربـى الفـؤاد
فلا تعذلى شاعرا زاهـدا	وكـم هام بالحـب فى كل واد
فانى حرام عليّ هـــواك	وفى وطـنى صيحـة للجهـاد

ولاريـب أن المشاعـر حين تخـرج من نطـاق القـول والنفـس الى حـيز الفعـل والواقـع لتؤثـر فى مسلـك صاحبهـا فى الحيـاة انمـا هى مشاعـر بلغت الغايـة فى الأصـالة والصـدق ·

وبهـذا الهيـام أيضـا يتغـنى بـدوى الجبـل بحبـه لبلاده ، ويعلـن هجـره للحـب الا حـب وطنـه[3]:

يا بلادى لا تنكريـنى فعندى	لك حـب مخلـد يا بـــلادى
لسـت ذا عدة ولا ذا عديـد	قلمـى كل عـدتى فى جهـادى
أنت فى يقظتى حديثى وأشعـا	رى وانت الاحلام عند رقـــادى
ما تغزلت فى سعاد وهنــد	انت هندى وزينبى وسعـــادى

على أن جميـع هـذه الأبيـات على جمالهـا ما تزال تعتمـد على العنصـر الذاتى

---

(١) الانفـاس المهبـة ١٢١

(٢) الديــــوان ٣٠٠

(٣) الديـــوان ١٨٩

الغنائي بالدرجة الأولى دون أن تبدو فيهما ملامح المجتمع وخطوط قضيته بجلاء .

- ٣ -

وقد أخذت هذه النزعة الجديدة لدى بعض الشعراء تتركز شيئا بعد شيء ، وتتسم بطابع المذهب والقضية . ونجم عن ذلك ما يشبه أن يكون جدلا بين فريقين أحدهما يؤمن بأن الشعر يجب أن يكون للحياة ويشارك في معركة المصير التي تخوضها البلاد ، والآخر يصر على أن يكون الشعر بعيدا عن هذه الأحداث الطارئة لأن الجمال وحده قوام الفن .

والذي يهمنا هنا أن نستجلي بعض هذه الآراء التي أخذ بها الشعراء أنفسهم دون أن نتعدى ذلك الى ما يماثلها لدى النقاد والكتاب . ولعل أبرز ما يطالعنا في هذا الموضوع عدد من المقالات أو الأبحاث أو مقدمات الدواوين التي دبجتها اقلام هؤلاء الشعراء بالاضافة الى قصائدهم الكثيرة في ذلك .

ولاريب أن للمقدمة التي يكتبها الأديب نفسه أهمية كبيرة في تفهم نتاجه ورصد اتجاهه لما تلقيه من أضواء على آثاره الفنية بل ان مجرد اهتمام الشعراء بوضع مقدمات لدواوينهم الشعرية يعتبر في ذاته أمرا جديدا لم يعرفه العرب قديما . وهذا يدل من بعض الوجوه على أن الشاعر الحديث أخذ يصدر فيما ينظمه عن مفهوم أو رأي ، أو هدف أو اتجاه ، وأنه ازداد ادراكا لما ينبغي عليه قوله أو عدم قوله . ولعلهم وجدوا في النثر مجالا أرحب يودعونه آراءهم واتجاهاتهم .

ومن بوادر الدعوة الى ارتباط الشاعر بقومه والتزامه بتأدية رسالته نحوهم ما نجده في ديوان لاسكندر الخوري البيتجالي أحد الشعراء التقليديين في فلسطين . فالملاحظ أولا أنه اختار اسم (مشاهد الحياة) عنوانا لأحد دواوينه الذي قصر فيه منظوماته على شئون المجتمع والحياة والسياسة . ولكن معالم تلك الدعوة ما تزال غامضة باهتة لم تتبلور بعد في نفس الشاعر، فمما يقوله في مقدمته " ان أفضل ما يجب أن يصرف

الشاعر اليه شاعريته هو الشعر الاجتماعي ، لانه باشتماله على عبرة مبكية أو حادثة مضحكة في سبيل اصلاح هذا المجتمع أفضل في نفس القارئ والسامع من سواه من أنواع الشعر "

فالشاعر مع تفضيله هذا اللون من الشعر المتصل بشئون المجتمع ، ما برح يردد ذلك المفهوم القديم حول الشعر وغايته التعليمية المباشرة عن طريق العبرة والموعظة وما الى ذلك.

أما مصطفى الغلاييني فيمكن اعتباره في جملة الشعراء التقليديين الذين بادروا في فترة مبكرة الى اعتناق المفهوم الجديد في شعرهم. ووجدوا فيه غرضا آخر يضاف الى ما عرفه العرب من أغراض الشعر. فهو يقول ممهدا لديوانه الذى صدر عام ١٩٢٥(١) " أغراض الشعر كثيرة يدعو الشاعر الى أحدها ما يكتنفه من المؤثرات فيقوله حكمة وموعظة أو فخرا وحماسة ، أو وطنية وسياسة ، أو غزلا ونسيبا .. وما رأيت أدعى الى الشعر من نوابض الحب وحوائق السياسة ، فانهما تهيجان الشعور هياجا لا يهيجه غيرهما .. يهتاج ما كمن في النفس ان مر به سيال من كهرباء السياسة ويزداد هذا الاهتياج اذا اشتدت الازمة ، وحاقت بالبلاد المصائب من كل جانب ، وطوق الديار مغتصبوها بسلاسل الاذلال والقهر ، وتفيض عند ذلك نفس الشاعر اما بالبكاء لما ناب ، أو باثارة شعور الأمة الخامد يشرح لها الويلات والنوائب ، وينذرها عاقبة الخمول والسكون ، ويذكرها مآثر الأسلاف ، ويزرى مثالب الأخلاف ، فلا يزال يهيب بها حتى تختلج فتتحرك ، فتنهض فتثور ".

هذه المقاطع تشير بجلاء الى تحول الشعر التقليدى نحو ملاءمته روح العصر ، ومواكبته الوجدان الاجتماعي الحديث . والغلاييني برغم مفهومه الموروث للشعر وتقسيمه ، يولي اهتمامه الكبير البواعث القومية في اثارة المشاعر ، بل انه يضع ما يمكن أن يدعى تخطيطا لوظيفة الشعر الاجتماعية ورسالته القومية .

وبدافع من هذا الشعور كاد بعض الشعراء يقتصرون على معالجة الشعر

---

(١) المقدمة ٢٩

القومي فحسب باعتباره الشعر الذى تتطلبه المرحلة التاريخية كما نجد فيما انتجه أبو الفضل الوليد من دواوين ، وما نظمه شفيق جبرى من قصائد كثيرة متفرقة حول هذا الموضوع ، فقد أشار شاعر دمشق الى هذه الاستجابة التلقائية نحو مجتمعه بقوله [1] " لاشك فى أن انصرافى الى الشعر الوطنى والشعر القومى قد حرمنى آفاقا ثانية . فقد جاريت البيئة وتقيدت بالأغراض الغالبة عليها وكان الشعر الوطنى الذى قلته خلال أربعين عاما أغلب هذه الاغراض . فلم أجد لى مندوحة عن مراعاة هذا الشعور فى البلاد . واذا كان الشاعر لسان قومه مهما تختلف الأحزاب وتتنوع المنازع فقد حاولت فى كل فرصة كنت اغتنمها أن أفصح عن شعور القوم ".

وكانت قد ظهرت بوادر السخط تجاه الشعر الذى يبتعد عن معالجة واقع العرب فى مثل قصيدة حسين المنصور التى يأخذ فيها على أحمد شوقى احتفاله بأمور الحكام والسلاطين واهتمامه بشئون الهند والصين واليابان والانكليز ويطالبه بأن يخص العرب بشعره وان يكون شاعر ثورتهم ومن ذلك قوله [2] :

العرب تبغى شاعرا متنمرا	يزجى القريض الثائر الوجدانى
دع عنك ذكر الشرق واخفر يعربا	واخصص بشعرك ثائر العربان
ماذا يهم العرب زلزال سرى	فى الهند أو فى الصين واليابان
ماذا تريد بشكسبير وقومه	وفراعن حكمت مع الكهان ..
أيصح مدحك أمة خداعة	ظهرت باسطول من القرصان

فهو لا يرضى لأمير الشعراء أن يبقى شاعرا مترجرجا بين موضوعات شتى يحيد فيها عن معالجة القضية العربية ويحجم عن التجاوب مع مجتمعه الثائر .

على أن معركة الاتجاه القومى والالتزام به فى الشعر لم تبرز بوضوح الا فى المهجر أول الأمر ، وقد وجدناها لدى بعض الشعراء تتسم فى

---

(١) أنا والشعر ٣٣
(٢) الشاطئ الصخرى ١٥٠

البدء برد فصل تجاه الشعر الرومانسي الحالم ، وذلك في نحو ما صدر عنه أمين الريحاني بصدد نقده ديوان " الأحلام " لشفيق المعلوف وحملته على الشعر الذاتي . ومما قاله مخاطبا صاحب الديوان [(١)] " أشهد انك شاعر ولكنك في الأحلام بعيد عن كنه الحياة والمقاصد الكبرى فيها ، فقد كانت هذه اللهجة لهجة الكآبة والحزن (موضة) في زمن بايرون وموسيه وهي في الشرق خصوصا داء دفين .. ليس الشاعر زنبقة في جمجمة ، انما الشاعر الحقيقي مرآة الجماعات ، ومصباح في الظلمات ، وعون في الملمات ، وسيف في النكبات "

ولكن بعض الشعراء كانوا بالمقابل يرفضون هذه الآراء ويعتبرونها تحط من جمالية الشعر وبالتالي تحد من خلوده وكان منهم مخائيل نعيمة وفوزي المعلوف وشفيق المعلوف وشكر الله الجر وسواهم .. من ذلك رأي معتدل لشكر الله الجر في مقدمة ديوانه " الروافد " اذ يقول [(١)] " ان الشعر الوطني هو أدنى الى الفناء من أي شعر عداه وأقرب ما يتمشى عليه العفاء منطمسا بانطماس الحوادث التي جيشته وأطلقته شملا زافرة . فهذه قصائد حافظ الوطنية قد سبقته الى الموت ، وحافظ أمير الشعر الوطني غير المدافع ، واذا بقي من يذكر لحافظ بعضا من شعره هذا فلن يبقى له غدا من ذاكر عندما تنفض مصر غلها وتنهد الى ميدان الحياة المستقلة بكرا حرة ، وقد خمدت جذوة السياسة فيها . "

وواضح أن الشاعر يعتبر الأحداث الجسام التي تمر بالأمة وتهز المجتمع وتؤثر في مصيره أمورا طارئة سيطويها الزمان ولذلك لا تستحق من الشاعر أن يقف عندها لأن شعره سوف يندثر معها . ولكننا بهذا المنظار نجد الحياة جميعها في تحول وتطور وكل ما فيها مسوق بعجلة الزمان ، فهل يعتبر ذلك مبررا كافيا لترفع الشاعر عن تناولها في فنه . أو ليس الاحتلال ودخول الاستعمار بلاد العرب من الأحداث التي انطوت ، فهل كان على شعرائنا أن يعتقدوا بخلود الأجنبي في وطنهم حتى ينظموا فيه قصائد تصلح في كل حين . واذا سلمنا بوقتية الأحداث القومية التي مرت خيوطها

---

(١) انظر مجلة " العصبة " شباط ١٩٣٥

(١) ص ٣

ينسج استقلال الأمم ويقرر مصيرها ، فهل يستكثر شاعر على شعره أن يؤدى رسالته فى المعركة ثم يدرك قصائده الفناء مع آلاف الشهداء. ومع ذلك فالشعر السياسى غير الشعر القومى ، وقصيدة حافظ التى صورت مظاهرة النساء فى ثورة عام ١٩١٩ والهبت مشاعر المصريين آنذاك لم تبل جدتها برغم انقضاء أكثر من أربعين عاما على نظمها . أما عنصر الخلود فى الفن فليس يكمن فى طبيعة الموضوع بقدر ما يكمن فى طريقة تناوله وفنية التعبير عنه .

وبدافع من ذلك المفهوم مفهوم الفن للفن كان عدد من شعراء المهجر أمثال الشاعر القروى والياس فرحات وأبى الفضل الوليد هدفا لحملات بعضها كان تهما ظالمة ، من ذلك انهم فى ايثارهم السير فى هذا الاتجاه انما يبغون اعتلاء المنابر واستجداء التصفيق وما الى ذلك[1] ..

وكانت الحماسة بين الاتجاهين المتقابلين انتحول احيانا الى مساجلات شعرية لا تخلو من التعريض بالشعر القومى ودعاته . فقد ألقى فوزى المعلوف قصيدة فى النادى الفينيقى قال فيها[2] :

ودع السياسة حربها وسلامها	واحفظ لنفسك فى الحياة سلامها
شط المزار فما صياحك نافع	شيئا وقد ألوت بلادك هامها
والبحر بينك فى الجهاد وبينها	وقاك نيران الوغى وسهامها
واترك لخدام السياسة أمرها	فهى التى اختارتهم خدامها
فاستوح سيناء الجمال قصيدة	تهدى الجمال صلاتها وسلامها

لاريب فى أن هذه الأبيات تكشف عن روح سلبية ضارة ونزعة (اصطفالية[3]) خطيرة حين زعم الشاعر أن بلاد العرب أمست بعيدة وأنه لا شأن للمهاجرين بما يحل فيها من ويلات لأن صياح الشعراء لايمكن أن يجدى وطنا أضحى فريسة فى قبضة الأقوياء.

وقد تصدى الياس فرحات لهذا الانحراف القومى فألقى من على المنبر

---

(١) راجع وديع ديب : الشعر العربى فى المهجر الامريكى ١٣١ ــ ١٣٦
(٢) انظر ديوانه ٣٩٠ وانظر ديوان فرحات هامش ٢٥٦
(٣) تعريب لمفهوم (الليبرالية) اقترحه رئيف الخورى من اصطفل العامية .

نفسه قصيدة يرد بها على المملوب ويقول (١) :

هذى بلادك مسرح لحوادث	جهلت نبوءات الكتاب ختامها
تأبى عليك مروءة عربية	ألا تشارك فى الشعور كرامها
فذوو الحسام رعوا هناك ذمامه	ولك اليراعة فارع انت ذمامها

فالشاعر برده الرفيق يرفض نزعة اللامبالاة عند الشعراء ويدعوهم الى أن يجاهدوا بقلمهم كما يجاهد اخوان لهم بأنفسهم ، وهذا أضعف الايمان.

وقد صدر الياس قنصل عن هذا الاتجاه القومى ، وندد على هذا الفرار بمن يرتأون اشاحة الشاعر بوجهه عما يجرى بوطنه من أحداث بزعم أن ذلك من أمور السياسة وليس له أن يزج بنفسه فى حمأتها (٢) :

قالوا لنا خلوا السياسة انها	افعى يرافقها غراب ناعب
غنوا على وتر الجمال فلحنه	تهفو اليه عواطف ورغائب
ياسادتى اللوام انا عصبة	تأبى التسكع فى الدجى وتوارب
كيف التغنى بالجمال وقيدنا	ركبته من صدأ الزمان مصائب

على أن هذا الاتجاه القومى يبلغ أوج قوته على يد الشاعر القروى سواء فيما كتبه من نثر أو ما نظمه من شعر ، فقد اتخذ من العروبة عقيدة نافح عنها ، ومذهبا اعتنقه ، واحتسب أكثر شعره فى سبيل حياة قومه . ونحن نعجب لهذه النفس المفعمة بالايمان ونكران الذات كيف حل فيها الوجدان الجماعى الى المدى الذى تقول فيه (٣) :

غرضى فوز أمتى لم يكفكفنى عنه تحرش المستفز
لا أبالى شبعت أم جعت والغن شرابى وعزة النفس خبزى
ذل قومى ذلى وان كنت أغنى الناس طرا وعز قومى عزى

أما رأيه فى نقدات خصومه فكان صريحا تجاهها صراحة المؤمن فيما يعتقد ، وهو لذلك لم يعد يكتفى بدفع ما يلصق به بل يعرى بتلك الفئة

---

(١) الديوان ٢٥٥
(٢) السهام ٤٨
(٣) الديوان ٤٦٧

المتحللة من الشعراء التي أدارت ظهرها لبلادها وعقت أمتها (١) :

زعم الاغرار انى شاعر ... ضيق الآفاق محدود الحدود
وستبلى وطنياتى التى ... رفلت منها البوادى فى برود
فغدى استقلال قومى شهرتى ... وأغاريدى وشعرى وخلودى

ثم ينتقل الى الهجوم ببيان رائع :

أرأيتم شاعرا تطربه ... أنة الثكلى على رطب وجيد
ويرى اخوانه تنشرهم ... زعزع البغى على كل صعيد
وهؤلاء ينسب الشعر على ... رنة الكأس بقد وبجيد
ليس هذا شاعر الخلد كما ... وهموا بل شاعر (العصر الجليدى)

فالقروى زاهد فى انسانية موهومة وشهرة زائفة وخلود مزعوم يسمى اليها فوق انقاض وطنه ، وأشلاء قومه .

وشبيه بذلك ما أورده فى مقدمة أعاصيره اذ قال والحالة السياسية فى وطنه على أسوأ ما تكون (٢) " ان صراخ سورية وعويلها يكاد يقض مضاجع النائمين فى المريخ ، ودخان غيظها يوشك أن يبطن القبة الزرقاء بقبة سوداء . افتريدون منا أن نجترح المعجزات فنسمعكم همس الأزهار وسط هذا الضجيج ، ونصور لكم الوان الشفق وراء هذا القتام ".

ثم يستمر فى عرض مذهبه فى الشعر بهذا الايمان فيميز بين نوعين من الشعر ، ويحدد مفهوم السياسة والوطنية فيقول (٣) : " ولاخلاف بيننا الا أن ما نسميه نحن وطنية اخطأتم انتم فدعوتموه سياسة . اننا فى هذا الشعر لم نخض معارك انتخاب ولا تدخلنا فى أحزاب ، ولكننا جهرنا بالحرية وناديئا بالاستقلال وطالبنا بالحق ونشدنا العدل "

وينتقل الشاعر بعد ذلك الى نقد ذلك الشعر العابث ويتهكم بصاحبه الخلى بقوله (٤) : " تمر به قوافل الحياة قطارا تلو قطار وهو واقف ازاءها

(١) الديوان ٣٧٨
(٢) انظر ديوان القروى ٢٤٧ ـ ٢٤٩
(٣) الديوان ٢٤٦ مقدمة الاعاصير
(٤) المصدر السابق ٢٥٠

وقفة العز الأبله بتشطير وتخميس أو يباهى بوصف ساعة معلقة على جدار ، كأن ليس فيما يجرى خلفه وبين يديه من ساعات الهول وأهوال الساعة ما يحرك خاطرا أو يهيج شاعرية "

ثم ينتهى الى تحديد رسالة الشعر في مذهبه قائلا " الشعر الحقيقى هو ما مثل الحياة أكمل تمثيل . والشاعر العظيم هو صورة محيطه الناطقة ، هو دليل أمته الذى يتقدمها كعمود النور فى لياليى محنتها رافعا لواء الحق ، هو بشيرها فى الشدة ، ينعشها بالرجاء ونذيرها فى الرخاء ..."

والجدير بالتقدير ان الشاعر القروى فى اعتناقه الاتجاه القومى فى الشعر وصدوره عنه فى أكثر شعره ، لم يقع فيما يقع فيه دعاة المذاهب عادة من تزمت وتطرف فيما يرونه ويبشرون به ، ولم يجعل من خطوط مذهبه قيودا تضيق على قريحته السهل وتقسرها على السير أبدا فى طريق مرسوم . ولذلك نراه فى دواوينه الأخرى " الرشيديات ، والقرويات " وسواهما حريصا على شعر الوجدان الذاتى ومناجاة ربة الشعر والجمال . الا أنه يعتقد ـ وفى اعتقاده عين الصواب ـ ان الفنان يجب أن يكون فى خدمة قومه فى ساعات الخطر حين تجند الأمة جميع طاقاتها لتصون كيانها من الفناء ، " ذلك ان الشعر الذى تضحك فيه الحياة وترق قوافيه بألحان الحب والغزل أو تعبق انفاسه بنفحات الشباب ، له ساعات تخلو فيه النفس من أعبائها .. ولكنه على كل حال ليس بالشعر الذى يتسم به أدب أمة مقهورة كأمتنا " الواهنة . انه لدولة مرفوعة لواء المجد ممدودة لواء العز ، لدولة أجدادكم فى الشام وبغداد والاندلس لا لدولة الأشيار التى تحتها ترزحون والأصفاد التى فى حديدها ترمضون"(1) .

ويوضح هذه النظرات فى مقدمة أخرى من مقدماته المستفيضة فيقول معللا اقباله على نظم الشعر القومى بقوله(2) : صكت مسمعى أنات أمتى ولفحت وجهى زفراتها ، فطويت جناحى عند سريرها مخضعا خيالى لواقعها الأليم ، مقدما واجب تمريضها على التغريد فى الخمائل والتنقير بين الحقول.

---

(1) انظر ديوانه ٢٤٧
(2) مقدمة ديوان القروى و ل

ولو أنني أدركت أمتي صحيحة قوية لحلقت مع الأسراب في ألف سماء بعد سمائها "

وقد تكون هذه الآراء التي توج بها رشيد سليم الخوري دواوينه وكان شعره تطبيقا عمليا واعيا لها ، أقوى دفاع عن الاتجاه القومي دبجته يراعة شاعر. وتعتبر من ناحية أخرى مظهرا بارزا لاشتداد نزعة الالتزام في الأدب العربي الحديث التي بلغت أوجها في أعقاب الحرب العالمية الأخيرة لا في الشرق العربي فحسب بل في العالم كله .

« ٤ »

واذا كنا قد وجدنا في بعض قصائد الشعراء وفي مقدمات دواوينهم ما يلقي مزيدا من الأضواء على نزعاتهم الفنية ، ويساعد على رصد اتجاهاتهم الفكرية فان ظاهرة " الاهداء " تعتبر بمثابة رمز يشير به الشاعر الى ما يعتمل في أعماقه من بواعث ساعة يدفع بديوانه الى المجتمع . فبعد أن كانت دواوين الشعراء الى عهد قريب تهدى الى السلاطين والملوك والحكام على نحو ما فعل شوقي حين أهدى الجزء الأول من ديوانه " الى سر اسماعيل" أخذ الشعراء يرغبون شيئا بعد شيء عن هذا الاتجاه برغم أن عددا ضئيلا منهم استمر في اهداء شعره الى أولي الأمر (١) .

والواقع أنه يمكن عد الاهداء في كثير من الأحيان بمثابة مفتاح للديوان ينبيء عن نظرة صاحبه الى الفن والحياة فقد يشير الى نزوع الشاعر الى الرومانسية أو ايثاره للشعر القومي أو الاجتماعي وقد ينم أيضا عن اتجاهه السياسي وتعلقه بأذيال حاكم أو صاحب سلطان . وما أكثر من افتتحوا دواوينهم باسم الأمة العربية (٢) أو اهدوها الى العروبة ، أو خاطبوا القارئ العربي بمثل هذه العبارات " اذا كنت حرا عربي اللسان ، وطني النزعة تغار على لسانك من العجمة وعلى وطنك من الاستعمار ، وقد أبت عروبتك الاستسلام للضيم ، فثأرت لقومك وبلادك فاليك اهدي حماسياتي " (٣)

(١) انظر ديوان جميل الكاظمي وقد اهداه الى فرع الدوحة الهاشيمية
(٢) أبو الفضل الوليد في ديوانه " الانفاس الملهبة "
(٣) محمد كامل شعيب العاملي في ديوانه " الحماسيات "

ومن جهة أخرى اتجه عدد من الشعراء في اهدائهم دواوينهم الى زعماء وأبطال كان لهم شأن في حياة العرب الحديثة من مثل سعد زغلول والحسين وفيصل وغازي وسلطان الأطرش وسواهم ممن كانوا في مثل منزلتهم.

على أن أسمى آيات الاهداء بصورة عامة ارتفعت الى شهداء العرب الذين قضوا دفاعا عن قوميتهم . وقد استأثر موضوع ضحايا الفداء بجانب كبير من الشعر القومي . فلم ير الشعراء في الغالب أجدر من أولئك الضحايا بأن يهدوا اليهم ذوب قرائحهم وعصارة قلوبهم ، والجود بالنفس أقصى غاية الجود . من ذلك ما نجده في ديوان بدر الدين الحامد[(١)] ومحمد علي الحوماني[(٢)] ومحمود الحبوبي[(٣)] وغيرهم من اهداء لشهداء بعينهم أو ما نجده من جهة أخرى مصدرا في مجموعة ديوان الثورة السورية ، وفي دواوين مصطفى الغلاييني وبدوي الجبل ، ومحمد مهدي الجواهري والياس قنصل وغيرهم من الذين أهدوا غرر قصائدهم " الى تلك الدماء الزكية المراقة في سبيل الاستقلال "[(٤)] أو " الى من قضوا في سبيل العرب ومن يقتفي أثرهم مجاهدا "[(٥)] أو " الى من اختاروا عامدين مصرين صامدين طريق الحرية والتحرر والخلاص والى ضحايا الجور والحقد والانتقام "[(٦)] الخ .

وهكذا حرص هؤلاء الشعراء على أن يستوحوا مادة شعرهم من صميم أمتهم وأحداث مجتمعهم وأن يصدوها اليها شعرا عذبا كما يرشف النحل الرحيق من الزهر ويصوغه عسلا لذيذا . وكان من محصلة ذلك كله أن شق الاتجاه القومي طريقه الى قلب كثير من الدواوين الشعرية التي بدأت تفسح صدرها لشعر الوجدان الجماعي الى جانب شعر الوجدان الذاتي ليرسما معا تلك اللوحة الفنية المتكاملة من حياة الانسان العربي ومنازع قومه . وقد حرص الشعراء باستمرار على أن يفردوا للشعر الوطني والقومي بابا مستقلا في مجموعات شعرهم الى جانب سائر الأبواب في الأغراض الأخرى ، مما يشير الى أهمية هذا اللون في الأدب الحديث واستقلاله بنفسه وتميزه عن

---

(١) اهداء الى الشهيد صالح قنباز
(٢) اهداء الى عبد الرحمن شهبندر
(٣) اهداء الى الشهيد محمد سعيد الحبوبي
(٤) ديوان على مذبح الوطنية لالياس قنصل
(٥) ديوان الغلاييني
(٦) ديوان الجواهري

سواء من ذلك ما نجده تحت اسماء عديدة مثل القوميات أو الوطنيات أو الحماسيات أو نحو الحرية أو ما كان من هذا القبيل . بل ان مثل هذه الأسماء نفسها اطلقت على دواوين بأكملها اقتصر ما فيها من الشعر أو كاد يقتصر على الموضوعات القومية " كأعاصير القروى " و " زمازمه "و"حماسيات" العاملى و " مصريات " أبى شادى و " فلسطينيات " البستانى و " انفاس الوليد الملتهبة " و " نفخات صوره " و " مذبح وطنية تقصل " ونحو ذلك..

كما عرف الأدب القومى الحديث مجموعات من الشعر الوطنى نشرت بمناسبة أحداث جسام المت بالعالم العربى وفى مقدمتها " ديوان الثورة السورية" ثم مجموعة " الفلسطينيات " وكلاهما ضم مجموعة كبيرة من القصائد لمختلف الشعراء العرب .

على أن أمثال هذه الدواوين والمجموعات الشعرية يبقى على كثرته ضئيلا اذا قيس بالفيض الكبير الذى تدفق فى هذا الموضوع فى أعقاب الحرب العالمية الثانية نتيجة ازدهار الوعى القومى فى النفوس ، ومواكبة الشعر وثبات العرب الجريئة وتطورهم الاجتماعى السريع . حتى ان رسالة الشاعر العربى اصبحت مثار اهتمام كبير فى المجال الاجتماعى والفكرى منذ تلك الفترة الحاسمة . وكان انعقاد مؤتمر ادباء العرب فى القاهرة عام ١٩٥٧ حدثا بارزا ، وظاهرة قومية وفنية كبرى . اذ أن قضية الأدب الهادف ورسالة الأديب خرجت الى دائرة رحيبة شملت أدباء العالم العربى بأسره . وكانت توصياتهم نصرا مؤزرا للاتجاه القومى فى الشعر المعاصر. وفى مقدمة ما جاء فيها " أن الأمة العربية تريد لأدبها أن يكون حارسا للقومية العربية وموجها لها ، يسمو بها الى ما يغنى الفكر ويرهف الشعور ويدفع الى عمل "

ان الشعر البديع يصور الحياة ويزيدها حياة ، كما تزيد المرآة النور نورا . وان خير ما يشير الى استمرار اتصال الأديب العربى بالحياة وحمله رسالتها ، استجابة الناس له واقبالهم على أدبه .

الفصل الرابع

الأداء الفني

طبيعته وسماته

ان العبارة فى الشعر تختلف عما هى عليه فى النثر • فهى تحمل شحنة مثيرة وموحية • والمعنى فى الشعر غيره فى النثر ، فهو يخضع للقرينة ويتسم بالمرونة ولا يكون له ذلك المدلول الدقيق الثابت الذى نراه فى النثر •

فالشعر يؤدى معانيه فى حلة من الصور والمجازات والرموز • وهو فى ذلك يوحى ولا يقرر يشير ولا يجزم • والفرق بينه وبين النثر كما يشبهه (ماليرب) كالفرق بين الرقص والسير • فالمرء فى النثر كمن يسير نحو هدف ، متبعا فى ذلك طريقا مرسوما ويقصد اليه قصدا مباشرا متوخيا فيه الاقتصاد فى الخطوات وتوفير الجهد •

وفى الشعر القومى أو الاجتماعى قد لا يهتم الناقد أو الباحث بأحداث العصر التى انطوى عليها هذا الشعر بذاتها بقدر ما يهمه صداها فى نفس الشاعر وانعكاسها فى شعره ومدى ما تثير فى نفسه من دوافع • اذ أن ما يجرى فى نفس الشاعر وما يتصل به هو المعول عليه فى هذا الموضوع ، والانطباع الذى ارتسم فى نفس الشاعر نتيجة المؤثر الخارجى هو قوام الشعر وموضوع النقد على السواء •

صحيح أن المضمون عنصر أساسى فى العمل الأدبى ولا بد من أن يؤثر فى طبيعته ، وأنه لا يمكن تجاهل رغبة المرء فى المعرفة والتطلع الى الحقيقة وتفهم الواقع حين يهتم بتلمس الأحداث كما حدثت بالفعل كأن يرقب فى احدى القصائد نهاية بطل أو نتيجة معركة ، الا أن النفوس تبقى من ناحية أخرى متعطشة لمعرفة مدى الانفعال الذى صدر عن النفوس المرهفة لتشعر بمتعة التجاوب فى حزن أو فرح أو حماسة أو غضب أو رضى أو اطمئنان •

فالحدث الخارجى ليس غاية فى ذاته فى الفن • وليست مهمة الفنان

ان ينقله نقلا حرفيا وأن يكرر نسخا متماثلة عنه لأن في الأصل والواقع ما يغني عن ذلك . والشأن اذن في صدق التجربة وأصالة التعبير عنها .

أ)) أسلوب القصص والرمز

ان طبيعة الأداء الفني تختلف في سماتها من أديب الى آخر . كما انها تبدو من جهة أخرى في ايثار الشاعر طابع الافصاح المباشر عن رأيه كما هو الشأن في معظم ما مر بنا من شعر . وقد تبدو أيضا في لجوئه بدلا من ذلك الى طريقة القصص أو الرمز أي في نقل المضمون القومي مثلا نقلا غير مباشر الى القارئ .

لا جدال في أن العربي منذ العصر الجاهلي كان يؤثر القول الواضح والعبارة الجلية والأداء المباشر . ولعل هذا الأمر راجع - كما يرى الباحثون الى طبيعة بيئته بشمسها الساطعة وصحاريها الواسعة . وما زال الشاعر الحديث يجري على هذه السنة في شعره ، وقد يكون ذلك سبب ضآلة انتشار الرمزية على نطاق واسع بين الشعراء في هذا العصر .

الا أن أساليب الشعراء لم تكن في الواقع تجري دائما على النمط الذي رأيناه فيما مر بنا من قصائد ومقطوعات خلال الفصول المتقدمة . فقد عمدت طائفة من الشعراء في ظل ظروف معينة من الحكم الفاسد ، واتقاء لبطش الاستبداد الى التزام الصمت ايثارا لسلامتهم من أن تعصف بها يد الجور والارهاب . وقد تجلت هذه الظاهرة بأكمل ملامحها في الفترة التي عاشها رجال الفكر والقلم أثناء الحرب العالمية الأولى حين كان سيف " الادارة العرفية " مصلتا على الرقاب سواء في مصر أم في الشام والعراق . وقد ذكر انيس الخوري المقدسي أنه برغم فظاعة ما ارتكبه جمال باشا من اعدام هذا العدد الكبير من زعماء العرب في بيروت ودمشق ، فان أحدا من الشعراء (خارج الحجاز) لم يجرؤ على أن يندبهم آنذاك الا بعد انتهاء الحرب وجلاء الترك عن بلاد العرب (1) . كما أن أجرأ ما قاله الرصافي والزهاوي وسواهم من الشعراء والكتاب لم يكن من الممكن نشره في بلدهم في

---

(1) المواطف القومية في الشعر العربي الحديث . محاضرات مخطوطة .

الشام أو العراق فكانت صحف مصر خير منبر له .

ومن جهة أخرى احتالت طائفة ثانية من الشعراء للأمر فلجأت الى تنكير عواطفها وتمويه مقاصدها في أساليب أقرب الى الرمز أو الطابع القصصي . ولعل أشهر من عمدوا الى هذا النمط من التعبير خليل مطران . وكان هذا الشاعر قد هرب بحريته الى مصر في أواخر العهد العثماني ، وقد حكم عليه جمال باشا غيابيا في جملة من حكم عليهم بالموت . وتعتبر مطولاته في هذا الصدد وفي طليعتها " نيرون " و " مقتل بزرجمهر " آيات فنية رائعة انطوت على انتقاد شديد للطغيان والارهاب . ويرى محمد مندور[1] " ان الخليل قد عمد الى تنكير أفكاره وعواطفه في ثياب التاريخ حيث نراه يتحدث عن ظلم الحكام واستبدادهم في فتك كسرى ببزرجمهر أو احراق نيرون لمدينة روما ليتلهى بمنظر الحريق ، اذ أن طبيعة مطران النفسية لم تسمح لحياته وآرائه وعواطفه بأن تظهر سافرة في شعره ... وكان من شعراء الحرية الذين يعشقونها وتثور نفوسهم من كل طغيان أو استبداد . ثارت نفسه لطغيان العثمانيين وطغيان بعض الحكام المصريين ولكنه لم يستطع ان يجابه الطغيان فاحتال للأمر واختار القصص التاريخي أو الخيالي وسيلة للتغني بالحرية والبطولة والتمرد على الظلم واظهار قحة الاستبداد وتنكره لكافة القيم الانسانية الرفيعة . وكل هذا واضح في مقتل بزرجمهر وفتاة الجبل الأسود ونيرون وغيرها من روائع قصائده ذات المغزى السياسي والأخلاقي "

ففي قصيدة " فتاة الجبل الأسود " اشادة بوطنية فتاة أحبت بلادها وآلت على نفسها أن تنقذها من الغزاة الترك . فتزيت بزي الفرسان وهجمت على العدو ببسالة وفتكت بجنوده حتى وقعت في الأسر . وحين هم الجند بتنفيذ حكم الموت فيها تبين لهم انها فتاة . ومما يقوله الشاعر مختتما قصيدته على لسان القائد المعجب بها[2] :

فما بلد تفتديه النساء   كهذا الفداء بمستعبد

---

(١) انظر كتابه : خليل مطران ٧ ، ٢٤

(٢) الديوان ١ ـ ٧٩

وقد نحا مطران هذا النحو أيضا فى قصيدته المشهورة " مقتل بزرجمهر " التى يقول فيها[1] :

ما كان كسرى اذ طغى فى قومه	الا لما خلقوا به فعّالا
هم حكّموه فاستبد تحكما	وهم أرادوا أن يصول فصالا
لولا الجهالة لم يكونوا كلهم	الا خلائق أخوة أشكالا
لكن خفض الأكثرين جناحهم	رفع الملوك وسود الابطالا
واذا رأيت الموج يسفل بعضه	ألفيت تاليه طغى وتعالى

هذه الحكم الرائعة كالزبدة يستمدها الشاعر من القصة أو المأساة وهى لا تختلف فى جوهرها عن بيته الرائع فى مطولة (نيرون) .

كل قوم خالقو نيرونهم	قيصرا قيل له أم قيل كسرى

وهو يعنى بها جميعا أن الشعب هو الذى ينبت الطغاة بخنوعه وأنه وحده القادر على أن يطيح بهم.

ولا تكاد تختلف قصيدة " اللبن والدم " عن مثيلاتها فى المغزى فهى تحكى قصة أمير جائر دعا ذات يوم اماما ورعا الى مائدته فاعتذر لمرضه وهو فى قرارة نفسه يأبى أن يؤاكل هذا الطاغية . ولكنه اضطر الى الاذعان له واقتصر على طلب اللبن . وحين جاؤوه به استحال لونه احمر كالدم فارتاع الأمير وطلب من الامام تفسير ذلك فأجابه الامام[2] :

هذا نذير لا شفاعة بعده	عند المهيمن أن تصر وتظلم
هدمت فى طول البلاد وعرضها	اعلامها الحكماء أى مهدم
اردد الى هذا الحمى استقلاله	يخلص طعامك يا أمير من الدم

من الواضح أن الشاعر فى هذه القصائد ينطق فتاة الجبل أو ابنة بزرجمهر أو الامام بأرائه الخاصة ويجعلها تعبر عما يريده بهذا الاسلوب القصصى غير المباشر. وقد وجد فى هذا المنحى ما ينفس عن مشاعره

---

(١) الديوان ١ ـ ١٢٠
(٢) الديوان ٤ ـ ٨٣

وآرائه تجاه الطغيان والاستبداد . وهكذا كان مطران يستمد من الواقع أو من التاريخ قصصا يخضعها لفنه ويطبقها بما يمس الوضع الذى يبغى معالجته .

أما جميل صدقى الزهاوى فقد عمد الى ما يشبه هذا التنكير الذى وجدناه فى قصائد مطران . فقد نظم فى موضوع فساد المجتمع واستبداد الحكام ملحمة طويلة بلغت (٤٣٥) بيتا أسماها " ثورة فى الجحيم" (١) تذكرنا برسالة الغفران للمعرى وفيها يتخيل الشاعر نفسه أنه مات ودفن ثم ألقى فى الجحيم حيث التقى بطليمة الشعراء والفلاسفة والمفكرين منهم امرؤ القيس والمتنبى والمعرى والخيام وشكسبير وسقراط وافلاطون وارسطو والكندى وابن سينا وابن رشد وداروين ونيوتن وروسو وفولتير .. وسواهم . وكان هؤلاء جميعا يعانون من عذاب النار ويحتملون لهيبها بصبر وجلد الا أنهم أخذوا بعد ذلك فى التبرم والسخط حتى أفضى بهم الأمر الى الثورة على الجور والطغيان . ومما قاله الزهاوى فى تلك الملحمة على لسان المعرى أحد المتحاورين (٢) :

ان خضعتم فما لكم من نصيب	فى طوال الدهور الا السعير
ما حياة الانسان الا جهاد	انما تؤثر السكون القبور

أو ما قاله على لسان خطيب آخر :

قال : يا قومنا جهنم غصت	بالألى يظلمون منكم فثوروا
قال : يا قومنا أرى الأمر من سوء —	الى الأسوأ الأشنع يسير
قال : يا قومنا احتملتم من الحيف —	ثقالا يعيا بهن البعير
قال : يا قوم اننا قد ظلمنا	شر ظلم فما لنا لا نثور
اجسروا ايها الرفاق فما نا	ل بعيد الآمال الا الجسور
قاوموا القوة التى غشمت	— بالمثل والدهر للقوى ظهير

فالرمز فى القصة الشعرية واضح ، وكأن الشاعر يشير من ورائه الى ما يعانيه

---

(١) نشرها عام ١٩٢٩ وقد تضمنها ديوانه الاوشال
(٢) انظر كتاب ناصر الحانى : جميل صدقى الزهاوى ٦٤
(٢) انظر الأبيات فى القسم الأخير من ديوان الأوشال للزهاوى . وانظر أيضا نصوصها فى " احمد أبو سعد " الشعر والشعراء فى العراق ٥١ ــ ٦٧

الأحرار من اضطهاد ، وما يأخذهم به أولو الأمر من الشدة والارهاب ، حتى علا الأذناب وغدا الأحرار هملا • وقد أكد الزهاوى نفسه بعد ذلك هذا الهدف الثورى فى ملحمته بين يدى الملك فيصل الذى استدعاه على أثر شكاية بعض وفود المترمتين له أمر الشاعر ، فدافع يومذاك عن نفسه ثم قال : " ماذا أصنع يا سيدى ، عجزت عن اضرام الثورة فى الأرض فأضرمتها فى السماء " (١) •

وواضح أن الشاعرين مطران والزهاوى يلتقيان فى الوسيلة وفى الهدف وان كانا يختلفان بعد ذلك فى التناول والأداء ••

وقد نظم خيرى الهنداوى قصة شعرية رمزية سماها " فتاة بغداد وفتاها " (٢) تروى مأساة العراق منذ عهد الترك حتى احتلال الانكليز • مفادها أن فتى العراق خالدا اعتزم الزواج بفتاته زينب بعد حب عميق نما منذ الصغر • وفى ليلة الزفاف حين كان ينتظر فتاته فاجأته " ثلة من جند جنكيز " واقتادته الى سجن هو فى الحقيقة " جب مظلم " بل " قبر ضيق " ولكن ما هى جريرة خالد ••

لقد كان صبا بالعراق وأهله	يثور اذا سيموا الهوان ويشغب
يدافع عن احسابهم وحقوقهم	ويطعن فى صدر العدو ويضرب
اذا كان فى حب الديار جريرة	فكل فتى فوق البسيطة مذنب

ويطول الأمد بالفتى فى سجنه الى أن

أتت وهو فى سيواس أعوام فتنة	بها مزقت جلد ابن جنكيز الكلب

ولكنه لم يكد ينعم بزواجه ويبدأ يداوى جراحات وطنه حتى طاردته تلك الأكلب

ففارق بغداد العراق مكبلا	واخرج منها خائفا يترقب
يحيط به جيش من الهند اسود	ويرئسه طفل من البيض اصهب

---

(١) مجلة الرسالة المصرية سنة ١٩٣٧ العدد ١٩٣

(٢) انظر القصيدة فى رفائيل بطى : الأدب العصرى فى العراق ١٧٤ ــ ١٨٦

ولكن طاقة الانسان محدودة ، فما زال يقاوم العذاب حتى :

رماه بداء السل هم مبرح   وأورده الهلك النوى والتغرب

القصة تصور كفاح العراق في سبيل حريته ، وتبرز المشاق التي اعترضت سعادته . وقد عد الشاعر مأساة بلاده واحدة سواء أكانت في ظل الحكم التركي أم الانجليزي . وما هذه النهاية الفاجعة سوى رمز وصدى لما كان عليه الأحرار بعد اخفاق ثورتهم الكبرى عام ١٩٢٠.

أما موشح " العذراء " (١) لخير الدين الزركلي فهو يحكي قصة احتلال الفرنسيين سورية وسلبهم حريتها واستقلالها . وقد آثر فيه الشاعر أسلوب الرمز حين تحدث عن :

اسرة راضية العيشة باتت في هناء
نعمت آمنة سوء تصاريف القضاء

الا أن طارق ليل متنكر

طبعت في وجهه سيما وجوه الكبراء

اقتحم الكوخ وطلب ان ينزل في ربوع الاسرة لا ضيفا بل مقيما كأحد أفرادها وعرض خدمات مغرية مقابل ان يصبح زوجا للفتاة . ولكن الشيخ والد العذراء اعتذر عن قبول ذلك العرض برغم الالحاح . وعند ذلك لم يجد الدخيل بدا من الافتراء فادعى بأن الفتاة تبادله الحب . ثم اسفر عن وجهه فاذا هو عبد أسود أخذ يقول :

أنا لي أمنية ليس لكم منها مناص
لي عذراؤكم ما ان لها مني محاص
جرحتني بهواها والجراحات قصاص
بيننا السلم اذا شئت والا فالرصاص

---

(١) الديوان

وتنتهي القصة بمقتل الهيثم أخي الفتاة امام عيني أخته وأبيه ،وبانقضاض المصابة على البيت ومن فيه ٠

ومن الجلي ان " العذراء" هي سورية أو عاصمتها دمشق ، والهيثم الشهيد هو يوسف العظمة ، والطارق المتنكر الوقح هو الفرنسي المنتدب ، وهذه العروض التي قدمها ذلك الخاطب المدل بنفسه تمثل دعاوى الفرنسيين بأن سورية منطقة نفوذ قديمة لهم وان سكانها يحبونهم وانهم ما جاءوا مستعمرين بل منتدبين لمعونة الأهل والأخذ بيدهم في طريق الاستقلال ، ولذلك لم يكن لهم بد فيما بعد من أن يكشفوا القناع عن غاياتهم الاستعمارية الحقيقة تحت ضغط الحوادث " ويخوضوا معركة السلاح ضد الشعب الأبي بعد أن اخفقوا في ادراك مراميهم بالخديعة ٠ (١)

وللزركلي قصيدة قصصية أخرى مرت بنا من قبل اسمها (الديدبان) تصور تضحية أحد الجنود بنفسه في سبيل انقاذ جيشه ٠ وقد ترجمها عن الفرنسية ٠ (٢)

ومن الطريف ان نقع على قصيدة لمختار الوكيل اسمها " الدخيل المعتدي" شديدة الشبه بموضوع " العذراء " للزركلي وهي أيضا " قصة رمزية وطنية" (٣) تحكي مأساة فتاة كانت تجلس الى جانب والدها الشيخ الذي يحتضر، واذا بزائر قد قدم يعلن أنه قادر على شفاء المريض ٠ ثم يطلب من الشيخ ابنته ثمنا للشفاء ، ولكن الفتاة ترفض هذه المساومة بإباء وتقول :

ومتى كانت فتاة النيل تشرى وتباع
ومتى احسان كانت تقتنى مثل المتاع

ثم هتف الشيخ " ألا فاطلب اذا شئت سواها"
صرخ الزائر " اني زاهد فيما عداها
وسأبقى رضيت أم كرهت اني فتاها

ويموت الشيخ امام عيني ابنته بيد هذا الدخيل ولم تجد الفتاة " احسان " للحياة بعد ذلك طعما فتغمد الخنجر في صدرها مؤثرة الموت على العار ولكن :

---

(١) أمجد الطرابلسي : شعر الحماسة والعروبة ٨٨
(٢) انظر ص ٣٢٤ من البحث ، وديوان الزركلي ٢٧
(٣) انظر القصيدة في ديوانه الزورق الحالم ٤٠

. لم تمت احسان بل سارت لكهف الابدية
حيث تبقى صورة صادقة للوطنية
ومثالا زائما ينفخ فى الروح الحمية
ويرينا فى سبيل المجد كم تحلو المنية

ومن هذا القبيل " قصة غرامية وطنية حدث بعضها وتخيل الناظم الهماس فرحات حدوث البعض الآخر[1] " وهى تذكرنا " بفتاة الجبل الأسود " لمطران حكى فيها الشاعر قصة حب عميق بين فتاة مسلمة وفتى مسيحى كان الدين حائلا دون اجتماع شملهما • ثم تمر بالوطن أحداث جسام فتخوض الفتاة المعركة وتدعو فتاها الى الجهاد بقولها :

قم ولا تحسب الفوارق فى الأديان تبنى الحدود للبلدان
سوف تمحى حدود لبنان بالسيف وتنطم بالنجيع القانى
فصله عن بقية الشام فصل محزن من رواية الميدان

وينتهى الأمر بسقوط العاشقين معا شهيدين بعد أن حاصرهما الجنود • وهكذا ضمهما تراب الوطن وجمعهما الجهاد بعد أن فرق بينهما الدين •

ومن الملاحظ أن القصائد السابقة للهنداوى والزركلى والوكيل وفرحات تحكى قصة الاستعمار فى بلاد العرب متلفعة بثوب المأساة الأسود ، اذ أنها جميعا اتسمت بنهاية فاجعة تعكس نكبة العرب بالاحتلال الأجنبى • ومع هذا كانت الروح التى سادتها روحا ايجابية تعبر عن روح النضال والاستبسال والتضحية برغم اشتداد وطأة القوة الغاشمة •

وشبيه بهذا اللون من القصص الشعرى المغشى بالرمزية ما عمد اليه معروف الرصافى فى تصويره الانتداب بغادة محجبة تبهر الأنظار بدلها وحسن زيها وما هى الا كخضراء الدمن[2] :

فى الكرخ من بغداد مرت بنا يوما فتاة من ذوات الحجاب
تحسبها حسناء فى زيها وما سوى (جنبول) تحت الثياب

---

(١) انظر ديوانه ٢١٥
(٢) انظر الديوان ٤٥١

وكذلك عمد ابراهيم طوقان في قصيدته " الثلاثاء الحمراء "(١) الى نوع آخر من القصص الرمزي حين نظم ثلاثة مقاطع من قصيدته بلسان الساعات الثلاث التي جرى خلالها اعدام ثلاثة من الشهداء على التوالي. فكانت كل ساعة من تلك الساعات الرهيبة تروي قصة بطلها ، ثم لا يلبث الزمان ان يطويها مع صاحبها وهكذا .

ويفضي بنا ذلك كله الى التساؤل هل كان هذا النمط من أساليب الرمز والقصص التي اتبعها بعض الشعراء ناجما عن دوافع فنية خالصة .. لقد سبق لنا القول أن العربي حتى هذا اليوم يؤثر التعبير المباشر والانطلاق به دون جمجمة أو غمغمة . ونحن مع اقرارنا بوجود دوافع نفسية حدت بشاعر كخليل مطران الى ايثار هذا النمط من التعبير غير المباشر الذي غشاه بثوب القصص أو التاريخ ... الا أن دوافع خارجية معينة هي التي أملت على سائر الشعراء الذين مروا بنا آنفا بل على مطران نفسه أيضا ، أن ينحوا هذا المنحى في أسلوبهم . وان جو الارهاب الذي كان يشمل الشرق العربي بسبب الاستبداد أو الاستعمار هو الذي كان يحتم على الشعراء أن يحيدوا عن طريق الاداء المباشر. " فالاطار القصصي الرمزي الذي اختاره خير الدين الزركلي لقصيدته الحماسية المؤثرة " العذراء " هو بلا ريب وليد التضييق الفكري الشديد الذي كانت تعانيه سورية ايام الانتداب ولاسيما في سنواته الاولى . اذ لم يكن في وسع الصحف في ذلك الوقت العصيب أن تنشر الشعر الحماسي الصريح المناهض للنظام السياسي المفروض . ولم يكن للشعراء مناص من أن يلتمسوا طرقا فنية جديدة للتعبير عن آمال الشعب وآلامه . ولولا هذا الاسلوب الذي اختاره الشاعر للتعبير عن أفكاره وعواطفه الحماسية المكبوتة لما وجدت قصيدته سبيلا الى النشر في الصحف المحلية عام ١٩٢١ تحت سمع المحتل وبصره "(٢)

ونحن نجد في أقوال الشعراء انفسهم ما يؤكد هذه الظاهرة. وهذا الشاعر محمد عبد المطلب وهو المعروف بطريقته البدوية الصريحة

---

(١) الديوان ٣٨ ، وانظر ص ٣١٤ من هذا البحث

(٢) أمجد الطرابلسي : شعر الحماسة والعروبة ٨٩

فى أسلوبه يقول ممهدا لاحدى قصائده[1] " ولما انتهت الثورة عام ١٩١٩ وقبض على من قبض استمرت الأمة فى جهادها وحفلاتها السلمية ظاهرا، الثائرة باطنا ، تتلمس الحيل فى هذه الاجتماعات ، واشتدت الأحكام العسكرية فخرج الشعر من التصريح الى التلويح ".[2] كما يقول فى مكان آخر من ديوانه، " ولما اشتدت الرقابة على الشعر وغيره من الكلام وقبضوا على ناصية الحال عدل الشعر عن التصريح الى التلميح فقلت على لسان غزال فى قفص يناجى طائرا فوق شجرة " ثم يورد ابياته ..

ولم يكن الغزال السجين فى الواقع سوى الشاعر وأمته ، كما لم يكن ذلك الطائر فوق الشجرة الا الحرية التى كان يتطلع اليها المصريون آنذاك.

وبهذا المنظار يمكننا أن ننظر الى عدد من القصائد الأخرى التى نظمها الشعراء فى تلك الفترات العصيبة . وقد رأينا شفيق جبرى مثلا يقول[3] :

يا ظبية عرضت لنا بالوادى ... حيراء تحذر وثبة الأوصاد

وأنه لم يقصد بالظبية الا ديار الشام وحدها . وهو عندما قال[4] :

هاج نسيم الريح لى أمرها ... بالله ياريح ابعثى ذكرها
عشقتها والله أدرى بنا ... ما مس صدرى فى الهوى صدرها
كم حائر طاحت به ضلة ... ثم اهتدى لما رأى بدرها

فانه لم يقصد الى الغزل أيضا ، وانما أراد مناجاة الحرية التى كانت عزيزة المنال منى كل نفس حبها ووصالها.

ويعتبر أبو الفضل الوليد ابرز من نظم الشعر الحماسى بلغة الغزل فى كثير من قصائده فهو يقول مثلا[5] :

أرينا محياك والبسمات ... فنحن لأجلك نهوى الممات
ألست شآمية مثلنا ... مزينة بأعز الهبات

---

(١) الديوان ١٠٤
(٢) الديوان ١٣٠
(٣) أنا والشعر ٢٤
(٤) أنا والشعر ٢٤
(٥) الأنفاس الملهبة ٤٣

هذا اللون من التعبير (المموه) لدى جبرى والوليد وسواهما ، يذكرنا بأساليب شعراء المتصوفة الذين يكثرون من مناجاة ليلى وهند ومن ذكر الحب والوجد والخمرة والجمال فى حين أنهم لا يريدون فى حقيقة الأمر الا الطلعة الالهية والجمال المطلق والحب الخالد والنشوة الروحية الخالصة . وهذا الأسلوب الذى يعتمد على الاشارة واللمح والايحاء والحدس ينطوى على متعة قد لا نجدها على هذا القدر فى الأداء المباشر ، كما يزيد النقاب المليحة جمالا . والوضوح الزائد يذهب بقسط من هذه المتعة وقد قال (مالارميه) زعيم الرمزية :"ان العبارة يجب أن تلوح بالشئ لا أن تسميه ".

وهكذا أثرت الأحوال السياسية والاجتماعية فى طرق التعبير وجعلتها تتسم فى بعض الأحيان بطابع فنى معين . اذ أن انعطاف الشعراء نحو أسلوب الرمز والقصص يدرعون بهما ويستترون خلفهما كان من نتائج تلك العوامل القاهرة . ومنذ القدم كان " بيدبا " الحكيم رائد هذه الطريقة فى أقاصيص " كليلة ودمنة " لأن الفكر الحر كالشعلة المتقدة لابد من أن تتوهج ، كما أن النفس الشاعرة كالنبعة الثرة لابد لها من أن تتدفق.

وغير خاف أن هذا الاسلوب من الرمز يختلف كثيرا عن الرمزية التى كان يصدر عنها عدد من شعراء فرنسا ويعتمدون فيها على الايحاء اللفظى والحدس الباطنى ، فضلا عن أنها لا تحتمل وطأة المضمون الذهنى والأفكار المتنوعة . ومن جهة أخرى فان الباعث مختلف ، فهو عند الفرنسيين فنى محض قبل كل شئ وهو عند العرب نفسى واجتماعى .

وبالرغم من لجوء الشعراء أحيانا الى هذا الطابع الرمزى الذى وجدناه فى القصائد القصصية المتعددة فان وضوح القصد كان بارزا فى صلب الأبيات. وآية ذلك أن كثيرا من هذه الأشعار كان القول فيه ينسب الى شخص آخر غير الشاعر من نحو فتاة أو امام أو شيخ أو فيلسوف أو غير هؤلاء ممن كان يلبسهم آراءه وينطقهم عنه . ومن هنا كان الجو القصصى اطارا رفيعا وباهتا فى بعض الأحيان لا يلبث الشاعر حتى يطلق لأبياته العنان من خلاله بصورة لا تختلف كثيرا عن الشعر القومى المألوف ، وقد يعمد فى سبيل ذلك الى أن يقف بحركة الحكاية ليدخل من ثناياها عددا من أبيات الحماسة

التي تتسم في الغالب بالطابع الغنائي الذاتي ٠

وهذا العيب قد لا يظهر فيما نظمه خليل مطران سيد هذا الفن، لتمرسه بذلك اللون القصصي من الشعر ٠ ولكنه ماثل في قصيدة خيري الهنداوي وقصيدة الياس فرحات ٠ ومما زاد في ضعف السرد القصصي أن الشعراء لم يروا في هذا القصص بصورة عامة أكثر من اطار يحيطون به آراءهم أو منفذ يمررون من خلاله افكارهم ٠ وما يجدر ذكره أن ذلك القصص الشعري المنطوي على الرمز لم يكن يقصد لوجه الفن المحض ولغرض المتعة الخالصة فحسب ، بل كان قصصا ينطوي في كثير من الأحيان على حكايات تتسم بالبساطة وتحمل مغزى سياسيا أو اجتماعيا معينا٠ فهو بذلك شعر لا يختلف في جوهره ومراميه عن سائر الشعر القومي من حيث تمشيه بهدف محدد وحمله رسالة قومية الى المجتمع العربي ٠

وان هذا الاطار الرمزي الذي يعتمد أحيانا على عنصر الخيال أو التصور لا يخرج الشعر عن النطاق الواقعي ، لأن الواقعية انعكاس أصيل للحياة في نفس الفنان بعقباتها وصعابها وتطورها واشراقها ٠ وقد يسلك الشاعر الواقعي طريق الرمز بل الأسطورة دون أن يمس ذلك جوهر واقعيته

ب)) مؤثرات خارجية

ما من شك في أن المرحلة الأدبية التي تقع بين الحربين العالميتين تعتبر مرحلة بعث قومي أو انها استمرار لها٠ وطبيعي في مثل هذه المراحل أن تكون أوجه النشاط الانساني شديدة الارتباط بالماضي الذي يشيع فيها الثقة والايمان ويمدها بنسغ الأمل والحياة٠

ومع ذلك لم يصم الشعراء آذانهم في تلك الفترة عن المؤثرات الثقافية الخارجية برغم كونها محدودة ضئيلة الاثر في شعرهم٠ من ذلك مثلا ما نلاحظه من ظلال لبعض آراء المفكرين الغربيين في الشعر القومي المعاصر٠ والفن كقوس قزح يحوي مختلف الأطياف لكنها تؤلف وحدة لا تتجزأ تبدو في ذلك الخط العريض الزاهي الذي لايكتمل جماله وروعته الا باجتماع اطيافه جميعا٠

والواقع ان كثيرين ممن ذكرنا من الشعراء عاشوا في عصر سادت فيه فلسفات ونظريات وأفكار اتخذت من القوة والايمان بها أو تقديسها أحيانا محورا لها . فقد أقبل المثقفون بشغف منذ أواخر القرن التاسع عشر على مطالعة آراء " نيتشه وشوبنهاور " وغيرهما من الفلاسفة الذين مجدوا القوة والعنف وثاروا على اللين والضعف . كما اقبلت الناشئة بشغف مماثل على مطالعة نظريات علماء الحياة أمثال داروين ولا مارك وسبنسر وسواهم ممن حاولوا تفسير سنة النشوء والارتقاء في الكون وظاهرة الصراع الأبدي من أجل تنازع البقاء واعتمدوا في تفسير طبيعة التطور على مبدأ الأقوى والأصلح .

ولم يكن الأدباء والناشئة العرب بمعزل عن هذه الآراء وبخاصة بعد أن أخذ " شبلي شميل " على عاتقه التبشير بالداروينية . ومن يتصفح الصحف والمجلات والنشرات التي كانت تصدر منذ أوائل القرن العشرين يدرك مدى انتشار هذه الافكار وما أحدثته من أثر في الحياة الفكرية والأدبية في العالم العربي . حتى ان عددا من الأدباء استجابوا لهذا التيار الوافد وتحمسوا له ، من أمثال خليل السكاكيني الذي اعتنق خلال فترة من حياته آراء نيتشه واسعاف النشاشيبي الذي كان من أشد أنصار الداروينية .

واذا كنا لا نجد من الشعراء من اعتنق بصراحة هذه الآراء فلأن الشعر بحكم طبيعته ضئيل التجاوب مع الأفكار الجديدة وبخاصة العلمية منها والفلسفية ، ولأن الشعراء العرب لم يكونوا بصورة عامة ممن يميلون الى تثقيف انفسهم وتوسيع آفاقهم . ومع ذلك يبدو أن الشعر المعاصر قد عكس شيئا من ملامح هذه الافكار وأنه احتفظ بشيء من ظلالها في بعض جوانبه . يقول بدوي الجبل (1) :

أحبابنا لا تضعفوا	فالضعف داعية الفناء .
وتعلموا أن الحيا	ة وصفوها للأقوياء .
أين الشرائع لم يعد	في الأرض ظل للشرائع
ضل الذي زعم الأنا	م عن القديم تقدموا
الناس في كل العصو	ر كما علمت هم هم
يقلي الضعيف ويستبد	به الكمي المعلم

---

(1) الديوان ١٧٧

فمع أن واقع العرب الحديث كان الباعث الأول على نظم هذه المعاني قد يكون لما ذكرنا من تلك الآراء السائدة ظل في هذه القصيدة مثل قوله أن الضعف داعية الفناء ، وان الحياة وصفوها للأقوياء . وهذا شبيه بما كان يعتقد به الفلاسفة الألمان وأنصار الداروينية . وفي المقطع الأخير لمح من آراء شوبنهاور المتشائمة في اشارته الى أن البشر لم يحرزوا تقدما في هذا الكون فالانسان هو الانسان بغرائزه ونوازعه في كل زمان ومكان ومبدأ القوة وتحكم القوى بالضعيف من مظاهر هذا القانون الأزلي .

ومن مظاهر الثورة على الضعف وتمجيد القوة التي وجدنا ما يشبهها أيضا في الفلسفة الألمانية قول ايليا أبي ماضي (١) :

تقتل الشاة ولا ذنب لها هي لولا ضعفها لم تقتل

وقول أبي ريشة يجسد حالة الضعيف في هذا الكون (٢) :

ان الضعيف على عريق فخاره حمل يشد بعنقه جزار

أو قوله مزريا بالرحمة على مذهب أولئك الفلاسفة أيضا الذين كانوا يرون فيها سمة الضعف وعلامة العجز (٣) :

ما أرى الانفس الرحيمة الا نعجة تحت خنجر الجلاد

أما معروف الرصافي فهو ينظم قصيدة في هذا الموضوع يطلق عليها اسم " معترك الحياة " والعنوان نفسه شبيه بعبارات تنازع البقاء أو الصراع الحيوي التي يرددها التطوريون ولنستمع الى ما يقوله في قصيدته هذه (٤) :

خليلي ان الأرض غربال قدرة تجمعت الأحياء بين اطاره
تميد به كف الزمان تحركا لمحو ضعيف أو لاثبات فاره
فيبقى به الأقوى قرين ارتقائه كما يسقط الأوهى رهين اندثاره

---

(١) زهير ميرزا : ايليا أبو ماضي ٦٧
(٢) الديوان ١٣٦
(٣) الديوان ١٢٥
(٤) الديوان ٣٦

فلا عيش في الدنيا لمن لم يكن بها قديرا على دفع الأذى والمكاره
وما الليث لولا بأسه في عرينه بأشرف من ضب الفلا في وجاره

فليس ما ذكره الرصافي بأن الغربال الذي تحركه الحياة وتمحو به الضعف سوى وشل من آراء داروين ، وفي استعمال الشاعر ألفاظ الارتقاء والأقوى ومحو الضعيف ما يرجح هذا التأثر . حتى اننا نقع في بعض دواوين الجيل السابق على قصائد تستمد عنوانها ومضمونها من هذه المفاهيم من نحو قصيدة عنوانها " تنازع البقاء " لشبلي الملاط وسواها [(١)]. ولا يختلف عن ذلك ما قاله فؤاد الخطيب شاعر الثورة العربية الكبرى [(٢)] :

ساد التنازع في البقاء فلم يصد فيه لمن نبذ الجهاد بقاء

أو قول أيليا أبي ماضي أيضا [(٣)] :

لا تتبعوا سنة البقاء فانها سنة ظلوم

كما اننا نجد في قصائد أخرى ظلا لبعض المجادلات التي كانت تنشط آنذاك حول مفهوم الحق للحق أو الحق للقوة على نحو ما مر بنا في قصيدة لحليم دموس يتحدث فيها عن بلبل ينقض عليه اجدل ، وسفينة يبتلعها الموج ، وقطيع من الماشية يبطش به الليث ، وبلد آمن يذله جيش عات [(٤)] .

وثمة قصيدة للشاعر القروي اسمها " فتى الهيجاء " أثارت بعض الضجة حين نظمها . وقد صور فيها بطولة سلطان الأطرش الذي وثب على (التنك) الفرنسي ابان الثورة السورية فحطمه . وقد لجأ الشاعر في صدد ذلك الى المقارنة بين تعاليم أحمد والمسيح وساقه الموضوع الى انتقاد مبادئ السيد المسيح الوادعة في هذا العالم الذي لا تحكمه شرائع الغاب ، كما حبذ من جهة أخرى اعتماد الاسلام على السيف في صون تعاليمه وقال [(٥)] :

---

(١) انظر ديوانه ٢٨
(٢) الديوان ٤١
(٣) زهير ميرزا : ايليا ابو ماضي ١١٨
(٤) الديوان ١٤٧ وانظر الأبيات في ص ٢٤٣ من البحث
(٥) انظر القصيدة في ديوان الثورة ٨١ وفي ديوان الاعاصير ٢٧ ط الشروق

اذا حاولت دفع الضيم فاضرب | بسيف محمد واهجر يسوعا
"احبوا بعضكم بعضا" وعظنا | بها ذئبا فما نجت قطيعا
فيا حملا وديعا لم يخلف | سوانا في الورى حملا وديعا
غضبت لذات طوق حين بيعت (١) | ولم تغضب لشعبك حين بيعا
ألا انزلت انجيلا جديدا | يعلمنا اباء لا خنوعا

فمما يستوقفنا هنا ان الشاعر في اعتناقه مبدأ القوة وانتقاده تسامح السيد المسيح ليس أول من صدر عن هذه الآراء وانما سبقه الى ذلك الفيلسوف الألماني فردريك نيتشه • ويعتقد وديع ديب (٢) أن دعوة القروي الى التمسك بالقوة لأنها في رأيه اللغة التي يفهمها الطغاة ، دعوة نجمت عن تقليد شعراء المهجر لزملائهم الغربيين وأن القروي راح يقلد نيتشة في ثورته على المسيح وعلى تعاليمه بعد أن جرفته القوافي في تيارها واستهواه تصفيق المنابر•

وهذا الحكم الذي ينطوي على شيء من آثار الحملة على الشاعر بسبب قصيدته تلك لا يخلو من وجاهة وان يكن موضع نظر• فالناقد اذ يحاول تفسير ما جاء في قصيدة القروي من أفكار يجعل الشاعر مقلدا لزملائه الشعراء الغربيين ومقلدا لنيتشة في ثورته على المسيح وعلى تعاليمه • ولكننا نؤثر الاحتراس في صدد معضلة السرقات في الفكر والشعر وفي وصم الشاعر بأنه مجرد مقلد • لأن الجزم القاطع في مثل هذه الأمور يقود الى شطط في الرأي • قد يكون القروي متأثرا بآراء نيتشة في قصيدته وقد لايكون وفرق بين التأثر والتقليد على كل حال ، والا كانت حملة نيتشة على المسيح من حقه وحده ، وكل من جاروه بعد ذلك في هذا الأمر مقلدون • (ونحن نرى أن القروي في الواقع انما ثار بالدرجة الأولى على دعاة الافكار المثالية الذين يصرون على تطبيق مبادئهم السامية في وقت داس فيه المستعمرون كل الشرائع السماوية والمفاهيم الانسانية ، وحكموا أساليب الحديد والنار وسفك الدم في معاملة الشعوب المستضعفة•)

على ان هذه الآراء الفلسفية غدت نزعة متطرفة شملت جزءا هاما من

---

(١) اشارة الى ما رواه الانجيل عن غضب المسيح على باعة الحمام وطردهم من الهيكل."الشاعر"
(٢) الشعر العربي في المهجر الامريكي ١٣٥

أوربا وكان من نتائجها ظهور الفاشية والنازية كما كان لها أيضا صدى في الحياة السياسية الحزبية في بعض أجزاء الشرق العربي وبخاصة في لبنان .

ويجب الا ننسى من جهة أخرى ما كان شائعا بين المثقفين من أقوال متطرفة ترددها الصحف والمحافل من حين الى آخر من نحو القول المنسوب الى نابليون " الحق في فم المدفع " الذي نجد صداه في بيت لبدوي الجبل (١) :

الحق ما نطقت به في الناس أفواه المدافع

أو نحو قول هوبز " ان الانسان للانسان ذئب ضار "

أو " اذا لم تكن ذئبا اكلتك الذئاب " مما نجد له ظلا في بيت لمحمد المدناني (٢) :

فكن بين الذئاب الغبر ليثا له ناب يمزقهم وظفر

وكذلك نجد ظلالا لآراء بعض المفكرين الاجتماعيين من مثل ما أورده (غوستاف لوبون) (٣) في كتابه عن " عقلية الجماهير " الذي احدثت ترجمته الى العربية اهتمام المثقفين . من ذلك ان الجماعات تتصرف كالاطفال ، أو أنها سهلة القياد سريعة التأثر كثيرة التقلب .. فقد قال الزهاوي (٤) :

الشعب كالطفل للسخط مبدئ ومعيد
فقد يريد ولا يدرى بعد ماذا يريد

وقال :

ما للجماعة في رأي تجئ به اصابة فهي كالأطفال تفتكر
ان الجماعة جند لا نظام له يقوده حيثما شاء الهوى نفر

وربما كان الزهاوي أبرز من تأثروا بآراء المفكرين وعلماء الاجتماع الغربيين فهو شديد الحرص على تثقيف نفسه ونظم الآراء الجديدة الوافدة . وهذا جلي في رباعياته . الا أن ثقافته بدت سطحية تمتح من الكتب المترجمة

---

(١) الديوان ١٧٧
(٢) اللهيب ٣٩
(٣) راجع كتابه L'ésprit des foules وقد ترجمه احمد فتحي زغلول .
(٤) الرباعيات ١١٥ ، ١٣٧

وهذا من أسباب اتسام أشعاره فى هذا المجال بالطابع النظمى والتقريرى البارد (١) .

ونحن تجاه ما سبق من أبيات لا نجزم بحصول هذا التأثر أو عدمه الا أنه من الواضح ان هذه الآراء التى أوردنا طرفا منها غدت شائعة ذائعة ودخلت فى رصيد الافكار الشامل وامتصها الشعراء والكتاب بحيث بات من المتعذر فى كثير من الاحيان تمييز الوافد منها من الاصيل .

ج)) سلطان القديم

ان طرافة التعبير وجدته ومبلغ فنيته من سمات الاصالة فى الاثر الادبى . وان ذاتية التجربة الشعورية وتفردها تقتضى من الاديب ما يطابقها من العبارة المبدعة . وهذا ما نعنيه بشخصية الفنان فى فنه تبعا لاسلوبه المتفرد المتميز ويجعلنا نقول مع بوفون Buffon " ان الاسلوب هو الرجل " Le style c'est l'homme

ومن جهة أخرى يجب أن ندرك أن شخصية الاديب وفردية تجربته وذاتية مزاجه برغم اهميتها فى تكوين العمل الادبى فانها ليست وحدها قوامه . وقد رأى (جوردان) أن الاثر الفنى لايمكن فهمه أو تقويمه فى ظل فرديته أو فردية مؤلفه فحسب ، لان الاديب فرد وثيق الصلة بما حوله ، وقصيدته عمل جزئى " لايمكن أن تفهم حق الفهم اذا اعتبرت خيال شاعر أو احساس فنان . انها أولا وقبل كل شىء جزء من النظام الثقافى العام نظام الكون الذى يتكون من تفاعل عدة أنظمة اهمها بالنسبة للقصيدة النظام الثقافى الذى تتبعه كوحدة من وحداته (٢) " ولذلك نحن نزداد فهما للطابع الاسلامى الذى رسم كثيرا من الشعر القومى الحديث فى فترة معينة من حياة العرب اذا أدركنا السواعث الاجتماعية التى استبدت بهم من جراء تهديد الغرب لهم . كما اننا على هذا الضوء يمكننا ان ندرك جيدا مبررات القصائد الكثيرة التى كان ينبعث منها الاعتزاز بالفراعنة فى

---

(١) انظر مهدى عباس العبيدى : حقيقة الزهاوى ٨ فما يلى ...
(٢) سهير القلماوى : النقد الادبى ٤٢

مصر اذا وقفنا على حقيقة مشاعر المصريين في تلك الفترة وأنهم كانوا يعانون تجاه المستعمر عقدة نقص قوامها الضعف والتأخر والجهل، فتمثل لهم حلها واستعادة ثقتهم بأنفسهم في أمجادهم الغابرة التي لم تبلغ روعتها أية أمة أخرى ٠

ويوحي من نظرية جوردان التي تربط النتاج الأدبي بالأنظمة الاجتماعية والثقافية السائدة وتنظر اليه من خلال تفاعلها ، نصوغ الى أسلوب الشعر القومي ٠

ونحن نبادر الى القول تبعا لذلك بأن هذا الشعر بألوانه وأساليبه وخصائصه كان أشبه بالنبتة التي انبثقت عن بيئتها وظروفها الخاصة من حيث التربة والمناخ والحرارة والهواء ٠٠ فهو وليد هذه المرحلة التاريخية من حياة العرب سواء من حيث شكله أو محتواه ٠

فالى أي مدى كان الشاعر العربي من حيث منحى اسلوبه يصدر عن النظام الثقافي السائد ٠٠ أو بكلمة أخرى ما نصيب شعره من العناصر المنبثقة عن ذاته المبتكرة أو من العناصر التي اكتسبها من مخزون ثقافته ٠ وبالتالي ما مدى التقليد والتجديد في القصيدة القومية المعاصرة ٠

بدأ الشعر منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر يخلع ثوبه الخلق ويتحلل من أسلوبه المهلهل جاهدا في التخلص من اطاره السقيم الذي ران عليه في عصور الانحطاط وبخاصة في العهد العثماني ٠ ولم تكن الثورة على ذلك النمط من التعبير الهزيل الا جزءا من الثورة الشاملة التي شبت في نفوس العرب تجاه مختلف أوجه الحياة في السياسة والفكر والاجتماع ، فأخذ الأدباء ينزعون الى تحرير الاسلوب متساوقين في ذلك مع نزعة تحرير الأفكار وتحرير الشعوب والأوطان ٠

ويبدو أن القيود اللفظية لا تسود في الأدب الا في عهود الجمود الفكري والانحطاط السياسي والضعف الاجتماعي ٠ ولم يكن شعر البارودي في جوهره الا " بعثا واحياء" ورجوعا بالشعر الى صياغته الطبيعية الحرة التي تستمد جمالها من جزالة الأسلوب ورصانته ٠ واعجب بذلك الشباب الناشئ من الشعراء وعلى رأسهم شوقي وحافظ ، وامتد ذلك

الى من هاجروا الى مصر من السوريين واللبنانيين بل امتد الى اخوانهم في الشام "[1]

وهؤلاء الشعراء : البارودى وشوقى وحافظ ومطران والرصافى ومن نسج على منوالهم اعتبروا فى عصرهم مجددين لانهم اعادوا لديباجة الشعر رونقها وصفاءها واتخذوا منها شكلا تعبيريا يتضمن افكارا وموضوعات جديدة . وهذا ما يمكن تسميته بالكلاسيكية الجديدة .

على ان هؤلاء الشعراء الذين اعتبروا فى زمانهم مجددين اصبحوا فى نظر الجيل التالى والاجيال التى أتت بعده محافظين وكما قال الشاعر العربى :

ان هذا القديم كان جديدا   وسيضحى هذا الجديد قديما

والواقع أن الحداثة والقدم ليسا مطلقين دائما اذ ليس الجديد ما كان بالضرورة من نتاج العصر الحاضر.

ان المرحلة التاريخية التى عاشها العرب منذ أواخر القرن التاسع عشر كانت تحتم على الشعر العربى أن يسير فى هذا الطريق التقليدى أول الأمر. اذ لابد للتيار الأصيل من أن يأخذ مجراه ثم يفسح صدره بعد ذلك كلما أوغل فى سيره لسائر الطعوم والروافد . وأكثر الشعراء فى هذه المرحلة كانوا استمرارا لمدرسة البعث يؤثرون لشعرهم الثوب التقليدى وينسجون خيوطه من خير ما وصلت اليه لغة الشعر العربى من قوة وجمال.

لقد أخذ كثير من النقاد على شوقى تشبثه بالثقافة العربية التقليدية وعدم تجاوبه مع مذاهب الشعر والمعارك الأدبية من رومانسية وبرناسية ورمزية وواقعية وفنية مما كانت تضج به فرنسا أواخر القرن التاسع عشر.[2] وهذا الموقف من النقاد كان من قبيل المطالبة بالشئ فى غير أوانه . اذ من الطبيعى فى طور تكوين الاسلوب العربى وخلق شخصيته ان يكون أبو نواس والبحترى والمتنبى والمعرى وابن زيدون المثل الأعلى لدى البارودى وشوقى

(١) شوقى ضيف : الأدب العربى المعاصر ٣٦

(٢) انظر مثلا : الشعر المصرى بعد شوقى ١ : ص ٢

وحافظ والزهاوى والرصافى ، وليس هوجو وشيلر وبايرون وبوشكين ·

" تخرج شوقى فى شعر البارودى وعلى ديوانه واتخذ مذهب استاذه ·· وما كان فى قوالبه وصياغته الا ضاربا ماهرا على القيثارة العربية يعتصر منها خير أصواتها وتموجاتها واهتزازاتها (١) " وكذلك شأن حافظ الذى " قرأ كثيرا فى كتب اللغة والنحو والصرف والأدب ودواوين الشعراء ، وكان أقربهم اليه شعراء الدولة العباسية (٢) " " وكان الرصافى مولعا بحفظ الشواهد التى يوردها النحويون فى كتبهم ، وشعر الشواهد كما هو معروف مأخوذ من شعر الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين الذى يمتاز بفخامة الأسلوب وجزالة اللفظ ورصانته (٣) "

بل ان من شعراء ذلك الجيل من كان شديد التشبه بالقدماء حتى كاد يكون اياهم " فقد مشى الكاظمى على غرار قدماء الشعراء الذين اكتنزت حافظته روائعهم فاحتذاهم فى الطراز ، وكان ينظم الشعر على طريقة شعراء عرب الجزيرة من حيث متانة الاسلوب وجزالة الألفاظ (٤) " وكان عبد المطلب متبديا فى خياله ومعانيه والفاظه وطريقة حياته تسمع شعره فيخيل اليك أنك تسمع شاعرا عربيا قديما عاش فى العصر الأموى أو العباسى ، بل يذكرك احيانا بشعراء العصر الجاهلى فى متانة نسجه واحكام قوافيه وتشبيهاته واستعاراته المستمدة من حياة البادية (٥) " حتى انه يتحدث عن الغضا والأراك وعن نجد وريح الصبا·

وكثيرون هم الشعراء الذين نسجوا على منوال هؤلاء وشاركوهم فى النهل من رؤوس ينابيعهم · وطبيعى أن يسرى فى الشعر الحديث روح من القديم بعد أن تبنى هؤلاء الاعلام وسواهم هذا المفهوم التقليدى فى الشعر الحديث ، وبعد أن تزود الجيل الذى شاخ أو الذى شب بين الحربين العالميتين بقسط غير قليل من الثقافة الأدبية القديمة ، وأن يصدر الشعراء فى هذه الفترة ـ من حيث يشعرون أو لا يشعرون ـ عن كثير من النماذج والعبارات والصور القديمة أو المستمدة من القديم·

---

(١) انظر شوقى ضيف : شوقى ٤٧ ، ٨٤
(٢) أحمد الطاهر : حافظ ابراهيم ٢٤
(٣) بدوى طبانة : معروف الرصافى ٢٥٠
(٤) انظر مقدمات ديوانه ، لبطى والمغربى ٩ ، ١٥
(٥) عمر الدسوقى : فى الأدب الحديث ٢ : ٣٠٩

ولعل أوضح ما يشير الى هذه الظاهرة حرص عدد من الشعراء على أن يضمنوا فى شعرهم أبياتا من الأدب العربى القديم تشبه فى مضمونها ما يجنح الشاعر الحديث لمعالجته . من ذلك ما انطق به الزهاوى أحد شهداء السادس من آيار ببيت السموءل اذ قال (١) :

تمثل فوق العود قبل وفاته ببيت يؤسى الشعب وهو يقول
" اذا مات منا سيد قام سيد قؤول بما قال الكرام فعول "

أو نحو ما قاله الجواهرى منددا بختل الساسة (٢) :

وتصريح يمططه قوى كلوح الطين اذ يدحوه داح
نطوف ما نطوف ثم نأوى الى بيت اقيم على اقتراح

فالبيت الثانى تضمين لقول الحطيئة (٣) :

أطوف ما أطوف ثم آوى الى بيت قعيدته لكاع

ومن ذلك أيضا قول مصطفى وهبى التل يحض على الجهاد (٤) :

الناس من لو أرهقوا شنوا على الارهاق غارة
" العبد يقرع بالعصا والحر تكفيه الاشارة "

فالبيت الثانى لشاعر قديم وورد ما يشبهه أيضا لمالك بن الريب ، ويزيد ابن مفرغ (٥) :

وفى قول عمر يحيى (٦) :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى تروع قذائف وصليل

تضمين لبيت المتنبى المشهور :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

كما أن فى قول الشاعر نفسه أيضا (٧) :

عندليب الروض فى فننه مستطار القلب من شجنه
" شفه ما شفنى فبكى كلنا يبكى على وطنه "

---

(١) رفائيل بطى : الأدب العصرى فى العراق ١٨
(٢) الديوان ١ : ١٣٨ (٣) ديوانه
(٤) البدوى الملثم : عرار ٣٠٩ (٥) انظر الجرجانى فى الوساطة ١٥٦
(٦) البراعم ٣٣ (٧) البراعم ٣٢

تضمينا لبيت العباس بن الأحنف .

وكذلك في قول ايليا ابي ماضي (1) :

ومن كان قحطان أباه فإنه " له الصدر دون العالمين أو القبر "

تضمين لشطر مشهور من احدى روميات أبي فراس الحمداني .

ومع ان اعتماد الشعراء على هذا الأسلوب كان ضئيلا الا أنه يشير على كل حال الى أن الشاعر الحديث كان يتخذ من شعر القدماء في بعض الأحيان مثلا أعلى ويحرص على ترصيع قصيدته بشيء منه . ومن جهة أخرى نلاحظ أن الشعراء لجأوا في الغالب الى هذا التضمين أو الاقتباس عندما كانوا في طور المحاكاة والتقليد قبل ان تستقل شخصيتهم بأسلوب متميز . فلم نعد نجد شيئا من ذلك مثلا فيما قاله ايليا ابو ماضي بعد حين .

وقد تكون الدلالة أبعد في لجوء الشعراء الى الجري مع أمثالهم القدماء والنسج على منوالهم . ففي قصيدة عبد المحسن الكاظمي التي منها قوله (2) :

سيروا نذب عن الحمى ونرد عنه المستبدا
ان لم تكن تجدى الحماة بعزها فالموت أجدى

نلمح ظلالا لقصيدة عمرو بن معد يكرب الزبيدي ومنها (3) :

ليس الجمال بمئزر فاعلم وان رديت بردا
ان الجمال معادن ومناقب اورثن مجدا

وفي قصيدة أبي الفضل الوليد التي مطلعها (4) :

الله أكبر عادت دولة العرب بشرى لهارون والمأمون في الترب

ثم في قصيدة شوقي التي مطلعها (5) :

الله أكبر كم في الفتح من عجب ياخالد الترك جدد خالد العرب

---

(1) زهير ميرزا : ايليا ابو ماضي ١٩٩
(2) الديوان ١ : ٢٣٣
(3) الحماسة ١ : ١٧٠
(4) الانفاس الملتهبة ٨٥
(5) الشوقيات ١ : ٦١

نسج على منوال بائية أبي تمام التي مطلعها[1] :

السيف أصدق أنباء من الكتب   يا خالد الترك جدد خالد العرب

وفي قول الرصافي مندداً بغورو[2] :

ذكرت لنا الحرب الصليبية التي   بها اليوم قد عنت لقومك آمال

ما يذكرنا بقصيدة المعرى وهو قافل من بغداد ومنها[3] :

فيا وطني ان فاتني بك سابق   من الدهر فلينعم لساكنك البال

وان استطع في الحشر آتك زائرا   وهيهات لي يوم القيامة أشغال

وحين نظم حافظ قصيدته المشهورة[4] :

خرج الغواني يحتججن -   وبت أرقب جمعهنه

ربما كان يتأثر فيها خطا أبي العلاء اذ قال من قصيدة[5] :

عليك السابغات فانهنه   يدافعن الصوارم والأسنة

وكان حافظ ممن يؤثرون شعر المعرى .

ومثل ذلك قول عمر يحيى في لواء الاسكندرون السليب[6] :

أضاعوه لكي تبقى الكراسي   فبالدم يضيمه ذووه

فهي على نسق قول المعرى أيضا من قصيدة له[7] :

مشى السرطان يوما باعوجاج   فقلد شكل مشيته بنوه

وينشأ ناشئ الفتيان منا   على ما كان عوده أبوه

وفي اشادة خليل مردم ببطولة الارلندي الذي[8]

أبى رق الحياة فمات حرا   وأبلغ نفسه في ذاك عذرا

---

(١) انظر ديوانه شرح التبريزي مج ١ ص ٤٥
(٢) الديوان ٤٣٣
(٣) انظر القصيدة في شرح سقط الزند ح ٤ القصيدة التاسعة والخمسون
(٤) الديوان : ٢ ٨٧
(٥) شرح سقط الزند ١٠ الدرعيات ٥ : ٢٠٤٠
(٦) صوى الأشتر : المختار ٢٦
(٧) المصرى
(٨) جريدة البرق عدد ١١٢٧

ما يشبه اشادة بشر بن عوانة ببسالته حين صارع الأسد وصرعه (١):

أفاطم لو شهدت ببطن خبت ... وقد لاقى الهزبر أخاك بشرا

وقد تتفق القصيدة الحديثة مع أختها القديمة فى الموضوع فضلا عن البحر والقافية ، بل انها تحمل الينا سحر الماضى ونشوته على نحو قصيدة شكيب ارسلان التى يقول فيها (٢) :

تأملت فى صرف الزمان فلم أجد ... سوى الصارم البتار للسلم سلما

فان يك دفع الشر بالرأى حازما ... فما زال دفع الشر بالشر أحزما

فما العيش الا أن نموت اعزة ... وما الموت الا أن نعيش ونسلما

وكأن هذه الأبيات جزء من قصيدة الحصين بن حمام المرى التى منها قوله (٣) :

تأخرت استبقى الحياة فلم أجد ... لنفسى حياة مثل ان اتقدما

فلست بمبتاع الحياة بسبة ... ولا مبتغ من رهبة الموت سلما

ومن هذا القبيل أيضا قول نسيب عريضة (٤) :

الأهل اهلى واطلال الحمى وطنى ... وساكنو الربع اترابى واقرانى

لا حد عندى ان جارت حدود هم ... الشام شامى ومصر أخت لبنان

وفى فلسطين اقداسى ، وعاطفتى ... فى نجد والقبلة السمحاء ايمانى

هذا القول الجميل صنو لقول ابى تمام المشهور (٥) :

بالشام اهلى وبغداد الهوى وأنا ... فى الرقتين وفى الفسطاط اخوانى

كل هذه القصائد وأمثالها تنم عن مدى تعلق الشاعر الحديث بالقصيدة العربية التقليدية ومبلغ اعجابه بالشاعر العربى القديم. واذا كان ذلك لا يعنى بالضرورة احتذاء هذه النماذج فانه يعنى على الاقل تأثره بها وحرصه على أن يتخذ من مثل اطارها اطارا لقصيدته الجديدة .

وقد كانت هذه الظاهرة جلية فى شعر أمير الشعراء نفسه اذ اتخذ من روائع الفحول كأبى نواس وأبى تمام والبحترى والمتنبى والمعرى وابن زيدون

---

(١) انظر القصيدة فى المقامة البشرية للهمذانى ، ولا وجود لشخصية بشر كما يرجح الباحثون
(٢) الديوان ٩٩
(٣) القصيدة فى الحماسة ١ : ١٩٢ وانظر المفضليات ٦٤
(٤) الأرواح الحائرة ٢٤٥
(٥) الديوان ٣٤

وسواهم مثلا يحتذيه وينسج على منواله في شعره الا أنه كثيرا ما كان يفوق اساتذته كما يجوز المهر الخيل في حلبة السباق .

ومن جهة أخرى نجد جزءا غير يسير من المعاني التي طرقها الشعراء القدامى وبخاصة في شعر الفخر والحماسة ماثلة في الشعر القومي الحديث . فاذا تأملنا في قول الرصافي[1] :

فدعني والفخار بمجد قوم   مضى الزمن القديم بهم حميدا

وقد عهدوا لنا بتراث ملك   أضعنا في رعايته العهودا

لمسنا فيه أثرا من قول الشاعر العربي[2] :

ورثنا المجد عن آباء صدق   أسأنا في ديارهم الصنيعا

اذا الحسب الرفيع تداولته   بناة السوء أوشك أن يضيعا

واذا قرأنا قول عبد الحميد الرافعي :

ما تصلح الدنيا ولا ناسها   ما لم يل الاقوام أجناسها

نستعيد قول المتنبي[3] :

وانما الناس بالملوك وما   تصلح عرب ملوكها عجم

كما أن قول محمد الأسمر[4] :

واذا الصوارم واليراع تناظرا   فرقت بين الحق والأوهام

شبيه بقول أبي تمام[5] :

السيف اصدق أنباء من الكتب   في حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لا سود الصحائف في   متونهن جلاء الشك والريب

وثمة عبارات وجمل كثيرة لبعض الشعراء الاقدمين علقت بأذهان المعاصرين فبثوها في شعرهم من نحو عبارة جرير في قول الزهاوي[6] :

يا حق قد دفنوك حيا في الثرى   يوم القضاء " فمادني استعبار "

---

(١) انظر ديوانه شرح التبريزي مج ٣ ص ٣٠٩

(٢) انظر بدوي طبانة : معروف الرصافي ٢٤٥.

(٣) انظر شرح ديوان المتنبي للعكبري ٢ : ٣١٧

(٤) الديوان ٢٤

(٥) انظر ديوانه شرح التبريزي م ١ ص ٤٥

(٦) رفائيل بطي ٦٢

أو عبارة بعض الجاهليين ومنهم النابغة في مطلع بائيته اذ وردت أيضا في مطلع قصيدة لبهجة الأثري (١) :

" كليني لهم " قد رماني به الدهر   دمشق عراها ما يضيق به الصدر

حتى أننا نجد في بعض القصائد القومية عبارات مفرقة في المقدم مثل عبارة (لا أبا لك) في قول الرصافي (٢) :

ان الوزارة لا أبالك عندنا   ثوب يفصل في معامل لندنا

أو قول خيري الهنداوي (٣) :

حاولوا لا أبا لهم أن يكون إلى الشرق كالعبد مستضاما رقيقا

بل ان روح القدماء تقمصت في عدد من الشعراء المعاصرين مثل عبد المطلب ومحرم والأسمر والفلاييني والشبيبي والصيدي والكاظمي بحيث بات من العسير على الناقد أن يرى فارقا يذكر بين أشعارهم وأشعار اسلافهم ولنستعرض عددا من هذه الأبيات .

يقول الفلاييني عن الحق (٤) :

سيطلبه منا شباب وشيب   وبيض ومران ومستونة زرق

ويقول شفيق جبري (٥) :

والحق معقود بأطراف اللهاذم والمناصل

ويقول محمد الأسمر (٦) :

خض الغارة الشعواء ليثا غضنفرا   وخذ لك من عضب السيوف مخالبا

فالبيض والمران والمستونة الزرق وأطراف اللهاذم والمناصل والغارة الشعواء والليث الغضنفر وعضب السيوف كلها الفاظ وعبارات بدوية استمدها الشعراء من محفوظهم وليس بينها وبين أدوات الحرب الحديثة والبيئة المعاصرة أية صلة .

---

(١) ديوان الثورة ١٠٥
(٢) الديوان ٤٩٦
(٣) رفائيل بطي ١٦٦
(٤) الديوان ٦٦
(٥) صرح الشعر [illegible]
(٦) الديوان ٢٣

وهكذا كانت القرابة وشيجة والنسب متواصلا بين الشعراء المعاصرين وأسلافهم تبعا لأصالة الثقافة العربية وعمق جذورها في النفوس، كما كان من أسباب ذلك مشابهة الشعر القومي للشعر الحماسي القديم في كثير من الوجوه •

واذا اكتفينا بهذا القدر من ملاحظة أثر الشعر القديم في الشعر المعاصر كان علينا أن نكشف عن جوانب أخرى للثقافة العربية العريقة تصدو مجال الشعر على نحو ما نجد في الأبيات التالية •

يقول عبد المطلب مخاطبا (اللنبي)(١) :

أما لمصر تجزى جزاء سنمار ... لديكم وبالدنية تبلى

ويقول شوقي مخاطبا السوريين(٢) :

وهل نلنا كلانا اليوم الا ... عراقيب المواعد والمطالا

ويقول أبو ماضي(٣) :

يالقومي بلغ السيل الزبى ... واستطال البغي واستشرى الفساد

ويقول الفلاييني(٤) :

فالويل كالويل اسكوب وقد بلغ السيل الزبى من فلسطين الى حلب

ويقول أديب التقي(٥) :

قلبتم لنا ظهر المجن وبعد ما ... أدرنا لكم وجها أدرتم لنا ظهرا

ويقول محمد الأسمر(٦) :

ألا ما لبعض الناس أصبح باقلا ... وقد كان قبل اليوم سحبان وائل

كلها أبيات تتضمن أمثال العرب السائرة مثل جزاء جزاء سنمار أو مواعيد عرقوب أو بلغ السيل الزبى أو قلب له ظهر المجن أو أعيى من باقل وأفصح من سحبان •• الخ

---

(١) الديوان ١٨٨
(٢) الشوقيات ٢ : ٢٢٧
(٣) زهير ميرزا : ايليا ابو ماضي ١٥٦
(٤) الديوان ١٠٠
(٥) الديوان ١٠٣
(٦) الديوان ١٢١

ومن دلائل هذا التأثر أيضا بالتراث القديم والثقافة العربية ما نجده من أصداء لأقوال بعض القدماء وآرائهم مما هو مثبوت في بطون كتب الأدب والأخبار من نحو قول الفلاييني (١) :

لدينا رجال تشتهي الموت مثلما تحبون ان تحيوا وعيشكم طلق

وهو من قول أحد القادة في صدر الاسلام (٢) ، " اتيناكم برجال يحبون الموت مثلما تحبون الحياة " .

وكذلك قول تيسير ظبيان يخاطب الفرنسيين (٣) :

ان السيوف التي كانت تجرعكم كأس المنية مازالت بأيدينا

من قول الأحنف بن قيس لمعاوية (٤) " ان السيوف التي قاتلناك بها لفي أغمادها "

كما أن بيت مصطفى التل في عرش الأردن (٥) :

هب الذين عليه أمس تكأكأوا يفرنقعون

من عبارة عيسى بن عمر النحوي المشهورة

ومن نافلة القول أن نذكر أن هؤلاء الشعراء التقليديين الذين عبوا من تراث العرب العريق كانوا ينهلون أيضا من القرآن الكريم ذلك الكتاب المبين . ويكفي أن نشير الى وشل من هذه الأبيات التي تجلت في ثناياها الثقافة القرآنية ، يقول الزهاوي (٦) :

قد شبت الحرب نارا عمت تروع الأناما
يا نار كوني علينا بردا وكوني سلاما

ويقول أيضا (٧) :

سيعلم القوم ماذا بالظلم يكتسبونا
وأي منقلب بعد ذاك ينقلبونا

---

(١) الديوان ٦٥
(٢) وورد في الكامل للمبرد ٢ : ١٣٦ أن غيلان بن خرشنة ذكر الخوارج بسوء عند زياد فقال له " ما يؤمنك ان يلقاك رجل منهم احرص والله على الموت منك على الحياة"
(٣) ديوان الثورة ٢١
(٤) انظر العقد الفريد ٤ : ٢٨ وقد وردت العبارة فيه أيضا للأحنف بن قيس يخاطب معاوية " ان القلوب التي ابغضناك بها بين جوانحنا ، والسيوف التي قاتلناك بها لعلى عواتقنا "
(٦) رباعياته ١١٣ ، من الآية ٦٩ الانبياء : يا نار كوني بردا وسلاما على ابراهيم
(٧) رباعياته ١١٤ ، من آية الشعراء ٢٧٧ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون

ويقول الكاظمي في تكريم عبد الرحمن شهبندر أحد زعماء الثورة السورية (١) :

والذي اكرم المواطن حقا كان تكريمه جزاء وفاقا
لهف نفسي على التي جرعوها من صنوف العذاب كأسا دهاقا

ويقول الرصافي في احدى الحكومات الجائرة (٢) :

ظاهرها فيه لنا رحمة والويل في باطنها والعذاب

ويقول محرم في افتتاح البرلمان المصري (٣) :

سأتبع يوم السبت ماعشت لمنة يطير بها عاد من الدهر ضابح

ويقول ابو الفضل الوليد (٤) :

كونوا كبنيان يشدد بعضا بعضا فيأمن كل ريح صرصر

ويقول الغلاييني (٥) :

فان يجنحوا للسلم نجنح لها وان أبوا غير هضم الحق فالسيف انجع

ويقول في القصيدة نفسها :

فان يلغوا والله بالغ أمره مناهم فان الارض روض ومربع

ويصف خيري الهنداوي أحد المجاهدين بقوله (٦) :

ففارق بغداد العراق مكبلا واخرج منها خائفا يترقب

ويقول على الجارم في سعد زغلول (٧) :

ألفت بين المنصريين وكنت للرحمن حزبا

كل ذلك ينم بجلاء عن مدى تغلغل التراث العربي العريق وأنماط التعبير التقليدية في قرائح الشعراء المعاصرين الذين صدروا في انتاجهم عن الشعر القومي .

---

(١) الديوان ٢ : ١٥٢ والبيتان من سورة النبأ الآية ٢٦ : جزاء وفاقا ، والآية ٣٤ : وكأسا دهاقا
(٢) الديوان ٤٥١ ، والآية ١٣ الحديد : باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب
(٣) البيت في الاتجاهات الوطنية لمحمد حسين ٢ : ٣٩٦ ، سورة العاديات الآية الأولى والعاديات ضبحا
(٤) نفحات الصور ٤٣ من الحاقة الآية ٦ : فاهلكوا بريح صرصر والآية ٤ الصفا .
(٥) الديوان ٨٦ من الانفال الآية ٦١ : وان جنحوا للسلم فاجنح لها . والثاني من الطلاق الآية ٣ : ان الله بالغ امره .
(٦) بطي ١٧٤ ، من آية القصص ٢١ : فخرج منها خائفا يترقب
(٧) الديوان ٢ : ٨٣ من آية المجادلة ٢٢ : ألا ان حزب الله هم الغالبون .

ومن جهة أخرى كان هؤلاء الشعراء يحرصون في أسلوبهم بالاجمال على العبارة القديمة بفصاحتها وبلاغتها في سبيل التعبير عن مشاعرهم ومنازع قومهم. وبذلك كانت الكلاسيكية الجديدة طابع مذهبهم وكأن شعارهم ما نادى به اندريه شينييه : Sur des pensets nouveaux
Faisons des vers antiques

أي " لننقل افكارا جديدة في أشعار قديمة "

د)) الصورة الفنية بين التقليد والتجديد

لنتساءل الآن عن مدى التجديد في الصورة الشعرية . وهل كان من اليسير على الشاعر أن يبدع الكثير في هذا المضمار بعد أن أثقل بركام التقليد .

لاريب ان صناعة الشعر وسائر الفنون يعوزها أول الأمر الاقتداء بالنوابغ والفحول واحتذاء نماذجهم والنسج على منوالهم. ولكن هذا الأمر ينبغي أن ينظر اليه من حيث أنه مرحلة فحسب ، والا بقي الشاعر يدور في فلك سواه، وغابت شخصيته في غمار أساليب الآخرين.

وقد تعدى تأثير القدماء العبارة والتركيب والمعنى وسرى الى الصورة نفسها كهذه الصورة التقليدية لمحمد الأسمر في مديح سعد زغلول (١) :

اذا خبت الشهب الهوادي وأظلمت تلألأ فينا من جبينك فرقد

وهي من صور المديح القديم ومعانيه المكرورة .

وكذلك نجد في قول محمد حبيب العبيدي (٢) :

ونحن اباة الضيم من عهد تبع اذا الناس غربان ونحن نسورها

مسحة القديم واضحة في البيت. والصورة شائعة لدى شعراء الفخر في الجاهلية وعهد بني أمية . أما التشبيه فهو حسي يماثل تشبيه الشاعر لنفسه أو لقبيلته بالجبل أو النسر أو البازي أو العقاب . وتشبيه الآخرين بالغربان والبغاث والذباب .

---

(١) الديوان ٢٢
(٢) انظر انيس المقدسي : العواطف القوية في الأدب العربي الحديث .

وفى قول الياس فرحات فى ابطال ميسلون (١) :

كأنهم رأوا فى القبر عارا فساروا بالمنية يحتمونا

صورة مألوفة فى الشعر الحماسى القديم .

والحق أن عنصر الابداع فى الصورة التى هى من أبرز مقومات الشعر كان ضئيلا فى القصيدة القومية المعاصرة بالاجمال ، وكذلك كان شطر غير قليل من قصائد الشعر القومى يدور فى فلك الشعر القديم ، ولكنها لا تبلغ شأوه فى غالب الأحيان .

ومن هنا كان تجديد الصورة وتنويع العبارة وتلوين الخيال أمورا تتطلب قدرا كبيرا من الموهبة والأصالة .

ويعتبر شوقى رائد الشعراء الذين استطاعوا أن يجمعوا فى شعرهم بين الجديد والقديم بأصالة وانسجام اذ استطاع بفضل موهبته أن يبعث الحياة فى الصورة التقليدية . فهو يصور استشهاد بطل ميسلون بقوله (٢) :

فكفن بالصوارم والعوالى وغيب حيث جال وحيث صالا

أو قوله فى استشهاد عمر المختار (٣) :

ركزوا رفاتك فى الرمال لواء يستنهض الوادى صباح مساء

جرح يصيح على المدى وضحية تتلمس الحرية الحمراء .

فصورة بطل ميسلون ضخمة تناسب جلال البطولة وروعة الاستشهاد ولكنها مستمدة من القديم أما صورة الشهيد المختار فتتفق ومهابة الزعامة وعظمة الجهاد . كما أن فى صياح الجرح وتلمس الضحية للحرية الحمراء صورة موحية نجمت عن اختيار الأفعال الملائمة واللجوء الى الخيال فى تصوير النيران والدماء والكفاح .

ومع ذلك كان شوقى يبتكر صورا رائعة من نحو قوله المشهور (٤) :

وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق

---

(١) الديوان ١٧١

(٢) الشوقيات ٢ : ٢٢٧

(٣) الشوقيات ٣ : ١٧

(٤) الشوقيات ٢ : ٨٨

وقريب من شوقي مذهب الرصافي الذي بقيت الصورة التقليدية لاصقة به بالرغم من أنه أبعد أهل طبقته تجديدا في الافكار ومضمون الشعر فهو يقول (١) :

نشروا المعاهدة التي في طيها قيد يعض بأرجل الآمال

ففي البيت صورة تجسد الأذى باستعارة تقليدية .

الا أن الصورة كانت تتسم أحيانا بالطرافة لدى الشعراء برغم مسحتها القديمة . يقول الجواهري (٢) :

و " تصريح " بمططه قوى كلوح الطين اذ يدحوه داح

فالصورة التي شبه الشاعر فيها هذا التصريح بلوح الطين يدحوه داح ويمططه قوي صورة ساخرة تذكرنا بصور ابن الرومي ، وقد استطاع لفظ (يمططه) أن يوحي في نفوسنا معاني كثيرة .

ويقول أنور العطار في الحديث عن أمته (٣) :

واستكانت الى الورى فعليها صدأ الدهر من طويل الهجود

ففي صدأ الدهر عبارة تبعث في الذهن معنى الخمول وتقادم السنين

وربما كان ابراهيم طوقان وعمر أبو ريشة والشاعر القروي في مقدمة من عنوا بالصورة الشعرية في قصائدهم القومية يقول أبو ريشة (٤) :

يا عروس الصحراء ما نبت المجد على غير راحة الصحراء .

فأعيدي مجد العروبة واسقي من سناه محاجر الغبراء .

فقد سما الشاعر بعبارته عن طريق صوره المتتابعة بعروس الصحراء ونبت المجد وراحة الصحراء وسنا المجد وسقايته لمحاجر الغبراء . وهو يصف بطولة ابن الوليد في هزم الروم بقوله (٥) :

وضلوع اليرموك تجرى نعوشا حاملات هوامد الأبدان

(١) الديوان ٥١٢
(٢) الديوان ١٣٨
(٣) في ظلال الأيام ١٠٠
(٤) الديوان ١١٢
(٥) الديوان ٢٣١

فالبيت صورة مركبة متكاملة تبدو في مشهد اليرموك وقد حملت مياهه الجثث الهوامد وسارت بها في موكب حافل رهيب ٠

على أن أكثر هذه الصور تبدو وأشبه بومضات باهرة خلال القصائد الحديثة ولذلك ترتفع أبيات فيها ، وتسقط أبيات أخرى ٠ وقل أن نتعانق مجموعة من الصور محمولة على جناح الخيال لتخلق جوا ملحميا رائعا على نحو ما مر بنا في قصيدة القروى الصينية (فتى الهيجاء)(١) وقصيدة الشرتوني في مجاعة لبنان(٢) وقصيدتي طوقان الفدائي والشهيد(٣) ٠

ومما يستوقف الباحث ان التميز بين الجديد والقديم لايتم بيسر فالأمر نسبي ونحن لا نستطيع أن نطلق القول في ان العبارة التقليدية أو الصورة القديمة لا تصلح بالضرورة لأسلوب هذا العصر وبالتالي لا تستحق الحياة٠ لأن مقومات الفن بصورة عامة لا تخضع لهذا القانون خضوعا مطلقا والا لوجب أن ينعدم التراث الفني منذ سالف عهود البشر ، وان ينسخ أدب كل عصر أدب العصر الذي سبقه ٠ والجديد ما لاءم النفس الانسانية في كل زمان ومكان ٠ وان نظرية (يونج) تبين لنا ان مظاهر النشاط الانساني ليست وليدة فرديته بقدر ما هي ناجمة عن الرواسب الاجتماعية في لاشعوره وهذا يعني أن في اعماق الأدب قدرا من الطاقة والتعبير ليس له وان بدا أنه منه ٠

ولننظر على هذا الضوء الى وصف الشاعر القروى لزحف الفرنسيين بصفحاتهم على جبل العرب اذ يخاطب " فتى الهيجاء "(٤) :

الم يلبس عداك التنك درعا	فسلهم هل وقى لهم ضلوعا
اغرت عليه تلقى النار بردا	ويرميها الذى يرمى هلوعا
وثبت الى سنام التنك وثبا	عجيبا علم النسر الوقوعا
فخروا فوق ظهر التنك صرعى	وخر التنك تحتهم صريعا

---

(١) الأعاصير ٢٦ وانظر أيضا ديوان الثورة ٨١ وارجع الى ص ٣١١ من البحث ٠
(٢) الديوان ٦٣ وانظر أيضا ص ١٢٣ من البحث ٠
(٣) الديوان ٦٥ ، ٣٦ وانظر أيضا ص ٣٢٠ ــ ٣٢١ من البحث
(٤) ديوان الثورة ٨١ وديوانه الأعاصير ٢٦

ففي الابيات تصوير رائع وبخاصة هذا الجو القصصي الحي الذى يجعل الابيات بعضها يأخذ برقاب بعض ويوحي بحركة المتصارعين .

ولنتطلع الآن الى خصائص أخرى أضفت على الأبيات جمالا . ولنذكر قبل ذلك ان الموضوع معاصر وهو يدور حول معركة قوامها الرصاص والمدافع والعربات المصفحة فماذا فعل الشاعر ؟ لقد شبه التنك الذى غاص فيه الفرنسيون بالدرع الذى لبسوه ، وأين منا الدرع اليوم. ثم رأى الشاعر في هذا التنك وفي قبة الفولاذ التى تعلوه جملا يحمل سنامه فوق ظهره ، وهذه الاستعارة مستمدة من صميم البيئة البدوية وأين منها الحياة الحضرية المعاصرة. ويتجلى الجو الملحمي حين تتكامل هذه الصور بصورة الغزاة المدحورين وقد خروا بدرعهم صرعى أو خر التنك تحتهم صريعا .

وهكذا كانت اللوحة بمجموعها مرسومة بمداد قديم لا حديث بدوى لا حضرى . فهل يذهب هذا الطابع التقليدى باعجابنا بالقصيدة أو يقلل منه . . لعل سر اعجابنا يكمن في هذا المداد وتلك الألوان.. ان ريشة الشاعر الصناع هي التى استطاعت ان تبعث الحياة في هذه الصور التقليدية وبالتالي في القصيدة كلها ، لأن الشأن في التناول الفني وبراعة الأداء..

ومن هذا القبيل وصف الزركلي أحد الأبطال اذ خرج لملاقاة الفرنسيين بمفرده بعد أن ضاق عليه الحصار فسقط شهيدا (1) :

شق جنح الظلام يمشى اليهم رابط الجأش مشية الرئبال

فالبيت تقليدى بجملته سواء في استعارة جنح الظلام التى تذكرنا بتشبيه الليل الدامس بأجنحة الغراب الفاحم ، أم في تشبيه مشية البطل بمشية الأسد . أن جنح الظلام الذى شقه البطل بخروجه من مكمنه أضحى عبارة من بنية اللغة ومن أسلوب الكلام فيها وهي تعني مفهوما مرتبطا في الذهن والنفس خارجا عن نطاق الزمان والمكان والقديم والجديد . وكذلك الشأن في تشبيه مشية البطل بمشية الأسد وهو التشبيه القديم

---

(1) ديوان الثورة ٨٥

المكرور ، لأن الأسد ما زال رمزا للبأس في ذهن البشر برغم تقدمهم المادي في وسائل الفتك.

ولا يختلف عن ذلك قول محمود غنيم (١) :

لا خير في حق يقال ومنطق عذب بحد السيف غير مؤيد

فالذي يعنيه الشاعر والذي نفهمه نحن أيضا ان عبارة حد السيف لايمكن أن تقتصر على هذا المدلول الضيق للكلمة ، وعلى الرغم من أنها مستمدة من عصر سالف غير عصرنا أصبحت تعني معنى عاما هو بمثابة الرمز المجرد لمعان متعددة مثل القوة والعنف والبأس. وان استبدال الشاعر كلمة القنبلة أو المدفع بالسيف أو الرمح في هذا المجال لا يغير من حقيقة المعنى شيئا ، وبالتالي لا يضفي عليه صفة الجدة والطرافة ان لم يسىء اليه .

كل ذلك يعني ان المرء لا يستطيع دائما الانفلات التام من تأثير مجتمعه وان الأديب لا يستطيع في كل شيء ان يخرج خروجا تاما عن العبارات والصور المتوارثة لانها دخلت في رصيد افكاره وغدت جزءا من كيانه . على أن هذا لا يعني اننا نعفي الأديب من تبعات التجديد والابتكار ونرضى له أن يجتر ما سبق قوله . فالتجديد المطلق أمر متعذر المنال . ومن الملاحظ أنه في الشعر القومي بوجه خاص كان محدودا لا يبلغ المدى الذي بلغه في سائر الأغراض الشعرية وبخاصة الغزل والوصف .

ومن الطريف أن تكون الصورة الشعرية قد تأثرت في بعض الأحيان بالبيئة المحلية وانبثقت عنها . والوطن العربي كثير التنوع في أجوائه وربوعه وطبيعة أرضه . وقد انطوت بيئة مصر على الاثر الماثل العريق من اهرام ونصب وموميات وسواها . ولذلك كان على شعراء مصر لا سواهم أن يشيروا اليها كما فعل محمد الأسمر حين ندد بجيوش المحتلين (٢) .

حطت جياعا فلما اتخمت نهضت كيما تطير فما اسطاعت فلم تقم
فهي الغداة بوادي النيل جاثمة مقيمة اشبه الاشياء بالهرم

---

(١) صرخة في واد ١٠٥
(٢) الديوان ٤٣

ومن الطبيعي أن يكون الهرم رمز المثول والبقاء في مصر وليس الجبل في تلك البيئة المنبسطة ٠

ويقول أبو شادي مندداً بالحكام (١) :

الموميا أجل في تقديرنا ... من هذه الاشباح والاكفان

اذ لا نتوقع من شاعر في دمشق أو بغداد أن يذكر الموميا واشباهها في شعره ٠

ومن هذا القبيل ايضا قول الياس فرحات في أذناب الاحتلال (٢) :

كالمعز تحسن ظنها برعاتها ... ودم الجداء على نيوب رعاتها

فالمعزى والجدي من الماشية التي تعيش بكثرة في المناطق المعتدلة والبيئات الجبلية أو المرتفعة مثل سورية ولبنان مثلا ٠ ومن هذا القبيل أيضا قول الشاعر القروي (٣) :

أين الحماسة يالبنان قد بردت ... كالثلج ,والدم يالبنان قد جمدا

فتشبيه الشاعر خمود جذوة الحماسة بالثلج أو حديثه عن التجمد انما هو منتزع من بيئة لبنان قبل كل شيء اذ ليس في طبيعة جو العراق ومصر ما يوحي بهذا القول ٠

وغير ذلك من هذه الصور والعبارات التي كانت تتلون بألوان البيئات التي تنبثق عنها ٠

ولكن هل يمكن اعتبار هذه الابيات ظاهرة أدبية عامة نستجليها من خلال الشعر القومي المعاصر ٠ الواقع اننا قلما نلمس مثل هذا التنوع في قصائد شعراء الشرق العربي برغم اختلاف بيئاتهم من جبلية الى صحراوية أو سهلية ، ومن حارة الى معتدلة أو باردة ٠ وقد تكون هذه الألوان المحلية أكثر جلاء في اغراض الشعر الأخرى وبخاصة وصف الطبيعة ، اذ أن تميز الموضوع في كل بيئة يقتضي ما يلائمه من الصور ٠ أما المجردات وعالم الثورة والكفاح والاستبداد والاستعمار والبؤس والشقاء فانها تكاد تتماثل ٠

---

(١) مصريات ٢٣
(٢) الديوان ١٩
(٣) الديوان ٢٠٥

ومن أسباب هذا التماثل أو التشابه ايضا في صور الشعر القومي وضيق مجال التجديد أو الابتكار أو التنويع فيهما قوة سلطان التيار التقليدي على الشعراء ، وأن الشعر القومي الوشيج الصلة بالشعر الحماسي القديم كان يزيد في اعتماد الشعراء على محفوظهم بالاضافة الى اغترافهم كثيرا من صورهم من منبع واحد في الغالب هو الشعر القديم كأن يتحدثوا عن الكر والفر والسيف والرمح والذئب والنسر وغير ذلك مما يرددونه ولايرونه .. كل هذه الامور كانت تحد من صدور الشاعر العربي عما حوله بحيث طغى التعبير المتوارث على كل لون محلي أو طابع بيئي في كثير من الأحيان . وهذا ما جعل الشعر القومي يتسم بالرتابة ويفتقر الى صفات التفرد والتميز والتنوع التي تعتبر من مقومات كل عمل فني ، الا من أوتي موهبة من الشعراء فنفخ في الصورة التقليدية من روحه وأصالة تجربته .

ان العبارات الجاهزة والصور المعادة التي تنبثق من الذاكرة قبل أن تنبع من حقيقة التجربة أشبه بالنقود التي يذهب برونقها كثرة الاستعمال.

وان الاعتماد المطلق على الزاد المتوارث واستعارة الصور من شعر الآخرين ، والاكتفاء بما تختزنه الذاكرة معناه ان الصورة ثابتة وجامدة في القالب الذي صبت فيه وهذا يقود الى العقم وخمود جذوة الابداع لأن المواطف والمشاعر متحولة متغيرة ولايمكن أن تؤديها حق الأداء عبارات أو صور جاهزة ثابتة اذ أن التجربة ممعنة في الذاتية وليس بوسع العبارة التقليدية أن تطابقها . ان الانفصال ثورة وكل ثورة تجديد وشق لدروب غير مطروقة . وكما قال فلوبير " هناك طريقة واحدة للتعبير عن الشيء ولفظة واحدة لتسميته وفصل واحد لاحتوائه "

هـ ـ الجهارة والجزالة

نشأ الشعر العربي في حياة الجاهليين للخطابة في الجمهور. وكان ينشد انشادا ويلقى في المحافل على الملأ حول الكعبة أو في الأسواق أو في قصور الملوك والأمراء.. ولذلك كان عليه أن يعصم بما تتسم به الموسيقى المحفلية من جهارة في الصوت وقوة في النبر ووضوح في الايقاع .

وهو بهذه السمات شديد الشبه بفن الخطابة ، فهما ينجمان عن ظروف اجتماعية متشابهة ويعتمدان على مقومات واحدة من قوة

التأثير وخلب الأسماع ومخاطبة العواطف واثارة الحماسة والهاب المشاعر.
وعلى هذا نستطيع أن نعلل نشأة الخطابة والشعر السياسي وازدهارهما معا في صدر الاسلام . كما نستطيع تفسير ازدهار الشعر القومي واستعادة الخطابة شيئا من مكانتها في هذه الفترة الانقلابية المعاصرة من حياة العرب . وقد رأينا محمود سامي البارودي شاعرا للثورة العرابية ورأينا عبد الله نديم خطيبها . وكان شعر شوقي وحافظ والرصافي يلبي حاجات المجتمع المتحفز كما كان شأن خطب مصطفى كامل وسعد زغلول وعبد الرحمن الشهبندر ..

ولهذا نلاحظ اشتراك الشعر القومي والخطابة في كثير من الخصائص من حيث العناية بتصوير منازع الحماسة واهتمام بجرس الكلمة وجزالتها وفي الخطابة حرص على التوازن والازدواج بين الجمل وهذا يقابل الأبيات والشطور المتماثلة في الشعر . وفيهما أيضا حرص على السجع بين فواصل الجمل وهذا يقابل القوافي في القصيدة .

ثم احتضنت الصحافة عددا من فنون القول وفي مقدمتها الشعر القومي والخطابة ، وبدأت الخطابة تتحول الى مقالة أو تتوارى أمام ازدهارها. ولذلك بدأت تفقد بعض خصائصها كالسجع مثلا الذي وجدناه عند عبد الله نديم ثم خفت وطأته بعد ذلك لدى مصطفى كامل وسعد زغلول وأمثالهما حتى كاد يختفي آخر الأمر وذلك لأن فن القول هذا أخذ يقرأ قراءة اكثر مما يلقى القاء..

ومع ان القصيدة جارت المقالة في هذه الظاهرة الا أنها ظلت تتمسك بسماتها العامة ولعل أسباب ذلك تعود الى طبيعة الشعر المحافظة وحرصه على قوالبه وقلة تقبله للتطور والتجديد ، بالاضافة الى أن القصيدة القومية دون غيرها ما زالت تعتمد على الالقاء وما يقتضيه ذلك من رنين القافية ومن الجزالة والجهارة وقرع الآذان بالرغم من اعتمادها ايضا على النشر في الصحف والمجلات أو الدواوين. ولم يحدث هذا التبدل في سمات الشعر القومي الا بعد الحرب الثانية حين ثار بعض الشبان المجددين على رتابة الوزن ووحدة القافية وجلجلة الايقاع .

وتعتبر جزالة الألفاظ من مقومات الشعر القومي والحماسي الذي يهدف الى مخاطبة الجماهير ، كما تعتبر رقتها من مقومات شعر الرثاء .

والنسيب وسواهما مما ينبثق عن الوجدان الفردي بالدرجة الأولى . ان صوت النفير لايمكن أن ينسجم مع عاطفة الحب ، وكما أن نغم الناى الشجي لا يوائم مشاعر الحماسة والبأس كما أن طبيعة الاغنية وسماتها تغاير طبيعة النشيد بوضوح ايقاعه وجهارة مقاطعه وقوة نبره . ومن هنا كانت الجزالة أبرز صفات الأسلوب المكي في القرآن ، اذ كانت الخطابة في جموع العرب والدعوة الى الدين الجديد في مقدمة أهدافه . ولم يكن المتنبي لجزالة لفظه ممن يحسنون الغزل ، كما ان الأخطل الصغير لم يبلغ برقة لفظه في شعره القومي ما بلغه في غزله ، وكذلك كان شأن على محمود طه وصالح جودة ومختار الوكيل . وان ديوان ليالي الهرم لصالح جودة مثلا " يضم غير شعر العاطفة مجموعة من شعر القومية ولكننا لا نعدل بها شعر العاطفة الخفيف المجنح . فشعر القومية يتطلب طاقة انفعالية ورنينا موسيقيا خطابيا لا يملكهما هذا الشاعر الوديع بطبعه الغنائي ، الخفيف النغم بموسيقاه "(١) والأمر نفسه ينطبق على شعر مخائيل نعيمة وايليا ابي ماضي وجبران خليل جبران لأن الهمس لا الجهارة كان من أبرز سمات شعرهم . وهو شعر تتجلى خصائصه في التلاوة الهادئة قبل ان تتجلى في الالقاء الصاخب والنبر الواضح .

وقل أن نجد من أوتي موهبة ايجاد اللفظ الملائم لموضوعه من الشعراء المعاصرين مثل ما أوتي أحمد شوقي ومعروف الرصافي أو ابراهيم طوقان وعمر أبي ريشة والشاعر القروي ومن هنا كان سر نجاحهم في معالجة الشعر القومي والوجداني على السواء .

ولنستمع الآن الى هذه الأبيات ، يقول أبو الفضل الوليد(٢) :

هبوا بني أمي وصيحوا صيحة	يصحو العراق لها ويصحو الشام
وتقفوا نمزق بالسيوف جموعهم	حتام تعبد عندنا الأصنام

ويقول مصطفى الغلاييني(٣) :

اين العصاليت في أرض العراق وفي	رحب الجزيرة من قحطان أو مضر

---

(١) محمد مندور : الشعر المصري بعد شوقي ٣ : ٥٦
(٢) الانفاس الملهبة ٣٨
(٣) الديوان ١٣٠

ويقول خير الدين الزركلي[١] :

غلت المراجل فاستشاطت أمـة عربية غضبا وثار رقود

ويقول أمجد الطرابلسي في أحد الابطال[٢] :

وعتاده قطع الصفا لكن فـي ايمانه ما يصدع الجلمودا

فجزالة اللفظ وجهارة العبارة ووضوح الايقاع وجلجلة القافية كلها صفات اقتضتها المعاني التي طرقها الشعراء في موضوع الحض على الجهاد واستنفار النفوس ووصف البطولات وما الى ذلك ...

وليس بوسعنا أن ننكر أو نقلل من شأن تأثير الالقاء في المسامع امام المحافل لأن الصوت والنبرة والجرس عناصر متممة لمدلول اللفظ والأبيات السابقة تفقد الكثير من خصائصها اذا تليت همسا .

أن النقد ينبغي الا يصدر حكما على القصيدة اثر القائها أو من خلال استحسان الجمهور لها اذ كثيرا ما تتعرض النفوس للاستهواء بتأثير بعض العوامل الخارجية ، كأن تخلبها لهجة الشاعر ونبرات صوته وبراعته في الالقاء وحركات يده ومعالم وجهه قبل ان تعي جوهر قصيدته وحقيقة مقوماتها[٣] ، والا كان تقدنا لهذا الاثر على حد قول (فان تييجم) " يشبه ما يمكن أن يكتبه ناقد مسرحية اذا ما دخل المسرح ليتتبع حركات النظارة في أعلى التياترو — حيث الجمهور الصاخب مزدحم في أرخص المقاعد — بدل أن يتتبع حركات المسرحية على المسرح نفسه "

وكثيرا ما تعرض الشعر القومي لهذا العيب فارتفعت مقاطعه في اعين الجمهور ابان القائه وانتزع التصفيق والهتاف ثم لم يتصد الاسماع بعد ذلك . وان الاسراف في الاعتماد على الصيغه الخطابية المباشرة والجزالة والجهارة يلحق بالقصيدة جلبة وصخبا وجعجعة قد تعطل تدفق الشعور العاطفي العميق وتعكر صفو الاستغراق الفني الممتع .

---

(١) الديـوان ٤٢
(٢) مجلة الرسالة السنة ١٩٣٩ ، العدد ٥٥٠
(٣) انظر سهير القلماوي : النقد الأدبي ٤٤

و – النثرية والتقريرية

غاية الفن الايحاء والتأثير لا السرد والتقرير . وليس من طبيعة القصيدة أن تنقل الخبر بل أن تنفعل به . والأدب ليس تاريخا وان اعتمد أحيانا على التاريخ ، كما أن الأديب ليس مؤرخا وان شارك المؤرخ فى استمداد مادته من واقع الحياة .

وهذا يعنى أن الأديب يمتاز عن المؤرخ أو العالم بأن عبارته مشحونة بالايحاء والاثارة والانفعال .

الا أن كثيرا من الشعر القومى يفتقر الى هذه الجذوة العاطفية التى تحملها العبارة الشعرية ذات الايقاع والجرس ، بسبب حرص الشاعر على رصد الظواهر والأحداث الخارجية بحيث يطغى هذا الهدف على احساسه الداخلى وخلجاته النفسية . وقد نجم عن ذلك كثير من القصائد الخاملة التى تمتح من سطح الوقائع لا من أعماقها .

ومع ان الفارق الأول بين الشعر والنثر يتجلى فى الوزن والقافية ، فان مما لاشك فيه أن عناصر أخرى خفية تميز الشعر عن النثر . وفى هذا وحده سر تفاوت الشعراء والقصائد . اذ لاشئ يخمد انفاس التجربة الشعورية فى العمل الأدبى ويبدد بالتالى تأثيرها فى النفوس مثل الأداء المباشر والتقرير والسرد بحيث تغدو العبارة آخر الأمر أقرب الى النثر المألوف برغم كونها موزونة مقفاة .

واذا لم تكن هناك مقاييس أو حدود فى هذا الأمر فللذوق وحده الكلمة الأولى .

يقول الزهاوى مثلا (1) :

الشرق يشبه بركانا به حمم أخاف من أنه يا غرب ينفجر

فماذا يثير هذا البيت فى النفس سوى أنه يلقى الى ذهننا بمعنى ، انه كلام أقرب الى لغة الحديث اتفق له أن يكون موزونا . وربما كان فى كلمة (يشبه ، وأخاف من أنه) سبب سقوطه .

ومن هذا القبيل قول الرصافى بتقريرية مماثلة (2) :

---

(1) الرباعيات ١٣٦

(2) الديوان ١٣٩

العرب أكبر أمة مشهورة ... بفتوحها وعلومها وبيانها

وقول ابي الاقبال اليعقوبي (١)

نحن جند الحق مذ كان الوجود ... في فلسطين وفي كل بلد

وقول اسكندر الخوري البيتجالي (٢)

أما فلسطين الحبيبة ... فهي في حصن حصين

ان المسيحيين فيها ... اخوة للمسلمين

فهذه الابيات جميعا تلقي في الذهن معنى مجردا من الظلال والايحاءات شأن الهيكل العظمي الذي يفتقر الى بضاضة اللحم وحرارة الدم . حتى ان عبد المحسن الكاظمي كان يرتجل شعره أمام جمهوره ويتدفق في مخاطبته على هذا النحو (٣) . وقد يكون ذلك منه دليل الفصاحة واللسن واتساع المطن لكن الشعر الحق لا يمكن أن يكون فيضا تلقائيا يتدفق من القلب ويسهل على اللسان ، وربما كان ما يشبه هذا الارتجال مذهب الشاعر في أكثر ما ينظمه ولو خلا الى نفسه .. فهو يقول مثلا في سعد زغلول (٤)

ان من بنى ... غير من هدم

خير من حمى ... خير من عصم

لا يضرك من ... سب أو شتم

وتسير الابيات على هذا النحو حتى تبلغ قرابة مائة وخمسين بيتا او تزيد فالشاعر يسود والقارئ يلتهم أبياته ببصره ان لم يصرفه السأم عنها ثم يقضي الأمر . ولا يبعد أن يكون مفهوم الشعر عند الكاظمي مشابها لما كان عليه عند أبي العتاهية الذي كان يرى أن لغة الشعر لا تختلف عن لغة الحديث وأنه لو شاء لجعل كلامه كله شعرا ..

وقد يكون شوقي في رأس من خلص شعرهم من هذا العيب بفضل حرصه على الجرس والايقاع وانتقاء اللفظ الموحي وتوخي الأداء غير

(١) النظرات السبع (٢) المنقود ٦٢

(٣) انظر مقدمة ديوانه وبعض هوامش قصائده في ثناياه

(٤) الديوان ٢ : ١٩٢

المباشر . الا أن كثيرين من الشعراء وقعوا في هذا العيب مثل جميل صدقي الزهاوي وأبي الاقبال اليعقوبي واسكندر الخوري البيتجالي ممن كان شطر من شعرهم لا يعدو النظم السياسي أو التاريخي يسرد أحداثا عابرة وأخبارا عارية وحقائق مجردة بكلمات باهتة هزلت فيها العاطفة ونضب الانفعال وتبدد الايحاء ..

لقد عبر عدد من الشعراء مثلا عن تعلقهم بوحدة العرب ومنهم من الح على ذلك وأكده ، ومع هذا لم يكن في شعره النفحة العاطفية والدفقة الحية التي نراها في قول حليم دموس (1) :

أنا كيف سرت أرى الانام أحبتي	والقوم قومي والبلاد بلادي
بردى كدجلة والفرات محبة	والنيل كالأردن طي فؤادي
والغوطتين وكرم وادي زحلة	كنخيل مصر في ظلال السوادي
وحفيف هذا الأرز في لبنانه	كحفيف ذاك النخل في بغداد

فالفكرة محدودة لا تخرج عن تعلق الشاعر بوطنه الكبير وأن ربوع العرب سواء في مكانتها لديه ، بل انه يكرر هذا المعنى ويتحدث عن البلد الواحد أكثر من مرة دون أن يأتينا بفكرة جديدة تضاف الى بيته الأول أو أحد أبياته ، ومع ذلك فنحن نتذوق في كل بيت نكهة محببة ونصحب الشاعر بنشوة وسرور في جولته الخاطفة في مغاني العرب ، كل ذلك بفضل الأداء غير المباشر والبعد عن التقرير وهكذا وفق الشاعر الى اثارة عاطفة حب الوطن في نفوسنا ونقل تجربته الحية الينا بهذه البساطة المحببة والجزئيات الصغيرة ..

ان الفكرة الحية والكلمة الحية والصورة الحية هي عناصر الاثر الأدبي الناجح ومقوماته من حيث أنه فن جميل ، وبدونها لايمكن أن يكون خلق فني .

ومن هنا أيضا يجب ألا تخدعنا القصيدة بنبل مقصدها وشرف غايتها وحسن نية صاحبها ، أو أنها تصادف هوى في نفوسنا لملاءمتها أفكارنا . اذ لا جدوى في الفن أن تنطوي قصيدة على مضمون حسن يدعو

---

(1) المثالث والمثاني ١٣٢

لخير الجماعة ، وان يكون الشكل فيه ضامرا كسيحا ، والا لم يفترق الفن عن الدعاية أو الوعظ . بل ان المضمون الحق لا ينهض به الا مبنى جيد اذ لا انفصام كلى بينهما ، وهل بوسعنا أن نقول ان احدى شفرتى المقص دون غيرها هى التى تقطع الثوب .

ان أجدادنا النقاد لم يغتفروا لحسان بن ثابت ضعف شعره فى الاسلام بعد قوته فى الجاهلية ولم يمنعهم ذلك فى الوقت نفسه من أن يعدوه مسلما مخلصا وصحابيا بارزا . وان اسلامه لم يحجب ضعف شعره كما ان اشراكه لم يذهب بقوة فنه . وكم من قصيدة قيلت فى مدح الرسول لم يحفل بها أحد .

وما من ريب فى أن المغالاة فى تقدير الأدب لمجرد مضمونه فى معالجة قضايا المجتمع وأنه يخدم الحياة دون أن نلوى على القيم الجمالية الفنية واصالة التعبير وعمق الاحساس وحرارة التجربة آفة خطيرة لحقت بالشعر القومى الحديث وبنقده على السواء ، وهى تهدد حياتنا الأدبية كلها . ففى الأدب لا يكفى أن يكون لدى المرء شئ يقوله بل ان يقول هذا الشئ جيدا ، والأهمية لا تنحصر فيما يعبر الشاعر عنه بل فى كيفية تعبيره ومبلغ فنية أدائه .

الشعر لا يمكن أن يكون الا فنا جميلا والا فقد روعته وتأثيره وسقط مهما يكن مضمونه ساميا رفيعا . وجمال الشعر يأتى من أساليب صياغته لأنه تصوير لا تقرير وايحاء لا تسجيل .

ز — بنية القصيدة القومية وهيكلها

ولنعمد الآن تطبيقا لما مر بنا فى مراحل هذا الفصل الى دراسة بنية القصيدة القومية ونبين ما انطوت عليه من مضمون من خلال قصيدة يمكن اعتبارها ممثلة لكثير من نماذج الشعر القومى . وقد نظمها الأخطل الصغير فى جهاد فلسطين عام ١٩٣٥ وتبلغ ثلاثا وثلاثين بيتا .(١)

---

(١) انظر النص كاملا فى ديوان " الهوى والشباب " ١٦٥ لبشارة الخورى ، وبعض خطوط الدراسة مستمد من أمالى الدكتور اسحق الحسينى على طلبة معهد الدراسات العربية العالية .

استهل الشاعر قصيدته بمطلع موفق عاد فيه الى العرب وخصالهم وذكر بحفاظهم على العهد واستمرار هذه السجية في احفادهم المعاصرين :

سائل العلياء عنا والزمان ... هل خفرنا ذمة مذ عرفانا
المروءات التي عاشت بنا ... لم تزل تجري سعيرا في دمانا

ثم انتقل الشاعر الى موضوعه واستطاع أن يحكم الربط بين مطلعه وبين عتابه للانكليز الذين نكثوا بعهودهم وأن يبرز مدى التباين بين نبل العرب وغدر الحلفاء ، وقاده ذلك الى أن يتيه بفضل الثورة العربية على الانكليز وحسن بلاء العرب في الحرب الأولى :

ضجت الصحراء تشكو عريها ... فكسوناها زئيرا ودخانا

ويجنح لتركيز معانيه في بيت من الحكمة على غرار قصائد شوقي الوطنية أو ان شئنا على غرار قصائد أبي تمام والمتنبي :

عرس الأحرار أن تسقي العدا ... ا كؤوسا حمرا وأنفاسا حزانى

ولا يبلغ صلب موضوعه في جهاد فلسطين الا في البيت الرابع عشر فيصور جراحها وحنو العرب عليها . وهو في سبيل التأثير في النفوس يعمد الى اجتلاب صور الحزن والدموع والدماء كما فصل في تصويره المهد في ظل ارهاب الصهيونية وفي غمرة الجهاد المقدس :

فاذا المهد غسيل بالدما ... ويسوع يذرف الدمع حنانا

وحين نبلغ قوله في البيت الثالث والعشرين :

انشروا الهول وصبوا ناركم ... كيفما شئتم فلن تلقوا جبانا
غذت الأحداث منا انفسا ... لم يزدها العنف الا عنفوانا

نشعر بأن الشاعر قد تدرج بنا الى ذروة الحماسة وأن الطاقة الانفعالية كادت تستغرق جهده . فالقصيدة بلغت أوج نموها بعد أن سارت

اليه باطراد وهذا يقتضي أن تنحدر نحو النهاية كما تميل النبتة الى الذبول . ولكن الشاعر يفسد علينا هذا التدرج الممتنع اذ يقحم شماتته بالحلفاء بدلا من أن يختم قصيدته فيقول :

قرع (الدوتشي) لكم ظهر العصا وتحداكم حساما ولسانا

وبعد ذلك يناشد قومه بأن يتبرعوا لاخوتهم المجاهدين :

قم نجمع يوما من العمر لهم هبه يوم الفصح دعه رمضانا

وكان في غنى عن هذا البيت الذي يعتمد على الطلب المباشر اذا كانت القصيدة قد أفلحت في التأثير في النفوس برغم ما انطوى عليه هذا الحشو من نبل القصد اذ ليست صيغ الأمر والنهي مما يسمو بالعبارة الشعرية.

ويخيل الينا أن ختام القصيدة قد أزف مرة ثانية في بيته :

انما الحق الذي ماتوا له حقنا نمشي اليه اين كانا

ولكن الشاعر يحتفظ بأبيات أخر يشيد فيها بحمص وأهلها ويستعيد أمجاد ابن الوليد الذي يثوي فيها ، وكل هذا في سبيل شكر المدينة التي كان من المقرر أن يلقي الشاعر قصيدته فيها لولا أن حال الفرنسيون بينه وبين ذلك.

هذا ما قاله الشاعر فما قيمة ما قال :

ان أهم ما يؤخذ على القصيدة وينطبق على كثير من شعرنا القومي بصورة عامة خفوت النزعة الانسانية فيها وضيق افق الشاعر الفكري. فقد اكتفى بابراز الصراع القومي محدودا في بقعة من الأرض ومقتصرا على فئتين من الناس عرب ويهود . ونظر الى المشكلة باعتباره عربيا فحسب. وكان بوسعه أن يراها من حيث أنه انسان أيضا وعندئذ تنفتح أمام نفسه آفاق أرحب ينفذ منها الى تصوير مأساة الانسان والشعوب المستضعفة تجاه القوة الغاشمة كأن يضع في الميزان حياة شعب كامل أعزل ، غلبه مستعمرات على أمره وأمعن في اذلاله وسحق معالم كيانه .

ومع أن الشاعر يلمح الى ان الانكليز كانوا رأس الأفعى وأصل البلاء.

حين غدروا بالعرب ، الا أنه لا يعدو فى مخاطبتهم حد العتاب الذى يكون بين الاصدقاء فهو يقول مترفقا :

قل (لجونبول) اذا عاتبته سوف تدعونا ولكن لا ترانا

ثم ما هذه الروح القدرية المتخاذلة فى قوله عن الدوتشى :

انه كف لكم فانتقموا ودعونا نسأل الله الأمانا

أبمثل هذا القول تثار الهمم وتتقد المشاعر .

ولكن كيف قال الشاعر ما قاله :

ان الصورة لديه تتسم أحيانا بالابتكار الى جانب صوره التقليدية، ولكنها برغم ذلك لا تنسجم مع جلال الموضوع وطبيعته ، فهو يقول مثلا :

ان جرحا سال من جبهتها لثمته بخشوع شفتانا
وأنينا باحت النجوى به عربيا رشفته مقلتانا

فمن يتأمل هذين البيتين يلاحظ أن أسلوب الشاعر وصوره مستمدة من معانى الغزل الرقيقة ، فألفاظ اللثم والشفتين والأنين والنجوى والبوح والرشف والمقل ليست قادرة على الهاب جذوة الحماسة فى النفوس . ولكل موضوع صوره وألفاظه .

كل هذا يشير الى أن الأخطل الصغير كان بحق شاعر الهوى والشباب قبل أن يكون شاعر الحماسة والوطنية.

أما سائر الصور على قلتها بسبب اعتماد الشاعر على الأداء المباشر فى أكثر أبياته فلا تخرج عن الطابع التقليدى المكرور مثل (تركب الموت ، أو ضحك المجد لنا ، أو سقيناها العلا من دمنا ، أو بدم الأبطال مصبوغ لوانا). وصورة (المهد الذى نحرته دون ذنب حلفانا) وكأنه شاة ذبيح صورة موفقة لما انطوت عليه من تجسيد وتعبير حى عن النكث بالعهد . وكذلك قوله :

ضجت الصحراء تشكو عريها فكسوناها زئيرا ودخانا

وجمال البيت في أن الشاعر القى بمعناه بأسلوب غير مباشر واستطاع بذلك أن يوحي الينا بما قام به العرب في الجزيرة ابان ثورتهم ، وفي التلميح ما قد يفوق التصريح . كما أن تركيز المعنى وضغطه في ألفاظ قليلة واضح في البيت وهو يشير الى ظاهرة الايجاز التي عرف بها الشعر العربي بالاجمال .

والملاحظ أن الشاعر أيضا كان بصورة عامة تقليديا في مراعاته أصول النظم بدقة اذ لم ينس التصريع في المطلع . ومن جهة أخرى فان طابع الفخر يبسط جناحيه على القصيدة كلها منذ مطلعها ، كما اننا نلمح في شكر أهل حمص والثناء عليهم ظلا لشعر المديح التقليدي أيضا . ولسنا نجد مبررا لهذا الشكر ، والتضامن القومي واجب ، وان وجب الشكر فهل من الضروري أن يكون شعرا ، وجزءا من القصيدة نفسها .

وثمة عدد من الأبيات يعتبر من الحشو ويفتقر الى العمق وحرارة التجربة ، ولم كان حرص الشاعر على مثل هذا البيت :

يافلسطين التي كدنا لما كابدته من أسى ننسى أسانا

فهو لم يفلح في تصوير الألم المشترك بين العرب والجرح الذي ألف بين قلوبهم وما أضعف قوله (كدنا ننسى) .

ومع أن ما يشبه تخطيطا منطقيا سار عليه الشاعر في مراحل قصيدته يمكننا اعادة ترتيب أبياتها بحيث تبدو أكثر تناسقا وتماسكا وهذا يشير الى أن المفهوم القديم في وحدة البيت واستقلاله عما قبله وما بعده راسخ في ذهن الشاعر . فأبيات الفخر متناثرة بين أجزاء القصيدة وكان بوسعه ضمها في صعيد واحد ، والحكمة محشورة في البيت التاسع ويحسن تأخيرها ، وكذلك كان يحسن تقديم الحديث عن الدوتشي وان يوضع الى جانب تقريع الحلفاء في أوائل القصيدة ، كما أن أبيات شكر المدينة تعتبر ملصقة الصاقا بالقصيدة ... كل هذا يفت في وحدة هذا العمل الأدبي . ولايبعد أن يكون الشاعر بعد ذلك قد نظم قصيدته في فترات متباعدة كانت عاطفته خلالها بين مد وجزر .

والواقع أن القصيدة العربية كانت تفتقر الى الوحدة العضوية في

أكثر الأحيان لأن العرب كانوا يعتبرون البيت المفرد وحدة . بل انهم يستحسنونه قائما بنفسه لا يحتاج الى ما قبله ولا الى ما بعده . ولذلك كانت احكامهم النقدية فى الغالب تنصب على البيت دون القصيدة . وما زال هذا المفهوم سائدا فى أذهان كثير من الشعراء الذين وضعوا نصب أعينهم القصيدة القديمة ، وحرصوا على احتذاء النماذج السالفة وكأن القصيدة مجموعة من الأحجار تنحت كل منها على انفراد ثم يضم بعضها الى بعض لتشكل بناء كاملا . ومن قبل ، نقد عباس محمود العقاد فى (الديوان) قصيدة شوقى فى رثاء مصطفى كامل وعاب عليها تفككها وفقدان الوحدة العضوية فيها . وأثبت ذلك بتبديل مواقع ابياتها . بل اننا نجد شاعرا مثل على الجارم كان مرشحا لامارة الشعر بعد شوقى يعتقد أن من مقاييس جودة الشعر التنقل فى القصيدة فى فنون شتى من القول (1) :

ولهذا فان مما يعوز القصيدة الحديثة ـ وبخاصة القومية ـ ميزة التنامى العضوى الذى يتطور ويتكامل كلما أوغلنا فى تلاوتها . ولعل أكبر دليل على هذه الظاهرة البارزة فى الشعر القومى على الأقل اننا فى هذه الدراسة وخلال مرحلة جمع النصوص واستقصائها لم نكن نلقى كبير عناء فى اقتطاع بعض الأبيات التى تهمنا من قصيدة ، أو فى اسقاط أبيات أخرى من قصيدة سواها .

وقد تكون هذه الوحدة اشد وضوحا فى الأغراض الشعرية الأخرى التى كانت بطبيعتها اكثر تقبلا لتأثير الآداب الغربية على نحو ما نجد فى قصائد نخائيل نعيمة وايليا أبى ماضى والياس ابى شبكة وفوزى المعلوف . واكثرهم لم يعالج الموضوعات القومية الا فى أضيق الحدود .

ومع ذلك توافرت فى القصيدة القومية الحديثة وحدة عضوية نسبية نتيجة اقتصارها على معالجة موضوع واحد معين على نحو انصباب المقالة الحديثة على معالجة نقطة محددة .

ومما تجدر ملاحظته ان وحدة الموضوع غير الوحدة العضوية فهى بالتالى

---

(1) انظر مقدمة ديوانه

لا تستلزمها . ومن جهة أخرى فان طبيعة الموضوع ذات أثر في مدى الوحدة بين الأبيات ومقدار أخذ بعضها برقاب بعضها الآخر. فالموضوع القصصي بطبيعته ينطوي على تدرج أو تسلسل في الوقائع والأحداث ، ويستوي في ذلك الشعر العربي القديم والحديث . فالقصيدة المنسوبة الى الحطيئة في وصف الضيف الطارق أو قصيدة البحتري في وصف الذئب وسائر القصائد الأخرى المماثلة كالطرديات مثلا تتمثل فيها هذه الوحدة العضوية كما تتمثل في قصائد مطران القصصية (١) وفي قصيدة حافظ في مظاهرة النساء (٢) ، وفي عينية القروي في " فتى الهيجاء " (٣) ، وفي قصيدتي الشهيد والفدائي لطوقان (٤) وغير ذلك من القصائد .

الا أنه من الملاحظ ان الشعراء الذين أوتوا حظا أوفى من الثقافة الأدبية الغربية كانوا اكثر حرصا على هذه الوحدة العضوية كما هو الشأن لدى خليل مطران زعيم المجددين بين طبقته . وكان كثير الاطلاع على أدب الغرب . ومما قاله في مقدمة ديوانه موضحا مذهبه (٥) : " هذا شعر ليس ناظمه بعبده .. لاينظر قائله الى جمال البيت المفرد ولو انكره جاره وشاتم أخاه ودابر المطلع وقاطع المقطع وخالف الختام. بل ينظر الى جمال البيت في ذاته وفي موضعه ، والى جملة القصيدة في تركيبها وفي ترتيبها وفي تناسق معانيها وتوافقها ".

ويبدو ان عددا من شعراء الجيل التالي نهجوا هذا النهج مثل طوقان وأبي ريشة . فقد كان الحرص لديهما على هذه الوحدة اراديا واعيا بفضل ثقافتهما الأدبية الغربية ، فقد أعرب طوقان عن عدم رضاه عن قصيدة من قصائده اسمها (نحن) ووصفها بأنها مفككة الأوصال (٦) .

ويمكن اعتبار هذين الشاعرين وأمثالهما في طرف مقابل لمذهب علي الجارم وزمرته في شأن موضوع وحدة القصيدة .

---

(١) انظر ديوان مطران ١ : ١٢٠ مقتل بزرجمهر ، وفتاة الجبل الأسود ١ : ٧٩، واللبن والدم ٤ : ٨٣ وانظر هذا البحث ايضا ص ٤٠٧ ـ ٤٠٨

(٢) انظر القصيدة في ديوانه ٢ : ٨٧ وانظر ص ٢٣١ من البحث

(٣) انظر ديوانه الاعاصير ٢٦ وديوان الثورة ٨١ وانظر ص ٢١١ من البحث

(٤) انظر ديوانه ٣٦ ، ٦٥ وانظر ص ٣٢٠ ـ ٣٢١ من البحث

(٥) الديوان ١ : ٥

(٦) راجع عمر فروخ : شاعران معاصران ٨٢

أما هيكل القصيدة القومية فلم يكد يختلف في شيء عن القصيدة الحماسية القديمة الا في طرق الشاعر الحديث موضوعه مباشرة دون أن يلتفت الى التمهيد له بنسيب أو سواه .

الا أن الشاعر الحديث عرف بحرصه في هذه القصائد على ايراد بيت أو أكثر من الحكمة في ثناياها أحيانا وفي ختامها غالبا . ولا ريب في أن شوقي سيد معاصريه في هذا المضمار . ومن الموجع أن الشعراء تأثروا خطاه وجنحوا للنسج على منواله بعد أن بهرهم توفيقه في ذلك المضمار ، وان يكن شوقي نفسه يضع نصب عينيه حكم المتنبي وأبي تمام.

والحكمة في الشعر معنى مركز تنصب فيه زبدة أفكار الشاعر وخلاصة رأيه وتجاربه بحيث تكتسب صفة الشمول كقول شوقي (١) :

وما نيل المطالب بالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

أو قوله (٢) :

وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق

بعد أن تحدث عن نضال السوريين في ثورتهم ضد فرنسا . ونمثل لذلك بعدد من الأبيات لمختلف الشعراء مثل قول محمد الأسمر الذي يندد بالحكام الخائنين (٣) :

وكل سفينة نزلت ببحر اطاعت موجه جزرا ومدا

أو قول شفيق جبري بعد رثائه الشهداء (٤) :

ذكرى الدفين وان تقادم عهده تحيي الدفين وتبعث الموءودا

أو قول محمد الفراتي محذرا من مكائد المحتلين (٥) :

بعض الطباع لها من جنسها مثل لا تأمن الذئب ان يرعى لك الغنما

---

(١) الشوقيات ١ : ٧٠
(٢) الشوقيات ٢ : ٨٨
(٣) ديوانه ٥٧
(٤) صبري الاشتر : المختار ٢٢
(٥) ديوانه ٦٥

ونحن نجد الحكمة تتخذ شكل البرهان العقلي أو الدليل المنطقي الذي ينتزع غالبا من الطبيعة على نحو يذكرنا بطريقة أبي تمام كقول حليم دموس يؤكد وحدة العرب برغم تمدد اقطارهم[1]:

وتقارب الأرواح ليس يضيره ... بين الديار تباعد الأجساد

أفما رأيت الشمس وهي بعيدة ... تهدى الشعاع لأنجد ووهاد

وشبيه بذلك قول القروي في المعنى نفسه[2]:

وما ضرنا أن لم نك وحدة ... وقد وحدتنا في الجهاد المقاصد

أصابع كف المرء في العد خمسة ... ولكنها في مقبض السيف واحد

وقد أراد مطران أن يفسر تمادى الحكام في استبدادهم بخنوع الجماعات لهم فقال[3]:

واذا رأيت الموج يسفل بعضه ... ألفيت تاليه طغى وتعالى

أما الأوزان فهى الأوزان نفسها وأما القوافي فهى القوافي نفسها ، أي التزام لوزن واحد ولقافية موحدة . ويكاد هذا الأمر يشتمل على ما يقارب تسعة أعشار الشعر القومي بين الحربين العالميتين . وثمة قصائد قليلة آثر فيها أصحابها النظم على نمط الموشح أو المخمس أو نحوهما من الأنماط التي تحافظ على وحدة الوزن وتسمح بتنويع القافية كما في موشح " صقر قريش "[4] لشوقي و " العذراء " للزركلي[5] ، أو كقصائد " الفدائي " و " الشهيد " و " الثلاثاء الحمراء " لطوقان[6] ، أو كقصيدة " أخي " لمخائيل نعيمة[7] و " الدخيل المعتدي " لمختار الوكيل[8] .

وربما كانت اجرأ المحاولات في ذلك صادرة عن المهجر ، وهذا راجع فيما يبدو الى الأسباب نفسها التي أدت من قبل الى ابتداع الموشح في الأندلس أي البعد عن اسر التقاليد ومهد المحافظة في الوطن الأم . وتعد

---

(١) المثالث والمثاني ١٣٢ (٢) الديوان ٤٣٩

(٣) الديوان ١ : ١٢٠ (٤) الشوقيات ٢ : ٢١٤

(٥) الديوان وانظر ص ٤١١ من البحث

(٦) الديوان ٦٥ ، ٣٦ ، ٣٨ وانظر ٣١٤ ، ٣٢٠ من هذا البحث

(٧) همس الجفون ١٤ وانظر ص ١٢٣ من هذا البحث

(٨) انظر ديوانه الزورق الحالم ٤٠ وانظر ٤١٢ من هذا البحث

قصيدة " النهاية " لنسيب عريضة (١) من القصائد القليلة التي حطمت التفعيلة الرتيبة وخرجت على مبدأ تناظر الشطور .

وقد استأثرت البحور الطويلة باهتمام الشعراء وبخاصة في الموضوعات الجديدة التي تقتضي الجلال كوصف معركة أو تصوير بطولة أو حض على جهاد أو افتخار بمجد ... وكثير من أسباب اخفاق الشاعر يعود الى عدم الانسجام بين موضوعه وبين الوزن الذي اختاره . وقد لا يتسق المتقارب أو المتدارك أو الرمل مع الموضوع الضخم ، والأمر نفسه ينطبق على البحور المجزوءة بوجه عام . ومن قبل كان المتنبي وأبو تمام وشعراء بني أمية والخوارج يراعون هذا الأمر بالسليقة في قصائدهم.

وفي مقابل ذلك كان الشاعر الحديث يؤثر الأوزان الخفيفة أو المجزوءة في موضوعات التهكم والانتقاد والساخر على نحو ما رأينا في قصيدة حافظ في مظاهرة النساء والتي وفق الشاعر فيها الى حد بعيد باختيار القافية أيضا . كما تتجلى هذه الظاهرة في بعض قصائد الرصافي (٢) اللاذعة على نحو ما رأيناه في تهكمه بالحكام والوزارات والمحتلين مثل قصيدته " الحرية في نظر المستعمرين " التي مطلعها (٣) :

يا قوم لا تتكلموا ان الكلام محرم

أو قوله في قصيدة أخرى (٤) :

ان ديك الدهر قد باض ببغداد وزارة
فكأن الحكم والعدل بها قط وفارة

وجملة القول كان التجديد أيضا محدودا في هيكل القصيدة كما كان الشأن في عبارتها وصورها وبنيتها لا يعدو محاولات ضيقة في نطاق القالب التقليدي المتوارث .

ومن الشعراء من جنح لاطالة القصيدة وكأنه يريد بذلك أن يثبت اتساع عطنه وطول نفسه وقدرته على اجتلاب القوافي على نحو ما نجد لدى

---

(١) الأرواح الحائرة ٦٥ وانظر ص ٣٨٠ من البحث
(٢) انظر ديوانه ٣ : ٨٧ وانظر ص ٢٣١ من هذا البحث
(٣) الديوان ٤٥٠ وانظر ص ٢٣٢ من البحث
(٤) الديوان ٤٦٦ وانظر ص ٢٤٧ من البحث

جميل صدقي الزهاوي الذي بني مطولته " ثورة في الجحيم " وتبلغ (٤٣٥) بيتا على روي الراء. وثمة قصائد كثيرة نحا فيها ما يشبه هذا المنحى . عبد المحسن الكاظمي وأبو الفضل الوليد وسواهما .

أما الشعر الحر أو المرسل فلم ينتبه له شأن الا في أعقاب الحرب العالمية الثانية . وأكثر الشعراء الذين عاشوا بين الحربين وبخاصة من نضج منهم خلال هذه الفترة ممن كانوا أقرب الى فجر البعث آثروا أن يأخذوا أنفسهم بهذه الصرامة الفنية في قالب القصيدة التي توارثوها عن أجدادهم واضفوا حولها هالة من القداسة ، حتى خيل الى فئة منهم أن كل بادرة تجديد فيها أو خروج عنها دليل ضعف بل حركة شعوبية هدامة ينبغي النظر اليها بعين الريب . وفي رأي علي الجارم أن الفن قومي يرتبط ارتباطا وثيقا بشخصية الأمة ومقوماتها وأنه يختلف في ذلك عن العلم اختلافا جوهريا فهو ما كان عربيا صراحا لا تجري فيه دماء اليونان واللاتين[1] :

أنما الشعر قطعة منك ليست	من دماء اللاتين واليونان
كل فن له مكان وأهل	ان غدا العلم ماله من مكان
وجهة الشرق غيرها وجهة الغرب	فأنى وكيف يلتقيان

× ×   × ×

وبعد فان من يستعرض الشعر القومي الكثير خلال الفصول السابقة وهو نتاج عدد كبير من الشعراء الذين عاشوا في بيئات متعددة سواء أفي المهجر أم في مختلف ربوع الشرق العربي ينطبع في ذهنه أن هذا الشعر الذي عالج موضوعات معاصرة من واقع العرب الحديث لم يكن ليختلف اختلافا بينا عن الشعر العربي المألوف .

لقد كان اتصال العرب بتراثهم القديم في هذه المرحلة من حياتهم — مرحلة البعث — وثيقا ، وكانت الأحداث القاسية التي عرضت لهم تزيدهم تشبثا بذلك الماضي الحافل لأنه أحد مقومات حياتهم القومية .

---

(١) الديوان ٤ : ٣٦٢

والتيار التقليدى فى ذاته يعد ظاهرة قومية بصرف النظر عن المضمون الشعرى ، فقد غدا مبعث الفخار ومهوى الافئدة لانه نتج عن حركة بعث قوية ردت الى العالم العربى روحه وحياته بعد أن ذبل وجف واستحال الى هياكل وزخارف وان العرب فى مناضلتهم الاحتلال وسعيهم لاسترداد حقوقهم السليبة كانوا شديدى الحرص على التمسك بأمتن الروابط القومية والاعتزاز بها وهى اللغة العربية وما تنطوى عليه من ثقافة العرب وأساليبهم والاستشهاد بقرآنهم وأحاديث نبيهم واشعار شعرائهم وأقوال اعلامهم ومفكريهم • وكل ما من شأنه أن يوثق العرى بين شعوب العرب ويشدهم الى بؤرة واحدة •

ولذلك اتسمت الحياة الأدبية كلها فى فترة نهوض العرب وكفاحهم بازدهار الأساليب التى كان ينسج فيها اصحابها على منوال القدماء •• وهذا من طبيعة كل أمة ناهضة اذ أن الفرنسيين منذ ثورتهم الكبرى أخذوا يعرضون عن الآداب الكلاسيكية القائمة على اليونانية واللاتينية البعيدتين عن اللغة الفرنسية ويعبرون بقوة عن نزوعهم نحو لغتهم القومية •

والحق أن الشعراء العرب كانوا بعيدين عن الاتصال بثقافة الغرب ، وآدابه وتياراته الفكرية ولم يتعدوا فى الغالب قراءة النقول العربية• وتذوق الأدب لا يقوم على قراءة الافكار المنقولة وانما على تفهم الأجواء الأدبية وادراك خصائص الأساليب التى تجرى فيها آداب كل لغة • ومن هنا كان تأثر الشعراء فى تلك الفترة ضئيلا وبخاصة فى مضمار الشعر القومى الوثيق الصلة بالشعر الحماسى القديم ، ومن كان يعرف منهم لغة أجنبية كأحمد شوقى لم يكن ليفيد من هذه المعرفة فى تطعيم شعره ، ومن أفاد من ثقافته تلك فان اثرها كان أوضح فى اغراض الشعر الاخرى التى يوجد ما يشابهها فى آداب الغرب وبخاصة الغزل والوصف •

الخاتمة

رسالة الشعر القومي

انبثق الشعر القومي بانبثاق فجر النهضة العربية في القرن التاسع عشر ولكنه لم يكن الا كأول الغيث . ثم أخذ ينهمر منذ اليقظة الدستورية . حتى اذا وقعت بلاد الشرق العربي في قبضة الاستعمار في الحرب العالمية الأولى دخل الشعر في عهد جديد حين أخذ يواكب قضية التحرر القومي . وقد اتسم منذ ذلك الحين بظواهر بارزة عامة نجملها فيما يلي :

(((١)))

اتسم المفهوم القومي بالغموض والاضطراب شأن كل مفهوم اجتماعي في طور نشوئه ، ولم ينبجس صافيا أول الأمر . فقد صحبته منذ ولادته في نفوس العرب منازع أخرى ذات جذور تاريخية ونفسية عميقة أخذت تضفي عليه ألوانها حتى بات من العسير التمييز بينها وبينه في بعض الأحيان .

فالعروبة كانت تعني الاسلام لدى شطر كبير من الشعراء . وكان هذا الاختلاط طبيعيا في تلك المرحلة حين كانت الدولة العثمانية في تكوينها الامبراطوري تضم شطرا كبيرا من المسلمين على اختلاف قومياتهم ، وكان العامل الديني يطغى على الأفكار القومية .

وكذلك كان المفهوم القومي العربي مغشى بالنزعة الشرقية الواسعة التي انبثقت أيضا تجاه اطماع الغرب في بلاد الشرق عامة . الا أن هذا المفهوم الشرقي كان مترجرجا في أذهان الشعراء يتسع حينا ليشمل الشرق بمجموع أممه ، وينحسر حينا ليعني المسلمين أو يضيق حينا آخر ليقتصر على العرب وحدهم .

ثم أخذ المفهوم القومي الصحيح يتسم بالصفاء ويشق طريقه الى

أذهان الشعراء اثر تعاقب الأحداث الجسام في الوطن العربي بعد أن اضمحلت النزعة الشرقية وخفت صوت الجامعة الاسلامية . ومع ذلك استمر المفهوم الشرقي في الشعر الحديث تبعا لاستمرار المستعمر في تحكمه بالشرق ، كما استمر المفهوم الاسلامي معانقا للفكرة العربية وداعما لها ./

ومن جهة أخرى تجلت في الشعر القومي خلال فترة عارضة من السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الأولى ـ وبخاصة في مصر ولبنان ـ نزعات وطنية محلية اتسمت بالحرص على ابراز كيان خاص بها نتيجة دوافع سياسية واجتماعية ونفسية ، كانت برغم تطرفها في بعض الأحيان ذات أثر في تعميق المشاعر الوطنية ورفد الاتجاه القومي .

كذلك كانت النزعة الانسانية الحقة ـ التي تجلت في عدد ضئيل من القصائد بسبب الظروف السياسية والاجتماعية التي كان يمر بها العرب ـ تعاطفا شاملا مع آلام الشعوب الأخرى وسموا بالأحداث القومية الطارئة الى أجواء الانسانية الرحيبة .

وهكذا فان الجامعة الاسلامية والرابطة الشرقية والنزعات الوطنية المحلية والعاطفة الانسانية كانت جميعا روافد مختلفة الألوان انصبت على التيار القومي فأكسبته قوة وتدفقا .

(((٢)))

وقد تجلت عناصر القومية العربية في الشعر المعاصر بالحاح الشعراء على وحدة الأصل العربي ووحدة اللغة وماضي العرب وتاريخهم المشترك وآلامهم وآمالهم ونزوعهم الشديد نحو وحدة اقطارهم وشعوبهم .

فمن حيث وحدة الأصل تجلى في الشعر حرص العرب على اتصال نسبهم المادي أو المعنوي بأجدادهم والمباهاة بقحطان وعدنان وكندة وربيعة واعتبار العروبة رابطة قرابة وشيجة وأن افراد الشعوب العربية ليسوا الا أبناء عم .

وكانت رابطة اللغة العربية أقوى هذه الروابط القومية تبعا لكونها لغة التراث العريق ولسان القرآن المبين وأداة التفاهم بين شعوب العرب على اختلاف اقطارهم . وقد اتسم شطر من القصائد التي قيلت في هذا الشأن بطابع الجدل بسبب تعرض لغة الضاد لهجمات كثيرة من المتفرنجين ودعاة العامية وبخاصة في مصر والمهجر ، كما اتسم الشطر الآخر بكثير من روح الزهو والافتخار .

ومن الطبيعي بعد ذلك أن يلوذ الناس وفي مقدمتهم الشعراء بماضيهم الحافل في مثل هذه الفترات من البعث القومي وان يطمحوا الى استعادة أمجادهم السالفة والاعتداد بتاريخهم المجيد جاعلين من ذلك كله حافزا لتقدمهم ونهوضهم . والعرب بطبيعتهم أمة محافظة شديدة الوعي لماضيها . وكم أعرب الشعراء في قصائدهم عن اعتزاز لا حد له بوقائع العرب وانتصاراتهم الحاسمة ، وكم تغنوا بعظمة الأمويين والعباسيين معتبرين اياهم مثلهم الاعلى الذي يطمحون الى بعثه . لقد كان هذا الماضي الحافل والتاريخ المجيد بمثابة التسغ الذي حفظ للعرب ثقتهم بأنفسهم وضمن لدوحة العروبة البقاء .

أما حاضر العرب وواقعهم الذي حفل بالآلام والآمال في تلك الفترة من حياتهم بين الحربين العالميتين فقد كان اشبه بأتون مشتعل تلتهب فيه النفوس وتصطرع الأحداث . وبلغت الحياة السياسية والقومية مرحلة من الاضطراب لم يعد بوسع الأديب العربي معها أن يكون بمعزل عما حوله . وتبين لكل ذي عينين أن مصاب العرب واحد في ابتلائهم بعدو واحد هو الاستعمار . فقد ألف الجرح بينهم ولم المصاب شعثهم فازدادوا تقاربا وشعروا بقوتهم مجتمعين . وكان شعراء كل قطر يهتمون بأحداث القطر الشقيق الآخر ويجعلون من قضيته قضيتهم . ولم يكن هذا الحاضر المشترك بما ينطوي عليه من آلام وآمال الا رافدا كبيرا يعزز ماضي العرب العريق .

وأما الوحدة العربية فقد كانت أمل العرب عزف الشعراء على قيثارتها أصفى ألحانهم بعد أن أدركوا أن أزهى أيام تاريخهم كانت ابان

اتحادهم . وكانت الثورة العربية أجرأ محاولة في هذا السبيل وقد قيل فيها شعر كثير ظل يفتقد الوحدة العربية ويدعو اليها باستمرار . ومع أن الحدود بين أقطار العرب اكتسبت الصفة الدولية وغدت أمرا واقعا الا أن الشعراء كانوا بالاجمال في طليعة من أنكروها وتجاهلوا أمرها . وبرغم أن قضية التحرر القومي كانت القضية الأولى التي استأثرت باهتمام العرب فان الشعراء مع ذلك لم يحيدوا عن تعلقهم بالوحدة المنشودة .

(((٣)))

وقد تبين لنا من خلال استقراء الشعر القومي أنه كان ينطوي على موضوعات كبرى انبثقت من واقع العرب القومي وحياتهم السياسية ، من مثل ما صدر عنه الشعراء من مناضلة للاستعمار وتنديد بالمحتلين وكشف زيف معاهداتهم ووعودهم والتشهير بفظاعتهم ودسائسهم والتهكم بديمقراطيتهم ومدنيتهم . وكان لهذا الشعر دور فعال في معركة التحرر التي خاضها العرب بقوة خلال تلك المرحلة من حياتهم .

وكان التنديد بالاستبداد وفساد الحكم وجها آخر من وجوه النضال الذي خاضه الشعر القومي أيضا . فقد تصدى الكثير من الشعراء بلا هوادة للمتزعمين والحكام وكشفوا عن خبيئة نفوسهم وفضحوا أمر تواطئهم مع الأجنبي . لقد نددوا بالملوك الطغاة والحكام الفاسدين وسخروا بالوزارات التي كانت ظلا للاحتلال والمجالس النيابية المصطنعة والانتخابات المزورة . وبكلمة واحدة كان الشعر القومي من هذه الزاوية شوكة في جنب الطغاة والمستبدين ومن لاذوا بالأجنبي ورضوا أن يكونوا له أذنابا .

وانصب كثير من الشعر القومي أيضا على استنهاض الهمم وتنبيه النفوس . اذ اتخذ الشعراء مواقف الريادة في الحض على المشورة وقيادة الرأي العام العربي ضد الفساد الداخلي والطغيان الأجنبي ، وكان العنفوان والتمرد والجرأة الطابع الأول في هذا الشعر .

كما كان الحث على التضامن والتبشير بالتسامح موضوعا رئيسيا في الشرق العربي الذي استشرى فيه التعصب الطائفي والتفرقة الحزبية مما كان يفت في عضد العرب . وقد كثر القول حول هذه الادواء وبخاصة في مصر ولبنان . وتغنى الشعراء من جهة أخرى في كل مناسبة بالوئام والاتحاد بين عناصر الشعب وكانوا يحثون رسل الاخاء والمحبة والسلام .

وكان طبيعيا في مثل هذه المرحلة من حياة العرب الحافلة بالاحداث والمليئة بالنضال ان يستأثر موضوع البطولات والتضحيات باهتمام الشعراء الى حد كبير وان يهز مشاعرهم ويلهب قرائحهم استبسال الاحرار وسقوطهم صرعى برصاص الاعداء ذودا عن كرامتهم واستقلال وطنهم . وقد استطاع بعض القصائد في هذا الشأن أن يسمو الى منزلة رفيعة بفضل الجو التلحمي الذي اتسم به . وكان هذا الشعر خير حافز لمشاعر الامة وهاد لها في طريق الكفاح المرير . وطبيعي أن يكون الرثاء مظهر كثير من هذا الشعر الا أنه رثاء بعيد عن النوح والبكاء ، فيه اباء وتجلد وفيه ثورة وعزم على الثأر .

وبالاجمال فان الشاعر في معالجته هذه الموضوعات لم يكن يقتصر على شئون قطره فحسب بل كان يهتم بسائر اجزاء الوطن العربي فقد صهرت وحدة القضية مشاعر الشعراء بحيث لم يعد من اليسير التمييز بين ما يقوله شاعر في العراق وما يقوله شاعر في مصر أو آخر في لبنان . وكان هذا الامر اسمى مظاهر الوحدة الفكرية والثقافية بين الشعوب العربية .

(((٤)))

أما من حيث صياغة الشعر القومي وطابع أدائه الفني فقد اتسم بأكثر ما اتسم به الشعر العربي القديم من خصائص من حيث عبارته وتناوله الفني وعناصر مبناه وأوزانه وقوافيه . وكان الشعراء في فترة ما بين الحربين يحرصون على أن يسيروا في الطريق الذى

سار فيه اجدادهم من قبل ولم يكادوا يحدثون في الشعر حدثا جديدا ٠

لقد كانت مرحلة البعث التي عاشوها والمحن التي لاقوها تشدهم بقوة الى كل ما يتصل بتراثهم ويذكرهم بأجدادهم ٠ والأسلوب التقليدي بلغته الفصحى لغة القرآن ولغة العرب كان في ذاته ظاهرة قومية اتسمت بالاجلال والتقديس ٠ فلم يكن من الممكن أن يصدر عن الشعراء أي نزوع جاد نحو قطع الصلة أو اضعافها بذلك التراث العريق في مثل هذه المرحلة من حياة العرب ٠

ومن هنا كانت لغة الشعر والخطابة فصيحة بالاجمال حتى في مخاطبة الجماهير مع ان العامية أقرب الى أذهانهم ٠ فقد اعرض الشعراء والخطباء في الموضوعات القومية عن اللهجات المحلية ولم يكن للزجل والشعر الشعبي دور كبير في بث المشاعر القومية في حين كان له شأن في مجال الوصف والغزل والوجدان الذاتي ٠٠ وهكذا كان بعث الأساليب العربية الصافية والنسج على منوال الأجداد جزءا من حركة البعث الشاملة ٠

لقد ظل التيار التقليدي اطارا حيا للمضمون القومي الجديد لانه يرمز لقومية أصيلة ويمثل ثقافة تقليدية راسخة وذلك بالرغم من اختفاء عمالقته أمثال البارودي وشوقي وحافظ والرصافي والزهاوي ، والتقاليد أطول المعنويات عمرا وأشدها مراسا ٠

وان التجديد على أساس من القديم أو التعبير عن موضوعات جديدة بعبارات قديمة أو كالقديمة كان خطوة محدودة ومتئدة لكنها منسجمة مع حال العرب في تلك الفترة من حياتهم القومية فترة البعث والتكوين ٠

ومن الملاحظ أن أكثر الشعراء الذين عاشوا بين الحربين وعالجوا الشعر القومي ينتسبون في الغالب الى مدرسة بلاغية واحدة هي مدرسة الفصاحة والعبارة المشرقة واللفظ الجزل والموسيقى الواضحة ٠ وكان أكثرهم أيضا بعيدين عن الاتصال المباشر بثقافة الغرب وآدابه وتياراته الفكرية باستثناء ما اطلعوا عليه منقولا في العربية ٠ أما الثروات الأدبية الحقيقية في اللغات الأجنبية فقد كانت مغلقة عليهم

لقد كان سلطان القديم على الشعراء قويا فى العبارة وفى الصورة وفى هيكل القصيدة وسمات اسلوبها ، وكان يزداد قوة كلما كانت المرحلة قريبة من فجر البعث والنهوض القومى . ومما تجدر ملاحظته تبعا لذلك أن المتمسكين بالنهج التقليدى من الشعراء كانوا بالاجمال أقوى عروبة وكأنهم يؤكدون بذلك من حيث يشعرون أولا يشعرون ، تعلقهم بهذه الانماط الادبية الأصيلة التى هى فى الواقع من أهم مقومات القومية العربية ويحرصون على دوام الصلة بالتراث العربى وبعثه من جديد .

وثمة سبب جوهرى آخر حد من تأثر الشعر القومى بالآداب الغربية وهو ان هذه الآداب لم تعرف أصلا الشعر القومى من حيث أنه موضوع من موضوعات الأدب ، ولم يكن لمثل هذا اللون من الشعر حيز واضح لدى الأوربيين . ان الشعر القومى نمط من الأدب اقتضته طبيعة الحياة العربية الحديثة وظروفها فى فترة معينة من الزمان . وهو نابع من أعماق الذات العربية ومعبر عن النوازع الأصيلة للمجتمع العربى .

على أن المضمون فى الشعر القومى كان منسجما مع مشاعر العرب بل رائدا لها فى كثير من الاحيان كما تبين ذلك فى الأبواب الثلاثة الأولى من هذا البحث . الا ان العبارات القديمة التى آثرها الشعراء للتعبير عن أفكارهم ومنازعهم الجديدة لم تكن فى الغالب لتستطيع أن تطابق حقيقة تجاربهم وبالتالى نقلها . واذا كان بعض الشعراء الكبار ورثوا ثروة لغوية كبرى واستطاعوا أن ينموها وأوتوا موهبة وافتنانا ، فان كثيرين غيرهم لم يكن فى طاقتهم ذلك فبقوا فى حدود ما توارثوه من زاد لغوى، يدورون فى فلكه . وهكذا توارت الأصالة تحت ركام التقليد وتضاءل الابداع وافتقد كثير من الشعر القومى الحرارة والصدق الشعورى وقوة الايحاء حتى آل بعضه الى العقم وران عليه جفاف النظم والرتابة والنثرية والتقريرية .

وهذه الظاهرة نتيجة طبيعية اذا طالت فترة البعث وغدت حالة مستمرة لا مجرد مرحلة .

لكن الامر أخذ يتجه سريعا نحو التبدل فى أعقاب الحرب العالمية الثانية بعد أن خفت وطأة السلبية فى أدب العرب وفى حياتهم

اثر انحسار الاستعمار عن جزء كبير من أرضهم • وغدا من اليسير بعد ذلك أن تهب رياح التجديد قوية على الشرق العربي الذى أخذ يطل على العالم ويغترف من مختلف ينابيع النشاط الانسانى •

(((٥)))

فهل لنا بعد ذلك أن نطرح فى خاتمة المطاف على أنفسنا هذا السؤال فنقول : هل أدى الشعر العربى رسالته فى هذه المرحلة من حياة العرب الحديثة ؟ لاشك أن الجواب على ذلك أصبح يسيرا بعد كل ما تقدم الا أنه لن يكون على كل حال قاطعا بنعم أو بلا • وانما هو فى الواقع بين بين • والحق اننا نظلم الشعراء ان قلنا انهم لم يستطيعوا حمل الرسالة ولم يؤدوا واجبهم تجاه امتهم • كما اننا نظلم هذا المجتمع العربى اذا ذهبنا الى ان الشعراء فيه قاموا بواجبهم نحوه على أتمه •

وما من شك فى ان ما مر بنا خلال هذا البحث يسمح لنا بأن نقول انه كان للشعر دور فعال فى تفتيح النفس العربية واضاءة زواياها بنور الوعى القومى الصحيح •

لقد كان للتطورات السياسية التى هزت العالم العربى اثر بعيد فى حياته الأدبية • بل ان الشعر القومى نفسه كان وليد تلك المرحلة الحاسمة من حياة العرب ، كما أنه أثر من جهة أخرى فى هذه التطورات واسهم فى خلقها • ولكن علينا أن نعترف أيضا بأن احداثا كبرى المت أيضا بالشرق العربى كالثورة العربية ابان الحرب الأولى ثم ثورة مصر فى أعقابها ثم ثورات فلسطين بعد ذلك ولكن ما قيل من شعر فى هذه الأحداث التى هزت أعماق المجتمع العربى لم يكن فى مستواها •

ولعل السر فى أن الشعر العربى لم يستطع أن يؤدى رسالته القومية كاملة نحو المجتمع العربى أنه كان بالاجمال شعرا منفعلا قبل أن يكون فاعلا • صحيح أن التأثير كان متبادلا بحيث أثر الشعر فى سير الأحداث وأثرت الأحداث بدورها فى طبيعة الشعر • الا أنه من الملاحظ أن

حوري

القصيدة القومية التى تفجرت فى نفس الشاعر العربى فى هذه الفترة الصاخبة من حياة أمته كانت قصيدة صاخبة أيضا وتأثرت بصخب تلك الأحداث نفسها . وهذا طبيعى فى مرحلة مضطربة اتسمت بكثير من سمات التوتر والحماسة والانفصال كان مصير العرب خلالها فى كفة القدر. ومن هنا كان الشاعر العربى منفصلا فى أكثر الأحيان بتأثر قبل أن يؤثر ، وكانت الأحداث والوقائع هى التى تنبط الشعر من نفوس الشعراء. وبالتالى هى التى تخلق الأدباء وتنضجهم بنارها وتجعلهم ثمرة لها. وقد يكون فى سرعة تتابع الأحداث التى مرت بالشرق العربى فى هذه الفترة الوجيزة الواقعة بين الحربين العالميتين ما استبق مبادرة الشعراء الى الاسهام فى خلقها والتأثير فى مجراها ، فلم يبق آخر الأمر فى نفوسهم سوى ردود فعل تجاهها.

وتبعا لانجراف الشعراء فى تيار السياسة انحرف رهط منهم فى مضمونه عن وجدان أمته وخرج عن محور مشاعرها وأمانيها وكان شعرهم كالبقعة السوداء فى الثوب الناصع . كما وجد شعراء (امعيون) اتخذوا من الشعر سلعة وجعلوه بوقا لأولى الأمر ، فاذا هو صورة شائهة للحياة القومية ، واتسم كثير منه أيضا بسمات شعر البلاط القديم وانطوى على استخذاء ممجوج . وشاع نظم القصيدة السياسية حتى غدت اشبه شئ بالمقالة الصحفية .

وطبيعى من جهة أخرى أن تكون السلبية طابع أكثر ما مر بنا من شعر قومى اذا لاحظنا أن حياة العرب السياسية كانت كلها مطبوعة بهذا الطابع من مثل مناضلة الاستعمار والتنديد بالطغيان والحض على الثورة وشجب التفرقة والطعن على الطائفية . فقد كان على الشاعر العربى فى تلك المرحلة أن يجعل من قوافيه سهاما على كل ما يراه من فساد وان يتخذ من شعره معولا يهدم به أعشاش الشر. والهدم ضرورى للبناء. وهو أيضا طبيعى فى معركة التحرر القومى . ومع ذلك كانت الى جانب السلبية الحادة ايجابية بناءة لم تقتصر على وصف البلاء وتشخيص الداء بل تجلت فيها الدعوة الى الوحدة العربية واشادة صرح الوطن العربى والتبشير بالاخاء وبالسلام والاتصال بكثير من قيم الحياة المشرقة.

ولكن ما مدى ارتباط الشاعر العربي الحديث بوجدانه الجماعي ؟
لاشك أن عددا متزايدا من الشعراء أخذ يربو على مر السنين حاملا رسالة التحرر القومي نحو أمته ، ومع ذلك كان ثمة شعراء أشبه بالزهاد والرهبان هم في واد وأمتهم في واد لا يعرفون من أمر رسالة الحياة سوى محراب الفن المجرد ، ومنهم أيضا من كانوا لا أباليين تتراقص ألسنة اللهيب في بيوتهم وكأن الأمر لا يعنيهم . ومنهم من كانوا انهزاميين تواروا عن المعترك وآثروا السلامة في أشد ساعات الخطر على قومهم. ومنهم أخيرا من كانوا انتهازيين آثروا الجعجعة والمتاجرة بمشاعر قومهم وتطفلوا على الفن الصحيح كخضراء الدمن .

أما شخصية الشاعر العربي ومذهبه في شعره فلم يبد فيهما الوضوح والاستقرار دائما . ومع أن عددا من الشعراء اهتدوا الى الطريق السوى الذى اختاروه فساروا فيه قدما ، فان الى جانبهم أيضا فئة أخرى وقفت على مفترق الطرق لا تدرى أين المسير ، أو أنها كانت تحاول السير من هنا حينا ومن هناك حينا آخر . وهذا ما أدى الى توزع الشخصية الفنية لبعض الشعراء وتعدد اتجاهاتهم المتباينة حتى أن بعضهم كان في دواوينه الكثيرة أشبه بدائرة معارف شعرية ، فتارة يسبح في الطبيعة والسماء ممتطيا جبال الأولمب وحينا يتجه اتجاها اجتماعيا أو قوميا .

وكما تعايشت هذه الموضوعات المتباينة في قرائح بعض الشعراء بل في ديوان واحد ، تعايشت في حياة العرب الأدبية أيضا مذاهب ومفاهيم شتى تصاحبت في عصر واحد فكان الشعر الوجداني الحالم المسرف في ذاتيته ، وكان الى جانبه الشعر القومي والاجتماعي المغرق في جماعيته . وكما عاش المجون والزهد والهزل والجد في أدب العصر العباسي عاشت في عصرنا هذا الرومانسية الى جانب الواقعية . وقد تبقى هذه الظاهرة الأدبية في حياة العرب دون أن تكتب الغلبةلاحداهما لأن كلا منهما انما تلبي حاجات نفسية غلابة في ضمير الفرد والجماعة وتستند الى فلسفة راسخة في الحياة .

وليس معنى الشعر أن تقتصر مادته على الدماء والجثث والمدافع

والسيوف ، والثورة والعنفوان لأن الشاعر انسان قبل كل شيء وهو لا يستطيع أن ينسلخ عن أحلام الانسان واهوائه وميوله ومخاوفه ورغائبه ٠

قد لا يستسيغ ذوق العصر شطحات الرومانسيين ومع ذلك ليس من حقنا أن ننكر عليهم حريتهم في فنهم لأن " الشعر كما يقول إليوت ليس عقيدة وأبعد الناس عن الشعر من ينظمون في موضوع ما عن غير عقيدة "٠ ومن الخطل أن نطلب الى أديب أن يفصل كذا وأن نقول له كن شاعرا قوميا أو كن عاطفيا ذاتيا ٠ لأن الحياة هي التي تفرض عليه ذلك وهو ان لم يعبر عن المنازع الحية المتجددة تخلف عن التطور وانعزل عن الحياة ٠

لندع الأزهار جميعا تتفتح ولندع أمرها بعد ذلك للكون والوجود فمنها ما يذبل ويعود الى التراب ومنها ما ينفحنا بعاطر شذاه ويؤدي رسالته التي خلقته من أجلها الحياة ٠

(((٦)))

وبعد ، ما مستقبل الشعر القومي في أدبنا العربي .. ؟

قد يكون هذا الشعر طورا من أطوار حياتنا الأدبية ، ينتهي بانتهاء الظروف التي اسهمت في خلقه ٠ الا أن مما لاريب فيه أنه في ماضيه وحاضره كان نمطا من الأدب اقتضته حياة العرب وواقعهم ٠ انه فن أصيل انبثق من صميم وجدان العرب وطبيعة حياتهم ، وأخذ مكان الرائد في كفاحهم ومعركة مصيرهم٠

ولقد آمن الشعر القومي بمستقبل الحياة العربية وسار في طريق الواقعية ولم يكن ليؤمن في ذلك بأن الاستعمار والاستبداد حكم الاقدار على الشعوب وانما هو بلاء ينبغي أن يجتث ويجب أن يستأصل ، كما لم يعد يؤمن بأن الشعوب رعية يتصرف بمقدراتها الرعاة وانما هي سيدة الوجود بوسعها أن تقرر مصيرها وتخط تاريخ حياتها بنفسها وبدمائها ٠

ان أمة تسير في طريق التكوين وتشق لنفسها دروب الحياة لتخلق

وجودها القومي الصحيح وتبني كيانها الانساني الوطيد ، لابد أن يكون لها أدب ينبثق عن تطورها واضطرابها ويتجاوب مع رغباتها وأمانيها ويكون هو ابرز مظاهر تفتحها وانطلاقها .

وأنى للحياة القومية أن تومن اذا لم يتغن الشعراء بأنداء فجرها ويغمس الكتاب أقلامهم بعرق نضالها ويستلهم ذوو الفكر والفن مقومات نتاجهم من صميم طبيعتها .

وان الشعراء ، هذه الصفوة الرائدة في الأمة بما حباها الله به من ارهاف الحس وصدق الحدس أقدر على استبطان ضمير المجتمع والوقوف على دخائل وجدانه وتفهم ما يعتلج في أعماقه من اتجاهات ومنازع وهي بعد جديرة اذا اتسمت بذلك كله ان تقف على مكامن الداء ومواطن العجز في مجتمعها المتوثب ثم تصدر في نتاجها عن كل ما يحمل اليه من عناصر الخير والفلاح وعوامل التقدم والازدهار .

والاتجاه القومي في الشعر المعاصر يدور أيضا في مساره ضمن فلك أرحب ليسهم اسهاما فعالا في بناء عالم متحرر من آفات الاستعمار ومآثم العدوان ونزعات الطغيان ، وفي حماية الحضارة الانسانية وتنميتها .

فهذا الشعر اذن يبرئ نفسه من كل ما يشوبه أو يعلق به من وصمة التعصب ولوثة الطائفية وآفة الاقليمية وبدعة العنصرية . انه في قوميته ينطوي في جوهره على رسالة انسانية تؤكد وجود العرب وحقهم في الحياة والحرية . وهو اذ يبشر بهذه الرسالة في أمة من الامم انما يجتزئ ذلك من الرسالة الكبرى التي تتكاتف أمم الأرض لحملها . وبذلك ينسير بشعلته الوهاجة احدى الزوايا المظلمة في المجتمع الانساني الواسع .

وما الشعر القومي الذي كنا بصدد دراسته ورصد مساره الا تعبير جميل ومو عن تجارب الشاعر العربي ممتزجة بتجارب أمته ومستمدة من حياة مجتمعه . انه اعراب عن عزم ونضال من أجل حرية العرب ووحدتهم وقطعة تنبض بالحياة من تراثنا القومي الحافل .

أما أولئك الشعراء الذين نزلوا بذلك الفرع المسور من دوحة الأدب

الى صميم المعركة القومية بعد أن كان حبيسا في بلاط الخلفاء وقصور الأمراء يغرد في أقفاص من الذهب ويرسل أنغامه من أبراج العاج فقد طووا بين جوانحهم شعور أمة وكانوا عنوان نضال الشعوب العربية ورمز كفاحها ولسانها الناطق وقلبها النابض وصوتها المدوي • وان القومية العربية تستوجب على ابنائها البررة حق الوفاء لمن عملوا على رفع شأنها وتحقيق وجودها وتوطيد دعائمها ، ومن كانوا مرآة صادقة لعصرهم ومصدر الهام وتوجيه لمواطنيهم وترجمانا لهم في آمالهم وآلامهم •

وبعد ، لقد كانت القومية العربية موجة من موجات التقدم البشري ودعوة الى الايمان بالنفس والعمل في سبيل الخير والحق والحرية والسلام حملت على أجنحة الشعر والأدب والفن •

المصادر

دواوين الشعراء :

المؤلف	العنوان	الناشر	المدينة	السنة
أبو تمام	ديوانه شرح التبريزي	المعارف	القاهرة	١٩٥١
أبو تمام	(الحماسة) شرح التبريزي			
أبو ريشة ـ عمر	ديوانه	العصر الجديد	حلب	١٩٣٦
أبو ريشة ـ عمر	ديوانه	الكشاف	بيروت	١٩٤٧
أبو شادي ـ أحمد زكي	(مصريات)	السلفية	القاهرة	١٩٢٤
أبو شادي ـ أحمد زكي	(مفخرة رشيد)	السلفية	القاهرة	١٩٢٦
أبو شادي ـ أحمد زكي	(وطن الفراعنة)		القاهرة	
أبو العلاء	(شرح سقط الزند للتبريزي)	دار الكتب المصرية	القاهرة	١٩٤٥ـ١٩٤٨
أبو ماضي ـ ايليا	(الجداول)	الزهراء	النجف	
أبو ماضي ـ ايليا	(الخمائل)		بيروت	
أبو الوفا ـ محمود	(أشواق)	مصر	القاهرة	١٩٤١
الأخطل الصغير	(الهوى والشباب)	المعارف	القاهرة	١٩٥٣
أرسلان ـ شكيب	ديوانه	المنار	القاهرة	١٩٣٥
الأسمر ـ محمد	ديوانه		القاهرة	
الأسمر ـ محمد	(تغريدات الصباح)	دار المعارف	القاهرة	١٩٤٦
الأميري ـ عمر بهاء	(في بلادي)	مخطوط		
الأميري ـ عمر بهاء	(رجال واشباه)	مخطوط		
البارودي ـ محمود سامي	ديوانه	جزءان	القاهرة	١٩٥٢ـ١٩٥٣
البارودي ـ وجيه	(بيني وبين الغواني)	الحضارة	طرابلس	
بحر العلوم ـ محمد صالح	(العواطف)	الراعي	النجف	١٩٣٧
بحر العلوم ـ محمد صالح	ديوانه	اسعد	بغداد	
البحيري ـ حسن	(ابتسام الضحى)		القاهرة	١٩٤٦
البستاني ـ وديع	(الفلسطينيات)		بيروت	١٩٤٦

بدوي الجبل ـ "محمد سليمان الأحمد"	ديوانه	العرفـــان	صيدا	١٩٢٥
التقي ـ أديـــب	ديوانه	ابن زيدون	دمشق	١٩٣٢
التل ـ مصطفى وهبي	(عشيات وادي اليابس)		عمان	١٩٥٤
الجارم ـ علـــي	ديوانه	٤ اجزاء	القاهرة ٣٩ـ١٩٤٧	
الجر ـ شكر اللـــه	(الروافـــد)		ريو دو جانيرو ١٩٣٤	
الجندي ـ علـــي	(أغاريد السحر)		القاهـرة	
الجندي ـ علـــي	(ألحان الأصيل)		القاهـرة	١٩٥٠
الجواهري ـ محمد مهدي	ديوانه	٣ أجزاء	بغداد ٤٩، ٥٠، ١٩٥٣	
حافظ ابراهيـــم	ديوانه	جزءان دار الكتب المصرية	القاهرة	١٩٣٧
الحامد ـ بدر الديـن	ديوانه	ط الاصـــلاح	حمـاه	١٩٢٨
الحبوبي ـ محمـود	//		النجف	١٩٤٨
الحداد ـ نجيـب	(تذكار الصبـا)	ط ٢	الاسكندرية	١٩٠٥
حسن ـ محمد عبد الغني	(من نبع الحيـاة)	~~طبعة صادرة~~	~~بيروت~~	~~١٩٢٩~~
حمـد ـ عمـــر	ديوانه	طبعة صادرة	بيروت	١٩٢٩
حمصي ـ قسطاكي	ديوانه	المارونيـة	حلب	١٩٣٩
الحوماني ـ محمد علي	ديوانه	العرفـان	صيدا	١٩٢٧
الخضري ـ عبد الغني	ديوانه		النجف	١٩٤٨
الخطيب ـ فـؤاد	ديوانه		القاهـرة	١٩٥٩
الخوري ـ اسكنـدر	(المنقـود)		القدس	١٩٣٦
الخوري ـ اسكنـدر	(المعلوم والمجهـول)		القدس	١٩٣٦
دموس ـ حلـيم	ديوانه	ط	القدس	١٩٢٠
دموس ـ حلـيم	(المثالث والمثاني)		صيدا	١٩٢٦
الرصافي ـ معـروف	ديوانه	ط ٤ الاعتمـاد	القاهـرة	١٩٥٣
الزركلي ـ خير الديـن	ديوانه	العربيـة	القاهـرة	١٩٢٥
الزهاوي ـ جميل صدقي	(الاوشـــال)		بغـداد	١٩٣٤
الزهاوي ـ جميل صدقي	(الرباعيـات)		بيروت	١٩٢٤
الزهاوي ـ جميل صدقي	(اللبـــاب)	الفـرات	بغداد	١٩٢٨

سماحة ـ مسعود	ديوانه	السمير	بروكلين	١٩٣٨
سماكة ـ محمد باقر	(نسمات الفيحاء)		بغداد	١٩٤٠
الشبيبي ـ محمد رضا	ديوانه	الترجمة والتأليف والنشر	القاهرة	١٩٤٠
الشرتوني ـ محبوب الخوري	ديوانه		بروكلين	١٩٣٨
الشرقي ـ علي	(عواطف وعواصف)	المعارف	بغداد	١٩٥٣
شوقي ـ أحمد	(الشوقيات) ٤ أجزاء	الاستقامة		٥٠،٤٨ ، ٥٠ ، ١٩٥١
شوقي ـ أحمد	(دول العرب وعظماء الاسلام)	مصر	القاهرة	١٩٣٣
الصافي النجفي ـ احمد	(ألحان اللهيب)	اليقظة	دمشق	١٩٤٦
الصيرفي ـ حسن كامل	(الشروق)	المعارف	القاهرة	١٩٤٨
طه ـ علي محمود	(زهر وخمر)	ط ٣	القاهرة	١٩٤٣
طوقان ـ ابراهيم	ديوانه	دار الكشاف	بيروت	١٩٥٥
العاملي ـ محمد كامل شعيب	(الحماسيات)		صيدا	١٣٤٣ هـ
عبد المطلب ـ محمد	ديوانه	الاعتماد	القاهرة	
عريضة ـ نسيب	(الأرواح الحائرة)		نيويورك	١٩٤٦
العدناني ـ محمد	(اللهيب)		صيدا	١٩٥٤
العقاد ـ عباس محمود	(أعاصير مغرب)		القاهرة	١٩٤٢
العقاد ـ عباس محمود	(عابر سبيل)		القاهرة	١٩٣٧
العقاد ـ عباس محمود	(وحي الأربعين)		مصر	١٩٣٣
الغلاييني ـ مصطفى	ديوانه	العباسية	حيفا	١٩٢٥
غنيم ـ محمود	(صرخة في واد)		مصر	١٩٤٧
الفراتي ـ محمد	ديوانه	بابيل	دمشق	١٩٣١
فرحات ـ الياس	ديوانه	ط مجلة الشرق	سان باولو	١٩٣٢
فهمي ـ عزيز	ديوانه	دار المعارف	مصر	
فياض ـ الياس	ديوانه	دار الثقافة	بيروت	١٩٥٤
فياض ـ نقولا	(رفيف الاقحوان)	الكاثوليكية	بيروت	١٩٥٠
القروي ـ رشيد سليم الخوري	(الأعاصير)	ط مجلة الشرق	سان باولو	
القروي ـ رشيد سليم الخوري	ديوانه		سان باولو	١٩٥٢

	المؤلف	الكتاب	الطبعة / الناشر	المكان	السنة
٧٥	قنصل ـ الياس	(السهام)	ط ٣	بيونس ايرس	١٩٣٥
	قنصل ـ الياس	(على مذبح الوطنية)		"	١٩٣٣
	الكاظمي ـ جميل محمد	(آيات الحق والاخلاص)			
	الكاظمي ـ عبد المحسن	ديوانه جـ ١	ابن زيدون	دمشق	
	الكاظمي ـ عبد المحسن	ديوانه جـ ٢		القاهرة	
	المتنبي ـ أبو الطيب	شرح العكبري جـ ٢	ط ١		١٣٠٨ هـ
٨	محرم ـ أحمد	ديوانه جـ ٢	الفتوح	دمنهور	١٩٢٠
	مرقص ـ أدوار	ديوانه ط	التجارية	اللاذقية	١٩٣٤
	مطران ـ خليل	ديوانه ٤ أجزاء ط ٢		القاهرة	١٩٤٩
	المعري ـ أبو العلاء	(شرح التبريزي على سقط الزند)		القاهرة	٤٥ ـ ١٩٤٨
	المعلوف ـ فوزي	ديوانه	دار الريحاني	بيروت	١٩٥٧
	المنصور ـ حسين	(الشاطئ الصخري)	الانجلو المصرية	القاهرة	
	ناصر الدين ـ أمين	(صدى الخاطر)			
	ناصر الدين ـ أمين	(الالهام)	الصفاء	لبنان	١٩٣١
	نعيمة ـ ميخائيل	(همس الجفون) ط ٢	صادر	بيروت	١٩٥٢
	الهاشمي ـ محمد	(عبرات الغريب)			١٣٣٨ هـ
	الوليد ـ أبو الفضل	(الانفاس الملتهبة) ط ٢	الوفاء	بيروت	١٩٣٤
	الوليد ـ أبو الفضل	(نفخات الصور)		بيروت	١٩٣٤
	وردي ـ ميخائيل	(زهر الربى)	الهاشمية	دمشق	١٩٥٤
٩	اليازجي ـ ابراهيم	(العقد)			
	يحيى ـ عمر	(البراعم)	الملمسة	حلب	١٩٣٦
	اليعقوبي ـ أبو الاقبال	(النظرات السبع)		دمشق	
	اليعقوبي ـ محمد علي		النعمان	النجف	
	يكن ـ ولي الدين		المقطم	مصر	١٩٢٤

المراجع

ابن رشيق (العمدة) ط ١ مصر ١٩٢٥

أبو سعد – أحمد (الشعر والشعراء في العراق) المعارف بيروت ١٩٥٩

ارسلان – شكيب (حاضر العالم الاسلامي) ٤ أجزاء مصر

ارمنازي – نجيب (سوريا من الاحتلال حتى الجلاء) المعهد القاهرة ١٩٥٤

أسد – ناصر الدين (الاتجاهات الأدبية الحديثة في فلسطين والأردن) المعهد القاهرة ١٩٥٧

أشتر – صبري (المختار من الشعر في سوريا) ملحق برسالة جامعية مخطوط

انطونيوس – جورج (يقظة العرب) ترجمة حيدر الركابي اليقظة دمشق

بطي – رفائيل (الشعر العصري في العراق العربي) مصر ١٩٢٣

جبري – شفيق (أنا والشعر) المعهد القاهرة ١٩٥٩

جمعة – ابراهيم (القومية المصرية الاسلامية) القاهرة ١٩٤٤

جمعية الرابطة القلمية الأدبية بالنجف (الفلسطينيات) بغداد ٣٩

الجندي – ادهم (اعلام الأدب والفن) دمشق ١٩٥٤

الجندي – انور (نزعات التجديد في الأدب المعاصر) القاهرة ١٩٥٧

الحاني – ناصر (جميل صدقي الزهاوي) المعهد القاهرة ١٩٥٤

حسين – محمد (الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر) جزءان القاهرة ١٩٥٤

الحسيني – اسحق موسى (الاخوان المسلمون)

الحصري – ساطع (نشوء الفكرة القومية) ط ٢ القاهرة ١٩٥٥

الحصري – ساطع (آراء وأحاديث في القومية العربية) ط ٢ بيروت ١٩٥٦

حمزة – عبد اللطيف (الصحافة والأدب في مصر) المعهد القاهرة ١٩٥٥

الحوفي – أحمد محمد (وطنية شوقي) القاهرة ١٩٥٥

الخاقاني – علي (شعراء الغري) النجف

الخوري – رئيف (الفكر العربي الحديث) بيروت ١٩٤٣

داغر – أسعد (ثورة العرب) المقطم مصر ١٩١٦

الدجيلي – عبد الكريم (الشعر العراقي الحديث) المعهد القاهرة ١٩٥٩

الدهان – سامي (شكيب أرسلان) المعهد القاهرة ١٩٥٨

ديب – وديع (الشعر العربي في المهجر الامريكي) بيروت ١٩٥

الدسوقي – عمر (في الأدب الحديث) جزءان القاهرة

المؤلف	الكتاب	الناشر	المكان والتاريخ
الرافعي ـ عبد الرحمن	(شعراء الوطنية)	النهضة المصرية	القاهرة ١٩٥٤
الرافعي ـ عبد الرحمن	(ثورة ١٩١٩)	جزءان	القاهرة ١٩٤٦
الرافعي ـ عبد الرحمن	(في أعقاب الثورة المصرية)		١٩٤٧
الرزاز ـ محمد منيف	(معالم الحياة العربية الجديدة)	دار العلم للملايين	بيروت ١٩٥٦
زريق ـ قسطنطين	(أي غد)	دار العلم للملايين	بيروت ١٩٥
زيدان ـ جرجي	(تاريخ آداب اللغة العربية) ج ٤	دار الهلال	القاهرة
زيدان ـ جرجي	(تراجم مشاهير الشرق)		القاهرة ١٩٢٢
سعادة ـ انطون	(الصراع الفكري في الأدب السوري) ط ٢		بيروت ١٩٤٧
سعيد ـ أمين	(الثورة العربية الكبرى)	البابي الحلبي	مصر
سعيد ـ جميل	(التيارات الأدبية في العراق)	المعهد	مصر ١٩٥٤
السكاكيني ـ خليل	(كذا أنا يا دنيا)		القدس ١٩٥٥
سلامة ـ ابراهيم	(تيارات أدبية بين الشرق والغرب)		القاهرة ١٩٥٢
شهابي ـ مصطفى	(محاضرات في القومية العربية)	المعهد	القاهرة ١٩٥٨
شيخو ـ لويس	(الآداب العربية في القرن التاسع عشر) ج ٢		بيروت ١٩٢٦
صليبا ـ جميل	(الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام)	المعهد	القاهرة ١٩٥٨
صيدح ـ جورج	(أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الاميركية) ط ٢		بيروت ١٩٥٧
ضيف ـ شوقي	(الأدب العربي المعاصر)	المعارف	القاهرة ١٩٥٧
ضيف ـ شوقي	(شوقي شاعر العصر الحديث)	المعارف	" ١٩٥٣
الطاهر ـ أحمد	(حافظ ابراهيم)	المعهد	" ١٩٥٤
طبانة ـ بدوي	(معروف الرصافي)	المعهد	" ١٩٥٤
الطرابلسي ـ أمجد	(شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام)	المعهد	" ١٩٥٧
عباس ـ احسان / نجم ـ محمد يوسف	(الشعر العربي في المهجر ~~الامريكي~~)		بيروت ١٩٥٧
عبيد ـ احمد	(ذكرى الشاعرين)	الترقي	دمشق ١٣٥١ هـ
عرفة ـ ياسين	(ديوان الثورة)	العربية	القاهرة ١٩٢٦
عزام ـ عبد الرحمن	(الرسالة الخالدة)	التأليف والترجمة والنشر	القاهرة ١٩٤٦
عز الدين ـ نجلاء	(العالم العربي)	" "	القاهرة ١٩٥
عقل ـ سعيد	(قدموس) ط ٢		بيروت ١٩٤٧
عباس ـ احسان	(فن الشعر)		بيروت

علي ــ مصطفى (معروف الرصافي) المعهد القاهرة ١٩٥٤
العمري ــ خير امين (شخصيات عراقية) بغداد ١٩٥٥
فارس ــ نبيه أمين ومحمد توفيق حسين (هذا العالم العربي) دمشق
فروخ ــ عمر (شاعران معاصران) بيروت ١٩٥٤
قدري ــ أحمد (مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى) ابن زيدون دمشق ١٩٥٦
قطب ــ سيد (النقد الأدبي) دار الفكر العربي القاهرة ١٩٤٧
القلماوي ــ سهير (النقد الأدبي) المعهد القاهرة ١٩٥٥
الكيالي ــ سامي (الحركة الأدبية في حلب) المعهد القاهرة ١٩٥٦
مديرية الدعاية ببغداد (فيصل الحسين في خطبه وأقواله) بغداد ١٩٤٥
المقدسي ــ انيس الخوري (الاتجاهات الأدبية) جزءان بيروت ١٩٥٢ــ
مندور ــ محمد (الشعر المصري بعد شوقي) ٣ أجزاء المعهد القاهرة ١٩٥٨
مندور ــ محمد (خليل مطران) المعهد القاهرة ١٩٥٤
مندور ــ محمد (ولي الدين يكن) " " ١٩٥٦
ميرزا ــ زهير (ايليا ابو ماضي شاعر المهجر الأكبر) اليقظة دمشق ١٩٥٤
النويهي ــ محمد (عنصر الصدق في الأدب) المعهد القاهرة ١٩٥٩

المحاضرات والدوريات (١)

(مجموعة محاضرات دار الكتب الوطنية بحلب) حلب ١٩٥٢
(محاضرات الموسم الثقافي) مطبعة حكومة الكويت
(محاضرات في الشعر المعاصر) أمالي مخطوطة للدكتور اسحق موسى الحسيني

×× ×× ××

الآداب	مجلة ــ بيروتية
الف باء	جريدة ــ دمشق
الأهرام	جريدة ــ مصرية
البرق	جريدة ــ بيروتية
الرابطة الأدبية	مجلة دمشقية
الرسالة	مجلة ــ مصرية
السياسية الأسبوعية	مجلة ــ مصرية
العصبة	مجلة ــ برازيلية
مجلة المجمع العلمي العربي	دمشقية
المقتطف	مجلة ــ مصرية
الهلال	مجلة ــ مصرية

(١) أشرنا الى المحاضرة وصاحبها والى اعداد الدوريات في هوامش البحث .

المراجـع الأجنبيـــة

CROCE Bendetto : La poésie
traduit de l'italien par D. Dreyfus
Paris 1951

GIRAUD Jean : : L'école romantique française
Paris 1947

SUBERVILLE Jean : Théorie del'art et des genres litteraires
4eme Ed Paris 1947